سلسلة كتب ورسائل
الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق
المجموعة الثانية

مسائل الإيمان

(٢)

بقلم

الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق

شركة بيت المقدس للنشر والتوزيع
بيت للقرآن وعلومه

بسم الله الرحمن الرحيم

المجموعة الثانية

مسائل الإيمان

(٢)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

شركة بيت المقدس للنشر والتوزيع

الكويت - حولي - ص.ب : ٤٣٧١ - الرمز البريدي : ٣٢٠٧٤
هاتف الإدارة : ٢٦١٠٢٧٠ - هاتف وناسوخ : ٢٦٣٧١٢٠
المعرض : ٢٦٣٦٤٨٢ - المندوب : ٦٦٠٠٦٢٧
البريد الكتروني : muqdes@hotmail.com

مسائل الإيمان (٢)

كتاب

منهج جديد لدراسات التوحيد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد:

فإن معرفة توحيد الله سبحانه وتعالى هو أشرف العلوم على الإطلاق، لأنه لا نجاة لأحد يوم القيامة إلا أن يكون موحداً، والعلم هو الطريق إلى الإيمان فلا إيمان بغير علم، وأهم قضايا الإيمان هي قضية التوحيد.

ونعني بالتوحيد: العلم بصفات الله وأسمائه كما وصف نفسه سبحانه، وكذلك أنبياؤه ورسله الذين بَلَّغوا عنه. وكذلك عبادته وحده لا شريك له، والسير في هذه الدنيا وفق تشريعه ومنهجه. وهذه الأمور الثلاثة هي أركان التوحيد. فلم يوحد الله سبحانه وتعالى من لم يؤمن بصفاته وأسمائه، ومن لم يجعل تقربه وعبادته كلها له، ومن لم يجعل منهجه وطريقه من أمور معاشه هو شرع الله وحده، وذلك أن من ارتضى شرعاً غير شرع الله فقد ارتضى رباً وإلهاً غير الله سبحانه وتعالى، وذلك كمن صرف شيئاً من العبادة لغيره جل وعلا.

وإنه مما يحول بين الناس اليوم وفهم قضايا التوحيد ما أثير حول ذلك من شبه كثيرة وما ألف في هذا العلم الخطير من مؤلفات باطلة وما نتج عن ذلك من انقسام الناس بشأنه طوائف ومذاهب شتى فمن نفاة للصفات ومعطلة، ومن مشبهة مجسمة، ومن مؤولة محرفة ومن مفوضة جاهلة إلى غير ذلك في شأن الصفات، وكذلك الشأن في أمور التقرب والعبادة من تحليل دعاء غيره

وصرف أنواع القربات لسواه، وأما أمر التشريع والخلاف فيه فقد أصبح فتنة العصر وبلاء المسلمين. وذلك في التخبط الشديد بشأنه حتى إنك ترى من المصلين والصائمين من يفتي بأننا لا نلزم في الشرع إلا بأمور القربات فقط، وأما الحلال والحرام وشئون المعاملات فهي راجعة إلى العصر والعرف.

وهذه الفتن الطامة المهلكة في شأن التوحيد صرفت عامة الناس عن دينهم أو كادت.

وليس في تراثنا القديم من كتب ميسرة في هذا الشأن تسعف القارىء المتعجل والدارس غير المتخصص لتعرفه أصول دينه الحق. وفي الكتب الحديثة كثير من الأغاليط والتهاويل.

وقد قمت بحمد الله بنشر مقالات في هذا الصدد في إحدى المجلات البارة لاقت بحمد الله قبولاً واستحساناً فعزمت بحوله تعالى على إكمال هذه المهمة وذلك بتذليل صعاب دراسة التوحيد حسب أصول الكتاب والسنة.

ولم أتعرض في كتابي للمذاهب الكثيرة المتشعبة إلا ما له فروع باقية إلى اليوم، وأما البدع التي ماتت بموت أصحابها فلم نشأ أن نحفر القبور عليها بل تركناها تموت مع من ماتوا، وأما البدع القديمة الجديدة التي ما زال لها مروجون مشايعون فلم نجد بداً من بيان عوارها وفضح أمرها.

وقد راعيت في أسلوب الكتابة أن يكون سهلاً ميسراً على القارىء المثقف المتوسط وذلك هو عموم القراء في زماننا.

والله أسأل في ختام هذه المقدمة أن ينفع بهذه السلسلة نفعاً يعم الأقطار والأمصار إنه ولي التوفيق.

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت في

١١ صفر ١٣٩٥هـ

٢٢ فبراير ١٩٧٥م

﴿ٱللَّهُ﴾

الاسم الأعظم

«الله» هذ الاسم العلم الذي يختص به الرب تبارك وتعالى وحده كما اختص سبحانه باسم «الرحمن» فهما الاسمان اللذان تفردا بالإطلاق في لغة العرب على خالق السموات والأرض وحده. وإن كان العرب المشركون قد نازعوا في إطلاق اسم الرحمن على خالق السموات والأرض حيث قالوا «وما الرحمن»؟ إنكاراً واستكباراً وعلواً فإنهم أفردوا «اسم الله» بمن شهدوا له بملك السموات والأرض ولم يشركوا أحداً من آلهتهم بإطلاق اسم «الله» عليه، وأما الرحمن فقد أصبحت بعد حقيقة شرعية لا تطلق إلا على الله.

و«الله» اسم عربي هو في أصل الوضع العربي «الإله» حذفت الهمزة الوسطى وأضغمت اللامان فأصبح «الله» ليكون علماً معرفاً لذات الرب عن بقية الآله التي عبدها مشركو العرب. فقد كانت العرب تعبد الله وتعبد معه غيره من آلهة كثيرة مزعومة كاللات والعزى ومناة وهبل إلى ثلاثمائة وستين صنماً حطمت في الفتح. وكان كل من هذه آلهة عند العرب وكذا الملائكة ولقد عبدت هذه الآلهة على وجه التقرب بعبادتها للإله الأكبر في زعمهم أو ملك هذه الآلة كما قالوا في تلبيتهم «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكاً تملكه وما ملك» (يعنون الملائكة) فالملائكة عندهم بنات الله تعبد لتقرب معبودها من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والإله في لغة العرب أطلق لمعان أربعة هي: المعبود والملتجأ والمفزوع إليه والمحبوب حباً عظيماً، والذي تحتار العقول فيه. وكل هذه المعاني ثابتة في حق «الله» سبحانه وتعالى، وباطلة في حق غيره عز وجل. وإليك التفصيل:

المعنى الأول: المعبود تقول العرب إله يأله آله وألوهية أي عبد. ويكون إله ها بمعنى مألوه أي معبود، كما قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي هو سبحانه وتعالى المعبود في السماء والمعبود في الأرض، وكما قال سبحانه وتعالى على لسان قوم فرعون: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ حسب قراءة ابن عباس أي يذرك وعبادتك. ولذلك سمعت العرب الشمس «الآلهة» لأنها كانت تعبد كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ والعبادة هي الحق الواجب للإله الحق سبحانه وتعالى وهي الذل والخضوع والطاعة التامة والحب الكامل والالتجاء والدعاء إليه بل وكل قول وعمل يحبه الله سبحانه وتعالى من عابده..

وإذا كانت العرب قد صرفت هذه العبادة لله وغيره فألّهت بذلك الأصنام والأوثان والصالحون والملائكة والجن والمشرعين من البشر «كعمرو بن لحي الخزاعي» فجعلتهم بذلك آلهة مع الله سبحانه وتعالى، فإن هذا الفعل باطل وشرك وهو ما جاء الرسول بل الرسل جميعاً لدعوة الناس إلى نبذه وتركه وعبادة الإله الواحد سبحانه وتعالى. ولذلك فإطلاق لفظ «الإله» على المعبود حقاً كان العبادة له أو باطلاً إطلاق صحيح من حيث الوضع العربي ولكنه باطل من حيث الحق الشرعي، فالأصنام آلهة في اللغة ولكنها باطلة شرعاً وعقلاً وكذلك الحاكم المشرع دون تشريع الله وبغير هدى الله إله بحسب الوضع العربي لأنه جعل نفسه إلهاً وأعطى نفسه حق الإله، ومن شهد له بذلك فقد أعطاه هذا الحق وجعله إلهاً مع الله ومعبوداً ولكنه إله باطل مزعوم، وعبادته وطاعته باطلة هالكة لأنها عبادة وطاعة لغير الله وعبادة غيره وطاعة غيره باطلة وإذا لم تكن وفق طاعته سبحانه وتعالى. (والقبر) المفزوع إليه في الشدائد والمستغاث به إله ولكنه إله باطل، ولذلك لما دعا الرسول ﷺ العرب إلى توحيد العبادة لله وحده وقالوا متعجبين ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ فلم يتصور العرب المشركون أن تكون العبادة بكل معناها المفصل آنفاً حقاً لله وحده. بل جعلوها قسمة بين آلهة شتى. وأرباب متفرقين.

المعنى الثاني: (الملتجأ إليه) تقول العرب: إله يأله إلى كذا أي لجأ إليه. وكانت العرب تلجأ إلى آلهتها طلباً للنصرة كما قال تعالى ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ينصرونهم على الأعداء ولذلك قال أبو سفيان بعد انتصار المشركين في أُحد على المسلمين: لنا العزى ولا عُزَّى لكم.. أي وهي سبب نصرنا عليكم فرد عليه المسلمون ﴿ٱللَّهُ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي ناصرنا ومؤيدنا سبحانه وتعالى ولذلك قالت العرب أيضاً (من عبد العزى اعتز) أي نصرته على أعدائه ولذلك سموها «العزى» من العزة وهي الغلبة والنصر ومع هذا فمشركو العرب كانوا إذا أحاط بهم الكرب من كل جانب وظنوا أنهم أحيطوا بهم التجئوا إلى الله وحده سبحانه وتعالى لأنهم كانوا يعلمون أنه لا ينجي من المهالك والمخاطر إلا هو سبحانه وتعالى كما قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ وقال أيضاً سبحانه وتعالى عنهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية. فهؤلاء المشركون من العرب كانوا يدعون الله ويلتجئون إليه وحده إذا أحاط بهم الكرب في البحر ولكنهم في البر يشركون معه غيره. وهذا الذي يلتجئون إليه طلباً للنصرة والعزة أو الخير والنماء أو دفعاً للضر أطلقوا عليه لفظ «الإله» أي الملتجأ به والمستغاث به. ولذلك قال رسول الله ﷺ لمسلمة الفتح عندما مروا على شجرة كان المشركون ينوطون بها أسلحتهم طلباً للنصر على الأعداء وكان ذلك في الطريق إلى هوازن قال لهم الرسول عندما قالوا له «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فقد جعل الرسول ﷺ الشجرة التي تهب البركة والنصر في عرف المشركين إلهاً مع الله سبحانه وتعالى ولا يخفى أنها إله باطل.

ولذلك جاء الإسلام بإخلاص العبادة لله والالتجاء إليه وحده سبحانه

وتعالى، فهو الذي بيده العز والذل والإحياء والإماتة والنصر كما قال تعالى ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ الآية. وأمر بأن يدعى وحده لا شريك له حيث قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

وقال عن هذه الآلهة الباطلة ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ* وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ وقال ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ وأخبر جل وعلا أن تلك الآلهة المزعومة المستغاث بها والملتجأ إليها لا تملك شيئاً من ملك الله حيث قال ﴿. . . ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ* إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

وذلك أن الذي يجب على العباد الالتجاء إليه إنما هو مالك الملك سبحانه وتعالى خالق كل شيء وربه ومالكه وأما المملوك المربوب فكيف يجوز الالتجاء إليه والتضرع إليه والطلب منه؟.

المعنى الثالث: (المحبوب المعظم) وذلك قول بعض علماء العربية في أن إله يأله أصله وله يوله والوله هو شدة الحب والتعظيم. والعرب كانت تحب آلهتهم وتعظمها وتجلها وتقدسها ولذلك وضعوا أصنامهم في أشرف الأماكن: فوق الكعبة وفي وسطها، وتسموا معبدين أنفسهم لها فقالوا: عبد مناة، وعبد العزى، وعبد يغوث. وحلفوا بها والحلف تعظيم، وقاتلوا في سبيلها وحاربوا الرسول ﷺ وهو ذو رحم لهم لأنه عابها وسبها. ولذلك قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ الآية وقال إبراهيم لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي لا يستمر حبكم ومودتكم لهذه الأوثان إلا في الدنيا فقط وأما يوم القيامة فستلعنكم هذه

الأصنام يعني أصحابها الذين جعلتم الأصنام تماثيل لهم وتلعنونهم ويكفرون بكم وتكفرون بها.

وكل عابد يحب إلهه لأنه يبتغي عنده النفع، ويأمل منه كشف الضر فلهذه المناسبة التي يرجوها العابد أحب إلهه وعظمه وحلف به، بل وقاتل في سبيله، وقتل نفسه ابتغاء نصرته ومحبته ومودته، والحب والتعظيم لغير «الله» باطل لأن الخير كله بيد الله، والشر لا يدفعه أحد إلا هو سبحانه وتعالى، ولذلك قال ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وقال ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ الآية. وقال الرسول ﷺ لابن عباس «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام وطويت الصحف» ولذلك كان كل حب غير حبه باطلاً إلا ما كان حباً لأجله سبحانه وتعالى.

المعنى الرابع: وأما المعنى الرابع من معاني (الإله) فهو: إله يأله ألهاً أي تحير. «والإله» تحتار العقول فيه لما له من أسرار خفية وأعمال عظيمة وصفات جليلة، وليست الحيرة هنا بمعنى الشك والارتباك وإنما بمعنى التعظيم وعدم إدراك الكنه ومنتهى الإدراك والعلم. وقد جل ربنا سبحانه وتعالى أن يعلمه أحد على النحو الذي هو عليه، كما قال جل وعلا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ فلا يحيط أحد بالله علماً لا نبياً مرسلاً، ولا ملكاً مقرباً فالله أعظم من أن تدركه العقول إدراك إحاطة وعلم كامل، بل مهما وصف الله لنا نفسه ووصف رسوله من صفاته فإننا لا نستطيع أن نجمع مع ذلك في قلوبنا إلا شيئاً يسيراً مما يتصف به الرب تبارك وتعالى، كيف والله يقول ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فقل لي بربك كيف يستطيع مخلوق أن يقدر الله حق قدره، وتلك عظمته سبحانه، وهذا فعله، والأرض والسموات قبضته يوم القيامة.. ومهما بلغ بك

التصور، وضربت بك الظنون كل مضرب فلن تستطيع أن تعلم الله على النحو الذي هو عليه سبحانه وتعالى ولذلك قال أيضاً ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ أي لا تحيط به الرؤية فالله أجل وأعظم سبحانه وتعالى أن يحيط البصر به أو يحيط العلم به.

والعرب كانت تجل الله على نحو ما، ولكنها ضربت له الأمثال وجعلوه كملوك الدنيا، يتوسل إليهم بالوزراء والمقربين، ويستشفع بأحبابهم عندهم واستعظموا عليه أن يعيد أجسامهم للحياة بعد فنائها في التراب. مع اعترافهم أنه خالقهم وخالق السموات والأرض وهذا من تناقضهم وقلة عقولهم وتضليل الشيطان لهم. ومع ضلال العرب هذا في فهم صفات الله سبحانه وتعالى فقد كانوا يعترفون أن العقل يحتار في عظمته وقدرته وأسرار قوته. ونسبوا هذه الحيرة والتعظيم والأسرار أيضاً إلى آلهتهم المزعومة، وأصنامهم المفتراه، فقد زعموا أن لها شيئاً من السلطان الغيبي مع الله، ولها قدرة على النصر والإغاثة قدرة غيبية يحتار العقل في إدراك كنهها. بل ولها قدرة على إيقاع الضرر بأعدائهم وأعدائها كما قال قوم هود له ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ (هود: ٥٤) وقد خوف الكفار الرسول من مغبة سب آلهتهم وعيبها، ولما ذهب خالد بن الوليد ليحرق العزى صنم الطائف خاف عبادها وخوفوه مغبة ذلك. وقد كانت الشياطين تدخل هذه الأصنام وتكلم الناس منها وربما رأوا عندها بعض الأعمال الخارقة التي حيرت عقولهم في الأسرار والقوى التي تملكها هذه الآلهة المفتراة. وهذا يحدث لعباد القبور من المسلمين والنصارى واليهود وعباد الأصنام في زماننا إذ يروا عندها أحياناً أضواء أو أصواتاً فيظنون أن لها سلطة غيبية وقدرة خفية ولذلك خافها عبادها وخوفوا منها من أراد الاعتداء عليها، وكم من قبر يعبد اليوم من دون الله فإذا اعترض شارعاً وأريد إزالته خوف عباده من أراد هدمه وإزالته من الضرر الذي سيصيبه من وراء ذلك وما هذه السلطة الغيبية والقدرة الخفية إلا زعم ووهم مفترى وهو من جنس زعم المشركين واعتقاداتهم الباطلة في آلهتهم المفتراة.

وباختصار فالإله في لغة العرب هو الأصل لكلمة «الله» وللإله معان أربعة كلها حق في ذات الرب جل وعلا وهي (المعبود)، «والمحبوب المعظم» و «المفزع والملاذ والملجأ» وكذلك (الذي تحتار العقول في إدراك عظمته ومعرفة قدرته).

الله الاسم الأعظم:

وليس هناك من اسم ظاهر لله سبحانه وتعالى، فعلمه قد حوى معان كهذا الاسم ولذلك فقد تردد ذكره في القرآن ٩٨٠ تسعمائة وثمانين مرة (حسب إحصاء المعجم المفهرس) في حين أن اسماً آخر مما يختص به الله وهو (الرحمن) لم يرد ذكره إلا سبعاً وخمسين مرة. ولذلك قال جمهور من العلماء: اسم الله الأعظم هو (الله لا إله إلا هو) فالله علم على خالق السموات والأرض الذي لا إله إلا هو، وقد تضمن المعاني السابقة التي لا يشركه فيها غيره سبحانه وتعالى.

الملحدون في هذا الاسم:

الإلحاد في أسماء الله وصفاته هو أن يطلق على الله سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات ما لم يطلق هو على نفسه أو يخبر به رسوله ﷺ، وكذلك جحد اسم من أسمائه أو صفة من صفاته جل وعلا، فكل من جحد صفة من صفات الله أو أنكر اسماً من أسمائه جل وعلا فهو مائل عن الحق بعيد عن الصواب. وعلى قدر هذا الميل والجحود والإلحاد تكون العقوبة عند الله سبحانه وتعالى كما قال عز وجل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

والملحدون في هذا الاسم طوائف كثيرة منهم:

أولاً: من عبد غيره بمفهوم العبادة الشامل الذي هو الطاعة المطلقة والحب والتعظيم والذل والخضوع والرغبة والرهبة وكل ما اختص الله نفسه به

مما أراده من الخلق على وجه التعبد له والخضوع لأمره. وهذا هو المعنى الأساسي لمعنى الإله: المعبود. فالمشترعون لأنفسهم شريعة لم يأذن بها الله قد عبدوا غير الله، وما اعترفوا له بالألوهية الكاملة، وألحدوا في أسمائه.

والذين رضوا بالذل والخضوع لأمر غيره مخالفين أمر الله فهم عبيد لغيره مربوبون لسواه. والذين رغبوا ورهبوا من غيره لأن لهم سلطة غيبية ينفعون بها ويضرون كعبَّاد القبور الذين زعموا لها الولاية والنفع والضر والتوسط عند الله ملحدون مشركون وكل أولئك محادون لله ورسوله محاربون لدينه.

ثانياً: الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم ويعظمونهم كما يحبون الله ويعظمونه.

وذلك كالرؤساء والملوك الذين يواليهم أتباعهم موالاة كاملة سواء أمروا بما يريد الله أو بما يسخط الله تبارك وتعالى، وجعلوا طاعتهم هي كل همهم، وحرموا حتى أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وزعموا أنهم على نعمتهم وسبب غناهم وثرائهم، فهؤلاء مشركون في الحب والتعظيم والاتباع كما قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۞ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ الآيات.

ثالثاً: الذين يلتجئون في دفع الشدائد، وجلب الخير إلى غيره سبحانه وتعالى سواء كانوا يلتجئون إلى الرسل والنبيين. وهذا الشرك ما زال إلى يومنا هذا ويكفي أن تعرف أن قبراً كقبر السيد البدوي يزوره في أسبوع واحد هو أسبوع (مولد السيد) سبعة ملايين حسب الإحصاءات الرسمية وعامة هذه الملايين من البالغين وأكثرهم يستغيثون به ويطلبون منه ما لا يطلب إلا من الله سبحانه وتعالى، وأن قبراً كقبر الإمام الشافعي رحمه الله ترسل له كل أسبوع خمسة عشر ألف رسالة أغلبها طلبات للوظيفة. ويقول بعض الناس مع ذلك زوراً: ليس في أمة محمد شرك. وما الشرك إذا لم يكم دعاء غيره والالتجاء إلى سواه في كشف الضر وجلب الخير شرك؟

رابعاً: الذين يظنون أنهم يحيطون بالله علماً، ويدركون صفاته سبحانه وتعالى إدراكاً كاملاً، مخطئون جاهلون، بل لا يعلم الله كما هو، أحد إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يحصي أحد ثناء عليه إلا كما هو أثنى على نفسه سبحانه وتعالى.

وقد غلب هذا الجهل على طوائف من أهل الفكر المادي الذين ظنوا أن كل شيء في الكون تبلغه آلاتهم وعلمهم فأرادوا أن يكون كذلك يعلمونه كما يعلمون المادة التي بين أيديهم بل الرب أجل وأعظم من أن يحيط أحد بعلمه أو أن يعلمه أحد كما هو سبحانه وتعالى إلا هو سبحانه.

ولكن على قدر معرفة آيات الصفات وأحاديثها وإجلال الرب وتعظيمه وخشيته ومحبته يقع في القلب من معرفته والعلم به ما يسعد المؤمن به في الدنيا والآخرة.

لماذا كان «الله» هو وحده الإله الحق؟

دعوة الرسل جميعها تتلخص في الدعوة إلى عبادة الإله الحق سبحانه وتعالى، وترك كل عبادة لغيره. فلما كان الله وحده هو الإله الحق، وغيره من الآلهة باطل هالك؟

السبب أن الذي يحق له التأله وتجب له العبادة والطاعة والحب والتعظيم والخضوع الكامل والالتجاء، لا بد وأن يكون خالقاً ولعبده رازقاً، ومدبراً وعليه مقتدراً. فإن اختل شيء من ذلك لم يكن إلهاً: وقد جمع الله كل ذلك في آيات جامعة أقام بها الحجة على المشركين حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (النمل: ٥٩-٦٤). فالذي يفعل هذه الأعمال العظيمة كلها هو الذي يستحق أن يكون إلهاً، أي معبوداً محبوباً معظماً، مدعواً وحيث أنه لا يفعل هذا إلا خالق السموات والأرض وحده فهو الإله وحده سبحانه وتعالى.

وقد علمنا بالضرورة أنه لا يفعل هذا إلا واحد لأن الخلق واحد من الذرة الصغيرة إلى المجرة الكبيرة فسنن الكون وقوانينه وأنظمته واحدة لا تتبدل ولا تتغير، وهذا بالضرورة يرشد إلى وحدة الخالق سبحانه وتعالى. وبقاء النظام على هذا النحو يدل بالضرورة أيضاً على وحدة الخالق، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وقال ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي لا يجوز عقلاً وواقعاً أن يكون في السموات والأرض إلا إله واحد، معبود واحد تتوجه القلوب كلها إليه. ويخضع الجميع له، ويذل الجميع له، فهو يشرع للناس جميعاً لأنه خلق الناس جميعاً ورزقهم وقهرهم وغلبهم ودبر لهم كل معايشهم على هذه الأرض، فكيف يجوز لهم أن يعبدوا رباً غيره ويتخذوا إلهاً سواه.

آثار هذا الاسم «الله» في قلب المؤمن:

إذا عرف المؤمن ربه وخالقه على هذا النحو، وفهم من لفظ «الله» تلك المعاني السالفة وجب عليه ما يلي:

أولاً: أن يعلم أن خالقه ورازقه ومدبر شئونه هو «الله» الإله الذي لا إله إلا هو سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض.. وأن الجميع غيره عباد مربوبون مقهورون مغلوبون لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً وحتى مهما بلغوا من السمو والمنزلة عنده سبحانه وتعالى. وهذا الرسول محمد ﷺ: يأمره الله أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ

ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ وقال تعالى لمن عبد المسيح وأمه ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ولهم هذا الباب، والعلم به والعمل بمقتضاه هو أعظم باب في التوحيد، وسيأتي له تفصيل آخر إن شاء الله تعالى.

ثانياً: أن يجعل تعظيمه وحبه كله لله وحده سبحانه وتعالى، وإذا أحب غيره فلا يحبه إلا لله سبحانه وتعالى، لأن كل حب في غير طاعة الله فحب باطل مآله إلى الخسران والندم.

ثالثاً: أن يجعل التجاءه ودعاءه لله سبحانه وتعالى فلا يطلب جلب منفعة ولا دفع مضره إلا من «الله» سبحانه وتعالى. وإذا طلب من أحد شيئاً يقدر عليه فليعلم أنه لا ينفعه إلا بمشيئة الله وقدرته وتوفيقه وتيسيره. وإذا منعه فليعلم أن الله لم يرد أن يجري له الخير من هذه الجهة، لأنه لا يستطيع أحد أن يحجب عن أحد رحمة أرادها الله كما قال عز وجل ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ وبذلك تكون الرغبة كلها فيما عند الله، والخوف كله من الله سبحانه وتعالى، فإذا انضاف لذلك كمال الحب بلغ الإنسان كمال التوحيد، فكمال التوحيد أن يكون الحب لله وحده والرغبة من الله وحده والخوف من الله وحده. ومن بلغ ذلك فقد بلغ السعادة والرضى والطمأنينة التي يقول عنها الرب تبارك وتعالى ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ فاذكر الله الآن مستحضراً تلك المعاني السالفة وبذلك تعلم أن البشر والطواغيت والجبابرة لا شيء مطلقاً لأنهم لا يملكون شيئاً وما هم إلا آلهة باطلة. مفتراة.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

وصف الله تبارك وتعالى نفسه بأنه الرحمن الرحيم، وقد جاء هذا الوصف «الرحمن» كثيراً في القرآن على أنه علم على ذات الرب تبارك وتعالى، أعني في مثل المواقع التي يأتي فيها اسم «الله» فـ «الله» و «الرحمن» تأتيان كثيراً في القرآن لمجرد العلمية على ذاب الرب سبحانه وتعالى بخلاف بقية الأسماء التي تأتي لمناسبة الصفة التي يحملها الاسم. فالعزيز والحكيم والغفور والرحيم والخالق وغير ذلك من الأسماء تأتي للدلالة على الصفة التي يحملها كل اسم، ولا يأتي اسم منها للعلمية فقط كما يأتي اسم «الله» واسم «الرحمن».

ومن المواضع التي ورد فيها اسم «الرحمن» للعلمية على ذات الرب تبارك وتعالى قوله عز وجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ وكان هذا تعريفاً من هارون عليه السلام بالإله الحق وبياناً منه أن العجل الذي عبده بنو إسرائيل ليس إلهاً. ومعلوم أن اسم «الرحمن» مشتق من الرحمن والتعبير هنا بالرحمة في مناسبة عبادة العجل غير مقصود لهارون وإنما مقصودة إعلام عبدة العجل بالإله الحق سبحانه وتعالى.

وكذلك قوله عز وجل عن يوم القيامة ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ وقوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وقوله ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وقوله ﴿قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ وقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وفي هذه الآية الأخيرة بيان واضح أن الكفار أنكروا إطلاق هذا الاسم على الله الذي كانوا يؤمنون بوجوده وأنه الخالق البارىء الذي يملك كل شيء والذي هو رب العرش العظيم. وما أنكروا أيضاً أنه ذو رحمة فقد كانوا

يدعونه في الشدة ويستجيب لهم كما قال عز وجل ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ وإنما أنكروا هنا أن يكون الرحمن علماً على الله سبحانه وتعالى.

فالرحمن علم على ذات الرب وإن كان لفظاً مشتقاً، كما أن «الله» علم على ذات الرب وإن كان لفظاً مشتقاً كما حسب القول الصحيح ف «الله» مشتق من «إله يأله إلهة» أي عبد يعبد عبادة و(المألوه) هو المعبود المحبوب. ومعنى أن لفظ (الرحمن) علم على ذات الرب أنه مخصوص به فلا يسمى غيره بهذا الاسم كما أن الله علم على ذات الرب ولا يجوز إطلاق لفظ «الله» على غيره سبحانه وتعالى: وذلك بخلاف بقية الأسماء التي قد تطلق على غيره سبحانه وتعالى لائق بذاته عز وجل، والوصف الثابت للمخلوق مناسب لحاله، فالعزيز والكريم، والحكيم: أسماء تحمل صفات الله عز وجل وتطلق على المخلوق أحياناً ولكن الثابت لله عز وجل من معاني هذه الأسماء غير الثابت للمخلوق إذا أطلقت عليه فعزة الله تبارك وتعالى لا تدانيها عزة، وحكمته سبحانه وتعالى هي الحكمة التامة البالغة وكرمه سبحانه وتعالى لا يعد له كرم وهكذا.

والسر في اختصاص الرب سبحانه وتعالى باسم «الرحمن» وإن كان مشتقاً من الرحمة، والرحمة قد يوصف بها المخلوق كما قال عز وجل عن النبي ﷺ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال ﷺ (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء). أقول السر في اختصاص الله باسم «الرحمن» وإن كان اللفظ مشتقاً أن رحمته سبحانه وتعالى وسعت كل شي. كما قال عز وجل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقال عز وجل ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وهو من دعاء الملائكة له سبحانه وتعالى. وهو سبحانه وتعالى يرحم خلقه كلهم رحمة عامة وفيهم أعداؤه ومبغضوه ولا يتصف المخلوق بهذا. وأما الرحيم فهو وإن كان اسماً من أسماء الله تبارك وتعالى فإنه يجوز أن يطلق على غيره. ولذلك كان جمع الله سبحانه وتعالى

بين هذين الاسمين في مثل قوله ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وكقوله جل وعلا ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ليس من تكرير اسمين متماثلين وإنما من إطلاق لفظ عام بعد لفظ خاص. فالرحمن اسم خاص بالله عز وجل وإن كان مضمونه في الرحمة أشمل من مضمون اسم الرحيم ولذلك قال بعض السلف رحيم بالمؤمنين ورحمٰن بجميع خلقه.

وهذان الوصفان هما من أخص صفات الرب جل وعلا وهما وصفان حقيقيان يقومان بذات الرب سبحانه وتعالى. ويتصف الله بهما على النحو الذي يليق بجلاله وعظمته. فالمخلوق وإن اتصف بالرحمة أحياناً إلا أن الثابت لله من معاني الرحمة لائق بذات الرب سبحانه وتعالى والثابت من معاني الرحمة للمخلوق مناسب لحاله وهذه الرحمة التي يتراحم الناس بها ما هي إلا جزء يسير من الرحمة التي وزعها الله سبحانه وتعالى في عباده، وقد ادخر سبحانه وتعالى أضعافها ليوم القيامة، وقد مر الرسول ﷺ على امرأة من السبي وجدت ولدها فألصقته إلى صدرها فقال: أترون هذه ملقية بولدها في النار؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها. ولذلك لا يلقي الله عز وجل في النار إلا ما لا خير فيه كما جاء بذلك الحديث الصحيح، فقد سئل الرسول ﷺ السؤال السابق الذي طرحه على أصحابه، قالت له امرأة: هذا ولدي أتراني ألقيه في النار؟ قال: لا، قالت: فكيف يلقي الله بعض خلقه في النار وهو أرحم بعباده مني بولدي؟ فقال لها الرسول ﷺ: إلا ما لا خير فيه. ولذلك يخرج الله تبارك وتعالى من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وليست هناك رحمة بعد هذا.

والرب سبحانه وتعالى وإن كان يتصف بصفات تبدو للنظر القصير تعارضها مع ما يتصف به من صفات الرحمة والرأفة وذلك نحو الجبروت والكبر، وشدة الانتقام، وسرعة العقاب وقد أعد لأعدائه ما لا يخطر على بال من شدة العذاب وهوله كما قال عز وجل ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ وسيأتي هذا مفصلاً إن شاء الله عند بحث صفات «الغضب

والجبروت وأشباههما من الصفات» أقول: الرب يتصف بهذه الصفات وتلك ولا مناقضة في ذلك ولا منافاة وذلك أنه ينزل سبحانه وتعالى أثر كل صفة من هذه الصفات في مستحقها وفي أماكنها. فرحمة الله تنزل حيث من يستحقها وما يستحقها وكذلك غضبه وانتقامه وشدة عذابه سبحانه وتعالى لا تنزل إلا على أهلها كما قال عز وجل ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ والمجازاة هنا هي العقوبة.

ومع ذلك أيضاً فإن صفة الرحمة عند الرب تبارك وتعالى تغلب صفة الغضب كما قال الرسول ﷺ: «إن الله لما خلق الخلق كتب في كتاب عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي - وفي رواية - غلبت غضبي». والسبق أيضاً بمعنى الغلب كما قال عز وجل ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ﴾ (النور:٥٧) أي غلبوا، وكقوله ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي يغلبونا، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فصفات الرحمة عند الله سبحانه وتعالى سابقة صفات الغضب ولذلك يرحم الله كثيراً من الأشرار والفجار والكفار بمجرد توبتهم ورجوعهم إليه وفيهم من سبه وشتمه سبحانه وتعالى بل ومن قتل أولياءه وانتهك حرماته وداس مقدساته، ونسب الولد إليه ومع ذلك إذا تابوا ورجعوا قبل توبتهم ورحمهم بل وبدل سيآتهم إلى حسنات فسبحانه من رب رحيم.

من آثار رحمة الله سبحانه وتعالى:

١ - جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً. من ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه». وهذا يعني أن الرحمة التي نعرف آثارها من تراحم الناس بعضهم بعضا، ورحمة الإنسان للحيوان والحيوان لصغاره إنما هي أثر يسير مما أودع الله هذه الدنيا من رحمة: وأنزل هذه الرحمة في قلوب المخلوقات لا شك أنه - بسبب الرحمة التي يتصف بها الرب جل وعلا فالرب رحيم يحب الرحماء وقد غرز الرحمة في

بعض القلوب غريزة فطرية وذلك ليرحم الآباء والأمهات صغارهم، ولولا ذلك لقطع النسل، وما كلفت أم ولا أب نفسيهما بتربية أولادهم وأمر التربية وكلفتها ظاهر فكم من آلام تتحملها الأمهات والآباء في تربية الأبناء، وغالباً ما تكون التربية دون طلب ورجاء للعوض من الأبناء بل يحرم الأب والأم أنفسهما من الطيبات توفيراً وادخاراً للذرية. ولا شك أن هذه فطرة وغريزة قبل أن تكون خلقاً وتكلفاً. وهذا من فعل الله تبارك وتعالى فسبحان الله من إله رحمٰن رحيم.

٢ - ومن هذه الرحمة قوله تبارك وتعالى ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (وجعل) في هذه الآية التي تكررت مرتين بمعنى خلق لنا الزوجات وخلق هذه المودة والرحمة التي تغرس في القلوب بعد الزواج.

وعلى أساس هذه الرحمة الفطرية الغريزية تقوم الحياة ويبقى النوع في الإنسان والحيوان ولولا ذلك لانقطعت الذرية وعم الفساد في الأرض.

٣ - ومن أكبر مظاهر رحمة الله في الكون هذه السنن المقامة لتقوم حياة الإنسان، فالله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. ويسر كل مخلوق إلى أسباب عيشه وحياته، ويسر له أسباب رزقه. ومن أكبر أسباب الرزق في الأرض المطر ولذلك سماه الله الرحمة. وقال عنه ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

٤ - ومن رحمة الله البالغة بعباده إرسال الرسل وإنزال الكتب لهدايتهم وإرشادهم لما يصلحهم في الدنيا والآخرة. ولذلك قال في القرآن ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقال في شأن خاتم الرسل ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ وقال عن التوراة ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ فجعل التوراة إماماً أي هداية وقائداً ومرشداً إلى الخير ورحمة لأهلها إن تمسكوا بها، كما جعل القرآن هداية ورحمة للمحسنين فقال سبحانه وتعالى ﴿الٓمٓ ۞ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۞ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

بل إن الله سبحانه وتعالى، جعل كل رحمة حتى ما يتكلفه ويكتسبه

ويحاوله رحمة من عنده سبحانه وتعالى وذلك أن كل خير في الأرض أو في النفس إنما هو من فعل الرب تبارك وتعالى على الحقيقة ولذلك قال لرسوله ﷺ بعد غزوة أحد وعفوه عن الرماة الذين نزلوا من الجبل وكانت بسببهم الهزيمة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ فرحمة الرسول لأصحابه المؤمنين الذين خالفوا أمره على الجبل كانت من الله سبحانه وتعالى إذ هو المرشد إلى كل خير والدال عليه والميسر له والملهم به سبحانه وتعالى.

وخلاصة هذه الفرعية هي أن توقن أنه: ما من خير في الكون يصح تسميته بالرحمة إنما هو من الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم.

ولعلك تدرك بعد ذلك حكمة البسملة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في مقدمة كل أمر ذي بال كفواتح السور والكلام والطعام وإن ذلك إنما كان لتعلم أن ما تقدم عليه من رحمة إنما هو بسم الله الذي هيأ أسباب هذا وأنزل رحمته ونشرها سبحانه وتعالى.

شبهة وجوابها:

يرد على هذه العقيدة شبهة معروفة هي قول بعض الملاحدة من القدماء والمحدثين «إذا كان الله رحيماً ورحماناً على هذا النحو فلماذا نشاهد في الكون كثيراً من القسوة والظلم والآلام الجسديّة والنفسية الهائلة فالزلزال والبراكين التي تجتاح بلداناً بكاملها، والعواصف المدمرة، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان وقتله له، بل والأمراض المعدية والأوبئة الماحقة، والآلام النفسية الهائلة التي يتعرض لها كثير من الناس في حياتهم. لِمَ خلق الله كل هذا؟ ولم فعل هذا وهو الرحمن الرحيم؟

يقول عبد الله القصيمي في كتابه «هذا الكون ما ضميره»؟

«إن كل ما في الكون من جمال لا يستطيع أن يكون غفراناً واعتذاراً عن أية دمامة يعاني منها أي إنسان، لأن كل ذلك الجمال لن يستطيع أن يجعل

دميماً واحداً يشفى من دمامته أو من شعوره بها، ولا أن يكون عزاء أو تعويضاً له عنها». وهذا القول وإن كان طعناً في حكمة الله ورحمته سبحانه وتعالى وازدراء لخلق هذا الشر النسبي مع هذا الخير العام إلا أن قائله لا يورد هذه الشبهة لأنها هي شبهته التي منعته من الإيمان فهو منكر لوجود الخالق أصلاً ولذا فهذه الشبهة منه من تناقضه وحيرته وتخبطه والعياذ بالله فهو يقول «لقد عاش الإنسان طويلاً يقتات بخطأ شهير كبير، لقد ظل يؤمن بوجود قدره مطلقة، وكان يتصور ذلك دون معاناة كان ولا يزال يتصور ذاتاً لا حدود لأبعادها ولا لأعماقها».

وهذا في التخليط والكذب على المؤمنين الشيء الكثير فالله سبحانه وتعالى في حسن المؤمن وتصوره ليست ذاتاً مطلقة، ووجود الله الذي يؤمن به المؤمن ليس وجوداً مطلقاً بل ذات الله موصوفة بصفات الكمال، ووجود الله سبحانه وتعالى وجود حقيقي يتصور المؤمن فيه رؤية الله وسماع كلامه وأما الذين جعلوا وجود الله وجوداً مطلقاً فهم أهل وحدة الوجود من الملاحدة التي وصفوا الله وصفاً عدمياً مطلقاً يتصور في الأذهان ولا حقيقة له في الخارج يصح أن يوصف بها وأما إيمان المؤمنين بالله فغير ذلك والمهم أن الشبهة السابقة التي ترد على اتصاف الله عز وجل بالرحمة شبهة قديمة حديثة وذلك من تشابه قلوب الكافرين قديماً وحديثاً كما قال تعالى ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ وذلك أن المعلم واحد وهو الشيطان. وجواب هذه الشبهة قد فصله الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم كل التفصيل وجواب الله فيما يأتي:

أولاً: أهلك الله سبحانه وتعالى كثيراً من الأمم السالفة كقوم نوح وعاد وثمود، ومدين وقرى لوط (المؤتفكات) وقروناً من ذلك كثيراً. وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه قد أعذر إليهم بإرسال الرسل وإقامة الحجة عليهم ودعوتهم جميعاً للإيمان دعوة سلمية بعيدة عن الغرض والهوى والمنفعة الدنيوية وأن جميعهم قال لقومه ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ وقال ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ ولقد كانت ردودهم متشابهة ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي

مِلَّتِنَا﴾، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ وكلها أجوبة تدل على الكبر والعلو على أمر الله واحتقار الرسل وازدرائهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ فقد كانت ردودهم جميعاً في منتهى السفاهة والحمق والتكبر على أمر الله الذي لا يطلب منهم أكثر من الإيمان به سبحانه وتعالى وعدم الشرك به.

ولذلك فقد كان إهلاك الله لهم عدلاً ورحمة بل نعمة من نعمه سبحانه وتعالى على الكون والناس ولذلك قال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ وقال ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وقال ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي دون أن يقيم عليهم الحجة ويرسل لهم الهداية ويعذر إليهم سبحانه وتعالى. بل ما كان يأتيهم العذاب إلا وقت ظلمهم وطغيانهم واليأس من صلاحهم ورجوعهم كما قال عز وجل ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك عن قوم فرعون، وقال سبحانه وتعالة في سورة هود بعد أن قص ما انتهى إليه أمر المكذبين بالرسل من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم فرعون ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۞ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۞ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فقد أهلك القرى بظلمها وما ظلمهم الله سبحانه وتعالى.

وليس بالله سبحانه وتعالى حاجة إلى تعذيب خلقه بل هو الغني سبحانه وتعالى عن ذلك كما قال عز وجل ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ وقال عز وجل ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ

بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ أي ماذا يريد الله من عذابكم وما يفعل بهذا العذاب وهو لا يشتفى به من مرض، تعالى عن ذلك، ولا يتسلى به يتلهى، تعالى عن ذلك بل هو الرحمن الرحيم الغني الكريم الكبير المتعال سبحانه وتعالى.

ثانياً: ابتلى الله سبحانه وتعالى بعض خلقه من المؤمنين والكافرين بمصائب جزئية لا تنافى اتصافه سبحانه وتعالى بأنه الرحمن الرحيم بل هي تؤيد اتصافه بذلك سبحانه وتعالى وهذه المصائب الجزئية سواء كانت مرضاً أو نقصاً في الأنفس والثمرات أو إعصاراً أو بركاناً فإنما كان ذلك تذكيراً وتنبيهاً إلى سنن الله في الكون وأنه الفعال لما يريد، سبحانه وتعالى، وحتى يلجأ المضطرون إليه، ويستكينوا لربهم ويعرفوه حق معرفته فيعبدوه حق عبادته كما قال عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إذن فالبأساء والضراء وهي أنواع من الشر إنما كانت من الله ليتضرع الناس إلى ربهم إذا رأوا قدرته عليهم وقهره لهم فإن فعلوا ذلك زال ما بهم من ضر، ولكن.. قست قلوب كثير من الناس كما قال عز وجل ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ومن قسوة هذه القلوب أنهم نسبوا الضر والخير إلى الأيام فقالوا هذه سيمة الأيام وسنة الليالي ولا حكمة وراء ذلك. كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ۝ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ فانظر كيف عاملهم الله باللين بعد الشدة وقد كانت الشدة حتى يتضرعوا إلى ربهم ولكن انظر بعد ذلك كيف كان ردهم على تذكير الله لهم ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي ما حدث لآباءنا فلا حكمة ولا غاية ولا هدف.. وإنما هي شيمة الأيام والليالي.

فهل يبقى بعد هذا لأولئك الأقوام الذين كذبوا الرسل ولم يستفيدوا بالسنن الكونية والآيات والمشاهد المرئية إلا الإهلاك والاستئصال ولذلك قال تعالى بعد ذلك ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وأما بالنسبة للمؤمنين فإن للابتلاء لهم بالشر في الدنيا حكم طويلة سيأتي شرحها وبسطها في مقام آخر إن شاء الله تعالى.. ومن حيث الإجمال هي للتربية وما عبر الله عنه بالتمحيص ليصلب عود المؤمن وتقوى شكيته ويزداد إيمانه، وللتمييز أي ليميز الله الخبيث من الطيب فقد كان مع الرسول مع زعم الإيمان ووقف مع المسلمين في صف واحد ولكنهم عند الشدة قالوا ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقالوا ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ وقالوا (زعم محمد أننا سنفتح ديار كسرى وقيصر ولا يجد أحدنا مأمناً ليقضي حاجته.. وأمثال هؤلاء الأدعياء لا يميزهم عن الصف المؤمن إلا الابتلاء وذلك كان سنة ثابتة في الدعوات كلها وفي اتباع الرسل كلهم كما قال تعالى ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، وقال عز وجل ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، وهي لتحصيل منزلة الصبر واليقين بالآخرة كما قال تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

هذا والشر والعقوبة والفساد الحادث من النفس والأموال وإن كان من خلق الله سبحانه وتعالى، فإنما هو بسبب معاصي الناس مؤمنين وكافرين كما قال تعالى لرسوله ﷺ وهو أتقى أهل الأرض ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ﴾ وقال للمؤمنين بعد هزيمة أحد ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ وسيأتي لهذا تفصيل آخر من قضايا القضاء والقدر إن شاء الله تعالى، وقال أيضاً جل وعلا ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ﴾ أي لا يحاسب على كثير من السيئات في الدنيا بل يؤجل ذلك ليوم القيامة، كما قال عز وجل ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

فالفساد الحادث بالأرض إنما هو بما كسبت أيدي الناس، كما قال تبارك

وتعالى ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ والفساد هنا هو المرض والآفة وقلة المطر وغير ذلك. ولذلك قال سبحانه وتعالى بعد ذلك ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فهي عقوبة عاجلة من الله سبحانه وتعالى ليرجع الناس إلى ربهم وخالقهم فيتضرعوا له ويذعنوا لأمره سبحانه وتعالى فهل يعلمون؟ ولكن قست القلوب وانطمست البصائر فلم تستفد بآيات الله المرئية في الكون كما لم تستفد بآيات الله المتلوة في الكتاب.

العقوبة تعم:

هذا وإذا كانت العقوبة تتعدى مجالها أحياناً فيهلك القوم وفيهم الصالحون فإن هذا شر لا بد منه كما قال عز وجل ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ فالفتنة لا تنتقي الظالمين خاصة ولكنها تعم. وكما قال رسول الله ﷺ: [يغزو جيش الكعبة فيخسف بأولهم وآخرهم] فقالت السيدة عائشة رضي الله عنها. يا رسول الله يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم سوقتهم ومن ليس منهم؟ قال: [يخسف بأولهم وآخرهم ويبعثون على نياتهم] وكما قال رسول الله ﷺ [ويل للعرب من شر قد اقترب.. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا] وحلق رسول الله ﷺ بأصبعه الإبهام والسبابة. فقالت إحدى زوجاته: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم»: إذا كثر الخبث. فانتقاء الصالحين وإنجاؤهم وإهلاك الظالمين وحدهم كان في الأمم السابقة، وأما في أمة محمد التي شاء الله عز وجل أن يبقي فيها الخير والشر إلى يوم القيامة فإن البلاء يعم صالحيهم مع الظالمين منهم أحياناً ثم يبعثون على نياتهم، كما قال تبارك وتعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وذلك جواباً لطلب الكفار أن تنزل عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم العذاب الأليم الذي توعدهم الله تبارك وتعالى به ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية.

وأما الذين تعدى إليهم الشر والمصيبة فإن الله سبحانه وتعالى لا يضيع

أجرهم ولا ينقصهم من جزاء مصيبتهم شيئاً إن كانوا مؤمنين كما قال رسول الله ﷺ «قال الله تعالى: ومن ابتليته بفقد حبيبته فصبر فله الجنة» أي عينيه. فمن صبر لفقد بصره عوضه الله الجنة لذلك. وجعل رسول الله ﷺ قتيل الهدم شهيداً، وكذلك المطعون والمبطون والغريق والحريق، وكل هؤلاء قد أصيبوا بمصائب عظيمة يكفر الله بها ذنوبهم ويكتب لهم بها شهادة. وكذلك المرأة تموت في نفاسها شهيدة لها الجنة، كما قال رسول الله ﷺ [يجرها ولدها بسرره إلى الجنة] بل إن المؤمن يجزي بالشوكة فما فوقها فسبحان الله الرحمن الرحيم الذي لا يضيع لديه عمل صالح ولا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، ولهذا المعنى شرح مبسط في مكان آخر إن شاء الله تعالى.

﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾

من أسماء الله تبارك وتعالى «الحي القيوم» وقد جاء هذان الاسمان مقترنان في ثلاثة مواضع من كتابه حيث قال تبارك وتعالى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ الآية.

وهذا في أعظم آية من كتاب الله، وهي آية الكرسي، كما ثبت بذلك الحديث الصحيح عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه، وفي قوله تعالى ﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ۞ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الآية. وفي قوله تعالى في سورة طه ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾.

والحياة التي يتصف بها الرب جل وعلا تليق بذاته، كما أن الحياة التي يتصف المخلوق بها مناسبة لحاله، فقد وصف الله بعض ما خلق بالحيا، قال تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ وقال ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ومعلوم أن الحياة الثابتة للمخلوقات غير الحياة التي يتصف بها الرب سبحانه وتعالى.

وقد نفى الله تبارك وتعالى عن نفسه الموت فقال جل وعلا ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ (الفرقان: ٥٨) فحياة الله سبحانه وتعالى ليست كحياة المخلوقين، وهي حياة ينتفي فيها الموت بل الغفلة النسيان كما قال تعالى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ والسنة عن النوم الخفيف وقد جاء في حديث مسلم «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام. وجاء قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾.

وقد نفى الله تبارك وتعالى عن نفسه الطعام أيضاً الذي هو لازمة من لوازم الإحياء، كما قال جل وعلا ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي يطعم غيره بما يرزقه به فهو الرزاق سبحانه وتعالى ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ولا يطعمه أحد سبحانه، كما قال جل وعلا ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ فالله هو الرزاق وهو المطعم لخلقه سبحانه وتعالى.

وقد قرئت الآية السابقة بقراءة أخرى ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ بالبناء للفاعل، أي: ولا يأكل هو سبحانه وتعالى، وهذا حق لأن الطعام من صفة المخلوق وليس من صفة الخالق.

ولهذا لما أراد الله سبحانه وتعالى أن ينفي الألوهية والربوبية عن عيسى ومريم التي ادعاها لهما النصارى قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ الآية. أي ومعنى هذا أنهما محتاجان فقيران إلى ما يأكلانه فكيف يدعي لهما الربوبية. وهما بهذه المثابة من الفقر والاحتياج والنقص.

والشاهد أن حياة الله تبارك وتعالى حياة ذاتية لا يشبهه فيها أحد من خلقه جل وعلا. وأما «القيوم» و«القيام» و«القيم» فهي صيغ مبالغة من القائم. وقد جاء وصف الله تبارك وتعالى بكل هذه الأسماء، فقد جاء في حديث البخاري أن الرسول ﷺ كان يقول إذا قام في صلاته من الليل [اللهم لك الحمد، وأنت قيام السموات والأرض ومن فيهن] وفي لفظ آخر [أنت قيم السموات والأرض] وجاء في القرآن قول الله تبارك وتعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ وقوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾.

فالله هو القائم بالقسط سبحانه وتعالى، والقسط هو العدل، وهو القائم على كل نفس بما كسبت أي العليم البصير بما تكسب كل نفس ليلها ونهارها فلا يعزب عن سمعه ولا بصره شيء من أعمال عباده سبحانه وتعالى بل من ذرة في السموات والأرض. وأما كون الله سبحانه وتعالى قيوم وقيم وقيام السموات والأرض فلهذا معان عديدة منها:

أولا: أنه سبحانه وتعالى يمسكها في أفلاكها من التشتت والضياع واصطدام بعض أجرامها ببعض لما قال جل وعلا ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ الآيـة. وجـاء فـي حديث البخاري الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال «جاء حبر إلى رسول الله ﷺ فقال، يا محمد: إن الله يضع السماء على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر والأنهار على إصبع، وسائر الخلق على إصبع ثم يقول: «أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ وقال: [وما قدروا الله حق قدره].

وفي رواية أخرى عند ابن خزيمة وغيره «فضحك النبي ﷺ تعجباً وتصديقاً له».

وهذا الذي ذكره الحبر اليهودي، وضحك منه النبي ﷺ تعجباً وتصديقاً، وهو مصداق لما جاء القرآن من قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فأول معاني القوم أنه المقيم سبحانه وتعالى للسموات والأرض على ما هي عليه الآن، والمتصرف فيها سبحانه وتعالى بعد الآن، فليس لله سبحانه وتعالى في الخلق والتصرف معين ولا ظهير كما قال جل وعلا ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ والظهير هو المعين. فليس لله عز وجل من خلقه معين يعينه في خلق السموات والأرض، والقيام بشئونها بل هو القيوم وحده سبحانه وتعالى.

ثانياً: وأما المعنى الثاني فهو القيام الخاص على كل نفس مما خلق فإن من معاني «القيام» في اللغة المدبر كما قال ابن الأعرابي «القيوم والقيام والمدبر واحد» (لسان العرب ١٩٤ج م) ومن هذا المعنى قوله تعالى عن

الرجال ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ قال في لسان العرب «إنما هو من قولهم قمت بأمرك فكأنه - والله أعلم - الرجال متكلفون بأمور النساء، معنيون لشئونهن».

فالقوامة هنا هي التعهد والرعاية، والتدبير والإنفاق والرزق، فالرجال مأمورون شرعاً بهذا، ولهذا أنيط الإنفاق بهم دون النساء.

والله سبحانه وتعالى القيوم والقائم على كل نفس - يتدبر شئونها ورزقها كما قال جل وعلا ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ فالله جل وعلا هو الرزاق العليم المدبر لشئون خلقه سبحانه وتعالى، وهذا من معاني القيوم.

ثالثاً: ومن معاني القيوم: المراقبة والمحاسبة والإحصاء كما قال سبحانه ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ أي مراقب لأعمالها محاسب لها، محصي لكل ما تفعله، وهذا يتضمن علم الله بكل شيء وسمعه لكل شيء وبصره بكل شيء سبحانه وتعالى كما قال جل وعلا ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

رابعاً ومن معاني القيوم: القيام بالنفس، فالله جل وعلا يقوم بنفسه لا يقوم بغيره بل هو الغني عن كل ما سواه سبحانه وتعالى. فليس بفقير إلا شيء بل هو الغني عن كل ما سواه. بل أفتى علماء السلف بكفر من قال إن الله محتاج إلى شيء مما خلق إنساً أو جناً أو ملائكة أو عرشاً أو كرسياً بل الله عز وجل غني عن ذلك كله، وكل شيء إنما يحتاج إلى خالقه وربه سبحانه وتعالى فيما يقوم به ويستمر حياته، فالكل محتاج إليه وليس هو سبحانه وتعالى بمحتاج إلى شيء من خلقه بل هو سبحانه القائم بنفسه المقيم لغيره وهذا معنى ﴿ولا حول ولا قوة إلا بالله﴾ فليس لأحد حول ولا قوة ولا قيام إلا بمدد وعون من الله سبحانه وتعالى.

من معاني اجتماع الاسمين:

علمنا تفصيلياً فيما سبق شيئاً من معاني «الحي» و«القيوم» وقد وجدنا أن الله سبحانه وتعالى قد وصف بهما نفسه سبحانه مجتمعين في ثلاثة أماكن من كتابه فهل نفهم سراً من اجتماع هذين الاسمين؟ وهل يدل هذا على معنى؟

والجواب أن هذين الاسمين يتضمنان صفتين لله تبارك وتعالى هي «الحياة» و«القومية» وهاتان الصفتان متلازمتان، فلما كانت حياة الله سبحانه وتعالى لا تشبه حياة المخلوقين تبع الله وصف الحياة لنفسه بما ينفي المشابهة مع خلقه حتى لا يُتوهم أن حياته من جنس حياة المخلوقين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فالمخلوق حي ولكنه يقوم بغيره، والله حي ولكنه يقوم بنفسه سبحانه وتعالى.

والمخلوق حي وحياته يعتريها النقص كالنوم والغفلة والسنة والنسيان ثم الموت كما قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ والله سبحانه وتعالى هو الحي الذي لا يموت والذي لا تأخذه سنة ولا نوم سبحانه وتعالى.

وكذلك وصف «القيوم» يتضمن وصف الحي. لأنه لا قيام بدون حياة، فالله سبحانه وتعالى هو الحي القيوم وهذا من معاني اجتماع الاسمين معاً.

آثار العلم بالصفتين السابقتين:

يهم المسلم من معرفة صفات الله تبارك وتعالى أن يعرف ربه فيشهد له بما شهد لنفسه ويعبده عن علم وبصيرة، فلا يجعل شيئاً يشبهه في صفة من صفاته جل وعلا، فإن من نفي عن الله ما وصف به نفسه فقد ضل، ومن شبه شيئاً بصفة من صفاته جل وعلا فقد أشرك وجعل لله أنداداً، وليس هناك علم أفضل ولا أعلى من تعلم صفات الله تبارك وتعالى. لأن العلم يشرف بشرف المعلوم، ولا معلوم أفضل من الله وأسمائه وصفاته.

والصفتان السابقتان لله تبارك وتعالى تورث في قلب المؤمن حب الله وخشيته وتعظيمه، حب الله: لأنه يقيم الإنسان بما ييسر له من أسباب العيش

والقيام والحياة، وخشيته: لأن الله هو القائم على كل نفس بعلمه وسمعه وبصره سبحانه وتعالى. وتعظيمه: لأن السموات والأرض في كف الرحمن كخردلة في يد أحدنا، وقد جاء الحديث الصحيح بذلك.

ثم إن صفة الحي توجه قلب المسلم إلى الاعتماد على ربه والتوكل عليه، والإنابة إليه ودعائه. فما دام الله سبحانه وتعالى حي ولا يموت فالمؤمن به في عافية وأمن وسلام كما قال جل وعلا ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ وعندئذ لا يخاف المسلم أحداً ولا يخشى إلا ربه سبحانه وتعالى.

فاللهم علمنا صفاتك، وارزقنا الإيمان بها كما تحب وترضى، وارزقنا دعاءك بها كما قلت في كتابك ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿العلي الأعلى﴾

جاء الكتاب والسنة والآثار عن السلف مما يثبت إثباتاً لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى هو العلي، وهو الأعلى بكل ما يوحيه هذان الاسمان من معان.

فقد سمى الله نفسه بـ (الأعلى) في قوله تعالى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وقال جل وعلا ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وسمى نفسه بـ (العليّ) وذلك في قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وقوله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ وقوله تعالى ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وغير ذلك من الآيات.

وهذا الوصف (العلو) يتضمن معنيين كلاهما ثابت لله سبحانه وتعالى وهما: علو المكان وعلو المكانة.

فمنزلة الله سبحانه وتعالى فوق كل منزلة، ومكانته سبحانه وتعالى فوق كل مكانة، فهو الواحد الأحد الذي ليس له شبيه من خلقه ولا ندّ له، ولا مثيل له، ولا كفء له، سبحانه وتعالى. فمنزلته وعظمته وجلاله لا يدانيها أحد من خلقه جل وعلا، بل جميع الخلق عبيده وفي قبضته وقهره وتحت سلطانه، ولا خروج لأحد من قهره وسلطانه أبداً، ولا علم لأحد من خلقه إلا بما شاء، ولا رحمة إلا ما يرسلها. ولا يمسك لرحمته عن من يشاء بل هو المتصرف وحده سبحانه وتعالى، ومن خالف في شيء من ذلك فهو مشرك جاحد.

وأما المعنى الثاني من معاني العلو فهو علو ذاته إذ هو سبحانه وتعالى فوق خلقه مستو على عرشه، إليه يصعد الكلم الطيب، وتعرج الملائكة والروح

إليه، ويتنزل الأمر من عنده والقرآن والسنة كلها شواهد بإثبات هذا المعنى. وهاك بعض الأدلة على ذلك:

أ - قال سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فأثبت لنفسه الفوقية سبحانه وتعالى وهي فوقية مكانة ومكان أيضاً. وقال عن الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ ولا تعني هذه الفوقية إلا فوقية المكان.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾، وحمل العرش صورة حسية واقعية وليست معنى مجازياً وخيالياً.

وكذلك قوله تعالى ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ وقد جاء ذلك بعد قوله تعالى ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ الآيات، فبعد أن وصفَ الله سبحانه وتعالى نفسه بالعلي العظيم أخبر جل وعلا أن السموات تكاد أن تتشقق من خوف الله سبحانه وتعالى وخوفها من الله الذي هو فوق السموات جل وعلا.

ب - وأخبر سبحانه وتعالى أن الكلم الطيب والذكر الحسن لله جل وعلا يصعد إليه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ والصعود عملية حسية تعني العلو والارتفاع.

وقال أيضاً ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ والروح هو جبريل، عطف على الملائكة كما يعطف الخاص على العام، وعروجه إلى الله عروج حقيقي وليس صورة خيالية ومجازية.

جـ - وأكبر الأدلة على أن معنى العلو يعني المكان كما يعني المكانة مدح الله سبحانه وتعالى نفسه في سبع آيات من كتابه باستوائه على العرش. والمعلوم عند كل من قرأ شيئاً في عقائد السلف أن العرش مخلوق حسي وأنه أعظم من السموات والأرض كما قال الرسول «والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل» وأن هذا العرش الذي وصفه الله بأنه عرش كريم كما قال تعالى ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ وقال ﴿وَهُوَ رَبُّ

﴿ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ وقال ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۞ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ فعلى جر «المجيد» يكون صفة للعرش وعلى الرفع يكون «المجيد» اسم الله تبارك وتعالى.

وآيات الاستواء السبع كلها ذكرت الاستواء بعد خلق السموات والأرض على وجه التعقيب والترتيب الذي أتى بثم في بعضها. قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾... الآية. وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما، وهو ترجمان القرآن - هذا الاستواء بقوله «علا وارتفع» وهذا يعني أن الله فوق عرشه سبحانه وتعالى على الوجه الذي يليق به دون تشبيه له بخلقه. بل هو الذي ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى فعلوه وارتفاعه واستواؤه كل ذلك ثابت له على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى، وهو لا يشبه في شيء مما ثبت له شيئاً مما خلق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

د - ومما يدلك على ثبوت هذا المعنى الذي نحن بصدده عروج النبي ﷺ إلى ربه تبارك وتعالى إلى السموات العلىٰ، ثم إلى سدرة المنتهى حيث وقف جبريل وتقدم رسول الله ﷺ حيث كلمه الله وناجاه، وفرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة ثم خفضها إلى خمس، وكذلك عروج الأرواح أرواح المؤمنين مع ملائكة الرحمة إلى السماء فتفتح لهم السموات حتى يأتون بها السماء التي فيها الله، كما جاء في حديث البراء بن عازب عند مسلم، وعروج الحفظة من الملائكة كل يوم وليلة إلى ربهم جل وعلا حيث يسألهم عن عبيده كما جاء في حديث البخاري «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد الذين يأتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: «يا ربنا أتيناهم وهو يصلون وتركناهم وهم يصلون» فانظر إلى قول الرسول ﷺ «فيصعد الذين يأتوا فيكم» وصعودهم إنما هو إلى ربهم جل وعلا.

وكل هذه النصوص من الكتاب والسنة واضحة جلية بحمد الله سبحانه وتعالى شاهدة بعلو الرب جل وعلا فوق مخلوقاته علواً يليق بجلاله وعظمته وكبريائه.

مذاهب الناس في فهم العلو:

ولكن بالرغم من كل هذه النصوص الصريحة القطعية ثبوتاً ودلالة فإن الناس قد ذهبوا مذاهب ثلاثة في فهمها وإليك تفصيل ذلك.

أولاً: السلف وهم الصحابة رضوان الله عليهم وأهل السنة والحديث والأئمة الأربعة المقتدى بهم على إثبات العلو والاستواء عى العرش على النحو الذي يليق بذات الرب سبحانه وتعالى، وذلك كما هو مفصل في صدر هذا المقام. وقد استدلوا بما قدمناه من آيات وأحاديث ذكرت آنفاً، وغيرها لم يذكر كثير.

ثانياً: طوائف من أهل الكلام والاعتزال ممن تأثر بالفكر الفلسفي اليوناني والبحث العقلي في الإلهيات، وكذلك الجهمية وغيرهم من نفاة الصفات قالوا: بأن العلو في هذه الآيات والأحاديث علو مجازي يقصد به علو المكان والمنزلة، والذي حمل جمهورهم على هذا الشبهات الآتية:

أ - زعمهم أن إثبات الاستواء والعلو على العرش تشبيه لله بمخلوقاته ولذلك وجب عندهم تأويل معاني الاستواء، والعلو بمعاني الاستيلاء وعلو المكانة. وكان رد علماء السلف على ذلك أن كل ما أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه من صفة يجب أن نؤمن بها ولا نكيفها: نؤمن بها على النحو الذي يليق بالله سبحانه وتعالى، وأما الكيفية فلا يعلمها إلا الله عز وجل. وإذا كان يجوز أن ينفي العلو والاستواء لأن المخلوق يتصف بهذه الصفات فإنه يجوز أيضاً نفي كلام الله سبحانه وتعالى لأن المخلوق يتكلم، وكذلك يجوز نفي علم الله وقدرته، وسمعه وبصره، بل حتى ووجوده لأن الإنسان يوصف أيضاً بالعلم والقدرة والسمع والبصر والوجود.

ولقد بالغ أولئك الذين نفوا صفة العلو عن الله جل وعلا حتى إنهم زعموا أن الله لا يجوز أن تثبت له جهة أبداً لا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا أمام ولا خلف ولا يقال هو داخل العالم أو خارج العالم.. فشبهوا الرب جل وعلا بالمعدومات ووقعوا في أنكر مما فروا منه: وكان رد

أهل السنة وسلف الأمة على ذلك أن قالوا: إن الله أثبت لنفسه العلو والمسلمون قاطبة يرفعون أبصارهم إلى السماء، ويتوجهون بقلوبهم إليها لعلمهم أن الله سبحانه وتعالى عال على خلقه مستو على عرشه، وقد قال الله لنبيه عندما استبطأ الوحي في شأن تحويل القبلة ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ فتقليب الرسول وجهه في السماء ما كان إلا انتظاراً لجبريل الذي يأتيه من السماء والسماء في العلو، وقد قال سبحانه وتعالى مهدداً المشركين ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أيخبر الله عن نفسه بالباطل؟ فيعلمنا أنه في السماء ولا نشهد له بذلك.

ب - وأما شبهتهم الثانية فهي قولهم إننا لو قلنا إن الرب في العلو فإننا نثبت له حيزاً ومكاناً، والله يتنزه عن الحيز والمكان! وكان رد علماء السلف على ذلك أنه لم يأت في السنة والقرآن إثبات المكان لله، ولا نفيه عنه. ولا يجوز أن نثبت لله إلا ما أثبته لنفسه سبحانه وتعالى، ولا أن ننفي عنه إلا ما نفاه الرب سبحانه وتعالى عن نفسه أو قام دليل العقل الصريح بنفيه، فإذا كنتم تريدون بنفي المكان نفي صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه فذلك باطل، فالله أثبت لنفسه العلو والاستواء على العرش وأنه يرى سبحانه وتعالى في الآخرة فإذا نفيتم ذلك بنفيكم المكان فعملكم باطل. وقولكم تحريف للكلم عن مواضعه. وإذا فعلتم هذا فقد تجرأتم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد ثبت في صحيح مسلم أن أحد الصحابة لطم جاريته وكان الرسول ﷺ قد قال: من لطم عبده فليعتقه، فجاء إلى النبي يخبره أنه قد لطم جاريته وأنه يريد أن يعتقها، وكان من شروط العتق أن يكون المعتوق راشداً لينفع المجتمع بحريته ولا يكون عالة عليه. فأمر رسول الله ﷺ بإحضارها ثم عقد لها اختباراً يتوقف عليه عتقها فقال لها يا جارية: أين الله؟ قالت في السماء. ورفعت بإصبعها إليها. ثم قال لها: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. فقال ﷺ: اعتقها فإنها مؤمنة. فانظر هذا الاختبار الذي عقده رسول الله ﷺ والذي يتوقف عليه حكم شرعي وهو العتق وقد صدرت بعده شهادة من الرسول، ونعم به شاهداً ﷺ بل

هو شهيد على أمته كلها كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فقد شهد لها الرسول بالإيمان وقد أجابت بأن الله في السماء ورفعت إصبعها إليها؟ ألا يكفيكم هذه الشهادة؟ وقد رد أولئك القوم رداً قبيحا فقالوا: كانت بنتاً صغيرة وكلمها بما يناسب عقلها؟ ويعني كلامهم هذا أن الرسول يلون الحق بحسب الناس وحاشاه ﷺ، ومما يبين باطلهم وزيف ردهم أن الرسول ﷺ خطب المسلمين وهم مائة ألف وذلك في حجة الوداع وأسمع الله له الناس وقال لهم: ألا هل بلغت؟ قالوا اللهم نعم. قال: اللهم اشهد. ورفع أصبعه إلى السماء.. أترى الرسول وهو يخاطب أصحابه كلهم تقريباً ويرفع أصبعه إلى السماء ليشهد الله على اعتراف أصحابه بأنه بلغ الرسالة كان يعبث بعقولهم أم كان يقول الحق بل كان يقول الحق الذي ليس وراءه إلا الباطل.

وقد وقع أولئك الأقوام الذين نفوا صفة العلو وعطلوا شطر معنى اسمي الله «العلي، الأعلى» في محذور هائل وهو أنه إذا قيل لأحدهم فأين الله إذن الذي تؤمن به وتصلي له وتعتقد أنك ملاقيه؟ قال لك: هو في كل مكان. وقد يقولون: يا موجود في كل الوجود وقد قدم علماء السلف كالإمام أحمد وغيره على هذه العقيدة الباطلة رداً مفحماً فقال في رسالته العظيمة «الرد على الزنادقة» قلنا: قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظيم الرب شيء. فقالوا (أي الجهمية وأضرابهم): أي مكان، فقلنا أجسامكم وأجوافكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظيم الرب شيء، وقد أخبرنا أنه سبحانه في السماء فقال ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وقال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

والعجب أن يبقى بعد هذا البيان والإيضاح من ينتصر لتلك العقيدة الباطلة من علماء المسلمين وينسب عقيدة السلف والأئمة إلى الجهل والسطحية وعدم فهم حقائق الأمور.

ثالثاً: وأما الطائفة الثالثة فهم القائلون بوحدة الوجود من غلاة المتصوفة كابن عربي وابن الرومي وابن الفارض وغيرهم. وهؤلاء ليس عندهم في الوجود إلا موجود واحد هو الرب - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - فهو الخالق والمخلوق عندهم، والصنعة والمصنوع وكل هذه المظاهر التي نراها بل هو نفس العبد كما قال ابن عربي في مقدمة الفتوحات المكية ص٢:

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري من المكلف؟
إن قلت عبد فذاك ميت ... أو قلت ربي أنى يكلف؟

ولذلك فإن ابن عربي يقول في الفصوص ص٧٦ «ومن أسمائه الحسنى (العلي) ثم يقول «على من؟ وما ثم إلا هو؟ أو عن ماذا.. وما هو إلا هو» أهـ وهذا من أكبر الباطل وأشنعه والعياذ بالله، ومعنى هذا أنهم يفهمون من اسم الله العلي والأعلى فهما عدمياً خالصاً لأنهم يعتقدون أن ذات الله هي ذات مخلوقاته بل هي أو هو هي ولا فرق عندهم، فليس هناك غير الله ليكون علياً عليه وعالياً عنه تعالى الله عما يقول هؤلاء الظالمون علواً كبيراً. وهذه عقيدة يكفي في إبطالها تصورها فمن تصور هذه العقيدة وعرفها أنكرها أشد الإنكار إن كان قد بقي فيه شيء من آثار الفطرة السليمة، وإن شئت الاستزادة في هذا فراجع الفتاوى لابن تيمية ٣٥٦ - ٣٥٧ جـ٢ عند رده على كلام ابن عربي الآنف، وانظر أيضاً رسالتنا: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة.

آثار الإيمان بهذه الصفة في قلب المؤمن:

عودناك أخي القارىء أن نجمع في آخر كل صفة ندرسها لله تبارك وتعالى الآثار التي يجب أن تجمعها في قلبك بعد معرفة هذه الصفة، وذلك ليطابق قولك وعملك ولتطابق عقيدتك معرفتك فاعلم معنى رحمك الله وإياي أن:

١ - أول أثر لهذه الصفة أن تتجه بقلبك نحو ربك جهة السماء وقد فطرك الله سبحانه وتعالى على ذلك، وها قد انضاف إلى هذه الفطرة العلم الصحيح من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال أهل العلم من السلف والأئمة رضوان الله عليهم جميعاً. فإذا أثبت لله ذلك فعظمه سبحانه وتعالى، واعلم أنه لا

يشبه خلقه في أي صفة من صفاته سبحانه وتعالى، واعلم أنه مع علوه هذا سبحانه وتعالى فإنه معك دائماً بعلمه، فلا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بل ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، فهو سبحانه مع كل أحد بعلمه سبحانه وأما هو بذاته فوق عرشه. وهو أيضاً سبحانه مع المرسلين والصالحين والمؤمنين بالتوفيق والرعاية كما قال تعالى لموسى وهارون ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وإن كنت ممن جهل هذه الصفة لله بما تناقله الناس من هذه الكلمات الباطلة. كقولهم الله في كل مكان. . أو يا موجود في كل الوجود. دون أن يفرقوا بين ذات الله فوق عرشه وعلمه سبحانه الذي وسع كل شيء، فبادر بتصحيح عقيدتك في ربك وخالقك ومولاك.

٢ - وعليك ثانياً: أن تصحح هذا المعتقد عند من تربيهم على العقيدة الصحيحة، فإنك الصغير الذي تخوفه في الله قائلاً: لا تفعل كذا لأن الله يراك. سيسألك حتماً، ولكن يا أبي أين الله؟ فقل له كما أخبر الرب عن نفسه وكما أخبر الرسول عن ربه: الله في السماء يا بني ومع ذلك فهو يرانا ويعلم جميع ما نعمل من خير وشر. وإياك أن تفعل كما فعل بعض الجاهلين حيال هذا السؤال إذ تلعثموا وتحيروا وأجابوا إجابات فارغة غرست الشك في قلوب أطفالهم ودفعوا بذلك عجلة الإلحاد قدماً.

٣ - وأما ثالثاً: فاعلم أن من في السماء لا يعجزه شيء، ولا يغلبه غالب فهو الذي استوى على عرشه، وعرشه فوق مخلوقاته. وما هذه الأرض إلا ذرة أو هباءة في هذا العرش فأنى يعجز الله مخلوق عليها صغير ضعيف هزيل؟ وعند ذلك يعظم إيمانك بربك وتقوى عزيمتك وتقول بملء فمك ربي الله رب العالمين.

٤ - إذا علمت أن الله فوق عرشه وأن العرش هو سقف الفردوس، والفردوس هو أعلى الجنان كما قال رسول الله ﷺ «إذا سألتم الله فاسلوه

الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلاها وسقفها عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة».

فاسأل الله ذلك، اسأل الله أن تكون في الفردوس فيكون فوقك العرش وبذلك كمن قال الله فيهم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ والعندية هنا هي المكان فهم في مكان قريب من الله سبحانه وتعالى، ولذلك لما جوبهت زوجة فرعون بالقتل والصلب من زوجها قالت ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ ولذلك قال العلماء:

«اختارت جوار الله قبل أن تطلب الدار» اللهم اجعلنا من أهل الفردوس حيث ننعم بقربك ونفرح بلقائك إنك سميع مجيب.

﴿الرب﴾
سبحانه وتعالى

أطلق الله سبحانه وتعالى على نفسه في كتابه اسم «الرب» في مواضع كثيرة تقارب الألف موضعاً فسمى نفسه «رب العالمين»، و«رب الناس» و«رب محمد ﷺ»، و«رب العرش العظيم» و«رب السموات والأرض» بل و«رب كل شيء».

وذكر الله سبحانه وتعالى دعاء كثير من الأنبياء في كتابه كآدم ونوح وإبراهيم وموسى ومحمد وغيرهم وكلهم قد صدر دعاؤهم بلفظ «رب» كما قال آدم مثلاً ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وقال نوح ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية. وقال إبراهيم ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ الآية. وقال موسى ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وقال الله لمحمد ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

وقد جاءت في السنة أدعية كثيرة قد صدرت بلفظ «رب».

فماذا تعني هذه الكلمة عند إطلاقها على الله سبحانه وتعالى؟

استعمل الرب في لسانهم هذه الكلمة يعنون بها ثلاثة معان أساسية وكل هذه المعاني قد جاءت في القرآن والسنة حقيقة في وصف الله سبحانه وتعالى، وإليك تفصيل ذلك:

أولاً: أطلق العرب لفظ الرب على المربي والمتعهد والقائم والمصلح لشأن غيره. يقولون: رب ولده والصبي يربه رباً، وربّبه تربيباً، وتربه بمعنى

رباه. والصبي هنا والولد: مربوب وربيب وقد جاء في القرآن إطلاق لفظ «الربيبة» على بنت الزوجة كما قال تعالى ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ الآية. وهذه الربية الشأن فيها أن تربى في حجر الزوج ولذلك حرمت بعد الدخول بأمها: وقد تطلق «الربيبة» أيضاً على الشاة التي تربى في المنازل للّبن كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها «كان لبعض الأنصار ربائب يهدون إلينا من لبنها» فكل من تعهد شيئاً غيره وقام عليه وحفظه ورعاه يكون راباً له، وهو مربوب وربيب له.

والله سبحانه وتعالى هو رب العالمين، ورب السموات والأرض بهذا المعنى لأنه القائم سبحانه وتعالى وحده على كل نفس بالتربية والتعهد والإصلاح فهو الراب للإنسان نطفة فعلقة فمضغة فعظاماً فخلقاً آخر. فطفلاً فشاباً فشيخاً، وهو القائم بحفظ السموات والأرض كما قال تعالى ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ الآية. وهو الرازق والمتعهد لكل دابة في الأرض كما قال جل وعلا ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هداه إلى ما يحفظ به حياته من سعي على الرزق ومن حفظ على نفسه وصغاره. كما قال جل وعلا ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وقال ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ الآية. فالذي هدى النحل إلى طرائق حياته على هذا النحو العجيب هو الله سبحانه وتعالى. وكذلك سائر الدواب والحشرات مما لا يعلم أنواعه وأعداده إلا الله ومما تحتار له عقولنا اليوم ونحن نقرأ العجائب من أسراره في نظام حياة كل صنف منها وطرائق معايشها. والعقلاء جميعاً يشهدون أن هذه الدواب التي بثها الله في كل ناحية من الأرض ليس فيها ما يتصف بالعقل والإدراك غير الإنسان وإنما يتصف فقط بالغرائز، والغريزة هي هذا السر المغروس في فطرة كل دابة بحيث تهتدي إلى ما يبقي نوعها ويحفظ حياتها بشكل ما قد طبعت عليه وفطرت عليه وجبلت عليه ودون أن يكون لها عقل مدرك مصرف. ولا شك عند كل منصف أنه ما

جبلها وطبعها وفطرها على هذا إلا خالقها، خالق السموات والأرض رب العالمين سبحانه وتعالى فالرب الخالق المربي المتعهد المصلح لشأن هذه الدواب إنما هو الله وحده سبحانه وتعالى وهذا أول معنى من معاني كلمة «الرب».

ثانياً: وأما المعنى الثاني من معاني «الرب» فهو الصاحب والمالك تقول العرب «أنا رب الإبل» كما قال عبد المطلب، أي صاحب الإبل ومالكها وكما سأل الرسول ﷺ أحد الأعراب فقال له: «أرب إبل أم رب غنم» أي ألك إبل أم غنم ويقولون «رب الدار» أي صاحبها ومالكها. ورب الدراهم.

وقد جاء إطلاق الرب على الله سبحانه وتعالى بهذا المعنى كثيراً في القرآن كما قال تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ والشعرى نجم معروف كانت تعظمه العرب فأمرهم سبحانه أن يعظموا مالكه وخالقه. وكذلك رب مكة كما قال ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، وكذلك رب البيت كما قال تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ أي مالكه وصاحبه. والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

والله جل وعلا هو مالك السموات والأرض وما فيهما، وهو ربهما بهذا المعنى ورب العالمين أيضاً لأنه خالقهم والمتصرف فيهم سبحانه وتعالى لا رب ولا مالك لشيء في السموات والأرض غيره. وهذا لأنه وحده خالق السموات والأرض وخالق الناس جميعاً بل وجميع العالمين من ملائكة وجن وإنس ودواب وغيرهم، لا خالق هؤلاء جميعهم إلا الله سبحانه وتعالى، ومعنى هذا أنه لا مالك لهم إلا الله لأنه لم يتنازل عن هذا الملك لأحد غيره سبحانه وتعالى ولم يشاركه أحد غيره في إيجاده. ولذلك كان له أيضاً التصرف الكامل في ملكه سبحانه فهو الرب. بهذا المعنى أيضاً أي المالك والصاحب لا بمعنى المصاحبة والصحبة ولكن بمعنى الملك أيضاً فالصاحب تطلق ويراد بها المالك، وتطلق ويراد بها المصاحب المرافق. والمعنى الأول هو المراد.

وأما المعنى الثالث: من معاني «الرب» فهو السيد الآمر الناهي. جاء في لسان العرب: ربيت الناس أي سستهم كنت فوقهم ومن ذلك قول صفوان بن أمية لأحد من مسلمة الفتح قال له بعد هزيمة المسلمين في أول المعركة «غلبت والله هوازن..» قال صفوان له: اسكت لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن» ومعنى يربني هنا يعني يسودني ويتولى شأن حكمي وليس بمعنى يملكني عبداً ولا بمعنى يربيني من التربية. ولذلك قالت العرب للملك «الرب» أي السيد الحاكم المطاع. قال الحارث بن حلزة: وهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء وهذا المعنى جاء مراداً لله تبارك وتعالى في آيات كثيرة من كتابه جل وعلا كما قال سبحانه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقوله تعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ دليل واضح على أنه سبحانه وتعالى كما انفرد بالخلق فلم يشاركه أحد في خلق شيء في السموات والأرض فإنه ينفرد بالأمر فيشرع لعباده ما يشاء، ويسودهم ويحكمهم بما يريد كما قال جل وعلا ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ والتعقيب هو التتبع والنقد والرد والإبطال أو دعوى التنقيح والتصحيح والاستدراك والتوفيق فكل من ادعى شيئاً من ذلك في حكم الله فقد نازع الله في صفة من صفاته جل وعلا وهي صفة الربوبية: ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

فالرب الخالق سبحانه هو الذي أمر عبده محمداً ﷺ أن يجعل حياته كلها لله ومماته في سبيله وصلاته وتقربه كله لربه وخالقه وسيده ومولاه، وأخبره أن هذا هو الطريق الذي اختاره لإبراهيم من قبله ثم أمره أن يقول متعجباً للكفار

هل أتخذ سيداً لي ووليياً لي ومعبوداً لي وآمراً وناهياً لي غير الله ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أي هل أطلب لي سيداً ومدبراً لشئوني غير خالقي سبحانه وتعالى وهو رب كل شيء أي مالكه ومربيه وسيده؟ ولا يعني قول الله هنا ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أي هل أطلب خالقاً ومربياً ومالكاً غير الله، لأن العرب كانت تقر بذلك كله لله خالق السموات والأرض فقد كانوا يشهدون خالقاً ورازقاً ومالكاً للسموات والأرض كما قال جل وعلا عنهم ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ* قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]

فمشركو العرب ما أنكروا أن الله ربهم أي خالقهم ومالكهم ومربيهم بل أنكروا أن يكون الله هو المعبود وحده، الآمر وحده، الناهي وحده سبحانه وتعالى. ولذلك قال لهم الله بأن من لوازم الإيمان بأن الله هو الخالق والمربي والمالك أن يكون هو المعبود الآمر الناهي. فأنكروا وجحدوا. وهذا المعنى هو الذي دعا الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأن يجعلوه خالصاً لله وحده كما قال جل وعلا ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ واتخاذ أهل الكتاب بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله كان له صور كثيرة منها ما قال عنه جل وعلا ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

واتخاذهم الأحبار (وهم علماء اليهود) والرهبان (وهم علماء النصارى) أرباباً من دون الله هو اتخاذهم مشرعين في الحلال والحرام كما جاء في الحديث عن عدي بن حاتم عند الترمذي أنه دخل على الرسول ﷺ وهو يقرأ الآية السابقة فقال: يا رسول الله، ما عبدناهم قال: ألم يُحلُّوا لكم الحرام

فتتبعوهم، ويحرموا عليكم الحلال فتتبعوهم. قال: بلى. قال: فتلك عبادتكم إياهم. فالمحل والمحرم هو الله سبحانه وتعالى، والمبطل لتحليل الله وتحريمه مدع للربوبية ومن وافقه واتبعه وأطاعه فقد اتخذه رباً من دون الله عز وجل. وأما الصورة الثانية فهم زعمهم أن المسيح ابن الله أو هو الله فأعطوه بذلك جميع صفات الله من الخلق والإحياء والإماتة، وصرفوا له التقرب والدعاء والرغبة والرهبة والسجود وكل ما يجب أن لا يصرف إلا لله سبحانه وتعالى وحده، وكذلك فعل اليهود بالعزير.

وخلاصة هذا الأمر أن «الرب» يعني السيد المطاع والسيد هو الله سبحانه وتعالى الذي له الأمر والنهي، ومن ادعى الشركة في ذلك مع الله فزعم أن له أن يشرع لنفسه أو للناس ما يشاء فهو منازع لله سبحانه وتعالى في هذا المعنى من معاني الربوبية.

وخلاصة المعاني الثلاثة السابقة للرب أن الله هو الخالق المربي المتعهد المصلح لشئون عباده كلها دقيقها وجليلها فهو الذي يكلؤنا بالليل والنهار ويقوم بنفسه على كل خلية من خلايا أجسامنا، بل لا تحمل أنثى ولا تضع إلا بعلمه، وما يرزق من إنسان أو حيوان شيئاً إلا بفضله وتدبيره بل لا تسقط قطرة من المطر إلا بإذنه وعلمه وتقديره، ثم هو سبحانه وتعالى المالك لكل هذا الملك بل لا يملك أحد في السموات ولا في الأرض معه شيئاً لا فتيلاً ولا قطميراً، ثم هو سبحانه وتعالى الآمر الناهي الملك السيد التي تجب له الطاعة المطلقة والخضوع والانقياد والاستسلام التام.

ومن جادل في شيء من المعاني الثلاثة السالفة فقد جادل في أن الله يكون سبحانه وتعالى «رباً» بل لم يتخذ الله عز وجل له رباً، واتخذ له رباً غير الله سبحانه وتعالى فلننظر من يستحق غير الله أن يكون رباً؟

المخالفون في المعاني السابقة:

أولاً: الماديون الملحدون المنكرون للخالق فاطر السموات والأرض.

وهؤلاء على أقسام شتى فأظهرهم قديماً الذين أعطاهم الله الملك الظاهري فظنوا أنهم المستقلون أيضاً بالخلق والتصريف وهؤلاء كفرعون ونمروز فإن الله سبحانه وتعالى قد ابتلاهم بملك الناس والتصرف في الخلق فأنكروا الخالق فاطر السموات والأرض كما قال فرعون لموسى ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ۞ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ۞ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ۞ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ۞ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ فلما أعلمه موسى أن ربه الذي فطر السموات والأرض وأرسله في السماء قال فرعون ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ۞ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ فقد كذب فرعون موسى بأن يكون للسموات والأرض إلهاً ورباً غيره بدعوى أنه المتصرف فيها ولذلك خطب قومه فقال «يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تعقلون»ومعنى هذا عنده أنه ما دام يملك مصر ويتصرف في خلقها كما يريد ويتحكم في شعبها كما يشاء فهو الرب وحده والإله وحده لأنه لو كان هناك رب كما قال موسى لكان هو المتصرف في شئون الناس، ولذلك قال فرعون بعد ذلك «أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يلين، فلولا ألقى أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين». أي فلو كان موسى صادقاً في دعواه أن رسول رب العالمين، لما كان بهذه المهانة والذلة والخلو من الإملاك. فلم يعقل فرعون أن يكون رسول رب العالمين مالك الملك كله خالياً من ملك شيء ذا بال من السموات والأرض فماذا، لِمَ لم يكن له ذهب وفير أو جاء بمظاهرة كاملة من ملائكة الرب خالق السموات والأرض.

ولقد كان فرعون يعلم كذب نفسه في هذه الدعوى ولكنه ادعاها لنفسه ليبقى ملكه وتستمر سيطرته على شعبه ولذلك قال تعالى ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ ولذلك أيضاً قال له موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. وقال سبحانه وتعالى عن قومه ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي تيقنوا أن هذه الآيات التي جاء بها موسى كالعصا واليد

والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم من الله خالق السموات والأرض ولكنهم جحدوها ظلماً وعلواً.

وادعى أيضاً هذه الدعوى وهي خلق السموات والأرض والتصرف فيها نمروز وذلك لما أعطاه الله من الملك الظاهري كما قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي لأن الله أعطاه الملك الظاهري للناس حاجج إبراهيم في ربه جل وعلا فسأله عنه وأنكره وجحده إذ لما قال له إبراهيم ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ عندئذ قال إبراهيم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ ولم يكن هناك جواب أمام هذا التحدي لأن إبراهيم أتاه بفعل من أفعال الرب لا يقدر عليه غيره.. وأما الإحياء والإماتة فإن إبراهيم قد عنى بها الخلق في البداية ثم قبض الروح في النهاية ولكن هذا الأفاك صرف هذا المعنى وأخذ بريئاً فقتله وعفى عن محكوم عليه بالقتل فأطلقه، وسمى هذا إحياء وإماتة وهو نوع من التصرف الظاهري بما له من حكومة وسلطان. فلما رأى إبراهيم تعنته ترك هذا ولم يجادله فيه وأعجزه بالإتيان بالشمس من المغرب ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾.

وعقيدة اليابانيين في (الميكادو) لا تختلف كثيراً عن عقيدة أتباع فرعون ونمروز فهم يعتقدون أن الأسرة المالكة تنحدر من سلالة الآلهة الذين يمثلون الشمس، وقد كان قدماء المصريون يعتقدون أن الفرعون ممثل للشمس نائب عنها وهي الخالق.

وكذلك عقيدة النصارى الذين قالوا إن الله هو المسيح عيسى فهم يعتقدون أنه فاطر السموات والأرض خالق البشر المتصرف في الكون. ومن اعتقد منهم أن المسيح ابن الله اعتقد أيضاً أنه جزء من الله ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولذلك زعموا له أيضاً الخلق والإحياء والإماتة والتصرف لأن الولد في القياس جزء من الوالد ولذلك نسب النصارى القائلون بالتثليث لعيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه كل ما ينسب إلى الله من فعل وجعلوا صفته

كصفة الله سبحانه وتعالى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولذلك قالوا إنهم «ثلاثة أقانيم ذات واحدة» أي أنهم وإن تفرقوا من حيث الوجود والشخوص فإن ذاتهم واحدة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ومعلوم أنهم ما داموا قد اعتقدوا أنهم ذات واحدة فإنهم قد نسبوا إلى كل منهم ما ينسب للآخر من صفات.

وعقيدة الفرس القديمة في الرب عقيدة شركية إذ اعتقدوا أن هناك خالقان: خالق للخير والنور وخالق للشر والظلمة ولذلك قدسوا النار وأشعلوها على الجبال ليلاً ليساعدوا خالق النور على خالق الظلام فهم وثنيون جاهلون بالخالق الواحد سبحانه وتعالى.

والبوذيون كذلك يعتقدون بأنه بوذاً رباً أي خالقاً مدبراً أعني أنه ليس معبوداً فقط بل هو رب خالق أيضاً عندهم. ولا شك أن كل تلك العقائد هالكة زائفة لأنها رفعت المخلوق فجعلته خالقاً مدبراً قائماً بشئون غيره، والحال أنه عاجز فقير محتاج إلى من يقوم بشئونه هو ولذلك قال تعالى للنصارى ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي ومن يأكل الطعام فهو محتاج إلى غيره ليقوم به. (وقد. . . . في هذه القضية لأن الأستاذ المودودي نفى أن يكون هناك من البشر من اعتقد خالقاً ورباً بهذا المعنى غير الله، حتى إنه نفى أن يكون فرعون ونمروز قد خالفوا في هذه القضية وإنما خلافهم فقط - حسب ما قاله الأستاذ المودودي - هو في المعنى الثالث من معاني الرب أي في التصرف والأمر والنهي) انظر المصطلحات الأربعة ص ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٩-٧٥ وقد ذكرت هذا لأهمية كتاب المصطلحات الأربعة وفائدته العظيمة.

وأما القسم الثاني من المخالفين في المعنى الأول من معاني الربوبية فهم الملحدون الماديون المعاصرون الذين انفجرت بدعتهم وعقيدتهم بعد انفجار

الثورة الصناعية وإنكار رب الكنيسة ودينها والإيمان بقدرة الإنسان على كشف كل شيء في الوجود كشفاً حسياً تجريبياً. لا كشفاً عقلياً استدلالياً برهانياً كما جاءت الرسل بذلك، فنفي هؤلاء الماديون الملحدون وجود الله وأنه رب السموات والأرض وفاطرها بناء على أنهم لم يكتشفوه حسياً وتجريبياً أي لم يقع تحت حواسهم وهذا النفي ينبني على جهل فاضح لأنه ليس كل موجود في هذا الكون يشترط لنا أن نراه ويقع تحت حواسنا فقد كانت هناك آلاف المجرات السائحة في السماء ولم نكن ندري عنها شيئاً يوم قال الملحدون مقالتهم هذه ثم عرفناها فيما بعد، وقد كان هناك ملايين الأنواع من الحشرات والنباتات والجراثيم ومنها ما يعيش داخل أجسامنا ولم نكن ندري عنها شيئاً ثم علمناها بعد. وما ضر هذه الأشياء جهلنا بها، ولا كان جهلنا بها نافياً لوجودها.

وكل إنسان اليوم يعتقد أن هناك سراً ما يدب في الجسم الحيواني فيجعله حياً ثم يخرج هذا السر فيفقد الجسم الحيواني الحياة. الدين يسمي هذا السر روحاً ويجعلها من خلق الله وليسم الماديون هذا السر ما يشاءون ومع ذلك لا يزعم أحد للآن أنه رأى هذه الروح أو وقعت تحت عملية تجريبية، وما ضر هذه الروح جهلنا بها، وليس لأننا لا نراه فهي غير موجودة. والمهم هنا أن منكري الرب من الماديين موجودون الآن بكثرة بين أظهرنا وليس عندهم من حجة للإنكار إلى هذه التي قدمنا وهذه الحجة هي الجهل فجهلهم بالإله دعاهم إلى إنكاره ولا يقول عاقل إن الجهل دليل يتبع.. ولا يجوز للعاقل أن ينفي وجود شيء في مكان ما حتى يفتش المكان كله فمن قال مثلاً: ليس في الكويت يهود.. لا نصدق كلامه إلا إذا كان قد أحصى كل فرد موجود في الكويت وعرف عقيدة كل واحد منهم وبذلك يصح له النفي وإلا فكلامه دعوى بلا برهان. ومن قال ليس في الكون إله فدعواه باطلة إلا إذا كان قد فتش الكون كله فلم يجد الإله... فهل يزعم هذا التفتيش زاعم..

ومعنى هذا أن المنطق التجريبي الحسي لإثبات الإله منطق زائل هنالك، ومعنى هذا أيضاً أنه لم يبق أمام معرفة الرب إلا منطق الاستدلال والبرهان. واتباع الرسل يستدلون على الرب بالخلق المشاهد وهو دليل الصنعة التي تدل على الصانع وهو دليل فطري سهل يعلمه كل من له أدنى فكر ونظر وتأمل، ودليل الرسل وهم المبلغون الصادقون الذين قامت الأدلة القطعية على صدقهم ونزاهتهم.

وأما أهل الفكر المادي فدليلهم على الخالق دليل ظني غيبي محض فهم يقولون بالصدفة يعنون بها الفلتة الموافقة الصالحة من محاولات شتى فوضوية عشوائية. فهل انبثق هذا الكون المنظم المحكم في كل ذرة من ذراته عن عمل فوضوي عشوائي. ولا شك أن هؤلاء المنكرون الجاحدون هم أحط دركاً من الحيوان وأدنى فهما من العجماوات. إن شاء الله تعالى.

آثار الإيمان بهذه الصفة:

إذا أيقن المؤمن أن له رباً وخالقاً هو الله سبحانه وتعالى، وأن هذا الرب هو رب كل شيء ومليكه، ومصرف أموره، وأنه هو القاهر فوق عباده، وأنه لا يغيب عنه سبحانه وتعالى شيء من ملكه، أقول: إذا آمن المؤمن بهذا وامتلأ قلبه يقيناً بذلك أنست روحه بالله، واطمأن إلى جواره، ولم تزلزله الأعاصير والفتن، وتوجه إلى ربه دائماً بالدعاء والالتجاء والاستعاذة، وكان دائماً متوكلاً على ربه واثقاً به، كما أنه يظل دائماً خائفاً من تقصيره وذنبه، لأنه يعلم قدرة ربه عليه، ووقوعه تحت قهره وسلطانه فتحصل له بذلك التقوى، والتقوى هي غاية الأمر بل هي غاية الوجود الإنساني.

وهكذا بدراسة صفات الله دراسة واعية، والإيمان بها على الوجه الذي بينه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يحصل للقلب الهدى والنور والطمأنينة والفرح. وجماع هذا كله في الإيمان.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾

سمى الله سبحانه وتعالى نفسه «بالملك» كما جاء في قوله تعالى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وفي قوله تعالى ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ وقال جل وعلا ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ❁ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾.

وكانت هذه التسمية لله تبارك وتعالى لأن له ملك السموات والأرض فهو خالقها وفاطرها سبحانه وتعالى كما قال جل وعلا ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهذا الاسم الذي يطلق على الله تبارك وتعالى «الملك» والذي يتضمن وصفه سبحانه وتعالى بالتملك للسموات والأرض ومن فيهما وما فيهما. قد يطلق على الإنسان، ولكن معاني الملك الثابتة للإنسان غير معاني الملك التي تثبت لله تبارك وتعالى، كما ستفهم من التفريق بين هذا وهذا.

فقد سمى الله باسم «الملك» بعض خلقه كما قال جل وعلا عن ملك مصر في عهد يوسف ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ وقال في الكهف ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وقال عن بني إسرائيل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني عين لنا حاكماً يحكمنا وملكاً يتولى شئون الحرب فينا. وقال ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ وإن كان سبحانه وتعالى قد عاب الملوك بوجه عام، كما جاء

في قوله تعالى على لسان بلقيس ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ فعقب على هذا بقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وإن كانت هذه العبارة من تمام كلام ملكة سبأ فإن الله قد أقرها على ذلك بعدم نقضه سبحانه وتعالى لكلامها. والشاهد أن الله سبحانه وتعالى قد أطلق هذا اللفظ على بعض خلقه، ولكن الثابت لهم من معاني الملك غير الثابت لله سبحانه وتعالى.

فالثابت لمن ملك شيئاً من متاع أو أرض أو تصرف في مجموعة من الناس أنه مستخلف ومورث ومختبر ومبتلى. فقد قال سبحانه وتعالى في شأن من أعطاه الله مالاً ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ وقال ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ وقال ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ وقال ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالمال من عطاء الله سبحانه وتعالى وهو استخلاف لمن شاء الله استخلافه، وهي أمانة كما قال رسول الله ﷺ [ويوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى ما عليه فيها] ولذلك قال العبد الصالح والنبي الصالح والملك الصالح سليمان بن داود ﷺ لما جاءه عرش بلقيس من اليمن إلى البيت المقدس في أقل من لمحة عين «هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر» فجعل الملك وأسبابه وهذا التيسير الذي يسره الله له من الابتلاء الذي يبتليه الله به ليعلم أيشكر أم يكفر. وهذا الأمر علمه الله سبحانه وتعالى لعبده ونبيه داود الذي أتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، حيث قال ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وكان ذلك لأنه تعجل الحكم في قضية سمع طرفها من أحد الخصمين ولم يسمع من الآخر، ولما كانت القضية صارخة في الظلم حيث قال أحد الخصمين وهو ملك أراد الله اختبار داود وتعليمه به ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي غلبني في الخصومة فحكم فوراً قائلاً: لقد ظلمك. الآية. فعاتبه الله سبحانه وتعالى على ذلك. ولذلك قال رسول الله ﷺ «إذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى ترى الآخر فربما فقئت عيناه جميعاً» واستخلاف الله لداود في الأرض إنما هو كما سلف ابتلاء بإعطائه الملك

وتمكينه من التصرف في أعناق الناس وأموالهم وفق الشريعة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على موسى. فقد كان داود نبياً وملكاً في بني إسرائيل بعد موسى.

وهذه الخلافة هي أيضاً للرسول محمد ﷺ وإن كان قد رفض أن يكون ملكاً رسولاً ورضي بأن يكون عبداً رسولاً، فصلوات الله وسلامه عليه. ولذلك كانت الخلافة في الأمة بالشورى ولم تكن وراثة في عقبه ﷺ كما كانت في بني إسرائيل وراثة في نسل الأنبياء.

فقد أمر رسول الله ﷺ بأن ينفذ حكم الله وشرعه في الأمة فكان حاكماً كما كان نبياً مرسلاً داعياً إلى الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال له الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ الآية وقال سبحانه وتعالى أيضاً ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ الآية. ولذلك نفذ رسول الله ﷺ أحكام الله سبحانه وتعالى وكان حاكماً كما كان نبياً.

فأعلن الحرب على من بغى على المسلمين، وقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وعقد ألوية الجيوش، ووحد الكيل والميزان وعقد النكاح وأمضى الطلاق، وألحق النسب عند ثبوته، وقتل القاتل، وقطع يد السارق ورجم الزاني وأقام الحدود وولى الأمراء، وبعث السفراء، وأرسل الكتب إلى الملوك وهددهم بالحرب وكل هذه من أعمال الملك وقد قام بها رسول الله ﷺ بأمر ربه تبارك وتعالى، كما قام بمهمة النبوة والرسالة من إبلاغ كلام الله سبحانه وتعالى وبيانه وتبشير المؤمنين بالجنة والكافرين بالنار.

ولذلك فخلفاء الرسول ﷺ خلفاء له في الحكم بشرع الله سبحانه وتعالى وتنفيذ أوامره. وإن كانوا في الجملة خلفاء لله في الأرض بالمعنى السابق لمعنى الخلافة الذي مضى في داود وهي الابتلاء بتنفيذ أوامر الله سبحانه وتعالى، وليست خلافة مطلقة عن الله كالمعنى الذي فهمه الفرس من معنى السلطان وأنه ظل الله في الأرض، ونائب عنه في الحكم بما يشاء والتصرف

كما يريد وإن كان هذا المعنى قد سرى في الفكر الإسلامي ولذلك تهاون كثير من الخلفاء والأمراء والملوك من المسلمين في مسائل الحكم وظنوا أن المال العام الذي هو مال الأمة مال لهم يعطون منه من شاءوا ويمنعون منه من أرادوا، فأفسدوا البلاد والعباد، وأفسدوا معنى الخلافة في الأرض.

وخلاصة هذا الأمر هي أن نعلم أن «الملك» الثابت للبشر إنما هو ملك استخلاف وعارية وابتلاء واختبار وليس ملكاً حقيقياً بمعنى التصرف المطلق والتملك الدائم وانتفاء المسئولية والابتلاء والاختبار.

وأما الملك الثابت لله سبحانه وتعالى فغير ذلك فإن الله هو «الملك» والمالك ملكاً حقيقياً، فالله يملك كل ما سواه من شيء ذاتاً لأنه الخالق سبحانه وتعالى، وتصرفاً فهو المعز المذل يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وعبودية فالجميع عباده وفي قبضته وتصرفه سبحانه وتعالى ولذلك قام ابن القيم رحمه الله (إن الله يملكنا ذاتاً، وتصرفاً وعبودية) وأما ملك غيره فإنما هو استخلاف وابتلاء بتنفيذ أوامره ونواهيه سبحانه وتعالى، فهل يعقل هذا الملوك وأشباه الملوك؟

ولم يرض الله سبحانه وتعالى ولا يرضى أن يكون له شريك في ملكه لا على وجه الخلق سبحانه وتعالى عن ذلك ولا على وجه التصرف المطلق، وأعني بالتصرف المطلق التصرف بهوى النفس ودون تقيد بأوامره ونواهيه سبحانه وتعالى فقال عز وجل ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ ولذلك فمن اعتقد أن له نصيب في ملك الله أي في خلقه أو تصرفه برأيه وهواه فقد كفر وأشرك. ولذلك كفر الله سبحانه وتعالى من دعا غيره من الأموات والملائكة والأصنام وغير ذلك ممن يدعوهم المشركون للنفع ودفعاً للضرر. قال تعالى عن نفسه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۞ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ الآية.

فالذين دعوا الأموات ظانين أن لهم شيئاً من الملك يستطيعون به نفع الداعين أو دفع الضر عنهم مشركون. وكذلك من ظن من ملوك الأرض سواء حكموا باسم الإسلام أو باسم غيره من الأنظمة أن لهم التصرف بما يشاءون ويشرعون لأنفسهم فهم بهذا الظن مشركون كافرون. بل لو ظنوا أن لهم حقاً في التصرف في الأموال العامة التي جعلهم الله سبحانه وتعالى أمناء عليهم فهم كذلك لأن هذا خلل في العقيدة وباطل في الإيمان فالملك لله كله سبحانه وتعالى وله وحده ولا يملك الملوك من ملك شيئاً إلا وفق أمره واستخلافه سبحانه وتعالى وأما من تصرف منهم تصرفاً ما بهواه دون أمر من الله سبحانه وتعالى فإن اعتقد بطلان هذا فهو مؤمن عاص، ومن زعم أن هذا من حقه فهو كافر مشرك، فالملك لله سبحانه وتعالى كله، والعباد كلهم عبيد مستخلفون.

وهذه الحقيقة كان يوضحها كل نبي لقومه لأنها أساس العبودية التي تقوم على التفريق بين الرب المالك والعبد المملوك، ولذلك كما قال شعيب لقومه ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ* بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾. ورد قوم شعيب على رسولهم قائلين: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ فقد ظن أولئك الكافرون أنهم بكسبهم أموالهم قد ملكوها وبملكها فإنه يحق لهم التصرف فيها سواء كان موافقا لأمر الله وشرعه أم مخالفاً لذلك. ولذلك أيضاً عاب الله على قارون الذي خوله الله المال فتصرف فيه تصرفاً سيئاً حيث جعل قسماً كثيراً منها يهدر على إبراز الزينة والخروج في المواكب فأرشده قومه إلى أن هذا لا يجوز بل يجب عليه أن يبتغي فيما أتاه الله الدار الآخرة وأن لا ينسى نصيبه من الدنيا فنفى التقيد بهذا زاعماً أنه قد كسب المال بجهده واجتهاده وعلمه، ومعنى ذلك أنه يصح في حقه التصرف كما يشاء ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ وكانت هذه مقالة إجرام عاقبه الله عليها بالخسف والدمار والخلود في النار.

والشاهد في هذا المقال وسابقه أن نعلم يقيناً أن المال عارية وأن الملك والسلطان أمانة واختيار وابتلاء، ولكن ملك الله سبحانه وتعالى غير ذلك تماماً فلا يخشى أحداً سبحانه وتعالى ولا يحاسب على تصرف لأنه المالك الذي لا مالك غيره ولا رب سواه. ولذلك لما أهلك الله قوم ثمود لظلمهم قال ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ فلا يخاف الله سبحانه وتعالى عاقبة تصرف له، تعالى الله أن يكون له ند أو معقب.

خصائص الإيمان بهذه الصفة:

إذا عرف العبد ما سلف من وصف الله نفسه «بالملك» فإن أول واجب عليه أن يقر بهذا وأن يعترف به لأن هذه صفة كمال ومدح لله سبحانه وتعالى، وأول التوحيد أن تشهد لله بما شهد سبحانه وتعالى به لنفسه، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول صباحاً ومساء «أصبحنا وأصبح الملك لله، وأمسينا وأمسى الملك لله» وهذا اعتراف وذكر منه ﷺ أن الملك لكل شيء والمالك للملك كله سبحانه وتعالى وهذا الذكر يملأ القلب نوراً وأمناً وطمأنينة وحباً لله رب العالمين مالك كل شيء سبحانه وتعالى.

وكان يفعل هذا رسول الله ﷺ إذا قام الليل فيفتتح صلاته بقوله [اللهم لك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن] الحديث. وبذلك يشعر المؤمن وهو قائم في صلاته أنه أمام من ملك أمره وملك أمر الناس جميعاً فلا يرهب جباراً في الأرض ولا يخاف غير ربه تبارك وتعالى.

وأما الخصيصة الثانية التي ينشئها اسم «الملك» في النفس فهو الاعتراف بأن لله الأمر والحكم لأن الأمر والحكم من خصائص الملك. فالملك يملك ومن ملك حكم. والرب هو المالك الحقيقي، إذن فهو الحاكم الحق سبحانه وتعالى. وكان هذا مما أنكره العرب الكفار على الرسول ﷺ لما دعاهم إلى امتثال أمر الله ونهيه فاستعظموا هذا. استكبروا أن يأتمروا بغير ما تمليه أهواؤهم وعقولهم. وإن كانوا معترفين بوجود الله وأنه مالك الملك فقال لهم الرب تبارك وتعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى

﴿ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ قال الحسن البصري عبثاً: أي لا تؤمرون ولا تنهون. ثم عقب الله على «عبثاً» بقوله: فتعالى الله الملك الحق أي أن الملك وملكه وحكمه حق سبحانه وتعالى فكيف يجوز في حقه أن لا يأمر ولا ينهي ولا يحكم بل يكون عاطلاً عن أمر عباده وتصريف شئون حياتهم تعالى الله سبحانه وتعالى على ذلك. فإن المسمى بالملك والمتصف بهذه الصفة يستحيل أن يترك عباده ولذلك قال مخاطباً الكافر المكذب بالجزاء ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ❁ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؟ أي ما يحملك على التكذيب بيوم القيامة أليس الله سبحانه وتعالى هو أحكم من حكم. فكيف يصح في حقه سبحانه أن لا يجازى كل إنسان بما عمل؟

ولذلك أيضاً رفض سبحانه وتعالى أن يكون لغيره معه شيء من الأمر والحكم كما قال تعالى ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ وجعل هذا من العبادة فقال بعد ذلك ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ وأخبر أن هذا هو الدين الصحيح القويم فقال بعد ذلك ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ وأخبر بعد ذلك أن أكثر الناس في عماية وجهل عن هذا فقال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿فالحكم لله وحده﴾ شعار للمؤمن ينادى به في كل مكان وفي وجه كل طاغوت يظن أن له من الأمر شيئاً وأن له في ملك الله شيئاً وأنه يملك شيئاً من التصريف بنفسه دون رجوع إلى شرع الله وحكمه. والكفر بهذه الطواغيت التي تدعي أن لها أن تحكم بما شاءت سواء كان هذا تحت شعار (إرادة الشعب) أو (حكم الشعب لنفسه) أو تحت شعار (ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) واجب شرعي. فقد قال سبحانه وتعالى ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ وأعني الطواغيت وأطغاها من ادعى لنفسه التشريع للأمة، وترك تشريع الله سبحانه وتعالى ومن وافقه على ذلك فقد اتخذه إلهاً ورباً وملكاً من دون الله سبحانه وتعالى. والإيمان بأن الله هو المالك يناقض هذا تمام المناقضة فإما أن يؤمن المؤمنون بأن الله هو الملك والمالك فيذعن لتشريعه ويرضى بحكمه ويكفر بملوك الأرض الذين يتصرفون في عباد الله ومال الله كما يشاءون ويهوون. وإما أن يؤمن بملوك الأرض ويعطيهم حق

التشريع والسلطان والتصريف في عباد الله ومال الله بما يشاءون وعند ذلك فإنه يكون كافراً بالله سبحانه وتعالى الملك الحق. ويكون من الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالحق لأن كل ملك غير ملك الله فهو باطل زائل، والله هو الملك الحق الذي لا يزول ملكه وتصرفه وقهره سبحانه وتعالى. (وهذه القضية من قضايا التوحيد هي أهم قضية في عصرنا الحاضر وسيأتي لها تفصيل آخر إن شاء الله تعالى).

وأما الخصيصة الثالثة مما ينشئه اسم (الملك) في النفس فهو الإيمان بالمسئولية أمام الله سبحانه وتعالى، وهذه المسئولية المباشرة ستكون يوم القيامة ولذلك فنحن نقرأ في كل ركعة من صلاتنا ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وكان رسول الله يقرؤها تارة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ۞﴾ وتارة ﴿ملك يوم الدين﴾ وكلا اللفظتين متضمن للآخر فالملك يملك، ومن ملك حكم والمالك ملك والملك حاكم. وخص الله سبحانه وتعالى يوم الدين هنا بالملك والحكم وإن كان قد جاء في القرآن وصفه سبحانه وتعالى بالملك دائماً وأبداً فسببه أن الملك يكون ظاهراً للناس جميعاً يوم القيامة، فالكفار والطواغيت ينفون عن الله أن يكون ملكاً ومالكاً في الدنيا وأما يوم القيامة، فقد جاء الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال «يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك. أين ملوك الأرض؟» (البخاري: توحيد) وعندئذ يعترف الجميع لله رب العالمين بأنه الملك وحده، هذه العقيدة التي اعترف المؤمن لربه بها في الدنيا ففاز برضوانه يوم القيامة يعرفها الطواغيت وعبادهم في ذلك الوقت عندما لا تفيدهم المعرفة والتصديق شيئاً. وفي هذا اليوم يكون الحساب والجزاء مباشراً كما جاء في حديث عدي بن حاتم في البخاري أنه قال «ما منكم إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان» فالله سيكلم كل إنسان بلغته وسيسأله عن عمله وكسبه والشعور بهذه المسئولية يلغي الحب والاحترام لكل طاغوت يشرع من عند نفسه ويبقى في القلب الحب والتعظيم والتقديس والطاعة المطلقة لله وحده رب العالمين وملك الناس سبحانه وتعالى.

الانتقام والعقوبة

كما وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه الرحمن الرحيم، فقد وصف نفسه أيضاً بأنه شديد العقاب، وبأنه عزيز ذو انتقام. فقد قال جل وعلا ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ وقال ﴿حمٓ* تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ* غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وقال أيضاً ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ وآيات كثيرة كلها تدل على هذا المعنى.

ولم يرد في أسماء الله تعالى الحسنى اسم الفاعل من الانتقام، والعقاب كأن يقال: المنتقم والمعاقب. ولكن نسب الفعل إليه سبحانه وتعالى ولذلك فلا يجوز اشتقاق اسم من هذه الأفعال بل ينسب الفعل فقط إليه سبحانه كما نسبه إلى نفسه جل وعلا، ولا تشتق منها صفة لأن أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته يجب الوقوف فيها عندما جاء به النص فقط.

ولا ينفي هذا أنه قد جاءت أسماء الله تعالى توحي بقهره لخلقه وغلبته وعزته وكبريائه وجبروته كالقاهر والجبار والمتكبر، وكلها مما جاء به النص عن الله تبارك وتعالى كما قال جل وعلا ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وقال ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وهذه الأسماء: القاهر، والجبار، والمتكبر هي صفات مدح وكمال في حقه سبحانه وتعالى، وصفات ذم ونقص في حق العبد، كالتأله صفة خاصة بالله سبحانه وتعالى والمتأله من البشر الذي يدعو الناس إلى عبادة نفسه وتعظيمها طاغوت فاجر كافر، فكذلك التجبر والتكبر والقهر في البشر مذموم

مقبوح كما قال تبارك وتعالى ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ فجعل الخيبة لكل جبار من البشر. وقال على لسان نبيه هود حيث قال لقومه ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ وقال سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي لم نرسلك لتقهرهم ولتجبرهم على الإيمان جبراً وإنما أنت مذكر فقط ولست عليهم بمسيطر، بل إن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه يحرم الهداية من حرم الرحمة واتصف بالجبروت والقهر كما قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فقلوب الجبابرة المتكبرين من الملوك والحكام يطبع الله عليها فلا تنفذ فيها الهداية وذلك أنهم منازعون للرب تبارك وتعالى في أخص صفاته كما جاء في الحديث القدسي «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار ولا أبالي».

وخلاصة هذا المقام أن نعلم أن التأله والتجبر والقهر والكبر، صفات خاصة بالرب جل وعلا هي صفات مدح له لأنه العظيم الخالق البارىء الذي ملك كل شيء وذل له كل شيء فالسموات والأرض ملك يمينه، والخلق جميعاً رهن مشيئته وتصرفه، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وأما البشر فإنهم عبيد مربوبون مقهورون فقراء إلى ربهم وخالقهم ومن منحه الله سبحانه وتعالى شيئاً من مال أو ملك أو جاه أو رئاسة فإنما هو مبتلي ومستخلف ومسئول عن رعيته وما خوله سبحانه وتعالى.

واتصاف الله سبحانه وتعالى بشدة العقوبة. وقوة الانتقام لا ينافي اتصافه سبحانه وتعالى بالرحمة والمغفرة، والرأفة والمودة. ولا تناقض بين هذا وهذا، وذلك أن رحمة الله ومغفرته ينالها من يستحقها، كما أن انتقامه وعذابه وبطشه سبحانه وتعالى ينزل على من هو أهل له.

كما قال تعالى ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآيات. فرحمة الله تنزل على المتقين الذين يؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله ويتبعون الرسول ﷺ، وعذاب الله ينزل على من يشاء وقد أخبرنا أن هذه المشيئة لا تنال إلا

الكفور كما قال تعالى ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ وقال ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فالله لا يعذب إلا من يستحق العذاب كما أنه سبحانه وتعالى يرحم من طمع في رحمته وسعى إليها، ولذلك فإنه لا يهدي القوم الظالمين، أي الذين يظلون على الظلم لا ينفكون عنه. وأما من تقرب منه شبراً فإنه سبحانه يتقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب إليه باعاً، ومن جاءه يمشي، أتاه الله هرولة. كما جاء في حديث البخاري.

صور من عذاب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة:

ومما يدل على اتصاف الرب جل وعلا لشدة العقوبة، وقوة البطش، وهول الانتقام، هذه القرون التي أهلكها الله لما كذبوا الرسل، وعتوا عن أمره سبحانه وتعالى: قال جل وعلا عن نفسه ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۞ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۞ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۞ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۞ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ والمؤتفكة هي قرى لوط وكل الله بها من الملائكة من اقتلعها من أساسها ثم قلبها على أهلها، وغشاهم رب العزة بالحجارة ثم المطر الخبيث الذي ما زالت آثاره إلى اليوم البحر الميت ولقد ذكرنا الله به في القرآن حيث قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۞ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فكم يمر عليهم من أناس يكفرون بانتقام الله وعذابه ولا يتعقلون، يمرون على ديار المكذبين وقد أهلكها الرب جل وعلا ودمرها ولا يحرك هذا فيهم دواعي الإذعان والإسلام لله رب العالمين.

وقال أيضاً سبحانه وتعالى بعد أن ذكر تكذيب قوم عاد وثمود وتكذيب قارون وفرعون وهامان قال ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقال أيضاً ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فالصيحة المدمرة التي لا تبقي فرداً ولا تذر، والطوفان المدمر الذي لا

يعصم الله منه حتى أم طفل يخبر عنها الرسول ﷺ أنها لما أحست بالطوفان - طوفان نوح - حملت رضيعها وصعدت بها جبلاً وكلما أدركها الماء صعدت حتى وقفت على قمته فجاءها الماء فرفعت الصبي حتى غطاها الماء فرفعته فوق رأسها. يقول الرسول لو كان الله راحماً واحداً من قوم نوح لرحم هذه المرأة، ولكن جاء أمره بإهلاك المكذبين جميعاً، والخسف وقد وقع بقارون. والمسخ وقد وقع لأقوام من بني إسرائيل وجعل الله هذه نذراً للآخرة كما قال جل وعلا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

وقد فصلت الحكمة في هذا العذاب المعجل عند بيان صفة الرب ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وقد جاء من هذه الصور أهوال الموت بالنسبة للكافر وأنه تنزع روحه من بدنه كما ينتزع السفود من الصوف المبتل (والسفود) هو (السيخ الذي يشوى عليه اللحم) وأنه يرى موضعه من النار قبل نزع روحه، وأنه يسأل في قبره من ملائكة غلاظ شداد. وأنه يعذب في قبره إلى يوم القيامة وكل هذه أهوال لا يعلم عظمها إلا الله ومن أطلعه الله على شيء من ذلك فإنه أعظم هذا الأمر وكذلك قال رسول الله ﷺ «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه» رواه مسلم. ومعنى الحديث أن الرسول ﷺ أراد أن يدعو لأمته أن يشاهدوا عذاب القبر وهم في الدنيا ولكنه خشي أن لا ندفن موتانا لما نطالع من شدة العذاب وهوله.

وأما يوم القيامة فذلك يوم وصفه الله بأنه شديد وأنه عصيب وأنه يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. وقد فصل الله من هوله وشدته في القرآن تفصيلاً كبيراً، وفصل رسول الله ﷺ طوله وشدته وهوله بما يلين أقسى القلوب لو تعى وتعقل فأخبر ﷺ أن طوله كخمسين ألف سنة من سنوات الدنيا، وأن الشمس تدنو فيه من الرؤوس فمن الناس من يأخذه العرق

إلى كعبيه ومنهم من يأخذه العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه العرق إلى ثدييه ومنهم من يلجمه العرق ومنهم من يغط في عرقه غطيطاً، وأخبر أن تارك الزكاة إن كان ماله الذهب والفضة عذب بهما حرقاً لجنبيه وظهره طيلة هذا اليوم ثم يحاسب فيأخذ طريقه إما إلى الجنة وإما إلى النار، وإن كان ماله الإبل أو البقر أو الغنم فإنه يبطح لها بأرض صلبة فتظل تدوسه بالأخفاف والأظلاف وتعضه بالأنياب وتنطحه بالقرون طيلة خمسين ألف سنة ثم يأخذ طريقه بعد الحساب وهذا العذاب إما إلى الجنة وإما إلى النار، وأهوال أخرى لا يتسع لها المقام لشرحها وبسطها والمهم أن نعلم طرفاً من أثار اتصاف الرب جل وعلا بالعزة والانتقام وشدة العذاب، وذلك أن هذا ركن من أركان العقيدة وغاية من غايات التوحيد.

وأما النار ففيها يظهر جلياً نقمة الرب بأعدائه، وعقوبته للكافرين الظالمين، فهي النار ونارنا التي نعرف جزءا من سبعين جزء من تلك النار كما أخبر بذلك الرسول ﷺ والمكث فيها للكافر أبداً، ومع ذلك فإنها لا تقضي على أصحابها قضاء يستريحون بعده، ولا تفتر عنهم زمناً يهدؤون فيه، ولا يرون فيها شيئاً من راحة أو سرور. قال تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة تنفعه، وقال إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى، وأخبر تبارك وتعالى أن الموت ياتي أهل النار من كل مكان فالنار محرقة والحيّات والأفاعي سامة قاتلة، والزقوم يقطع الأمعاء والماء الحار يشوي الوجوه، ويغلي في البطون. وأزواج من الشراب لا تحصى كثرة بعضها هو عصارة أهل النار ومع ذلك لا يموت الكافر بكل ذلك كما قال الله تعالى ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

وليس هذا فقط بل على رأسه ملائكة غلاظ شداد بيدهم مقامع من الحديد كما أراد الكافر خروجاً من النار ضائقاً بحرها مستغيثاً مستجيراً وقعت المقمعة على رأسه فردته في الهاوية قال تعالى ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ* يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ* وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ* كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وأولئك الملائكة خلقهم الله غلاظاً شداداً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولذلك يستغيث الكفار برئيسهم (مالك) ألف سنة قائلين يا مالك ليقض علينا ربك. ولكنه لا يرد عليهم إلا بعد ألف سنة، قائلاً: إنكم ماكثون. هذا فقط بالجملة الإسمية المؤكدة بأن، والتي تقتضي البقاء والاستمرار. ولقد فصل الله من هذا الهول في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ الشيء الكثير والإيمان بهذه الأخبار هو نصف طريق السعادة ولذلك قال تعالى عن يوم القيامة ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ* وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فلا يعذب أحد أعداءه كما يعذب الله أعداءه ولا يستطيع أحد أن يسلسل المجرمين ويوثقهم كما يفعل الله سبحانه وتعالى فسبحانه من إله قوي قادر جبار متكبر عزيز ذي انتقام.

آثار هذه الصفة في قلب المؤمن:

١ - الإيمان بما وصف الله سبحانه نفسه هو أول واجب على المسلم ولما وصف الله سبحانه نفسه بأنه شديد العقاب وبأنه العزيز الغالب الذي لا يغلبه أحد وأنه الجبار الذي ملك كل شيء وأنه المتكبر سبحانه وتعالى كان إثبات هذه الصفات لله سبحانه وتعالى واعتقادها هو أول واجب على كل مسلم.

٢ - ولا يكاد المؤمن الحق يلامس سمعه هذه القوارع من آثار تلك الصفات حتى يخشع قلبه ويقشعر جلده كما قال تبارك وتعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوجل هو الخوف مع التعظيم، وقال ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وقال ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾. والقرآن فيه بيان لصفة الله عز وجل وانتقامه وعذابه مما يهد الجبال لو كان موجهاً

إليها كما قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي ولو كان هناك كلام يفعل هذا الفعل لكان كلام الله القرآن هو أحق الكلام بذلك، فخوف القلب ووجله من قوارع القرآن وفيه بيان لصفة الله عز وجل الجبار ذي العزة والجبروت صفة لازمة من صفات المؤمن وعلى العكس من ذلك الكافر والمنافق لا يأبه لهذه الصفات بل قد يستهزىء بها ويردها ولا يحسب حساباً لعقاب الله وانتقامه وشدة عذابه.

٣ - ومن ثمرات هذا الخوف والوجل والاستقامة على أمر الله سبحانه وتعالى فمن خاف عمل على أن هذا الخوف يدفع إلى أعاجيب الأعمال كما قال تبارك وتعالى عن بعض المؤمنين أطعموا آخر ما عندهم من طعام وهم أحوج الناس إليه، وذلك لخوفهم عذاب الله سبحانه وتعالى. قال عز وجل في شأنهم ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۞ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ الآية.

فهؤلاء المؤمنين ما حملهم على هذا الفعل العجيب إلا خوفهم عذاب الله سبحانه وتعالى، وكذلك بالمقابل لما أحس الكافر عذاب الله ولم يخف مكر الله به، اندفع في طغيانه غير عابىء بشيء كما قال جل وعلا ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۞ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يستهزىء ويستبعد وقوع القيامة، وكذلك انطلق في فجوره لا يعبأ بشيء.

فالخوف من الله سبحانه وتعالى هو أكبر وازع وحامل للمؤمن على طاعته والعبد عن معصيته، كما أن رجاء ما عند الله من جنة وخير ورضوان وازع كذلك، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: ينبغي للمؤمن أن يطير إلى الله بجناحين: جناح للرغبة وجناح للرهبة.

فالمؤمن دائماً راج خائف، راج رحمة ربه تبارك وتعالى لأنه هو الغفور الرحمن الرحيم، خائف من عقابه لأنه هو الجبار ذي العزة والجبروت والانتقام، أليس الله بعزيز ذي انتقام.

وحال المؤمن هذه من الخوف والطمع هي أكمل الأحوال بل حال

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كما قال تعالى عنهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ وقال في حق المؤمنين المخلصين الذين أقاموا ليلهم ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩* تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فهؤلاء الذين ادخر الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قاموا الليل ودعوا ربهم خائفين طامعين. خائفين، عذابه طامعين في مغفرته.

إذا علمت ذلك فلا تغتر بما يروجه الصوفيَّة من أقاويل أنهم عبدوا الله لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته، وأن عبادتهم أكمل عبادة وزعموا أن عبادة الخوف عبادة العبيد وعبادة الرجاء عبادة التجار وأنهم عبدوا الله خالصاً.

فإذا كان الأنبياء وسيدهم محمد ﷺ يعبدون الله خائفين طامعين، وكذلك خيار المؤمنين فمن أفضل منهم؟! ولما ظن أولئك القوم ذلك ابتغوا بالعمل الفناء في الله وجرهم هذا إلى القول بالاتحاد ووحدة الوجود وتجد هذا مفصلاً في مقام آخر.

والمهم أن نعلم هنا أن الشعور الصحيح نحو الله سبحانه وتعالى هو الخوف منه والرغبة فيما عنده مع كمال الحب له سبحانه وتعالى كما قال جل وعلا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وقال أيضاً ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، الآية.

فمن أحب الله سبحانه وتعالى وخافه واتقاه، وطمع في مرضاته وجنته فقد عرف ربه حق العبادة، اللهم ارزقنا محبتك وخوفك، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، إنك أنت السميع العليم.

كلمات الله

مدح الله تبارك وتعالى نفسه في القرآن بأن كلماته لا تحد ولا تعد ولا تحصى، قال تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

وقال أيضاً سبحانه وتعالى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وهذا يعني سعة علمه وحكمته سبحانه وتعالى، كما يعني كثرة أوامره ونواهيه وخلقه وتكوينه.

فكلمات الله كلها صدق وعدل كما قال تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقال ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقوله الله للشيء الذي يريد تكوينه كن لا يتردد ولا يتكرر كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾.

وكلمات الله التي شرع بها لعباده كثيرة طيبة فقد أُنزل القرآن على محمد ﷺ والتوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود، وأعطى إبراهيم صحفاً. وكلها كلماته سبحانه وتعالى.

وتكليم الله سبحانه وتعالى لأحد من خلقه يعني التشريف والاجتباء والاختبار ولذلك امتن الله سبحانه وتعالى على عبده ورسوله موسى بهذا. فإن موسى قد طلب أن يرى الله سبحانه وتعالى في الدنيا فقال له الله ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ

دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ* قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي اشكر الله على اختياره لك واختصاصه لك بالرسالات وهي الوحي والكلام، واقنع بهذا ولا تطلب المزيد، والمزيد الذي طلبه موسى هو رؤية الله تبارك وتعالى.

وهذا الكلام الذي اختص به الله سبحانه وتعالى موسى كان عند عودته من مدين إلى مصر حيث رأى ناراً فذهب إليها فناداه الله من جانب الطور، وكلمه بكلام طويل ذكر الله أطرافاً كثيرة منه في القرآن من ذلك أنه قال له ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وقال له أيضاً ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ إلى كلام طويل ذكّره الله فيه بنعمته عليه حيث أنجاه من فرعون طفلاً رضيعاً، وشاباً قوياً عندما قتل المصري ثم أمره الله بإبلاغ دينه إلىٰ فرعون وقومه، ودعوة بني إسرائيل لتخليصهم من ظلم الفراعنة.

ولم يختص الله موسى بهذا التكليم دون سائر الرسل فإن محمد ﷺ قد اصطفاه الله واجتباه، وعرج به إلى السماء وسمع كلام الله الذي فرض عليه وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة. وأحاديث المعراج معروفة مشهورة في كتب الحديث كلها.

وأما جبريل فإنه عبد الله ورسوله من الملائكة إلى رسله من البشر، وهو المبلغ لكلامه سبحانه وتعالى إلى من يختارهم الله ويخصهم بشيء من الوحي.

كما قال تعالى عنه ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ* ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ* وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وشديد القوى في هذه الآية هو جبريل وقال أيضاً ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ* عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

وقال ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾.

بل إن الله سبحانه وتعالى ينادي جبريل في شئون غير الوحي إلى الأنبياء، من ذلك مثلاً ما جاء في صحيح البخاري أن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبداً

نادى جبريل إن الله قد أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض (١١٤ ج١ البخاري) ومثل هذا حديث الله مع الملائكة الذين يتعاقبون فينا في الليل والنهار. قال رسول الله ﷺ [يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار. ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر. ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون، وآتيناهم وهم يصلون] (البخاري ١١٤ ج١).

وأحياناً يكون كلام الله سبحانه وتعالى لبعض خلقه ليس للتشريف، فقد جاء القرآن بأن الله سبحانه وتعالى يعنف الكفار في عرصات يوم القيامة، وعندما يدخلون النار. كما قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وقال أيضاً ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ويقول أيضاً سبحانه وتعالى يوم القيامة رداً على الكفار الذين يستغيثون ويصرخون قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

ولا شك أن هذا الكلام كله إنما هو للإهانة والتحقير والتعنيف وذلك بخلاف كلامه سبحانه وتعالى مع أهل الجنة حيث يسلم عليهم قائلاً ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ كما قال سبحانه وتعالى ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي تحيتهم في الجنة سلام وهي تصدر قولا من رب رحيم. وهذا لا ينافي أن الملائكة تسلم عليهم أيضاً قائلين ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

وأحياناً يكون كلام الله مع بعض خلقه لمجرد الإقرار وإثبات الحجة كما جاء في القرآن إن الله سبحانه وتعالى ينادي عيسى عليه الصلاة والسلام يوم القيامة أمام من زعموا أنهم أتباعه والمؤمنون به قائلاً له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ فيرد عيسى عليه السلام قائلاً ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، الآيات.

فتنة التأويل الباطل وآثارها العقائدية:

ومع كل هذه النصوص الصريحة الواضحة من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ فإنه قد نشأ في المسلمين مع بداية القرن الثاني من زعم أن الله سبحانه وتعالى لم يكلم موسى تكليماً، بل لم يكلم ولا يكلم أحداً وإنما يخلق كلامه كما خلق في الشجرة التي رأى موسى عندها النار. أو أن الله سبحانه وتعالى يخلق لمن أراد أن يكلمه فهما بمراده سبحانه وتعالى دون أن يكون الله متكلماً بذاته.. وكان على رأس القائلين بهذا القول الجعد بن درهم ثم جهم بن صفوان ثم انتقل إلى المعتزلة وثم أصبح فتنة عامة في المسلمين عندما تصدر علماء المعتزلة القضاء والإفتاء والتوجيه الديني في عهد المأمون العباسي وحدث ما يسمى بفتنة (خلق القرآن) فقد امتحن أهل السنة وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ليلزموا بالقول (بخلق القرآن) فأصر الإمام أحمد على عقيدته من أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأنه سبحانه وتعالى يتكلم بما شاء كيف يشاء وأنه سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال متكلماً كما جاء هذا في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

وقد أنكر على المعتزلة والجهمية أقوام ممن نسب إلى السنة ولكنهم خلطوا بين آيات القرآن والأحاديث وبين قواعد قعدوها في العلم المسمى «بعلم الكلام» وهي قواعد مأخوذة عن المنطق الذي وضعه «أرسطو» والكلام في الإلهيات المنقول عن فلاسفة اليونان. وكان لهذا الخلط أثر كبير في حمل هؤلاء على تأويل كثير من آيات القرآن والأحاديث تأويلاً بعيداً ومن هذا التأويل هنا جعلهم كلام الله تبارك وتعالى صفة نفسية ليست بحرف ولا صوت وأنها قائمة بذات الله سبحانه وتعالى، فخالفوا المعتزلة فقط في قيام هذه الصفة. قالت المعتزلة: يخلقها الله في غيره، أي يخلق الله الكلام في غيره كالهواء مثلاً أو الشجرة، وقال هؤلاء وهم ابن كلاب والأشعري ومن تبعهما من أهل الكلام: بل هي قائمة بذات الرب ولكنها دون حرف ولا صوت ومن أراد الله تكليمه فإنه يفهمه مراده سبحانه وتعالى.

وقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله وأهل السنة هذا وهذا وقالوا بل الرب تبارك وتعالى لم يزل متكلماً ولا يزال كما يشاء وكلامه سبحانه وتعالى لا يشبه شيئاً من كلام المخلوقين لأن ذاته سبحانه وتعالى لا تشبه ذوات المخلوقين. واستدل أهل السنة على اعتقادهم هذا بالأدلة السالفة التي سقتها في بدء هذه القضية وبأدلة أخرى منها:

١ - ما رواه البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ «يقول الله يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار» (البخاري ص ١١٤ ج١).

٢ - وما رواه البخاري أيضاً عن ابن مسعود قال «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئاً، فإذا فزع عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحق، ونادوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق، ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس قال سمعت النبي ﷺ يقول «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كمن قرب: أنا الملك. أنا الديان».

٣ - وبما رواه أيضاً عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان.

واستدل أهل السنة كذلك بالآيات القرآنية التي جاء فيها لفظ التكليم كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ بأن الكلام يخالف الوحي والإلهام. وأن منزله فوق الوحي والإلهام وقد امتن الله بها على عبده ورسوله موسى عليه السلام فقال ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ فذكر هذا في موضع الامتنان ولو كان المقصود بكلام الله لموسى هو مجرد كونه أن يلهمه فهم مراده سبحانه وتعالى لما كان في ذلك تخصيصاً لموسى على غيره من الأنبياء بل حتى على أم موسى التي أوحى الله إليها أن تلقيه في أليم عندما خافت عليه بطش فرعون. وقد جاء تخصيص موسى بالكلام في آيات أخر كقوله تعالى ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ والله هنا فاعل أي

من كلمة الله. وهذه أعلى مراتب التفضيل ولذلك ذكرها أول ما ذكرها، ولو كان الكلام هو مجرد أن ينشىء الله فهما للرسول بمراد الله تبارك وتعالى لكان هذا إلهاماً وهو دون الوحي. حتى أن كثيراً من المتصوفة نسب هذا إلى نفسه فيقول أحدهم (حدثني قلبي عن ربي) وقد سموه فيضاً، وفتحاً، وكشفاً. فكيف يقال بأن كلام الله سبحانه وتعالى إنما هو مثل هذا الإلهام والفهم.

٤ - ومن الأدلة أيضاً أن الله سبحانه وتعالى سمى كلامه نداء كما قال تعالى ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وقال أيضاً سبحانه وتعالى ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ فالنداء أخص من الكلام، والنجوى هي الحديث السري فسمى الله كلامه لموسى نداء وكلاماً ونجوى. ومعلوم أن القرآن بلسان عربي مبين وقد عبر الله سبحانه وتعالى عن طرق أخرى لإيصال مراده إلى رسله كالوحي والإلهام والنفث في الروع وكل هذا يخالف النداء والكلام والنجوى.

وهذه النصوص الظاهرة الواضحة القطعية يفهمها أهل السنة كما يفهمون جميع الآيات التي فيها صفات الرب جل وعلا فيثبتون لله سبحانه وتعالى ما أثبته لنفسه دون تشبيه بصفات المخلوقين فيقولون: يتكلم الله لا ككلامنا، كما أنه سبحانه وتعالى يسمع ويرى لا كسمعنا ولا كرؤيتنا بل سمعه وبصره سبحانه وتعالى لائقان بذاته وكذلك فكلامه سبحانه وتعالى لائق بجلاله.

وأما الذين تابعوا ابن كلاب والأشعري وافقوهما من أن الله سبحانه لا يتكلم بمشيئته وقدرته لامتناع قيام الأمور الاختيارية به، لأنهم زعموا أن هذه الأمور الاختيارية كالكلام حادثة والله لا تقوم به حوادث. فإنهم لهذا الزعم الخاطىء حرفوا الكلام عن معناه فقالوا كلام نفسي يقوم بذات الرب. ولذلك عطلوا صفة من صفات الرب جل وعلا ولو قالوا نثبت لله سبحانه وتعالى ما أثبته لنفسه ونعتقد جازمين أنه لا يشبه صفات المخلوقين لهدوا إلى الرشد. ولم يجروا على المسلمين فتنة كانت من أشد فتنهم ظلمة وانحرافاً وما زالت آثار فتنتهم إلى اليوم.

آثار الإيمان بهذه الصفة في قلب المؤمن:

عندما يتتبع المؤمن هذه النصوص الكثيرة الطيبة في الكتاب والسنة التي يمدح الله فيها نفسه بكثرة كلماته حتى إنها لتعجز البحار عن الإحاطة به أو نقلها إلى كلمات مكتوبة، يعلم مقدار علم الله سبحانه وتعالى ومقدار عظمته. وعندما يشهد المؤمن أن الله يتكلم بما شاء كيف يشاء فإنه يثبت لله صفة من صفات الكمال وينفي عنه صفات النقص سبحانه وتعالى وعندما يعلم أن الله سبحانه وتعالى يسلم على عباده المؤمنين في الجنة يسأله سبحانه وتعالى أن يكون واحداً منهم ليستمتع وينعم بسماع كلام الله عز وجل كما سينعم المؤمنون فيها برؤيته سبحانه وتعالى كما روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ [إن الله يقول لأهل الجنة، يا أهل الجنة: فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً].

ولا شك أن الذين سيكلمون الله على هذا النحو هم المؤمنون الموحدون وأنهم بكلامهم هذا مع ربهم تبارك وتعالى فإنهم قد نعموا وأي نعيم، وقد شرفوا وأي شرف، وقد سعدوا وأي سعادة. فاللهم اجعلنا منهم.

وأعجب من هذا ما رواه البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه كان يوماً يحدث - وعنده رجل من أهل البادية - أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع. فقال له أولست فيما شئت؟ قال بلى ولكني أحب الزرع فأسرع وبذر فتبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال. فيقول الله تعالى: دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء. فقال الأعرابي: يا رسول الله لا تجد هذا إلا قرشياً أو أنصارياً فإنهم أصحاب زرع، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع. فضحك رسول الله ﷺ. فانظر كيف يتكلم الله مع رجل

من أهل الجنة بدا له أن يزرع وهو فيما يشتهي من كل الزروع. فعجبنا لابن آدم يشتهي الزرع حتى في الجنة. والشاهد امتنان الله على أهل الجنة بأن يكلمهم ويحادثهم سبحانه وتعالى. مع العلم أن كلام الله سبحانه وتعالى لأحد في الدنيا إنما هو اجتباء خاص لم ينله - فيما أعلم - إلا موسى ومحمداً وآدم صلى الله عليهم وسلم. ولذلك قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ فالله سبحانه وتعالى يكلم من شاء من عباده في الدنيا من وراء حجاب كما كلم موسى ولم يره موسى، وكلم محمد ﷺ أيضاً ولم يره الرسول ﷺ، وأما في الآخرة فإن الله يكلم المؤمنين في الجنة وهم يرونه سبحانه وتعالى كما قال رسول الله ﷺ «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وإن يروا ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

هذا شأن المؤمنين المتقين الموحدين وأما علماء السوء الذين كتموا ما أنزل الله من الكتاب واشتروا بهذا الكتمان الوظائف والمناصب والمنافع الدنيوية فإنهم يحجبون عن كلام الله عز وجل يوم القيامة ويا لها من إهانة بليغة كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك أنهم نقضوا العهد الذي أخذه الله عليهم ببيان الكتاب وعدم كتمان العلم فخالفوا عهد الله ونقضوه فكتموا العلم ولم يبينوا للناس كتاب الله الذي ورثهم الله إياه فكان جزاؤهم أن الله لا يكلمهم يوم القيامة. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فاللهم اجعلنا ممن تمن عليهم بكلامك وتقربهم وتحبهم.

هذا وبعض عصاة المؤمنين يقفون في عرصات يوم القيامة فيفرض عليهم كنفه ويناجي أحدهم قائلاً له: أتذكر كذا؟ أتذكر كذا؟ ويذكره الله ذنوبه التي سلفت منه في الدنيا فإذا أيقن الهلاك قال الله تبارك وتعالى له: ﴿فإني قد سترتها عليك في الدنيا واليوم أغفرها لك﴾.

وأما المجرمون من أهل النار فإنه محجوبون عن ربهم يوم القيامة وإن كان الله يكلمهم، كقوله تعالى ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وقوله ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وكقوله تعالى لهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟ فإنما هو كلام للتبكيت واللوم والتأنيب، لا يستفيدون منه إلا الحسرة والندامة فاللهم جنبنا طريق هؤلاء وارزقنا طريق الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

كتاب

ملامح المنهج المعتدل

وأثر وسطيته

في حياة المسلمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بحث مقدم إلى:

ملتقى خادم الحرمين الشريفين الإسلامي الثقافي الخامس

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآيــة ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّســاء: الآيــة ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ❁ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد،،،

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ؟، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد فهذه بعض الأصول والقواعد التي تبين ملامح المنهج الوسط صراط أهل السنة والجماعة أسأل الله سبحانه وتعالى أن يؤلف قلوبنا عليه، وأن

يجمع أمة الإسلام على كتابه وسنة نبيه وسنة خلفائه الراشدين المهديين وصحابته وآل بيته الطيبين الطاهرين، وأن يجعلنا من التابعين لهم بإحسان، إنه هو السميع العليم.

كتبه:

عبدالرحمن عبدالخالق

* أولاً: الاعتصام بالوحي:

أول مبادئ المنهج المعتدل القويم منهج أهل السنة والجماعة هو الاعتصام بالوحي المنزل على عبدالله ورسوله محمد ؟ كتاب الله وسنة نبيه، وكلاهما وحي من الله جل وعلا.

قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هُود: الآية ١١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ [آل عِمـرَان: الآيـة ٣١]، وقـال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النِّساء: الآية ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ﴾ [الحَشر: الآية ٧] والآيات في هذا المعنى كثيرة. فلا إيمان لمن لم يؤمن بالقرآن، ويتبع سيد الأنام محمد بن عبدالله عليه السلام.

ولذلك كان أول أصول أهل السنة والجماعة الأخذ بالقرآن، وبسنة رسول الله ﷺ.

فمن فرق بين القرآن والسنة فقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض فقد كفر لأن كلاهما من الله سبحانه وتعالى.

والرسول ﷺ لا يكذب على الله فما حدث به عن الله فهو حق ولا شك، قال رسول الله ﷺ: "وَلَكِنْ إِذَا حَدّثْتُكُمْ عَنِ اللّهِ شَيْئاً، فَخُذُوا بِهِ. فَإِنّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَىَ اللّهِ عَزّ وَجَلّ". (رواه مسلم).

ومن ظن أنه يسعه ترك السنة، وهي أقوال الرسول، وأعماله وتقريره، فقد كفر.

* ثانيا: صحة الاعتقاد:

لا يكون المؤمن مؤمناً حقاً إلا إذا كان صحيح الاعتقاد في إيمانه بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى.

وكل انحراف في مسألة أو أكثر من مسائل الإيمان فهو خروج عن الدين القويم، والصراط المستقيم.

ولا يكون الاعتقاد صحيحاً إلا إذا كان كما أخبر الله به في كتابه وسنة رسوله ؟، فالإيمان بالله يجب أن يكون كما وصف الله به نفسه، ووصفه رسوله من غير تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تأويل باطل يحرف الكلم عن مواضعه ومعانيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فالأصل في هذا الباب (باب أسماء الله وصفاته) أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله: نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه.

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد، لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠] .. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصّلت: الآية ٤٠] ..

فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات، مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تشبيه، وتنزيهاً بلا تعطيل كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] .

ففي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل.. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] رد للإلحاد والتعطيل.

والله سبحانه: بعث رسله بإثبات مفصل، ونفي مجمل، فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٦٥]

قال أهل اللغة: هل تعلم له سمياً أي نظيراً يستحق مثل اسمه، ويقال: مسامياً يساميه، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس هل تعلم له سمياً مثيلاً أو شبيهاً. وقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (الإخلاص: ٣-٤).

وأما الإثبات المفصل: فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله في محكم آياته كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] ، وقوله: ﴿قل هو الله أحد۞ الله الصمد..﴾ .(الإخلاص: ١-٤) وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: الآية ٤] ، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يُونس: الآية ١٠٧] ﴿وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد﴾ (البروج: ١٥) .﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٣-٤).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ٢٨] وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٥٤]. وقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البَيِّنَة: الآية ٨]. وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٣]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: الآية ١٠] . وقوله:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: الآية ٢١٠]. وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصّلت: الآية ١١].

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٦٤]. وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: الآية ٥٢]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: الآية ٦٢]. وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: الآية ٨٢].

وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٢-٢٤) .

إلى أمثال هذه الآيات، والأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في أسماء الرب تعالى وصفاته، فإن في ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته بنفي المثيل، ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل فهذه طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولهذا سمى الله نفسه بأسماء، وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به، إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم، مضافة إليهم، توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص ، ولم يلزم من اتفاق الاسمين، تماثل مسماهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة، والتخصيص اتفاقهما، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص، فضلاً عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص.

فقد سمي الله نفسه حياً، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] وسمي بعض عباده حياً، فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ

﴿مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [يُونس: الآية ٣١] وليس هذا الحي مثل هذا الحي، لأن قوله الحي اسم لله مختص به..

وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعَام: الآية ٩٥] اسم للحي المخلوق مختص به، وإنما يتفقان إذا أطلقا وجردا عن التخصيص، ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج، ولكن العقل يفهم من المطلق قدراً مشتركاً بين المسمين، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق، والمخلوق عن الخالق.

ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته، يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق، وما دل عليه بالإضافة والاختصاص: المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى.

*** علوُّ الله على خلقه واستواؤه على عرشه:**

ومن صفاته عز وجل علوه على خلقه واستواؤه على عرشه فله سبحانه وتعالى العلو المطلق علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وهو من صفاته الذاتية التي تثبت بالعقل والنقل والفطرة..

قال العلامة ابن أبي العز الحنفي: "وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع، ثابت بالعقل والفطرة" (شرح الطحاوية ص/٣٢٥) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "القول بأن الله تعالى فوق العالم معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.. والأحاديث عن النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين متواترة بذلك" (درء التعارض ٧/ ٢٦)

وقال أيضاً: "وإذا قيل (العلو) فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء، ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظرف وجودي يحيط به إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله " (التدمرية ص/٨٨)

وقد أجمع سلف الأمة وأئمة السنة على إثبات صفة الاستواء على العرش

لله عز وجل استواءً يليق بجلاله وكماله بلا كيف كما أخبر سبحانه عن نفسه في سبع آيات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥] . ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٩) .. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (الأعراف: ٥٤)..

قال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الصابوني الشافعي: "وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف رحمهم الله لم يختلفوا في أن الله تعالى على عرشه، وعرشه فوق سماواته يثبتون له من ذلك ما أثبته الله تعالى، ويؤمنون به ويصدقون الرب جل جلاله في خبره، ويطلقون ما أطلقه سبحانه وتعالى من استوائه على العرش، ويمرونه على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله" (عقيدة السلف ص/ ١٥) أي علم الكيفية.

وقال القرطبي في تفسير الجامع لأحكام القرآن: "وقد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته، قال مالك رحمه الله: "الاستواء معلوم - يعني في اللغة - والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة، وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها" (الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢١٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله: الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسول الله ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة، من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه، عليّ على خلقه، وهو معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون كما جمع بين ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤)..

وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] أنه مختلط بالخلق،

فإن هذا لا توجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق" (الفتاوى ٣/ ١٧٧)

وكل ما سبق ذكره من أنواع التوحيد في الربوبية، والإلهية، والأسماء، والصفات، والحاكمية داخل في شهادة العبد ﴿أن لا إله إلا الله﴾..

*** تحقيق التوحيد بإخلاص الدين لله:**

"ومن تحقيق التوحيد: أن يعلم أن الله تعالى أثبت له حقاً لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل، والخوف، والخشية، والتقوى كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ١١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٤] إلى قوله: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤]..

وكل من الرسل يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ٥٩].

وقد قال في التوكل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٣] ..﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٢]، وقال: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٥٩].

فقال في الاتيان: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبَة: الآية ٥٩] .. وقال في التوكل: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٣] ولم يقل: ورسوله؛ لأن الإتيان هو الإعطاء الشرعي، وذلك يتضمن الإباحة والإحلال الذي بلغه الرسول، فالحلال ما أحله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحَشر: الآية ٧]..

وأما الحسب فهو الكافي، والله وحده كاف عبده كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٣] فهو وحده حسبهم كلهم، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفَال: الآية ٦٤] أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هو الله، فهو كافيكم كلكم.

وقال في الخوف والخشية والتقوى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: الآية ٥٢] فأثبت الطاعة لله والرسول، وأثبت الخشية والتقوى لله وحده، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ فجعل العبادة والتقوى لله وحده، وجعل الطاعة للرسول، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله.

وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٤] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٥] . وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨١-٨٢)

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ قال ﷺ: "إنما هو الشرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمَان: الآية ١٣] " (متفق عليه)

ومن هذا الباب أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: "بئس الخطيب أنت، قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى" (رواه مسلم)

وقال: "ولا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد" (رواه أحمد وابن ماجه)

ففي الطاعة: قرن اسم الرسول ﷺ باسمه بحرف الواو، وفي المشيئة: أمر أن يجعل ذلك بحرف ثم، وذاك لأن طاعة الرسول طاعة لله، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وطاعة الله طاعة الرسول، بخلاف المشيئة فليست مشيئة أحد من العباد مشيئة لله. ولا مشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد، بل ما شاء الله كان، وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لم يكن إن لم يشأ الله. (الفتاوى ٣/ ١٠٧-١٠٩)

"وكان النبي ﷺ يحقق التوحيد، ويعلمه أمته، حتى قال له رجل: ما شاء الله وشئت فقال: "أجعلتني لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده"، وقال: "لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن ما شاء الله ثم شاء محمد". ونهى عن الحلف بغير الله فقال: "من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت" (متفق عليه)

وقال: "من حلف بغير الله فقد أشرك" (رواه أبو داود والترمذي)

وقال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله" (رواه البخاري)

ولهذا اتفق العلماء على أنه ليس لأحد أن يحلف بمخلوق كالكعبة ونحوها.

ونهى النبي ﷺ عن السجود له، ولما سجد بعض أصحابه نهاه عن ذلك وقال: "لا يصلح السجود إلا لله"، وقال: "لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها" (رواه أحمد والترمذي والحاكم)

وقال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: "أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟" قال: لا. قال: "فلا تفعلوا" (رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيحه)

ونهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، فقال في مرض موته: "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذر ما فعلوا. (متفق عليه)

قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال قبل أن يموت بخمس: "ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبيائهم وصالحيهم مساجد، الا فلا تتخذوا القبور مساجد"، وقال ﷺ: "وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني"، ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء المساجد على القبور، ولا تشرع الصلاة عند القبور، بل كثير من العلماء يقول الصلاة عندها باطلة.

وذلك أن من أكبر أسباب عبادة الأوثان كان التعظيم للقبور بالعبادة، ونحوها، قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (نوح:٢٣) قال طائفة من السلف: كانت هذه أسماء قوم صالحين، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم وعبدوها.

ولهذا اتفق العلماء على أن من سلم على النبي ﷺ عند قبره أنه لا يتمسح بحجرته ولا يقبلها، لأن التقبيل والاستلام إنما يكون لأركان بيت الله الحرام، فلا يشبه بيت المخلوق ببيت الخالق.

وكذلك الطواف والصلاة والاجتماع للعبادات إنما تقصد في بيوت الله، وهي المساجد التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فلا تقصد بيوت المخلوقين فتتخذ عيداً، كما قال ﷺ: "لا تتخذوا بيتي عيداً" كل هذا لتحقيق التوحيد الذي هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملاً إلا به، ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٤٨)

ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه، فأعظم آية في القرآن أية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] وقال ﷺ: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة" (رواه أحمد وأبو داود، والحاكم)

والإله: الذي يألهه القلب عبادة له، واستعانة، ورجاء له، وخشية،

وإجلالاً، وإكراماً" (الفتاوى ٣/ ٣٩٧-٤٠٠)

فيجب صرف العبادة كلها لله وحده لا شريك له من صلاة وذبح، ووفاء نذر، وصوم، وحج، وطواف، ودعاء، وغير ذلك من العبادات. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٢]. وقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧] . وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)..

فسمى الله الدعاء عبادة، فمن دعا غير الله عز وجل فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك بالله: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ (المائدة: ٧٢) ..﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] ..

هذا ولا بد في عبادة الله عز وجل من شرطين لقبولها:

أحدهما: إخلاص الدين له.

الثاني: موافقة أمره الذي بعث به رسله، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: (اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً)، وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] قال: أخلصه وأصوبه، قالوا يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

ولهذا ذم الله المشركين في القرآن على اتباع ما شرع لهم شركاؤهم من الدين مما لم يأذن به الله من عبادة غيره، وفعل ما لم يشرعه من الدين، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: الآية ٢١] كما ذمهم على أنهم حرموا ما لم يحرمه الله.. والدين الحق أنه لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه. (الفتاوى ٣/ ١٢٤)

*** إجماع سلف الأمة على إثبات صفات الله سبحانه وتعالى من غير تحريف أو تمثيل أو تشبيه:**

وقد أجمع سلف الأمة وأهل السنة على إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي ما نفاه عن نفسه.

قال حافظ الشرق الخطيب البغدادي في الصفات: "ما روى منها في السنن الصحاح، مذهب السلف رضوان الله عليهم إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها.

وقد نفاها قوم ؛ فأبطلوا ما أثبته الله سبحانه، وحققها قوم من المثبتين، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف.

والقصد إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين، ودين الله بين الغالي والمقصر عنه، والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله.

فإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين عز وجل إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود، لا إثبات تحديد وتكييف .

فإذا قلنا: لله تعالى يد وسمع وبصر، فإنما هي صفات أثبتها الله تعالى لنفسه، ولا نقول: إن معنى اليد: القدرة، ولا أن معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح.

ونقول: إنما وجب إثباتها لأن التوقيف ورد بها ووجب نفي التشبيه عنها لقوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] . وقوله عز وجل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: الآية ٤] " (الكلام على الصفات ص/ ٢٠-٢٣)

وقال حافظ المغرب ابن عبدالبر في التمهيد: "أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع، والجهمية، والمعتزلة كلها والخوارج، فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون به بما نطق كتاب الله وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة والحمد لله" (التمهيد ٧/ ١٤٥)

وقال الإمام الفقيه محمد بن الحسن الشيباني - صاحب أبي حنيفة -: "اتفق الفقهاء كلهم من الشرق إلى الغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل، من غير تفسير ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، فإنهم لم يفسروا، ولكن أفتوا بما كان في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة لأنه وصفه بصفة لا شيء" (اللالكائي ٣/ ٣٤٢)

والمقصود بقوله (من غير تفسير) أي يخالف ظاهرها اللائق بالله تعالى، وأما توضيح المعنى فقد تواتر عن الصحابة ومن أخذ عنهم العلم من التابعين توضيح معاني القرآن بلا تفريق بين آيات الصفات، وغيرها كما هو منثور في كتب التفسير بالمأثور.

* القرآن الكريم كلام الله عز وجل حقيقة:

ومن الصفات العظيمة الكريمة لله عز وجل صفة الكلام كما أخبر عن نفسه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٦٤] . ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] . ولم يزل سبحانه متصفاً بها على الوجه اللائق بكماله وجلاله ومن كلامه القرآن الكريم..

قال ابن قدامة المقدسي: "ومن كلام الله سبحانه القرآن الكريم، وهو

كتاب الله المبين، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو سور محكمات، وآيات بينات، وحروف وكلمات، من قرأه فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، له أول وآخر، وأجزاء وأبعاض، متلو بالألسنة، محفوظ في الصدور، مسموع بالآذان، مكتوب في المصاحف، فيه محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وأمر ونهي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: الآية ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٨] " (لمعة الاعتقاد/ ١٨-١٩)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "مذهب سلف الأمة وأهل السنة أن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، هكذا قال غير واحد من السلف، روى عن سفيان عن عمرو بن دينار - وكان من التابعين الأعيان - قال: ما زلت أسمع الناس يقولون ذلك.

والقرآن الذي أنزله الله على رسوله ﷺ هو هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون، ويكتبونه في مصاحفهم، وهو كلام الله لا كلام غيره، وإن تلاه العباد وبلغوه بحركاتهم وأصواتهم، فإن الكلام لمن قاله مبتدئاً لا لمن قاله مبلغاً مؤدياً، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: الآية ٦]، وهذا القرآن في المصاحف كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ (البروج:٢١-٢٢)، وقال تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة: ٢-٣)، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ (الواقعة:٧٧-٧٨)..

والقرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه، كل ذلك يدخل في القرآن وفي كلام الله، وإعراب الحروف هو من تمام الحروف" (الفتاوى ٣/ ٤٠١)

* ثالثاً: التزام الوسطية والحذر من الغلو والجفاء:

الملمح الثالث من ملامح المنهج المعتدل : هو التزام الوسطية والحذر من الغلو والجفاء وذلك في الاعتقاد والعمل قال تعالى : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ (النساء: ١٧١).

وقال رسول الله ﷺ : "لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله" (البخاري).

الغلو في الاعتقاد هو الزيادة فيه، والغلو في العمل هو التشدد والتنطع. والجفاء في الاعتقاد هو التقصير عن الحق، وجحد الصفات والفضل والخير، والجفاء في العمل هو التفريط والتهاون والتساهل.. وكلا الأمرين مذموم.

وقد وقع بسبب الغلو والجفاء الضلال في الأمم السابقة؛ فالنصارى غلو في المسيح عليه السلام حتى عبدوه وجعلوه إلهاً بل رباً خالقاً رازقاً مع الله.

واليهود جفوا فيه حتى نفوا عنه الرسالة والنبوة وقالوا فيه وفي أمه المقالة العظيمة.

والنصارى جفوا في العمل حتى استحلوا المحرمات، واليهود تنطعوا وتشددوا فشدد الله عليهم وكبلهم بالآصار والأغلال.

وقد وقع نحو هذا في هذه الأمة. ففي صفات الله سبحانه وتعالى غلا قوم في الآيات حتى شبهوا الله بخلقه، وجفا نفاة الصفات حتى نفى بعضهم كل ما وصف الله به نفسه من صفة، بل نفوا عنه كلا الأمرين من النفي والإثبات فقال: لا نقول موجود ولا غير موجود، ولا حي ولا غير حي..

وفي الرسول غلا أقوام من الأمة، حتى جعلوا الرسول أول الموجودات ومنه خلق الله كل الموجودات، وأعطوه صفات الرب سبحانه وتعالى. وجفا

أقوام عن حقه فلم يعطوه ما أوجبه الله من الطاعة التامة والتسليم لأمره، ووجوب توقيره وتعظيمه وتعزيره. وتقديم محبته على النفس والوالد والولد.

وفي الإيمان غلا أقوام من الأمة، حتى جعلوا ترك كل واجب في الدين كفراً، وفعل كل كبيرة كفراً ناقلاً عن الملة، ومخلداً في النار، وجفا آخرون فلم يدخلوا العمل كل العمل في أصل الإيمان وجوزوا أن يكون العبد مؤمناً كامل الإيمان أو ناقص الإيمان بمجرد الشهادة باللسان والتصديق بالجنان فقط!!

والدين الحق وسط في ذلك فلا يوجد من العمل بعد الشهادتين ما تركه كفر غير الصلاة التي أجمع الصحابة على كفر تاركها والتي قال فيها رسول الله ﷺ: "بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة". وأما فعل الكبائر وهي المعاصي والذنوب فلا يكفر بها أحد من المسلمين إلا بالاستحلال فقط، ومن مات على شيء من ذلك فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

* رابعاً: العدل في الحكم على الناس:

من أصول أهل السنة والجماعة، العدل في الحكم على الناس، وذلك أنهم الأمة الوسط. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣] (ووسطا) أي: عدولاً. فهم قوامين لله شهداء بالقسط، وقوامين بالقسط شهداء لله كما أمرهم الله سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨)، وكما أمرهم كذلك بقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ١٣٥] .

فالقيام لله أن يكون المؤمن في كل أعماله وأقواله مريداً وجه الرب سبحانه عابداً له قائماً في حدوده، منفذاً لأمره، مجتنباً لنهيه، والقيام بالقسط

هو أن يكون المؤمن عادلاً في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو شهادة، بعيداً عن الظلم كله.

والشهادة لله أن يدلي المؤمن في كل ما يقول من أجل الله مراقباً ربه فيما يقول، والشهادة بالقسط القيام مع الحق والعدل في كل الأقوال والأعمال.

والمؤمن مأمور بالعدل والقسط حتى مع أعدائه، وأعداء دينه، فلا يرمي أحداً بما ليس فيه، ولا يشهد عليه بباطل، ولا يفتري عليه الكذب، وقد يكون مع الكفر عدم الخيانة كما قال الله تعالى: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ (آل عمران: ٧٥) وقد يكون معه أيضاً التزام العهد والوفاء بالوعد كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التّوبَة: الآية ٤].

وكما يقوم أهل المنهج الحق بالعدل مع الناس جميعاً ولو كانوا كفاراً فإنهم يعدلون مع المخالفين من أهل الإسلام وحتى مع من ظلم وكفر من الفرق الضالة، فإنهم لا يكفرون إلا في حق الله تعالى وليس في حظ النفس، فلم يكفروا الخوارج مع تكفير الخوارج لهم، ولم يكفروا المتأولين في الصفات مع تكفير المتأولين لأهل السنة ورميهم لهم بأبشع الصفات، فأهل السنة والجماعة هم أهل الحق القائمين بالقسط الذين يشهدون لله، ولا يحملهم شنآن قوم أن سبوهم أو شتموهم أو كفروهم أن يكفروهم بغير حق أو يشهدوا عليهم بباطل أو يرموهم بزور. بل يحكمون بحكم الله دون تعدٍ أو ظلم، فما حكم الله بكفره شهدوا بشهادة الله، ومن كان في الإسلام والإيمان لم يخرجوه لحظوظ أنفسهم والأمثلة في هذا كثيرة.

فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عمر وأصحاب النبي ﷺ لم يكفروا الخوارج مع تكفير الخوارج لعلي والمسلمين، وهاهم أهل السنة لم يكفروا أهل التأويل في الصفات من الجهمية، والمعتزلة والأشعرية وفرقوا بين مقالاتهم الكافرة وبين القائلين بهذه المقالات، والتمسوا العذر بالجهل فيما ذهبوا إليه من التأويل، ولم يمتنعوا من قبول رواياتهم والثناء على من رد منهم

بدعة أكبر من بدعته، وصلوا خلفهم إلا من استحل الكذب منهم وثبت عندهم أنه زنديق يقول ما ليس في قلبه، ويتلون ليفسد على المسلمين دينهم..

*** المجتهد المخطئ في طلب الحق مغفور له سواء كان في المسائل النظرية (التي يسميها بعض الناس أصول الدين) أو المسائل العملية (التي يسميها بعض الناس فروع الدين).**

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده، ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائناً ما كان، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية. هذا الذي كان عليه أصحاب النبي ﷺ. وجماهير أئمة الإسلام.

وما قسموا المسائل إلى مسائل أصول يكفر بإنكارها، ومسائل فروع لا يكفر بإنكارها. فأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول وبين نوع آخر وتسميته مسائل الفروع، فهذا التفريق ليس له أصل لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان ولا أئمة الإسلام، وإنما هو مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم، وهو تفريق متناقض، فإنه يقال لمن فرق بين النوعين: ما حد مسائل الأصول التي يكفر المخطئ فيها؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع؟ فإن قال: مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد ومسائل الفروع هي مسائل العمل قيل له: فتنازع الناس في محمد ﷺ هل رأى ربه أم لا وفي أن عثمان أفضل من علي، أم علي أفضل وفي كثير من معاني القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هي من المسائل الاعتقادية العلمية ولا كفر فيها بالاتفاق، ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الفواحش والخمر هي مسائل عملية والمنكر لها يكفر بالاتفاق، وإن قال: الأصول هي المسائل القطعية. قيل له: كثير من مسائل العلم قطعية، وكثير من مسائل العلم ليست قطعية، وكون المسألة قطعية أو

ظنية هو من الأمور الإضافية، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له، كمن سمع النص من الرسول ﷺ، وتيقن رده منه، وعند رجل آخر لا تكون ظنية، فضلاً عن أن تكون قطعية لعدم بلوغه النص، أو لعدم ثبوته عنده، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته.

وقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ حديث الذي قال لأهله: "إذا أنا مت فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني الله عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين. فأمر الله البر برد ما أخذ منه، والبحر برد ما أخذ منه، وقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا رب! فغفر الله له" فهذا شك في قدرة الله وفي المعاد، بل ظن أنه لا يعود، وأنه لا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك، وغفر الله له (الفتاوى ٢٣/٣٤٦-٣٤٧)

وقال أيضاً: "ولم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع، بل جعل الدين (قسمين) أصولاً وفروعاً لم يكن معروفاً في الصحابة والتابعين، ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين أن المجتهد الذي استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم لا في الأصول ولا في الفروع، ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة وأدخله في أصول الفقه من نقل ذلك عنهم، وحكوا عن عبيدالله بن الحسن العنبري أنه قال: كل مجتهد مصيب، ومراده أنه لا يأثم. وهذا قول عامة الأئمة كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما.

ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويُصلون خلفهم، ومن ردها -كمالك وأحمد- فليس ذلك ملزماً لإثمهما، لكن المقصود إنكار المنكر وهجر من أظهر البدعة، فإذا هجر ولم يصل خلفه ولم تقبل شهادته كان ذلك منعاً له من إظهار البدعة، ولهذا فرق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة المظهر لها وغيره، وكذلك قال الخرقي: "ومن صلى خلف من يجهر ببدعة أو منكر أعاد" (الفتاوى ١٣/ ١٢٥)

وهذا واضح أن الإمام أحمد وشيخ الإسلام لم يكفرا المجتهد المخطئ وأن تركهما للصلاة خلف أهواء إنما كان لزجرهم وليس للقول بكفرهم، وأن

هذا كان للمصلحة الشرعية في تقليل شر البدعة وحصرها لا أن أصحابها كفار مارقون.

وقد كان هذا هو رأي جمهور السلف أيضاً كما نقل البغوي أن الإمام الشافعي رحمه الله أجاز شهادة أهل البدع والصلاة خلفهم مع الكراهة (شرح السنة ١/ ٢٢٨). ونقل عن أبي سليمان الخطابي أنه لا يكفر أهل الأهواء الذين تأولوا فأخطأوا ويجيز شهادتهم، ما لم يبلغ من الخوارج والروافض في مذهبه أن يكفر الصحابة. أو من القدرية أن يكفر من خالفه من المسلمين فقد كان يرى بطلان الصلاة خلف هؤلاء، وعدم نفاذ قضاء قضاتهم (شرح السنة ١/ ٢٢٨-٢٢٩).

* خامساً: الحرص على هداية الناس:

من صفات المؤمنين أهل الحق أنهم أرحم الناس بالناس يحرصون على هدايتهم ويحبون لهم الخير، ويسعون في سبيل ذلك بكل سبيل كما كان الشأن في رسل الله وأنبيائه. وقد ذكر الله عن نبيه خاتم الرسل ﷺ أنه يكاد أن يهلك نفسه غماً وحزناً من أجل إعراض الكفار دينه قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: الآية ٦] .

وهذا الذي ذكره الله عن رسوله صفة مدح فيه ولكن الله هوّن عليه أن ضلال من يضل بعقوبة له من الله من أجل إعراضه وكفره وعناده، وأن تلك هي مشيئته جل وعلا في أهل العناد والكفر. وأنه لو أراد هدايتهم جميعاً لهداهم ولكنه لم يشأ ذلك.

وقد كان رسول الله كذلك حريصاً على المؤمنين ، يشق عليه ما يشق عليهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨] .

فمع الكفار لم يترك النبي ﷺ سبيلاً لهدايتهم إلا وسلكه عرضاً لنفسه عليهم، وإلانة للقول معهم، ودخولاً إليهم بكل سبيل بالوعد والوعيد، والبيان الرشيد السديد، وضرب الأمثال، والقيام بالموعظة الحسنة، والجدال بالحسنى، وغشي الرسول الكفار في نواديهم ومساكنهم وسعى إليهم تارات، ودعاهم إلى بيته أخرى وجادل اليهود والنصارى بالتي هي أحسن، وألان لهم القول، وحرص على هدايتهم بكل سبيل.. وفرح أشد الفرح بمن اهتدى منهم.

ومع أهل الإيمان كان رسول الله باراً كريماً رحيماً شفيقاً.. أحاطهم برعايته، وكلأهم بعنايته، وقام بشئونهم فعلم جاهلهم، ونشط خاملهم، وهدأ من حدة مندفعهم، وأصلح بين المتخاصمين منهم، وأطعم جائعهم، وكسا عاريهم، وعطف قلوب بعضهم على بعض، وأزال من أوساطهم البغضاء والشحناء، ودعاوى الجاهلية، وآخى بينهم حتى أصبحوا إخواناً في الدين، وهذا مع عيادته لمريضهم، وتشييعه لجنازاتهم، واستغفاره للحي والميت منهم، واهتمامه بكل شئونهم، ومراعاته لضعفائهم، وجبره لخواطرهم، عن أبي هُرَيرةَ عنِ النبيّ ﷺ قال: "انْتَدبَ اللّهُ لِمَنْ خَرَج في سَبِيلِه - لا يُخْرِجُه إلاّ إيمانٌ بي وَتَصْدِيقٌ برُسُلي - أَنْ أُرْجِعهُ بما نال مِنْ أَجْر أو غَنِيمة، أَوْ أُدْخِلَهُ الجَنّة. وَلَوْلا أَنْ أَشُقّ عَلَى أُمّتي ما قَعَدْتُ خَلْفَ سِريّةٍ، ولَوَدِدْتُ أَنّي أُقْتَلُ في سَبِيلِ اللّهِ ثمّ أُحْيا، ثمّ أُقْتَلُ ثُمّ أُحْيا، ثم أُقتَل" (رواه البخاري).

وهذا الخلق النبوي الرفيع، من الحرص على هداية الخلق، والرحمة والرأفة بالمؤمنين، والتألم لما يشق عليهم، والخوف مما يفتنهم هو ما يسعى المؤمنون للتحلي والتخلق به حسب طاقتهم: سعياً في هداية الخلق ومحبةً وفرحاً بمن يهديه الله ويدخله في الإسلام، وسعياً في تأليف القلوب، وإصلاح أحوال أهل الإسلام، ومحبة لأهل الإسلام، ورغبة في أن يُوَفق كلاً منهم للخير، ومما يؤثر في هذا الصدد قول الشافعي رحمه الله: ما جادلت أحداً إلا ودعوت الله أن يظهر الحق على لسانه.

والخلاصة: أن أهل السنة والجماعة من المؤمنين والمسلمين مقتدين

برسول الله ﷺ كما وصف الله أصحاب رسوله ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ (الفتح :٢٩).

وكما قال في وصف من أحبهم الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥٤).

والشاهد أن أهل الإيمان الحق هم من أهل التراحم والتعاطف فيما بينهم كما وصفهم الرسول ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (مسلم). وهم خير الناس: حرصاً على هدايتهم، ورغبةً في إسلامهم، وسعياً في سبيل ذلك.

* سادساً: عدم استعجال النتائج:

للجهاد في سبيل الله، والقيام بأمره، والدعوة إليه نتائج باهرة في الدنيا، من النصر والتمكين، وحصول البركات، وامتداد الأمن، ورفع الظلم، وعلو أهل الحق، وسفول أهل الباطل، وعزة الإسلام والمسلمين، وإذلال الكفر والكافرين. ولكن هذه النتائج العظيمة لا تتحقق من أول الطريق، وقد يطول انتظارها، ويتأخر حصولها، لحكم عظيمة يريدها الله لأهل الإسلام تربيةً وتزكيةً لهم، وتطهيراً لقلوبهم، وتعليقاً لها بالهدف الأسمى والغاية الأعظم، وهو فوز الآخرة وحصول الرضوان، وإعلاء منزلة الإيمان بحصول صنوف الابتلاءات لهم، وتحمل المشاق، وصبرهم على الأذى، قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ

﴿ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١١٠] .

روى الإمام البخاري بإسناده إلى خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: "شَكَونا إلى رسولِ الله ﷺ وهو مُتَوَسّدٌ بُردَةً لَهُ في ظِلّ الكعبةِ - قلنا له: ألا تَستنصِرُ لنا، ألا تَدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرّجلُ فيمن قبلَكُم يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاء بالميشارِ فيوضعُ على رأسهِ فيُشَقّ باثنتَينِ، وما يَصُدّهُ ذلك عن دِينه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دُونَ لحمهِ من عظم أو عَصَب، وما يَصدّهُ ذلكَ عن دِينه. والله لَيتمّنّ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ لا يخافُ إلاّ اللهَ، أوِ الذّئبَ على غَنمه، ولكنّكم تَستَعجِلون" (رواه البخاري).

وقد أعز الله أمة الإسلام وأقر عينها بالنصر والتمكين في حياة رسولها ﷺ فإنه لم يمت حتى دخل العرب جميعاً في دين الله أفواجاً ودانت له جزيرة العرب كلها من أقصاها إلى أقصاها، ووصلت دعوة الإسلام إلى كسرى وقيصر، والمقوقس وعظماء الأرض وأصبح الجميع على خوف ووجل ثم ساحت أمته في الأرض بعده فتحاً ودعوةً حتى أدخلوا عامة شعوب الأرض في الإسلام، وعلا منار الإسلام في كل مكان، ثم إنه حصل للمسلمين آفات وآفات، وردة وردات، ولا يزال طائفة على الحق تدعو إلى الله وتجاهد في سبيله وتنصر دينه حتى يقاتل آخرهم الدجال، وكلما قام جهاد لله تحقق جانب من موعود الله للأمة بالنصر والتمكين، ولا تزال الأمة تبتلى بصنوف الابتلاءات ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾ [التوبَة: الآية ١٢٦] وتسير بين عزٍ وذلٍ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٠] .

ولن تقوم الساعة حتى لا يدع الإسلام بيت حجر ولا مدر إلا أدخل الله الإسلام فيه بعز عزيز ينصر الله به الإسلام، وبذل ذليل يذل الله به الشرك وأهله.

وعلى المؤمنين أن يكونوا دائماً واثقين من تحقيق موعود الله لهم في الدنيا والآخرة، وألا يستعجلوا نتائج جهادهم ودعوتهم، بل يدعو أمر هذا إلى الله سبحانه ويقوموا بما أوجب الله عليهم من الإيمان والعمل الصالح والجهاد في سبيله.

و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الروم: ٤-٥).

* سابعاً: التعاون على تحقيق مقاصد الشريعة:

من ملامح المنهج المعتدل التعاون بين المسلمين وغيرهم على تحقيق مقاصد الشريعة، وإعلاء كلمة الله في الأرض، فأما المسلمون فالأخوة والموالاة فرض لازم يجب على كل مسلم أن يوالي كل مسلم في الله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (المائدة :٥٥-٥٦) فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه، ولا يحقره.

ومثل المسلمين في توادهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

وأما مع غير المسلمين فإن كل تعاون يكون فيه نصر الدين وتعظيم شعائر الله، وتحقيق مقاصد الشريعة، فإنه واجب كما شرع الله للمسلمين التعاون مع كفار قريش في الحفاظ على حرمة الشهر الحرام، ومشاعر البلد الحرام، ومن يأمون المسجد الحرام. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢).

وقد تعاقد الرسول مع قريش، وخزاعة، واليهود، وكان في هذه العهود والعقود نوع من التعاون على تحقيق مصالح للمسلمين.

والحاصل أن التعاون على البر والتقوى بين المسلمين فرض لازم فيما فرضه الله من التعاون، أو مندوب مستحب فيما لم يوجبه الله، وأما مع غير المسلمين فإنه مشروع في كل ما يحقق مقاصد شريعة الإسلام، فقد قال النبي ﷺ يوم الحديبية: "لا تدعوني قريش إلى أمر تعظم به هذا البيت.. إلا أجبتهم له.."

ولما سأله اليهود أن يبقيهم في خيبر على نصف ما يخرج منها أجابهم لما رأى في هذا من الإرفاق بالمسلمين والنفع لهم.. "وقد كان عامل يهود خيبر على أن نخرجهم إذا شئنا" (مسند أحمد).

وأشاد النبي ﷺ بحلف الفضول وهو من أحلاف الجاهلية وقال: "لو دعيت في الإسلام لمثله لفعلت وذلك أن هذا الحلف كان لنصر المظلوم".

* ثامناً: التحرر من التعصب:

كل عصبية تؤدي إلى التفريق بين المسلمين وإشاعة البغضاء بينهم، فهي محرمة مذمومة، ولو كانت تحت مسمى شريف، كالهجرة، والنصرة، أو القرّاء، أو أهل الحديث، أو إلى بلد كالمدينة ومكة، أو وطن، أو جنس، أو لغة، أو شيخ، أو مذهب فقهي، وأشد العصبيات شراً ما كان تعصباً لبدعة أو نحلة مفارقة لجماعة المسلمين.

والتعصب المذموم ما كان تحت مسمى من تلك المسميات أو غيرها يقوم بين أهله الولاء والبراء دون سائر المسلمين وذلك أن:

أمة الإسلام واحدة:

المسلمون كافة أمة واحدة من دون الأمم وإن تفرقت دولهم، وتباعدت أوطانهم، تربطهم العقيدة الإسلامية "المسلم أخو المسلم" (متفق عليه)،

وتجمعهم الأخوة الإيمانية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:١٠)، وهم في الحقوق والحرمات سواء "المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم" (رواه أبو داود وابن ماجه) لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، إلا بالإيمان والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣] .. "كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" (رواه الترمذي وصححه الألباني في الجامع ٦٧٠٦).

وجوب الموالاة والتناصر:

ويجب عليهم التناصر والتناصح والاجتماع، ويحرم عليهم التباغض والغش والافتراق. قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣] وقال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٤٦].

وقال ﷺ : "الدين النصيحة" (رواه مسلم) وقال: "انصر أخاك" (رواه البخاري) وقال "لا تباغضوا ولا تدابروا" (رواه مسلم).. والعمل على جمع وحدتهم ولم شملهم وإصلاح ذات بينهم من أعظم الواجبات..

قال العلامة السعدي: "إن السعي والدعوة إلى جمع المسلمين وإلى إصلاح ذات بينهم هو أفضل الأعمال وإنه أفضل من استغراق الزمان بالصوم والصلاة، ومن أعظم وأجل الجهاد في سبيل الله وعلى المسلمين أن لا يجعلوا الاختلاف بينهم في الأقوال والمذاهب في الملك والسياسة حائلاً يحول بينهم وبين الأخوة الدينية والرابطة الإيمانية، بل تجعل الخلافات كلها والأغراض الجزئية تبعاً لهذا الأصل الكبير" (السياسة الشرعية ص/١٣).

من المسلم؟!

والمسلم هو من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولم يأت بما ينقض ذلك. قال رسول الله ﷺ: "من شهد أن لا إله إلا الله واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ما للمسلم وعليه ما على المسلم" (رواه البخاري).

وقد يجتمع في المسلم خير وشر، وسنة وبدعة، وطاعة ومعصية فيبقى له من الولاء والحب بقدر ما معه من الطاعة والخير، ويبغض ويعادى بقدر ما معه من المعصية والشر..

قال شيخ الإسلام: "وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع له من هذا وهذا.. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة، وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم" (مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٠٩).

حكم الفرق المنسوبة للإسلام:

ويدخل في عموم أهل الإسلام الثنتان والسبعون فرقة. قال شيخ الإسلام: "فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفاراً بل مؤمنين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد كما يستحقه عصاة المؤمنين، والنبي ﷺ لم يخرجهم من الإسلام بل جعلهم أمته ولم يقل أنهم يخلدون في النار، فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته" (منهاج السنة ٥/ ٢٤١) ولا يخرج المسلم من الإسلام إلا بالدليل القطعي.

قال شيخ الإسلام: "وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بتيقن لم يزل ذلك عنه بالشك بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة" (مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٦٦).

ولا يلزم إذا كان القول كفراً أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل، فإن ثبوت الكفر في حق الشخص المعين كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه وذلك له شروط وموانع وإذا لم يكونوا كفاراً لم يكونوا منافقين فيكونون من المؤمنين فيستغفر لهم ويترحم عليهم.." (منهاج السنة ٥/ ٢٤١).

فمن اتخذ دون المسلمين فرقة أو جماعة أو حزباً وجعل لهم مسمىً

خاصاً يوالي عليهم ويعادي عليهم دون سائر المسلمين، ويفرق بذلك جماعتهم فقد دعا إلى معصية، وقد قال رسول الله ﷺ: "لَيْسَ مِنّا مَنْ دَعَا إِلى عَصَبِيّةٍ، وَلَيْسَ مِنّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيّةٍ، وَلَيْسَ مِنّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيّةٍ" (رواه أبو داود).

* تاسعاً: عدم المنافاة بين الالتزام بثوابت الوحي ومتغيرات الواقع:

الدين الذي أنزله الله سبحانه وتعالى، والشرعة التي شرعها لنا هو الحق الثابت إلى يوم القيامة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: الآية ١١٥]، وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: الآية ٣]. فما أخبر الله به من خبر فهو حق وصدق، وما شرعه فهو حق وصدق، وما أحله الله فهو الحلال إلى يوم القيامة، وما حرمه فهو الحرام إلى يوم القيامة، وما حده من حدود، ووضعه من شروط، فهو على النحو الذي شرعه لنا إلى يوم القيامة.

ولا ينافي ذلك: أن تتغير الأحوال فتتغير الأحكام تبعاً لذلك، وهذا التغيير قد جاءت به الشريعة كذلك في أبواب الضرورة ورفع الحرج، وسقوط التكليف عند تعذر القيام بالأمر. كقول كلمة الكفر لساناً دون القلب للمكره، وأكل ما حرم الله من الميتة وغيرها للمضطر.. وتقاة الكفار في حال دون حال، واختيار نوع الإنكار بالقلب واللسان دون اليد لعدم القدرة، وتحول المسلمين اليوم من جهاد الطلب إلى جهاد الدفع، بل اضطرارهم في كثير من أوطانهم إلى الصبر على الأذى والقتل والتعذيب دون القيام بجهاد الدفع الذي هو من أعظم الفرائض والواجبات، وكل هذه المتغيرات ليست ابتداعاً في الدين، ولا تشريعاً جديداً بناقص أو ينافي تشريع رب العالمين، بل هي من

الشريعة المطهرة التي جاء بها الوحي مراعياً المتغيرات، والظروف، والأحوال.

ومن أوقع حكم الشريعة في محله مراعياً ظروف الاستخلاف والاستضعاف فقد وفقه الله لاتباع الحق.

* عاشراً: مراعاة الأولويات:

من أصول منهج أهل الحق والاستقامة أن يراعوا الأولويات في العمل والدعوة والجهاد، فمن ذلك:

* البدء بالأهم فالمهم: كما في حديث معاذ عندما أرسله الرسول ﷺ إلى اليمن قال: "إنكَ تَقدَمُ على قوم أهلِ كتابٍ، فلْيكُنْ أولَ ما تدعوهم إليهِ عبادةُ اللهِ، فإذا عَرفوا اللهَ فأخبرهم أَنّ اللهَ قد فرضَ عليهم خمس صلواتٍ في يومِهم وليلتَهم، فإذا فَعلوا الصلاةَ فأخبرهم أنّ اللهَ فرضَ عليهم زكاةً مِن أموالِهم وتُرَدّ على فُقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخُذْ منهم، وتَوَقّ كرائمَ أموالِ الناسِ" (البخاري).

* ومن ذلك الاهتمام بالواجبات قبل المستحبات والمندوبات كما في الحديث الإلهي عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: "إن اللّهَ قال: من عادَى لي وَليّاً فقد آذَنْته بالحرب. وما تقرّب إليّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترَضْته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحبَبته كنت سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يبصر به ويدَه التي يبطِش بها. ورجله التي يمشي بها، وإنْ سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذَنه. وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترَدّدي عن نفسِ المؤمن يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته" (البخاري).

* ومن ذلك الاهتمام بالعدو القريب قبل البعيد: قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٣].

* ومن ذلك دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح كما جاء في

الحديث: عنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنهُ سمعَ النبيّ ﷺ يقول: "لا يَخلُوَنّ رجلٌ بامرأةٍ، ولا تُسافِرَنّ امرأةٌ إلا ومعَها مَحْرَم. فقامَ رجُلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، اكتَتَبْتُ في غَزوةِ كذا وكذا، وخَرَجتِ امرأتي حاجّة. قال: اذهَبْ فاحجُجْ مع امرأتك" (البخاري).

* ومن ذلك تحصيل أعظم المنفعتين فمن لم يكن له خيار إلا بتحصيل منفعة واحدة وتفويت أخرى فليأخذ الكبرى ويدع الثانية.. وكذلك من كان الاختيار له إلا بارتكاب مفسدة من اثنتين فليرتكب أخفهما ضرراً كما جاء في حديث أنسٍ بن مالك أنّ أعرابياً بالَ في المسجدِ، فقاموا إليه، فقال رسولُ الله ﷺ: "لا تُزرِموه. ثم دعا بدلوٍ من ماء فصبّ عليه" (البخاري). وكما ترك الرسول ﷺ حصار الطائف وعاد عنها كانت المفسدة في البقاء أكبر.

واتباع الأولويات باب عظيم من أبواب الفقه، ولعله أعظم أبواب الاجتهاد فإن الترجيح بين المصالح والمفاسدة، وتقديم الأهم على المهم، وترتيب منازل الأعمال والاعتقادات، والدعوة والجهاد، أمر عظيم لا يوفق إليه إلا كل عالم موفق، وإذا اجتهد الإمام فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد.

* حادي عشر: التحلي بمكارم الأخلاق:

الإسلام رسالة أخلاقية، فغاية الإسلام هو تزكية النفوس وتطهيرها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢].

وقال ﷺ: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق".

فالإسلام كله تزكية للنفس وذلك بالإيمان بالله الذي هو أعظم زكاة للنفوس وذلك أن ضد الإيمان هو الظلم والشرك، والكفر، والجحود، والإعراض وكل ذلك نجاسة للنفس، ثم إن شرائع الإسلام كلها بر وإحسان:

بدءاً بقول لا إله إلا الله، وأدناها بإماطة الأذى عن الطريق.

فالعبادات من الصلاة والقيام والزكاة، والحج أداء لحق الله المنعم المتفضل الكريم الذي أنعم بالوجود والخلق والرزق وسائر الأنعام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ (الأنفطار: ٦-٨).

ثم إن بر الوالدين، وصلة الأرحام، وصدق الحديث، وأداء الأمانات، وتطهير البدن والثياب والمكان، والبعد عن النجاسات كل ذلك من تزكية النفوس والتحلي بمكارم الأخلاق وهكذا سائر الشرائع ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: الآية ٩٠] . فالإسلام كله لتزكية النفوس وتطهير الأخلاق من كل انحراف ودنس وقذر..

ويجب إبراز هذه الغاية والسعي إليها. لأن لمعرفتها تعرف أهداف الرسالة، ويكون السعي دائماً إلى هدى، بدلاً من أن يكون السعي إلى ضلال.. فإن من انحرف عن هذا الفهم انحرف عن الصراط، كما قال ﷺ: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" (أحمد). وكما قال ﷺ في امرأة تقوم من الليل وتصوم النهار وتؤذي جيرانها: "لا خير فيها هي من أهل النار.." (أحمد)، وكما قال ﷺ: "لا يدخل الجنة قتات" (البخاري)، و "لا يدخل الجنة قاطع" (البخاري).

وكل هؤلاء مقصرون في حق الناس خارجون عن الخلق الحسن وقد يظنون أنه بالعبادات فقط يكونوا صالحين، بل لا يتم معنى الصلاح إلا بتزكية النفس وأخذ الأخلاق الكريمة من جميع وجوهها، والتخلق بالخلق الكريم نحو الله وملائكته ورسله والناس..

آثار الالتزام بالمنهج الوسط في حياة المسلمين

إذا اتبعنا الأصول السابقة فإنه سيكون هناك آثار تترتب على ذلك هي بمثابة النتيجة والثمرة للسبب والعمل ومن ذلك:

*** الهداية إلى صراط الله المستقيم:**

وهي أعظم النعم ، وهي التي ندعو بها وجوباً في كل ركعة من صلاتنا ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: الآيتين ٦-٧] هداية بيان وإرشاد وتعليم ، وهداية توفيق وتثبيت وتزيين ويقين . اللهم اهدنا لذلك يا رب العالمين.

فمن أرشده الله إلى الحق، وهداه لما يختلف الناس فيه، وعلمه دينه وهداه طريقه ثم حبب إليه الإيمان وزينه له في قلبه، ورزقه التمسك به، واليقين، فقد أنعم الله بخير نعمة ينعم بها على عبده في الدنيا. قال تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[الأنعام: الآية ١٢٥]، وقال تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وقال تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠]، وقال تعالى ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: الآية ١٣]، وقال تعالى ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، وقال تعالى ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۞ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٤-٧٥].

*** اجتماع الكلمة:**

ثم إن الأمر الثاني لذلك أن تجتمع كلمة أهل الإسلام وتتوحد قلوبهم وصفوفهم، ويكونوا أمة واحدة يوالي بعضهم بعضاً، ولا يعادون إلا أعداء الله وأعداءهم، وبذلك تقوى شوكتهم ويعظم أمرهم، ويذوب عدوهم.

*** الطمأنينة وعدم الاضطراب:**

ومن آثار ذلك أيضا حصول اليقين، وطمأنينة القلوب، وزوال الاضطراب، والشكوك ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: الآية ١٠٨]، وقال تعالى ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ

غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: الآية ١٠٩].

فالسائرون على صراط الله المستقيم، والذين رضوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً يسكب الله في قلوبهم حلاوة الإيمان كما قال ﷺ: "ثَلاثٌ مَنْ كُنّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أَنْ يَكونَ اللّهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ لله، وأنْ يَكرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُقذَفَ في النّار" (البخاري).

*** استمالة قلوب الناس وترغيبهم في الإسلام:**

عندما يصبح المسلمون أمة قائمة بأمر الله، قد زكت نفوسهم، وطهرت أعمالهم، وكان كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. فإن هذا سيستميل قلوب الناس إليهم، ويرغبهم في دينهم. بل سيدخل الناس في دين الله أفواجاً إذا رأوا ذلك كما كان في الصدر الأول فإن شعوباً بأسرها دخلت الإسلام لما رأت حال المسلمين فقد وصلت شعوب بلاد الشام، ومصر، وإفريقيا عامتهم بمجرد الفتح لما رأوه من حال الإسلام صدقاً وطهارةً وزكاة أنفس..

وما زال لليوم من يدخل في الإسلام إنما يدخل غالباً لتأثره من خلق بعض المسلمين ممن لا يزالون على الدين الصحيح والمنهج القويم، وإن كان في المسلمين اليوم الصادين عن الدين المنفرين منه بسبب ظلمهم وسوء أخلاقهم ونجاسة أعمالهم..

*** نجاح الدعوة:**

ستبلغ دعوة الإسلام غايتها في النصر والتمكين والظهور على كل دين في كل الأرض بتحقيق الشروط السابقة، وإتصاف أهل الإسلام بما وصف الله به عباده المؤمنين المسلمين الصالحين ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الروم: ٤-٥).

*** الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة:**

من ثمرات الإيمان والعمل الصالح الحياة الطيبة في الدنيا والفوز برضوان الله وجنته في الآخرة. قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

والحياة الطيبة هي حياة المؤمن القائم بأمر ربه، المطمئن قلبه بذكره، المتوكل عليه، المستعين به، والمستنصر به، وهي حياة رسل الله وأنبياؤه، وأولياؤه، فهم وإن كانوا في ضيق من الدنيا، وكرب من المشركين والكافرين والظالمين، إلا أنهم كانوا في سعادة ويقين وراحة لو علمها الملوك وأبناء الملوك لسارعوا إليها رغبة في تحصيلها ولكنهم عمي عنها من عمى بكفره وعناده وإعراضه..

وأما الجنة فهي دار السعادة والحبور والسرور والمتعة واللذة الدائمة التي لا تنتهي ولا تنقطع والتي أذهب الله عن أهلها الحزن كل الحزن، والنصب كل النصب، واللغو، والغضب والشحناء والبغضاء ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: الآية ١١] ، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: الآية ٣٤] ، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۞ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

فنسأل الله بإحسانه ورحمته وعطفه وكرمه ومنّه أن يكفر عنا سيئاتنا وأن يدخلنا الجنة مع عباده الصالحين، إنه هو البر الرحيم الغفور الودود.

هذا ما يسر الله جمعه في هذه العجالة والحمد لله أولاً وأخيراً..

كتاب

أثر الأحاديث الضعيفة والموضوعة في العقيدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مدخل:

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد فقد عقد في الفترة ما بين السبت ١٢ شوال سنة ١٤٠٥هـ الموافق ٢٩/ ٦/ ١٩٨٥، والأربعاء ١٦ شوال الموافق ٣/ ٧/ ١٩٨٥ مؤتمر التراث الحديثي الذي دعت إلية جمعية إحياء التراث الإسلامي بدولة الكويت وقد تضمن هذا المؤتمر عدة محاضرات كان منها محاضرة بعنوان "أثر الأحاديث الضعيفة والموضوعة في العقيدة" والتي تقدم نصها للقراء في هذه الرسالة وذلك تعميما لفائدتها؛ وتنبيها للأخوة المسلمين في كل مكان إلى خطر الحديث الضعيف والموضوع على عقيدتهم ودينهم، وبيانا لأثر السلف الصالح في حفظ الدين، وحديث رسول رب العالمين، وتسليمه إلى من بعدهم نقيا طيبا طاهرا كما جاء به الرسول الأمين، وفي ذلك توجيه إلى أجيالنا المعاصرة لتحذو حذو السلف في صيانة هذا الدين العظيم من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وحتى نكون بعون الله وقوته من الطائفة الذين قال فيهم النبي الكريم "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك".

والحمد لله رب العالمين

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت في يوم الخميس

٢٨ من ذي القعدة سنة ١٤٠٥ الموافق ١٥/ ٨/ ١٩٨٥

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وبعد:

فالمقصود بالعقيدة هنا أصول الدين، ومسائل الاعتقاد وقضايا التوحيد.

١ - العقيدة أساس الدين:

ومعلوم أن العقيدة بالنسبة إلى مجمل الدين، كالأساس والدعامات بالنسبة للبناء، فمن أرسى بناءه على أساس راسخ، ودعام ثابت استقام بناؤه وقام، ومن ألقى بناءه على غير أساس، أو على أساس باطل مغشوش انهار البناء، كما قال الله سبحانه وتعالى في أعمال الكفار "وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا" أي عمل ظنوه صالحا من صدقة وعتاقة، وبر، وصلاة وصيام وحج ولكن لما كانوا مشركين بالله، ظانين به ظن السوء، مكذبين ببعض رسله جاحدين لبعض صفاته، فإن الله أهدر عملهم ولم يلق له بالا كما جاء في حديث الصحيحين "من مات يشرك بالله شيئا دخل النار".

وما رواه مسلم في صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تبارك وتعالى "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي غيري، تركته وشركه".

ومعلوم أن الله أبطل عمل النصارى لقولهم الذي قاتلوه لعيسى، وحكم تبارك وتعالى بكفرهم وضلالهم في ذلك قال تعالى "لقد كفر الذين قالوا إن

الله ثالث ثلاثة"، وكفر اليهود أيضا لمعتقدهم السيئ في ربهم كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ (المائدة: ٦٤)، وقال أيضا ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)، ورد الله عبادة مشركي العرب من صلاة وصيام وحج وعتاقة وتقديس للبيت لما كان اعتقادهم في الله سيئا حيث ظنوا أنه لا يستطيع إعادتهم بعد أن يكونوا رميما، وحيث أشركوا معه في العبادة الملائكة وبعض الصالحين وأوثاناً وأصناماً.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعة ؟ قال "لا ينفعه أنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين" فبين صلى الله علية وسلم أن إنكار عبد الله بن جدعان للبعث أحبط عمله "الصالح" وكان رجلا جوادا كريما في الجاهلية يطعم الحجاج ويصل الرحم وينصر المظلوم، وأصرح من هذا ما رواه مسلم أيضا عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال "نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح"، ومعلوم أن نصرة النبي والقيام معه من أجل الأعمال الصالحات ولكن لما كان ذلك مع البقاء على الشرك، ومعتقد الجاهلية كان هذا محبطاً العمل العظيم.

والخلاصة أنه لا ينفع مع الشرك بالله، وفساد العقيدة عمل صالح مطلقا، وهذا يعني أنه يجب على كل عامل أن يصلح عقيدته أولا، وأن يحافظ أبدا على معتقد سليم حتى يلقى الله وهو على ذلك.

٢- الضلال في العقيدة قريب وموجود في كل أمة ووقت:

والأمر الثاني الذي يجب التفطن إلية أن الضلال في العقيدة أمر قريب وواقع وموجود، فاليهود قد كانوا أمة عظيمة في زمن موسى وهارون أثنى الله عليها بقوله ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة:٤٧)، ومع أنهم شاهدوا من آيات الله ما لم تشاهده أمة غيرهم، كعصا

موسى ويده وانفلاق البحر، وغير ذلك من آيات عظيمة باهرة إلا أنهم اشتاقوا لعبادة الأصنام وظنوها شيئا نافعا بمجرد خروجهم من البحر ونجاتهم من عدوهم، قال تعالى ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ (الاعراف:١٣٨)، بل إنهم عبدوا العجل فعلا، اعتقدوه ربهم لما تركهم رسولهم أربعين يوما فقط، علما أن نبيهم هارون كان في وسطهم، كما قال تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ﴾ (الاعراف: ١٤٨)، ولاشك أن ضلالهم بعد موسى وهارون كان أعظم من هذا بكثير.

وهؤلاء النصارى ما كاد الله يرفع رسولهم عيسى إلى السماء حتى جعلوه الله أو ابنا لله أو تجسيدا لكلمة الله، وعقدوا المؤتمرات تلو المؤتمرات لكبار رجال دينهم والتي انتهت إلى جعل هذا الشرك دينا رسميا وعقيدة عامة.

وبالرغم من أن أصحاب محمد ﷺ أفضل أصحاب الأنبياء وأبعدهم عن الشرك وضلال العقيدة إلا أنه كان منهم من قال يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، "فقال رسول الله ردا على ذلك: الله أكبر أنها السنن، قلتم والذي محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة".

وكذلك كان منهم من قال "ما شاء الله وشاء محمد" فقال رسول الله ﷺ "قولوا ما شاء الله وحده".

ولا شك أن هذا شيء يسير جدا إذا قورن بما وقع في الأمتين السابقتين اليهود والنصارى ولكن ما كاد الجيل الأول من هذه الأمة يذهب جيل جديد حتى بدأ الفساد الحقيقي في العقيدة، وبدأ التحول، فمنكرو القدر ظهروا وكثير من الصحابة ما زال حيا بل جاء من قال لعلي بن أبي طالب: أنت الله !!! بل قال عبدالله بن سبأ لمن أخبر بمقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه "والله لو جئتم لنا برأسه ألف مرة ما صدقنا موته ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً".

يقول الشهرستاني: السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ الذي قال لعلي أنت أنت يعني أنت الإله فنفاه إلى المدائن وزعموا أنه كان يهوديا فأسلم، وكان في اليهودية يقول يوشع بن نون فتى موسى مثل ما قال في علي -عليه السلام- وهو أول من قال بالفرض بإمامة علي، ومنه انشعبت أصناف الغلاة، وزعموا أن علياً حي لم يقتل وفيه جزء إلهي ولا يجوز أن يستولي عليه، وهو الذي يجيء في السحاب والرعد صوته، والبرق سوطه، وأنه سينزل بعد ذلك فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وأظهر ابن سبأ هذا المقال بعد انتقال علي عليه السلام "الملل والنحل ج ٢ ص ١١".

وكذلك ظهر مبكراً أيضاً من الضلال في العقيدة تكفير المسلم بالمعصية، واستحلال دمه بغير الشرك والردة، وإنكار بعض سور القرآن من الخوارج والطعن في الصحابة ثم بدأت البدع العقائدية والانحراف عن أصول الدين السليمة يجر بعضه بعضا فظهر إنكار الصفات؛ صفات الله وتحريف آيات القرآن وأحاديث الرسول، ولم يكد ينتهي القرن الثالث الهجري حتى ظهر مالا يخطر على البال من عقائد الشرك والوثنية والزندقة وكل ذلك تحت مظلة الإسلام ومن يدعون أنهم من أهل لا إله إلا الله، ونظرة في كتب الملل والنحل وكتب التواريخ تريك إلى أي حد ظهر الضلال العقائدي في هذه الأمة من القول بحلول الله في مخلوقاته وفنان المخلوق بالخالق ذاتا وصفاتا والقول بوحدة الوجود التي هي في حقيقتها إنكار للخالق المتفرد البائن من خلقه المستوي على العرش إلى إنكار لصفات الله، أو تشبيه له بخلقه، إلى الغلو في الرسول والصالحين وعبادتهم من دون الله إلى تكفير الصحابة والطعن في القرآن إلى طغيان الخرافة على الدين الصحيح، إلى أمور يطول شرحها وبيانها من ضلال في المعتقد وأصول الدين لم تبلغه أمه من الأمم.

وهذا يعود إلى أسباب كثيرة من أهمها أن هذه الأمة الإسلامية قد جمعت شعوباً شتى وأهل ملل مختلفة وجاهليات عديدة وقد حطم الإسلام دولا عظمى وداس مقدسات شعوب كانت تعتز بتراثها الجاهلي فحقد من حقد

منهم، وأعملوا في الإسلام تشويهاً ونشراً للكفر تحت ستار الإسلام، وعلى كل حال كان هذا مصداقا لقول ﷺ "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة". السلسلة الضعيفة ٣/ ١٤٩٢

ولعل الفارق الأساسي بين الأمة الإسلامية وبين الأمم السابقة أن هذه الأمة بقيت منها طائفة عظيمة وفرقة كبرى وسوادا أعظم على الدين الصحيح والعقيدة النقية بما حفظ الله القرآن وبيان الرسول ﷺ، كما قال الرسول ﷺ "لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك".

وأن هذا العطب والفساد قد يبدأ قليلا بكلمة تافهة من شخص مغمور ولكنها إن لم تجد ردا فأنها سرعان ما تنتقل من شخص إلى شخص ومن جيل إلى جيل حتى تصبح عقيدة راسخة ودينا متبعا، وهنا نعلم لولا الحراسة الدائمة والقيام الدائب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدس الحق واختفى النور وعمت الظلمات.

٣- أسباب الضلال في العقيدة وطرائق المضلين:

ولا شك أن الظلال في العقيدة قد اتخذ طرائق شتى وأساليب كثيرة فهنالك الزنادقة والمنافقون الذين أرادوا أن يلبسوا على الناس دينهم فعمدوا إلى تأويل القرآن على غير وجهه، وإلباس عقائد الكفر والشرك لباس الإسلام فاستشهدوا بآيات القرآن وأحاديث سيد الأنام، على الشرك والكفر والباطل وألحدوا في أسماء الله وصفاته وتبعهم في ذلك عوام الناس وسقطهم وأهل الضلال منهم من لا يميز بين حق وباطل وشرك وتوحيد وصحة وفساد، وهناك أهل الهوى والعصبية ممن أعماهم هواهم وعصبيتهم فردوا بعض الحق انتصروا لبعض الباطل، وهنالك المتنطعون المتشددون الذين تطرفوا في أمر من أمور الدين فأعماهم عن مقابلة، كما تطرف من أرادوا تنزيه الله فوقعوا في

نفي صفاته، وتطرف أهل الإثبات فشبهوا الله بخلقة، وتطرف من يثبت كرامة الله لبعض عباده فأعطوا صفات الله للمخلوق وتطرف أهل الغيرة على صفات الله وأسمائه فنفوا بعض إكرامه لبعض عباده، وهكذا يحول الشخص من ضد إلى ضد.

٤- انتحال الحديث أعظم أبواب الضلال والشرك:

ولاشك أن من أكبر أساليب الكيد والمكر للإسلام وأهله، وأكبر أبواب الضلال والشر انتحل حديث النبي واختلاقه وخاصة إذا كان موضوع هذا الانتحال هو في مسائل العقيدة وأصول الدين، وذلك أن قول النبي تشريع وما يخبر به عقيدة يجب الإيمان بها، ولذا قال ﷺ "إن كذبا علي ليس ككذب على أحد، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" رواه مسلم عن المغيرة بن شعبة وهو حديث متواتر جاء عن أكثر من ستين صحابيا، فقول الرسول عقيدة وشريعة وتصديقه واجب والعمل به فرض لازم كما قال تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وقال تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٧٠] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا.

والمهم هنا هو التنبيه أن انتحال الأحاديث ونسبتها إلى الرسول يعني بالضرورة إدخال ما ليس من الدين في الدين وقد عمد كل خبيث إلى هذه الطريقة المدمرة للدين بعد أن يئس من إدخال شيء في القرآن الذي شاء الله سبحانه وتعالى أن يحفظه، ولا يخلط بكلمة غيره، فقد حفظه الصحابة وكتبه كتبة الوحي وسهر عليه الرسول حتى بلغه، ثم كتب في سفر واحد ونشر في الأمصار فكان إدخال ما ليس منه مستحيلا تماما كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩] ، ءأنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون" وأما السنة فقد تأخر جمعها وتدوينها في سفر واحد حتى ظهر الكذابون والوضاعون وهم أصحاب أهواء وغايات مختلفة، فنشروا أباطيلهم

وأعملوا كيدهم واستفحل خطرهم وشرهم ومما يزيدك بيانا في هذا معرفة أسباب الوضع والكذب على رسول الله ﷺ.

٥- أسباب الوضع والكذب على رسول الله:

أ- فقد كان أول هؤلاء هم الزنادقة الملحدون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ووضعوا الأحاديث استخفافا بالدين وتلبيسا على المسلمين، قال حماد بن زيد بن درهم الأزدي: وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر ألف حديث، وقال ابن عدي: لما أخذ عبد الكريم بن أبي العوجاء وأتى به محمد بن سليمان بن علي فأمر بضرب عنقه قال: والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث.

وقد كان لهؤلاء الزنادقة أساليب خبيثة لدس أكاذيبهم، قال ابن الجوزي: وقد كان من هؤلاء من يتغفل الشيخ فيدس في كتابة ما ليس من حديثه فيرويه ذلك الشيخ ظناً منه أنه من حديثه.

ب- والصنف الثاني من هؤلاء أصحاب الأهواء والعصبيات المختلفة فمنهم أصحاب الفرق العقائدية، كالروافض والخوارج ومنكري الصفات وكل هؤلاء كان منهم من يستحل الكذب على الرسول ﷺ، ولنصرة مذهبه وترويج اعتقاده، بل ظهر هذا الكذب أيضا في طوائف من المقلدين والمتفقهة من أتباع المذاهب الفقهية المعروفة فوضعوا الأحاديث نصرة لمذهبهم وطعنا في أئمة غيرهم، وكذلك كان الوضع بين كل متعصب لبلد أو قوم أو شخص نصرة لعصبية .

ج- وصنف ثالث من أهل الزهد والتدين الجاهل وضعوا الأحاديث ترغيباً في فضائل الأعمال بزعمهم وترهيباً من النار وكلما استحسنوا قولاً لقائل نسبوه إلى الرسول ظناً أن هذا يفيد الدين ويرغب الناس فيه ويزيدهم تمسكاً به، ولاشك أن هذا كان أعظم الكذب وأخبثه لأن أمر هؤلاء كان أكثر خفاء،

لأنه لا يظن بهم السوء، وقال ابن الصلاح: وأشد هذه ضررا أهل الزهد لأنهم للثقة بهم، وتوسم الخير فيهم يقبل.

موضوعاتهم كثير ممن هو على نمطهم في الجهل ورقة الدين، وقال الحافظ بن حجر: ويلحق بالزهاد في ذلك المتفقهة الذين استجازوا نسبة ما دل عليه القياس إلى النبي.

د- وأما الصنف الرابع فهو قوم لم يتعمدوا الكذب وإنما وقع الموضوع في حديثهم غلطا كمن يضيف إلى النبي كلام بعض أصحابه، وكمن ابتلى بمن يدس في كتبه ما ليس منها، كما وقع لحماد بن سلمة وهو ثقة عابد مع ربيبه الكذاب عبد الكريم بن أبي العوجاء فقد دس في كتبه، وكما وقع لسفيان بن وكيع بن الجراح قال ابن حجر في التقريب: كان صدوقا إلا أنه ابتلى بوراقه فأدخل عليه ما ليس بحديثه أ.هـ. وكمن تدخل عليه آفة في حفظه أو بصره أو يختلط بآخر عمره. ولا شك أن هذا الصنف الرابع من أخفى الأصناف ومن أشدها ضررا.

قال ابن حجر: وهذا الصنف أخفى الأصناف لأنهم لم يتعمدوا الكذب مع وصفه بالصدق ومع ذلك فالضرر بهم شديد لدقة استخراج ذلك إلا من الأئمة النقاد، وأما باقي الأصناف فالأمر فيهم أسهل لأن كون تلك الأحاديث كذبا لا يخفى إلا على الأغبياء أ.هـ.

ولما تعددت أصناف الوضاع والكذابين والمنتحلين والمخطئين على هذا النحو فإن البلوى بوضع الحديث عمت وطمت وانتشر الحديث الموضوع في كل ناحية وفن من فنون العلم: انتشر في الوعظ على ألسنة القصاص والوعاظ وعلى ألسنة العامة تبعا لذلك وانتشر في كتب الفقه والعقائد والتفسير والتاريخ والسير والمغازي والوعظ وقد كان كثير ممن ألف في ذلك ليس من أهل التمييز بين الروايات الصحيحة والضعيفة، بل إن بعض المحققين جاء في كتبهم ومؤلفاتهم شيء من هذا الحديث المكذوب تسهلا منهم وإن كانوا أحيانا وإن كانوا أحيانا يبينون كذبه، كما وقع لابن جرير في

تفسيره، وابن كثير، فكيف بما يوجد في الخازن والكشاف وغير ذلك، بل دخل بعض الموضوع أيضا في كتب السنن والمسانيد وهي كتب وضعت لجمع أحاديث الرسول ﷺ وبيان سننه وهكذا لم يسلم باب من أبواب العلم الشرعي إلا ودخل فيه شيء من الضعيف والموضوع ففي أسماء الله وصفاته وأفعاله وخلقه وتكوينه وفي الرسالات وفي الملائكة والجنة والنار والكتب وفي جميع أبواب الفقه من عبادات ومعاملات وأخلاق وحدود وهكذا لا يكاد يخلوا كتاب واحد من كتب التراث إلا ودخل فيه شيء من الضعيف والواهي من الأحاديث بل من المكذوب والموضوع والمختلق اللهم إلا كتبا يسيرة محصت تمحيصا دقيقا وأجمعت الأمة على أن ما فيها صحيح سليم ثابت كصحيح البخاري ومسلم.

٦- حفظ الله لحديث رسوله:

وبالرغم من أن البلوى كانت على هذا النحو عظيمة فإن الله الرحمن الرحيم بهذه الأمة المُحمَّديَّة كما حفظ عليها قرآنها كذلك حفظ عليها سنة نبيها وذلك أن السنة مبينة القرآن وشارحته "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم"، ولذلك لما قيل للإمام عبد الله بن المبارك "هذه الأحاديث الموضوعة" قال: يعيش لها جهابذة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩].

وقال الإمام ابن الجوزي: لما لم يمكن أحد أن يدخل في القرآن ما ليس منه أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله ﷺ ويضعون عليه ما لم يقل فأنشأ الله علماء يذبون عن النقل، ويوضحون الصحيح ويفضحون القبيح وما أخلى الله منهم عصراً من الأعصار غير أن هذا الضرب قد قل في هذا الزمان فصار أعز من عنقاء مغرب، وبالفعل فقد كان حملة الحديث هم حماة الدين حقا وجهابذة الأمة صدقاً، قال سفيان الثوري: الملائكة حراس السماء وأصحاب الحديث حراس الأرض، وذكر الحافظ الذهبي في طبقات الحفاظ أن هارون الرشيد أخذ زنديقا ليقتله فقال الزنديق: أين أنت من ألف حديث وضعتها،

فقال الرشيد: أين أنت يا عدو الله من أبى إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا، نعم لقد نشأ في الأمة الإسلامية علماء الحديث الذين كانوا جبالا في الحفظ وأوعية عظيمة للعلم لم تعرف أمة قط مثلهم حفظاً وتدقيقاً ونقداً وتمييزاً للأخبار وتفتيشاً وراء كل كلمة حتى يعرف مخرجها والناطق بها، وهذا من خصوصيات هذه الأمة المرحومة.

ومن أجل ذلك عمد المحققون من المحدثين في كل عصر إلى تخليص حديث النبي مما انتحله الوضاعون وافتراه الكذابون أو أخطأ فيه المغفلون الجاهلون وقد كان عملهم في هذا الصدد موجها في السبل الآتية:

٧- الخطوات التي اتبعها علماء الحديث من أجل حفظ السنة:

أ- وضع القواعد وتنظيم أعظم علم عرفته البشرية في نقد الأخبار وتمحيصها وتحقيقها وهو ما يعرف بعلم مصطلح الحديث.

ب- جمع ما صح من أحاديث النبي ﷺ في كتب مستقلة كما فعل مالك بن أنس في الموطأ والبخاري ومسلم في صحيحيهما.

ج- تعقب المؤلفين المشهورين الذين تساهلوا في النقل الأحاديث وأوردوها في مؤلفاتهم سواء كانت مؤلفاتهم في التفسير أو الفقه أو المواعظ والحكم أو الحديث كما فعل ابن حجر في كتاب الكشاف للزمخشري وهو تفسير مشهور فجاء ابن حجر فخرج أحاديثه، وكما فعل الحافظ العراقي في إحياء علوم الدين حيث خرج الأحاديث الواردة فيه وبين درجة كل حديث في كتابه المسمى "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار"، وكما فعل ابن حجر العسقلاني في كتابه" تلخيص الحبير بتخريج أحاديث الرافعي الكبير" وكما فعل الحافظ الزيلعي في كتابه "نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية". والهداية كتاب في الفقه الحنفي، وكما فعل شيخنا ناصر الدين في كتاب تخريج فقه السنة لسيد سابق، وفقه السيرة لمحمد الغزالي وغير ذلك من الكتب المشهورة.

د- تصنيف معاجم مستقلة للضعفاء والمتروكين والكذابين للتحذير منهم وبيان مرتباتهم وما أخطئوا فيه، ومن أشهر ما ألف في ذلك كتاب "الضعفاء" للبخاري، و"الضعفاء والمتروكون" للنسائي، و"الضعفاء والمتروكون" لابن السكن، وكذلك للحافظ البرقي ولأبي حاتم البستي والعقيلي، وكتاب الكامل لابن عدي و"الضعفاء والمتروكون" لابن الجوزي، و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال" للذهبي، وكذلك كتب العلل التي تتبعت الأحاديث التي ظاهرها الصحة وباطنها المرض والضعف وقد ألف في ذلك البخاري ومسلم والترمذي وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني وأبو بكر بن الأثرم، والدارقطني وكثيرون آخرون.

هـ- كتب ومصنفات أفردت الأحاديث الموضوعة بالتأليف:

وهذه كثيرة جدا ومن أشهرها: الأباطيل لأبي عبد الله الحسين بن إبراهيم الهمداني الجوزي المتوفى سنة ٥٤٣ هجرية، والموضوعات الكبرى لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية، واللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة لمحمد بن يوسف الدمشقي المتوفى سنة ٩٤٢ هجرية، وهذا العنوان نفسه للشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ، والأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة لابن عراق المتوفى سنة ٩٦٣ هـ، والأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة لشيخنا وأستاذنا محمد ناصر الدين الألباني أمد الله في عمره.

٨- الوضاعون والكذابون يجتمعون على هدف واحد:

ذكرنا آنفا أن الوضاعون والكذابين كانوا فرقاً شتى متباينة وكانت لهم أهداف مختلفة ولذلك شملت الأحاديث الواهية كل نواحي العقيدة والتشريع تقريبا، فوضع الشيء ونقيضه ومدح الشيء وضده.

وبالرغم من كل ذلك فإن هذا كله قد أفضى في النهاية إلى هدف واحد وغاية واحدة وهو تشويه الدين وتخريب العقائد، وجعل البدعة سنة، وجعل

السنة بدعة، والإساءة إلى رسول رب العالمين بنسبة التناقض والركاكة إليه، وتعليق الأقوال الساقطة أو المنكرة بشخصه الشريف، وجعل الدين مجموعه من الخرافات والخزعبلات ولبس الحق بالباطل، وتفسير كتاب الله بما يجعله عند عامة الناس خرافة وأساطير، وكأن هؤلاء الوضاعين والكذابين قد اتفقوا حول هذه الغاية الواحدة والهدف الواحد، وفي النهاية ظهر الإسلام بمظهر مشوه غريب، لا تمييز فيه بين شرك وتوحيد ولا بين بدعة وسنة، ولا بين حقيقة وخرافة، بل ولا بين معقول ولا معقول.

نماذج من أثر الحديث الضعيف والموضوع في تخريب العقائد

أولا: في أسماء الله وصفاته وتوحيده:-

ففي مجال أسماء الله وصفاته افترى الوضاعون والكذابون أحاديث كثيرة نسبوها إلى الرسول كحديث "قيل يا رسول الله مم ربنا قال "من ماء ممرور لا من أرض ولا من سماء خلق خيلا فأجرها فعرقت فخلق فسنه من هذا العرق" " ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٠٥، ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ١٣٤

وحديث نزول الله على جمل يوم عرفه، وعروج الله إلى السماء من صخرة بيت المقدس ونصه "لما أسري بي إلى بيت المقدس مر بي جبريل بقبر أبي إبراهيم فقال يا محمد انزل فصل ههنا ركعتين ثم مر بي ببيت لحم فقال يا محمد انزل فصل ههنا ركعتين فإن ههنا ولد أخوك عيسى، ثم أتى بي إلى الصخرة فقال يا محمد من هنا عرج ربك إلى السماء!!" قال ابن الجوزي: وذكر كلاما طويلا أكره ذكره أي من شناعته على الله سبحانه وتعالى، وأحاديث كثيرة في الحجب التي بين الله وعباده ذكرتْها كتب الموضوعات كلها اتهم فيها عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن جده وهب بن منبه، قال الدراقطني: عبد المنعم وأبوه متروكان، وحديث "كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني" قال شيخ الإسلام ابن تيميه: موضوع ليس

من كلام النبي ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشي، والحافظ ابن حجر في اللآلئ والسيوطي وغيرهم وقال الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني "وهو واقع كثيرا في كلام الصوفيَّة وبنوا عليه أصولا لهم" كشف الخفا ٢/ ١٣٢ قلت: هذا الحديث وحديث "من عرف نفسه عرف ربه" وهو حديث موضوع كذلك ذكره السيوطي في ذيل الموضوعات وقال فيه الإمام النووي ليس بثابت وشيخ الإسلام ابن تيميه قال موضوع، وذكره شيخنا محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم ٦٦ وقال: لا أصل له، أقول هذان الحديثان هما عمدة المتصوفة من أهل وحدة الوجود القائلين بأنه لا يوجد في الكون إلا الله وما المخلوقات إلا مظاهره، فالإنسان مظهر ومجلى لله على حد تعبيرهم، ومعنى "من عرف نفسه عرف ربه" عندهم أي يعنون من عراف نفسه عرف أنه الله أي صورة من صوره لأنه في عقيدتهم الباطلة يتجلى في هذه الموجودات المتعددة ولذلك قال قائلهم "سبحاني" "وما في الجبة إلا الله" وقال:

أنا هو هو أنا ... ونحن روحان حلا بدنا

وقال فريد العطار:

وما الكلب إلا ألهنا ... وما الله إلا راهب في كنيسة

وهذه عقيدة كفرية مظلمة لم يبلغها اليهود والنصارى بل كفروا بشيء يسير جداً مما فيه فاليهود نسبوا عزيراً وحده لله، والنصارى كذلك نسبوا عيسى وحده لله أو قالوا ثالث ثلاثة، وأما هؤلاء فقد أنكروا الله جملة وتفصيلا وجعلوه هو عين مخلوقاته تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وقد استدلوا كذلك بما كذبوه على الرسول "ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن" ذكره الغزالي في الإحياء، وقال الحافظ العراقي لم أر له أصلاً، وقال شيخ الإسلام ابن تيميه هو مذكور في الإسرائيليات وليس له إسناد معروف، قلت: وقد أولّه ملاحدة الصوفيَّة أن الله لم يعرفه على الحقيقة إلا من عرف أنه لا وجود إلا هو، وهذا هو المؤمن عندهم والعارف الذي

اكتشف الحقيقة !! وقد فصلنا هذه العقيدة الخبيثة ونقلنا عبارات المتصوفة أنفسهم في شرحها وبيانها في كتاب "الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة" وقد استندوا في عقيدتهم الباطلة هذه وأيدوها بهذه الأحاديث المكذوبة التي لا يعرف لها إسناد وإنما كتبوها في كتبهم وجرت بعد ذلك على ألسنة العامة، ومازال كثير من الكتاب والخطباء يذكرون هذه الأحاديث دون فهم لمقاصد الذين افتروها دون علم بما تنطوي عليه، ومن الأحاديث التي أثرت تأثيرا سيئا في العقائد حديث "يوشك الكفر أن يدخل من دار إلى دار ومن ربع إلى ربع ومن بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة فقيل كيف ذلك يا رسول الله؟ قوم يحدون الله حدا، فيصفونه بذلك الحد" ذكره صاحب تنزيه الشريعة ونسبة إلى الديلمي وقال وسنده ظلمات، وفية ضعفاء وكذابون. أ.هـ

وقد أدى هذا إلى ترك تعلم صفات الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله وذلك تجهيلا للأمة بصفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده ليعم بعد ذلك الكفر والجهل به سبحانه وتعالى، وقد جرى على الألسنة حديث مكذوب آخر في هذا الصدد هو "عليكم بدين العجائز" ذكره الشيخ علي القارئ في الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة وقال بعده: قال السخاوي: لا أصل له بهذا اللفظ، وقال الزركشي: رواه الديلمي عن ابن عمر بلفظ "إذا كان آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين البادية" "النساء" وسنده واه بل قال الصنعاني موضوع وهذا الحديث والذي قبله احتج بهما من رأى التفويض في أسماء الله وصفاته، زاعما أن الرسول أمر بذلك وأن هذا مسلك السلف الصالح وأهل السنة والجماعة، والحال أن هذه أحاديث لا أصل لها، ولما بلغ هؤلاء توهين الإيمان بالله على هذا النحو جعلوا الاعتقاد في أي شيء نافعا ورووا في ذلك حديث "لو اعتقد أحدكم بحجر لنفعه" قال ابن تيميه: موضوع، وقال الشيخ علي القاري قال ابن القيم: "هو من كلام عباد الأصنام الذين يحسنون ظنهم بالأحجار" وقال ابن حجر العسقلاني: لا أصل له ونحو "من بلغه عن الله شيء فيه فضيلة فأخذ به إيماناً به ورجاء ثوابه أعطاه الله ذلك

وإن لم يكن كذلك" انظر تعليق ناصر الدين السلسلة ص ٦٧ ج ١

قال ناصر الدين: موضوع وذكره في السلسلة الضعيفة تحت رقم ٤٥١.

ولا يخفى أن هذا الحديث والذي قبله يفتح باب الشرك على مصراعيه لأنه يجعل ميزان الاعتقاد هو النفع بل الاعتقاد نفسه، فكل من اعتقد في شيء وظنه نافعاً حتى لو كان حجراً جعله الله كذلك، وكل من أتاه نفع من عقيدة ما كان هذا اعتقاداً صحيحاً، ومازالت هذه حجة عبدة القبور والمشاهد أنهم يجدون في ذلك نفعا كما قال بعضهم: "قبر أبي العباس المرسي ترياق مجرب!!" وقالوا زرنا قبر فلان ودعوناه وشفي مريضنا وانقضت حاجتنا، والحديث يقول كذا، وكذا. وهكذا أصبحت هذه الأحاديث الباطلة التي لا أصل لها سندا ومتكئا لشرك الألوهية الذي ما جاءت الرسل إلا للتحذير منه، ولا شك أن تتبع هذا شيء يطول جدا والمقصود ههنا هو التمثيل والتدليل فقط وبيان جنس المنهج الذي انتهجه من أراد هدم العقيدة الإسلامية.

ثانيا: في حقيقة النبي:

وأما بالنسبة للنبي فإن الوضاعين والكذابين قد ألفوا من الأحاديث ما حرف العقيدة الخالصة في الرسول فقد زعموا أنه أول خلق الله ظهوراً في الوجود وأنه مخلوق من نور الله وأن ما خلق سماء ولا أرضاً ولا جنة ولا نارا إلا من أجله.

وجعلوه داعيا للناس إلى دعائه والتوسل به إلى الله، وأن من حج ولم يزر قبره ﷺ فقد جفاه، بل جعلوه هو الله المستوي فوق العرش وأنه الذي أنزل القرآن!! وقسم آخر من الوضاعين افتروا عليه أحاديث في الطعم والشراب والجماع والطب أرادوا بذلك عيب النبي وشينه وتحقيره أمره وبالتالي إسقاط رسالته ووحيه وإليك بعضا مما فعل هؤلاء وهؤلاء:

"خلقني الله من نوره، وخلق أبا بكر من نوري، وخلق عمر من نور أبي بكر، وخلق أمتي من عمر وعمر سراج أهل الجنة"، تنزيه الشريعة ١/ ٣٣٧

وعزاه لأبي نعيم وقال فيه أبو نعيم هذا باطل، وقال الذهبي في الميزان هذا كذب وتلافة عندي من أحمد بن يوسف المسيحي.

الحديث المنسوب إلى جابر بن عبد الله الأنصاري قال قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأنبياء، قال: يا جابر أن الله تعالى خلق قبل الأنبياء نور نبيك من نوره، فجعل هذا النور يدور بالقدرة حيث يشاء الله تعالى ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار، ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر، فخلق من الجزء الأول القلم ومن الجزء الثاني اللوح ومن الثالث العرش ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول حملة العرش، ومن الجزء الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول السموات ومن الجزء الثاني الأراضين، ومن الجزء الثالث الجنة والنار، وقسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم نظر إليه فترشح النور عرقا فتقطرت منه مائتا ألف قطرة وعشرين ألفا وأربعة الآلف قطرة فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست روح أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسهم أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، فالعرش من نوري والعقل والعلم والتوفيق من نوري، والكروبيون من نوري والعقل والعلم والتوفيق من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، والسعداء والصالحون من نائح نوري ثم خلق الله آدم من الأرض وركب فيه النور وهو الجزء الرابع ثم انتقل منه شيث وكان ينتقل من طاهر إلى طيب إلى أن وصل إلى صلب عبد الله بن عبد المطلب ومنه إلى وجه أمي آمنة ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين، وخاتم النبيين وقائد الغر المحجلين. أ.هـ

وقد نقلناه بتمامه لنبين مدى الكذب والكفر والهذيان وهذا الحديث هو عمدة الصوفيَّة فيما زعموه واعتقدوه ونشروه أن الرسول هو قبة الكون، وهو

أول الوجود، وأنه جزء من نور الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وأن كل المخلوقات خلقت بأجزاء منه، بل قال ابن العربي أن الرسول هو الذي استوى على عرش الله حيث يقول بالنص "بدء الخلق الهباء وأول موجود فيه الحقيقة المُحمَّديَّة الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني وهو العرش الإلهي" - الفتوحات المكية ج١ ص١٥٢، وقد شرح هذه العبارات القاشاني شارح فصوص الحكم وحديث جابر المكذوب هذا هو الذي جاء متأخروا المتصوفة وبنوا عليه أن القرآن أنزله الرسول من فوق سبع سموات وأن محمداً هو الذي أعطاه جبريل في السماء واستلمه في الأرض!! يقول محمد عثمان عبده البرهاني في كتابه تبرئة الذمة في نصح الأمة: ولما رأى النبي ﷺ استغراب سيدنا جبريل عليه السلام مما قاله لجابر "أن أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر" سأل الرسول جبريل قائلا: يا جبريل كم عَمّرت من السنين؟ فقال جبريل: يا رسول الله لست أعلم غير أنه في الحجاب الرابع نجم يطلع في كل سبعين ألف سنة مرة ورأيته سبعين ألف مرة، فقال ﷺ: وعزة ربي أنا ذلك الكوكب.. ثم سأل الرسول جبريل عن المكان الذي يأتي منه الوحي؟ فقال: حينما أكون في أقطار السموات والأرض أسمع صلصلة جرس فأسرع إلى البيت المعمور فأتلقى الوحي فأحمله إلى الرسول أو النبي فقال الرسول له: اذهب إلى البيت المعمور الآن واتل نسبي" فذهب جبريل مسرعاً إلى البيت المعمور وتلا نسب النبي قائلاً "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فانفتح البيت المعمور ولم يسبق أن فتح من قبل ذلك فرأى جبريل النبي بداخله!! فتعجب فعاد مسرعاً إلى الأرض فوجد الرسول في مكانه كما تركه مع جابر فعاد بسرعة خارقة إلى البيت المعمور فوجده ﷺ هنالك، ثم عاد مسرعاً إلى الأرض فوجده مازال جالسا مع جابر فسأل جبريل عليه السلام جابرا قائلاً: هل ترك رسول الله مجلسه هذا؟ فقال جابر: كلا يا أخا العرب فإننا لم ننته بعد من الحديث الذي تركتنا فيه!! فقال جبريل للنبي: إذا كان الأمر منك وإليك فلماذا تَعَبِي؟ فرد عليه ﷺ قائلاً: للتشريع يا أخي جبريل، وتلا قوله تعالى "ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب

زدني علما" وأضاف "كل هذه الأدلة توضح أن القرآن وهو أكبر معجزة للنبي كان عند النبي قبل البيت المعمور وقبل جبريل وهو والخلق جزء من كل أ.هـ. تبرئة الذمة ص ١٠٠ -١٠١"، قلت: وليس بعد هذا الكفر والزندقة كفر ولا زندقة، بل ولا هذيان وكل هذا الذي جعلوه أحاديث ما هو إلا افتراءات لا أصل لها ولا توجد في ديوان معلوم من دواوين السنة بل كتبها المتصوفة ونقلوها ودونوها وزعموا أنهم ينصحون بها الأمة والعجب أن هذا الكتاب ظهر في مصر منذ عشر سنوات، وقد أفتى العلماء بكفر من يعتقد ما فيه ووجوب منع نشره ولكن العجب أنه طبع طبعات أخرى ومازال يوزع في كل مكان !!

ومن جملة الأحاديث الواهية التي استند إليها من يؤمن بهذه العقيدة الباطلة "كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث فبدأ بي قبلهم" السلسلة الضعيفة برقم ٦٦١، وحديث "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين" ذكره صاحب تنزيه الشريعة وقال بعده: قال ابن تيميه موضوع، انظر السلسلة الضعيفة ٣٠٢، ٣٠٣، وكذلك حديث أن عبد الله بن مسعود قال: بينما أنا عند رسول الله أقرأ عليه حتى بلغت "عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً" قال: يجلسني على العرش، قال ناصر الدين: باطل ذكره الذهبي في العلو من طريقين عن أحمد بن يونس عن سلمة الأحمر عن الأشعث بن طليق عن عبد الله بن مسعود وقال الذهبي: هذا حديث منكر لا يفرح به، وسلمة هذا متروك وأشعث لم يلحق ابن مسعود "السلسلة الضعيفة رقم ٨٦٥".

وقسم آخر من أهل الشرك والخرافة جعلوا النبي حيا في قبره يطلب من الناس زيارته والتوسل به إلى الله، ودعائه من دونه سبحانه وتعالى... وافتروا في ذلك أحاديث منها "توسلوا بجاهي فجاهي عند الله عظيم" وهو حديث لا أصل له قط في كتب من كتب السنة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيميه، وكذلك حديث "من زار قبري وجبت له شفاعتي" وحديث "من زار قبري كنت له شفيعاً، ومن زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد دخل الجنة" ذكرها جميعاً الشوكاني في الفوائد المجموعة، وقال عقب الحديث الأخير: قال ابن تيميه والنووي أنه

موضوع لا أصل له. وقال السيوطي في الذيل: وكذا ما روي بلفظ "من لم يزرني فقد جفاني"، قال الصنعاني: هو موضوع وكذا بلفظ "من حج ولم يزرني فقد جفاني" أ.هـ. الفوائد ١١٧-١١٨، وهذه الأحاديث الواهية هي عمدة من يرى مشروعية واستحباب شد الرحال إلى قبر النبي ومن يراها فريضة كفريضة الحج وأنه يطلب من النبي عند قبره كما يطلب من الله وتركوا لذلك العمل بحديث الصحيحين "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى" ولم يفقهوا أن نية زيارة المدينة يجب أن تتوجه لمن يشد الرحال للصلاة في مسجده ﷺ وليس لزيارة قبره.

من أرادوا شين النبي ﷺ:

وأما الوضاعون الذين أرادوا شيْن النبي فإنهم وضعوا عليه أحاديث في الأطعمة والأشربة يناقضون بها ما صح عن الرسول في ذلك ويعيبون بها النبي كحديث "ربيع أمتي العنب والبطيخ"، "ومن أكل فوله بقشرها أخرج الله منه من الداء مثلها"، "الباذنجان شفاء من كل داء"، "الباذنجان لما أكل له"، "أكل السمك يذهب الجسد" وحديث "إن الله خلق آدم من طين فحرم أكل الطين على ذريته" وحديث "عليكم بالعدس فإنه مبارك، وإنه يرق القلب، ويكثر الدمعة، وأنه قد بارك فيه سبعون نبيا" وحديث "بئست البقلة الجرجير" وحديث "لو كان الأرز رجلا لكان حكيما" وحديث "الأرز مني وأنا من الأرز" "انظر تنزيه الشريعة ٢٣٥-٢٦٧" ونحو هذا من السخافات والهذيانات التي وضعها الوضاعون وألصقوها بسيد المرسلين ومن بعثه الله رحمة للعالمين وهادياً للخلق أجمعين، وهذه الأحاديث التي استغلها من يريد الطعن بالرسالة المُحمَّديَّة قديماً وحديثاً، كما أخبرني بعض الطلاب ممن درس في جامعات تبشيرية أن القس الذي كان يدرس لهم كان يقول لهم: رسولكم كان يقول لو كان الأرز رجلا لكان حكيما. وهذا لا يصدر من نبي!!

ولما كان الطلاب لا يعرفون أن هناك حديثاً صحيحاً وآخر مكذوباً ما كانوا يستطيعون جواباً، وترك هذا في أنفسهم ما ترك، ولو رحنا نتتبع

الخرافات والخزعبلات التي ألصقت بالرسول لا تسع الأمر جدا، وحسبك الوقوف على بعض الكتب التي ألفت في الموضوعات لتعلم أي البلاء حل بعقيدة الأمة من جراء المكذوب على رسول الله ﷺ.

ثالثا: في العصبيات والأهواء:

وأما في باب العصبيات والأهواء والكيد لأهل الإسلام، فإن الوضاعين قد ملئوا الأرض بكذبهم في هذا المجال، قال أبو الحسن علي بن محمد بن عراق صاحب تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة المرفوعة: قال الجليل في الإرشاد قال بعض الحفاظ: تأملت ما وضعه أهل الكوفة في فضائل علي وأهل البيت فزاد على ثلاثمائة ألف أ.هـ.

ومن هذا الموضوع ما رواه الخطيب في تاريخ "١٠/٣٥٦-٣٥٨" بإسناده إلى ابن مالك مرفوعا "أنا خاتم الأنبياء وأنت يا علي خاتم الأولياء" وقال بعده: هذا الحديث موضوع من القصاص. وضعه عمر بن واصل أو وضع عليه. أ.هـ.

وحديث "خلقت أنا وعلي من نور، وكنا على يمين العرش قبل أن يخلق آدم بألف عام" ثم خلق الله آدم فانقلبنا في أصلاب الرجال ثم جعلنا صلب عبد المطلب، ثم شق أسماؤنا من اسمه فالله محمود وأنا محمد والله الأعلى وعلي علي، قال الإمام الشوكاني: بعد أن أوردوه وهو موضوع وضعفه جعفر ابن أحمد بن علي بن بيان وكان رافضيا وضاع، وحديث "من لم يقل علي خير الناس فقد الكفر" قال الشوكاني رواه الخطيب والمتهم به محمد بن كثير الكوفي، وحديث "أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب" -الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص ٣٤٨- وحديث أن الرسول أمر الشمس أن تعود لعلي لما فاتته صلاة العصر - الفوائد ٣٥٠ -، وحديث "النظر إلي علي عبادة" وحديث "اسمي في القرآن والشمس وضحاها، واسم علي والقمر إذا تلاها، واسم الحسن والحسين والنهار إذا جلاها واسم بني

أمية والليل إذا يغشاها" -الفوائد ص ٣٥٩- قال الشوكاني: رواه الخطيب في السابق واللاحق عن ابن عباس مرفوعاً وهو موضوع وقال الذهبي في الميزان: هذا خبر كذب، وحديث "لما عرج إلى السماء رأيت مكتوباً على ساق العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله، أيدته بعلي، نصرته بعلي" قال في الذيل: هذا باطل اختلاق بين، وقوله لعلي "غسلت النبي فشربت من ماء محاجر عينيه فورثت علم الأولين والآخرين" - الفوائد ٩٨٣، وحديث ابن عباس "سألت الرسول عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه قال: سأل بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت علي فتاب علي" -تنزيه الشريعة ج١ ص٣٩٥- وهذا مثله كثير جداً لا تسعه هذه العجالة وإنما المقصود التذكير بأن هذا ومثله كان السبب في نشأة الفرق العقائدية، وتمزيق الأمة المُحمَّديَّة، وإكفار بعضها بعضا وكل هذه مسائل أصولية وليست فرعيات عبادية وعملية ولا شك أن انتحال الأحاديث ووصفها كان الدعامة التي عمد إلية أهل الأهواء لتأصيل ما أصلوا، ولاعتقاد ما اعتقدوه.

رابعا: الأحاديث الموضوعة والخرافة:

عمد الوضاعون إلى تصوير عالم من نسيج خيالهم، وبنات أفكارهم المريضة، ونفثات صدورهم الخبيثة المليئة بالحقد على الإسلام وأهله، وذلك صرفا للناس عن دين ربهم وتشويها لجمال الإسلام، وتخليطا، واكتساباً للمال الحرام من العامة وشرح هذا أمر يطول وإنما نذكر بعض ما دونته أيديهم الآثمة في ذلك، فمن ذلك زعمهم أن الله خلق ملائكة السماء الأولى على صورة بقرة، الثانية على صورة العقبان، والثالثة على صورة الناس والرابعة على صورة الحور العين، والخامسة على صورة الطيور، والسادسة على صورة الخيل المسومة، والسابعة حملة العرش الكروبيون. ذكره صاحب تنزيه الشريعة ٢١٣ وعزاه لأبي الشيخ في العظمة. وزعموا أن هاروت وماروت كانا ملكين ألقى الله عليهما الشبق وأن امرأة من أهل الأرض فتنتهم فوقعوا بها فمسخ الله كوكبا في السماء فهي الزهرة المعروفة وأن هذين الملكين اختارا عذاب الدنيا.

المرجع السابق ٢٠٩. وافتروا على الرسول ﷺ أنه قال: إن لله تعالى ديكا براثنه في الأرض السفلي وعرفه تحت العرش ويصرخ عند مواقيت الصلاة، وتصرخ له ديك السماء وديكه الأرض سبوح قدوس رب الملائكة والروح. تنزيه الشريعة ١٨٩. وجعلوا المجرة لعاب حية تحت العرش فرووا عن الرسول ﷺ أنه قال: يا معاذ أني مرسلك إلى قوم أهل كتاب فإذا سئلت عن المجرة التي في السماء فقل لهم هي لعاب حية تحت العرش. ونسبوا كذلك له ﷺ أنه قال: وكل بالشمس تسعة ملائكة يرمونها بالثلج كل يوم ولولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرقته. السلسلة ٢٩٣. وأن الأرض على الماء، والماء على صخرة، والصخرة على ظهر حوت يلتقي طرفاه بالعرش، والحوت على كاهل ملك قدماه في الهواء وأن العنكبوت مسخ. تنزيه الشريعة ٢١٠. وأن سهيل النجم المعروف كان عشاراً يسمو الناس في الأرض بالظلم فمسخه الله وأن النخلة من فضل طينة آدم وأن الله خلق جبلا يقال له "قاف" محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي القرية فيزلزلها ويحركها ثم تتحرك القرية دون القرية وأن الأرض على صخرة، والصخرة على قرن ثور فإذا حرك الثور رأسه تحركت الأرض، والموضوع في هذا الباب لا يكاد يحصى كثرة وكلها تصب عند مصب واحد وهو تخريب العقائد وتشويه الإسلام، وشين رسول الأنام.

خامسا: الأحاديث الموضوعة في القرآن:

لعل أخطر ما دمرته الأحاديث الواهية من العقائد هو تشويه القرآن، وهو ما رامه وابتغاه أهل الأهواء من صرف الناس عن كتاب الله وتفسيره بالخرافات والخزعبلات والأهواء، وجعل القرآن كتابا فقط للتعاويذ والتطبيب من أمراض الأجسام وتصوير القرآن أنه كتاب خرافات وأساطير وليس كتاباً منزلاً من الحكيم الحميد سبحانه، وإليك بعضاً من افتراء هؤلاء الوضاعون على القرآن، وللأسف أن يعتمد أهل التفسير حتى لا يكاد يخلو تفسير واحد

أن يناله شيء من ذلك، ناهيك بتفاسير لم تعتمد إلا كل خرافة وجهالة تفسر بها كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة، فمن ذلك على سبيل المثال: ما ذكره بعض المفسرين عمن سماه عوج بن عنق الطويل وفي هذا الحديث "أن طوله كان ثلاثة آلاف ذراعٍ وثلاثمائة وثلاثين ذراع" وأن نوحا لما خوفه الغرق قال له أتحملني في قصعتك هذه، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته، وانه خاض البحر فوصل إلى حجزته فقط، وأنه كان يأخذ الحوت من عمق البحر فيشويه في عين الشمس، وأنه قلع صخرة عظيمة على قدر عسكر موسى، وأراد أن يرضخهم بها فوضعها الله في عنقه مثل الطوق. قال ابن القيم الجوزية: ولا ريب أن هذا وأمثاله من وضع الزنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا السخرية والاستهزاء بالرسل وأتباعهم. أ.هـ. الأسرار المرفوعة ٤٨٤. وكذلك في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ [المائدة: الآية ٢٢] ، هداي أنهم العماليق وأن سبعين رجلا من قوم موسى استظلوا في قحف رجل واحد منهم، وأن موسى لما نزل قريبا من أريحا في فلسطين بعث أثني عشر رجلا من بني إسرائيل ليتعرف خبرهم فهالهم ما رأوه من هيئتهم وجسمهم وأنهم دخلوا في بستان أحد العماليق فجاء فتتبع أثارهم ثم حملهم في كمه مع الفاكهة وذهب إلى ملكهم ونثرهم مع الفاكهة أمامه. وللأسف أن يذكر ابن جرير مثل هذا الهراء في تفسيره، فإذا كان العماليق على ذلك النحو من العظم والكبر فهل كانت حبة البرتقال في ذلك الوقت في حجم رجل من قوم موسى؟! ومن ذلك نسبتهم الشرك إلى آدم وحواء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٠] ، وقد مضى بك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال يجلسه على العرش.

ومن أسخف خرافاتهم في هذا ما رووه أن سفينة نوح قد طافت بالبيت سبعاً وصلت خلف المقام ركعتين وآفة هذا الحديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال الحاكم: وأبو نعيم روى عن أبيه أحاديث موضوعة.

وتفسيرهم قوله تعالى "وحملناه على ذات ألواح ودسر" قالوا الدسر خمس مسامير، مسمار باسم الرسول، والثاني باسم علي والثالث باسم فاطمة ورابع باسم الحسن وخامس باسم الحسين، وأن الرسول قال: الألواح خشب السفينة ونحن الدسر لولانا ما سارت السفينة بأهلها. "تنزيه الشريعة ١/ ٢٥٠"

وأن إبراهيم لما وضع في النار لم يسأل الله وقال: علمه بحالي يغني عن سؤالي. وتفسيرهم قوله تعالى "أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو" أن الرسول ذكر إبليس فقال: رأيته الساعة أدخل ذنبه في دبره فأخرج سبع بيضات فأولدها سبع أولاد: فولد موكل بالفقهاء ينسهم الذكر ويغريهم بكثرة الوضوء والثاني موكل بالنعاس في المساجد والثالث بالأسواق.. قال الحافظ بن حجر ظاهر الوضع. وأن النملة التي كلمت سليمان كانت في حجم الذئب، ولم يع هؤلاء الأغبياء أن الله سبحانه وتعالى قد قال عن تلك النملة "لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون" فكيف لا يشعر سليمان وجنوده أنهم يقتلون نملاً في حجم الذئاب!!

إلى خرافات وخزعبلات يضيق بها المقام عمن سموه هامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس الذي كان مفسداً في الأرض ثم تاب وكان مع نوح ثم هود ثم صالح ثم موسى ثم عيسى ثم محمد ﷺ ثم مات الرسول ولم يمت "تنزيه الشريعة ١/ ٢٥٠".

إلى خرافات في الإسراء والمعراج في تفسير ابن مردوية ، مكذوبة على ابن عباس في صفة السموات سماء سماء وأن الأولى من دخان والثانية من حديد والثالثة من نحاس والرابعة من فضة.. الخ

إلى تلاعب عجيب بالقرآن وفي تفسير قصة آدم بأبجد هوز حطي كلمن.. الخ، حيث يروون حديث "لكل شيء سبب وليس أحد يفطن له، وأن لأبي جاد حديثاً عجيباً. أما أبجد فأبى الطاعة وجد في أكل الشجرة، وأما هوز فهوى من السماء إلى الأرض، وأما حطي فحطت عنه الخطايا، وأما كلمن فأكل من الشجرة ومن عليه بالتوبة.. الخ، قال الإمام الشوكاني بعد إيراد طرف

من هذا الحديث المفترى في كتابه الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: أخرجه ابن جرير في تفسيره واستطرد قائلاً: وهذا من الكذب الذي لا يصدر عن أجهل الجاهلين وأقبح المفترين، وحاشا ابن عباس وأهل طبقته ومن بعدهم أن يتكلموا بمثل هذا، فمن رواه في مؤلفه مغترا به غير عالم ببطلانه فهو أجهل من واضعه أ.هـ. "الفوائد المجموعة ٤٦٣" ولا شك أن الشوكاني قد أغلظ هنا القول جدا وابن جرير لم يسكت عن هذا وكان يروي مثل هذا للتحذير منه، ولكن لا شك أن الأولى والأحرى أنه لا يجوز أن يلتفت إلى مثل هذه الروايات الساقطة خاصة وأن هناك من يغتر بها ممن يظن أن كل سواد في بياض يعد علماً وأن كل ما سمي حديثا فهو حديث، وأن مثل هذا قد يتبعه من يحبون غرائب القصص والخرافات ليوهموا العامة أنهم من أهل العلم والجمع، والحاصل أن كتب التفسير قد شحنت بالأحاديث الضعيفة والموضوعة والروايات الواهية، بل قيل في بعض التفاسير فيه كل شيء إلا التفسير!! ولا شك أن هذه الروايات الواهية قد أعدمت نفع القرآن وهدايته عند من يحسن الظن بها، بل جعلت القرآن كتاب خرافة بدلاً من أن يكون كتاب هداية وتبصير، بل زادوا على ذلك بأن جعلوا القرآن لكل شيء إلا الهداية فزعموا أن الرسول قال: خذوا من القرآن ما شئتم لما شئتم. وهو حديث لا أصل له مطلقا "سلسلة الأحاديث الضعيفة ٥٥٧". ولذلك عمد المتصوفة ومن على دربهم لجعل كل آية من القرآن لشفاء مرض من الأمراض فلوجع الرأس يقرأ "وله ما سكن في الليل والنهار" وللأورام يقرأ "ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا" وللحبلى المتعسرة في ولادتها يقرأ "وتضع كل ذات حمل حملها" ونحو هذا من الهذيان يجعل في كتب ويقال أن هذا أمر مجرب والرسول يقول "خذوا من القرآن ما شئتم لما شئتم" أ.هـ.

ولا شك أن ارتباط الآيات القرآنية الحكيمة بمثل هذه الأمور يصرفها عن معانيها التي أنزلت من أجلها ويحول القرآن من كتاب هداية وتربية وتبصير إلى كتاب عبث ولعب واستهزاء وأكل لأموال الناس بالباطل، ولا شك أن كل ذلك تشويه للمعتقد.

خاتمة

العقيدة بمعناها الواسع

بعد فأرجو أن أكون بهذا البيان قد ألقيت أضواء على خطورة الأحاديث الضعيفة والمكذوبة على عقيدة الأمة، ولعل هذا الباب من أبواب الشر، أعني الكذب على رسول الله ﷺ وقد كان ومازال هو أعظم أبواب الشر التي فتحت على الأمة، ولا شك أن أول ضرر عقائدي من الحديث الموضوع المكذوب هو استحلال الكذب على رسول الله ﷺ، ولا شك أن مستحل الكذب كافر، وكذلك من كان هدفه من الكذب إفساد الدين وصد الناس عن رسول رب العالمين، وأدنى من ذلك ما كان من أجل أهداف دنيوية أو لعصبية جاهلية، وقد نص العلماء على أن هذا كبيرة من الكبائر.

ولقد رأينا أن الحديث الضعيف والموضوع قد كان ومازال المستند لمعظم الانحرافات العقائدية، هذا إذا نظرنا إلى ما وضع في العقائد فقط، فكيف إذا نظرنا لعقيدة بمعناها الواسع الشامل، وهو النظر إلى الجانب في كل أمر ونهي تشريعي، فإننا سنجد أن دائرة الشر التي سببتها الأحاديث الضعيفة والواهية متسعة جداً ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة:

فالذكر مثل الصلاة والطهارة وعمل الخير كل ذلك من فروع الدين ومسائلة العملية والأحاديث الواهية والمكذوبة فيه قد يتساهل بعض الناس فيها على أنها تحث على الخير ولذلك يؤخذ بها في فضائل الأعمال، ولكنهم ينسون أحيانا الجانب العقائدي في هذه الأحاديث وهو ما يقترن بها عادة من الثواب والعقاب ممن قرأ حديث "من اغتسل من الجنابة حلالا

أعطاه الله عز وجل مائة قصر من درة بيضاء وكتب له بكل قطرة ثواب ألف شهيد" الموضوعات ٢/ ٨٤، وحديث "يا علي غسل الموتى فإن من غسل ميتا غفر له سبعون مغفرة لو قسمت منها على الخلائق لوسعتهم" نفس المرجع السابق، وحديث "إن شهر رجب عظيم، من صام منه يوماً كتب الله له صوم ألف سنة ومن صام يومين كتب له صيام ألفي سنة، ومن صام ثلاثة أيام كتب له صيام ثلاثة آلاف سنة، ومن صام من رجب سبعة أيام أغلقت عنه أبواب جهنم، ومن صام ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء ومن صام منه خمسة عشر يوما بدلت سيئاته حسنات ونادى مناد من السماء قد غفر لك فاستأنف العمل ومن زاد زاده الله عز وجل" الموضوعات ٢/ ٨٤، ٨٥.

وحديث "من عطس فقال: الحمد لله على كل حال ما كان من حال وصلى الله على محمد وعلى أهل بيته أخرج الله من منخره الأيسر طائرا يقول اللهم اغفر لقائلها".

وحديث "من صلى علي صلاة تعظيما لحقي جعل الله عز وجل من تلك الكلمة ملكا له جناحَ في المشرق وجناحَ له في المغرب ورجلاه في تخوم الأرض وعنقه ملوي تحت العرش يقول الله عز وجل: صلي على عبدي كما صلى على نبيي فيصلي عليه إلى يوم القيامة". تنزيه الشريعة ٣٣١.

ونحو هذا آلاف كثيرة كلها على هذا المنوال الساذج من ترتيب ثواب عظيم جدا على عمل قليل ولا شك أن هذا مفسد للاعتقاد لأنه يؤدي في النهاية إلى توهين العمل بالشريعة ونفي الحكمة عن الخالق، بل قد أدت هذه الأحاديث فعلا إلى القول بسقوط التكاليف عند من رأى نفسه قد بلغ من الله مثل هذا الثواب الذي لا ثواب بعده على مثل هذه الأعمال اليسيرة.

ولا شك أن ما في كثير من هذه الأحاديث الضعيفة من ركاكة اللفظ وسخافة السياق ومخالفة المعقول ومعارضة القرآن والتناقض والاختلاف نظراً

لتباين وتناقض أهداف الوضاعين، فالذين ألفوا في مدح العرب غير الذين جعلوا معاوية خير الناس وهكذا، والذين جعلوا أبا حنيفة سراج الأمة قد جعلوا الشافعي وهو مجمع على إمامته أضر على أمة محمد من إبليس، وهكذا قد أدت هذه الأحاديث الضعيفة الواهية وهي في فروع الدين وليست في أصوله إلى الطعن في الرسول ونَسَبتْ إليه التناقض وركاكة العبارة وكل ذلك طعن في العقيدة وتشويه للإسلام، وهذه جميعها في النهاية صوارف عن التمسك بالدين والالتزام بالحق والعزوف عن الإسلام.

كلمة أخيرة

هكذا كان الحديث الضعيف بلاء كله سواء منه ما كان في العقيدة، أو ما كان في الفضائل والعمل وأن المحصلة النهائية أن كل حديث ضعيف وموضوع يلثم ثلماً في الإسلام، ويضع نقطة سوداء على ثوب أبيض، ويدخل جاسوساً غريبا بين جند مخلصين ويقيم بدعة تنافس سنة وتزيحها، ولذلك كان علماء الحديث هم حراس الدين وقادة الأمة كما قال سفيان الثوري: الملائكة حراس السماء وأصحاب الحديث حراس الأرض. أ.هـ، وهم كذلك أصحاب الرسول في كل وقت وحين كما قال قائلهم:

أصحاب الحديث هم أصحاب النبي   وإن لم يصحبوه أنفاسه صحبوا

وأختم كلمتي بكلمة جامعة وشهادة صادقة للشيخ مصطفى السباعي حيث يقول:

ولولا أن هيأ الله لدينه العلماء الأثبات الأئمة الحفاظ من كل مصر وعصر يذبون عن شريعة الله تحريف المحرفين، ويجردون سنة رسول الله من كل ما خالطها من دس وتحريف، لكانت المصيبة شاملة، ولكانت معالم الحق في دين الله مطموسة، لا نستطيع أن نهتدي إليها إلا بشق الأنفس، وهيهات أن نصل إلى اللباب الحق لولا نهضة السلف الجبارة التي قاوموا بها الوضع والوضاعين، وحفظوا بها حديث رسول الله من الكذب والكذابين إلى يوم القيامة أ.هـ "السنة ومكانتها في التشريع ٨٩".

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء المرسلين ومن أرسله الله رحمة للعالمين، وقائدا للغر المحجلين، و سيداً للبشر أجمعين

كتاب

الحد الفاصل بين الإيمان والكفر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله حمداً يرضيه، من عبد عاجز عن شكره إذ ما من خير إلا بتوفيق منه وإعانة، وبالتوفيق لحمده تتجدد نعمة جديدة تحتاج إلى شكران.

والصلاة والسلام على إمام الهدى والرحمة، سيد الأولين والآخرين الذي لا يكمل إيمان إنسان إلا بأن يكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين. وبعد،

فلقد اختلط عند كثير من المسلمين أمر الإيمان بالكفر فأصبح بعضهم يطلق لفظ (الكافر) على من لا يجوز أن يطلق عليه.. وهذا أمر خطير جداً لأن رسول الله ﷺ يقول: [من قال لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما] والمعنى أنه إن كان كافراً حقاً فهي شهادة من مسلم بالكفر على من هو كافرٌ حقاً، وإن كان المسبوب غير ذلك أيْ لم يكن كافراً فقد رجع الحكم على قائله. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: [ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار، ومنِ دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه] رواه مسلم.

وقد رأيت أيضاً من يشهد بالإيمان لأناس ممن ينسبون إلى الإسلام وهم يقولون بألسنتهم، ويعملون ما يشهد عليهم بالكفر ومخالفة جماعة المسلمين. وهذا أيضاً أمر خطير عظيم الشأن لأنه يدخل في أمة الإسلام من ليس منهم،

ولأن كثيراً من الفضلاء وطلبة العلم الشرعي الإسلامي يقعون عن جهل في أمور قد حكم الله في كتابه أن فاعلها كافر، وأنها لا تتأتى من مسلم أبداً، وقد رأيت كثيراً من هؤلاء يقعون في مثل هذه الأعمال، فإذا بينت له بالدليل أن ما فعله يعد كفراً، وأنه يحب أن يتوب منه لله تبارك وتعالى تعجب.. وكثير منهم رجع بحمد الله.

ولذلك فإني قد رأيت من واجبي توضيح هذا الأمر الخطير في رسالة ميسرة سهلة. ألتزم فيها - بحول الله وقوته - الأسلوب العلمي اللائق بعلاج مثل هذه الأمور الخطيرة، وأسأله تعالى أن يجنبني الهوى، ويعصمني الزلل إنه هو السميع العليم. ولن أعتمد الأساليب العقيمة، والاصطلاحات الكلامية والمجادلات الفلسفية.

فهذه الرسالة لعامة المسلمين الذين يجهلون هذه الأمور الخطيرة، والله أسأل التوفيق والسداد.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت في ٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٣هـ
الموافق ٣ يوليو ١٩٧٣م

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي بنوره تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبيه، الداعي إلى الهدى، وأشهد أن لا إله إلا الله سبحانه وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد، وبعد:

فإن هذا الكتاب - أخي القارئ - الذي بين يديك كنت قد كتبت فصوله على عجل يوم اشتدت فتنة التكفير وشاعت القالة بأن كل المجتمعات الآن مجتمعات كفر، وشرع من قالوا هذا القول يجمع كل فرد منهم حوله مجموعة قليلة العدد توافقه على معتقده، وظنت كل مجموعة منهم أنهم وحدهم جماعة المسلمين، وأن غيرهم إما كفار أو مجهولي الهوية والدين، وإن رأوهم يصلون ويصومون ويشهدون أن لا إله إلا الله، بل ويدعون إلى الإسلام ويجاهدون في سبيل الله ما داموا لم يبايعوا أميرهم ويدخلوا في عقيدتهم!! وظن أولئك أيضاً أن حقيقة الإسلام قد ضاعت منذ عصر الراشدين وإلى يوم ظهورهم هم حيث ظنوا أنهم فهموا من الإسلام وطبقوا منه ما لم يفهمه سلف الأمة ويطبقوا، وقالوا أن الزمان استدار كهيئته يوم بعث محمد ﷺ مبشراً بهذا الدين، فكما أنه بعث في أقوام من الكفار يدعون إلى الهداية في الدين ولم يكونوا كذلك، فكذلك هم قد خرجوا في كفار يدعون الإسلام وليسوا بمسلمين!!

وكان لهذا الكتاب بحمد الله أثر بالغ في قمع هذه الفتنة العمياء فقد عصم الله به كثيراً من شباب الجيل الإسلامي المعاصر، وهدى الله به من شاء له الهداية، والحمد لله على منه وتوفيقه.

وكذلك هدى الله بهذا الكتاب والحمد لله وحده خلقاً كثيراً ممن اكتفوا

بالنسبة للإسلام فقط ولم يقيموا الإيمان الواجب والشريعة الواجبة، فشرعوا يدخلون في الدين دخولاً حقيقياً.

وكنت أتمنى منذ أن كتبته أن ييسر الله لي أن ألحق به فصلاً هاماً، وهو موقف المسلم من إخوانه المسلمين، أعني وجوب الموالاة بين المؤمنين، وكذلك موقفه من الكافرين على اختلاف مواقفهم من المسلمين، أعني وجوب البراء من الكافرين، وقد يسر الله أن ينزل هذا الفصل في رسالة مستقلة بعنوان (الولاء والبراء). وقد جاء الوقت بحمد الله الذي يسر الله فيه جمع هاتين الرسالتين في رسالة واحدة، وبهذا يتضح السبيل لإخواننا في التمييز بين المسلم والكافر، وحقيقة الإيمان وحقيقة الكفر، وفي كيفية موالاة المسلم لأخيه المسلم، وكيفية براءته من الشرك والكفر وأهله.

وعلى عادتي حاولت ما أمكنني أن أكتب بأيسر عبارة مستطاعة لي ليفهم هذه الحقيقة أكبر عدد ممكن ممن يقرؤها.

هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا وأن يقينا وإخواننا المؤمنين سبل الغواية وطريق المتنطعين الهالكين والمفرطين الضالين، والحمد لله رب العالمين.

بنها: السادس من رمضان المبارك سنة ١٤٠١هـ

الموافق ٨/ ٧/ ١٩٨١م

عبد الرحمن عبد الخالق

الفصل الأول

أولاً: مدخل إلى الموضوع

قبل عرض القضايا التي سيتحدد الحكم بعدها لا بد أولاً من فهم مدلول هاتين الكلمتين: **الإيمان، والكفر**، ثم إرساء القاعدة المعلومة وهي: التفريق بين الكفر والكافر، وذلك أن الكفر قد يصدر قولاً أو فعلاً ممن لا يجوز أن نحكم عليه بالكفر "وسيرى القارئ بحول الله بياناً تاماً لهذه القاعدة بأدلتها.

الإيمان ما هو؟ وما حقيقته؟

لنفهم مدلول كلمة ما -وردت في القرآن أو السنة- لا بد من معرفة لمدلولها العربي أولاً، ثم نتتبع استعمال الشارع لها في أوضاعها المختلفة. ولا يجوز بتاتاً أن نجعل عرف الناس في زمان ما أو مكان ما - غير زمن التشريع - حكماً على اللفظ. وهذه الكلمة (الإيمان) من الكلمات التي لا يجوز تفسيرها إلا بالمعاني التي أرادها الله، وأرادها الرسول ﷺ وبهذا يتحدد معناه الشرعي.

إذا تتبعنا وجوه استعمال هذه اللفظة لكتاب الله وجدنا أنها تدور على قطبين أساسيين:

(أ) الأول التصديق.

(ب) الثاني العمل أو الالتزام بالعمل.

فمن أدلة المعنى الأول قول الله لإبراهيم عندما طلب منه أن يريه كيف

يحيي الموتى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ﴾؟ ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِىۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٠]، وقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف الذين جاءوا أباهم عشاء يبكون وقد حملوا معهم قميص أخيهم يوسف ملطخاً بالدم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٧] أي بمصدق خبرنا في أكل الذئب ليوسف. وكذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون عندما أتاه الغرق وأيقن بالهلاك: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونس: الآية ٩٠] أي صدقت وأسلمت. ولا يخفى أن آمن تتعدى إلى مفعولها بحرفي جر الباء واللام. فأقول آمنت بالله أي صدقت بأسمائه وصفاته وأذعنت له وآمنت للرسول الذي يدعونا إليه أي صدقت بخبره الذي يخبر به عن ربه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يُوسُف: الآية ١٧] أي بمصدقنا، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يُونس: الآية ٨٣] أي ما صدق خبره بالخروج من مصر وإعزاز بني إسرائيل وإهلاك الله لفرعون على يدي موسى إلا شباب وصغار من بني إسرائيل.

وبهذا يظهر الشق الأول لمعنى الإيمان وهو التصديق بخبر الله وخبر رسوله ﷺ، وقد جمع الرسول ﷺ أصول ذلك في الحديث الصحيح وذلك عندما سأله جبريل عن الإيمان قال: [أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى] (حديث جبريل المشهور رواه مسلم).

وأما الشق الثاني لمعنى الإيمان فهو العمل نفسه أو الالتزام بالعمل وأعني بالعلم (عمل الإيمان) أي مجموعة الأعمال التي يسمى صاحبها مؤمناً ومجموعة المخالفات التي يسمى تاركها مؤمناً.

فما ورد من القرآن قوله تعالى رداً على من قال من المسلمين: ما شأن إخواننا الذين ماتوا ولم يصلوا إلى الكعبة؟ وذلك بعد أن حولت القبلة إلى الكعبة بعد بيت المقدس قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا

﴿كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣] .

قال العلماء (إيمانكم) أي صلاتكم، أي وما كان الله ليضيع صلاتكم السابقة إلى بيت المقدس لأنه هو الذي أمركم بها وكذلك قول الرسول ﷺ: [الإيمان بضع وستون شعبة: أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق] (أبو داود والنسائي وابن ماجه، ورواه البخاري بضع وستون)، فقد سمى الرسول ﷺ هنا جميع أعمال الإسلام من الشهادتين إلى أدنى عمل وهو رفع الأذى عن طريق المسلمين إيماناً.

وقد جاءت الآيات الكثيرة جامعة بين المعنيين وذلك في وصف المؤمنين ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٥].

وبهذه الآية يتحدد معنى الإيمان بشقيه فالإيمان هو التصديق بالله ورسوله وعدم الشك في ذلك والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله. ولا شك أن الجهاد يشمل ما دونه من أعمال الإسلام لأن الجهاد هو الذروة من أعمال الإسلام، فلا ينبعث الجهاد في سبيل الله تارك للعمل الواجب كالصلاة والزكاة والحج مثلاً وقول الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٥] يوحي بأن هناك من يدعي هذه الدعوى بلا برهان، وهم كاذبون في دعواهم، أو لم يتصوروا حقيقة الإيمان تصوراً صحيحاً وظنوها مجرد إعلان باللسان والآية هذه نازلة في قوم على هذا النحو، وكون هذه الآية بأسلوب الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ [الحُجرَات: الآية ١٥] يفيد أن من ليس كذلك ليس مؤمناً، وانظر أيضاً إلى ما يشبه هذه الآية من كتاب الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال: ٢-٤).

فوجل القلب أي خوفه وخشيته وزيادة الإيمان أي التصديق في القلب

وتأكيده، والتوكل على الله. كل هذا استجابة حسية يحسها القلب المؤمن، ومعنى هذا أن الإيمان ليس مجرد تصديق خامل في القلب وإنما هو تصديق مستجيب حي. ثم يأتي بعد ذلك إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وهما عملان من أعمال الإيمان ويعقب الله على هذا بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: الآية ٤] والآية قد جاءت هنا أيضاً بأسلوب الحصر ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢] ثم عقب الله بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ [الأنفال: الآية ٤] ليفيد بأن هناك إيماناً غير حق، إيماناً باطلاً، وستعلم أن هذا الإيمان الباطل. إما أن يكون دعوى بلا دليل عليها، أو أنه التصديق بخرافة ووهم.

وبهذا نفهم أن الإيمان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ له معنيان:

الأول: هو تصديق خبر الله تعالى وإخبار رسوله ﷺ.

الثاني: هو الالتزام بالأوامر التي أمر الله بها هؤلاء المصدقين.

وهنا سنصل إلى هذا السؤال: هل يجوز أن نحكم بالإيمان لمن صدق بقلبه فقط، ولم يلتزم بالعمل؟ وبمعنى آخر هل يكون مؤمناً ناجياً من شهد أن لا إله إلا الله بقلبه، ولكنه لم يعمل ما أمره الله به؟ ولم ينته عما نهاه الله تعالى عنه؟

والجواب على ذلك يتضح - إن شاء الله - بما يلي:

إن الفصل بين عقيدة القلب (تصديقه) وبين الإذعان، والتسليم لأمر الله وفعل ما يطلبه سبحانه من المؤمن، فصل لتقريب هذه الدراسة من الفهم، وليس له في الواقع حدوث ولا ظل فإنه لا يتصور عقلاً وجود إنسان ما يسمع كلام الله يقول له: أي عبدي إن هناك يوم قيامة، فيه سأحاسبك على أعمالك فإن أحسنت أدخلتك الجنة، وإن أسأت أدخلتك النار، ثم يقول رداً على ذلك: أي رب إني أصدق كلامك، وأؤمن بما تقول، ولكني أعتذر عن العمل بأوامرك لأنني كسول.. وقد أوضح هذه المسألة الإمام ابن القيم -رحمه الله- حيث يقول: لا يعقل إيمان رجل يعلم وجوب الصلاة، ويسمع نداء الله تبارك

وتعالى كل يوم وليلة من حياته يناديه: حي على الصلاة، وهو لا يستجيب لهذا النداء مرة واحدة في حياته.. ولقد كنت أضرب مثلاً لإخواني على هذه الحقيقة فأقول لهم:

- يا إخوة! أرأيتم لو أن قائلاً قال لنا ونحن جلوس الآن إن هذا المكان تحيط به النار وإن لم تفروا الآن لحقت بكم وأهلكتكم أيبقى منا أحد -يصدق هذا الخبر - إلا بادر بالخروج والهرب؟؟ أويعقل أن ترى بيننا إنساناً يقول لذلك النذير يا أخ لقد سمعنا مقالتك وفهمنا تحذيرك، ولكنني أعتذر عن القيام من مكاني لأنني كسلان!.. إذا وجد شخص بهذا الطراز فإنما هو مجنون أو مكذب بالخبر، ويستحيل أن يوجد عاقل يصدق هذا الخبر، ويرد هذا الرد.

إن إيمان القلب وامتثال الجوارح، أعني الإذعان والمسارعة إلى فعل المأمور به قضية واحدة لا انفصال لها، فإن وجد الإيمان في القلب فإن صاحب هذا الإيمان سيبادر فوراً إلى العمل والإمتثال، وهذا دليل عقلي واضح لا يماري بعده مقلد أعماه التقليد، أو جاحد أو جاهل.

هذا وهناك أحاديث للرسول ﷺ يفهم منها للنظر البادئ أن إيمان القلب وتصديقه يؤهل لدخول الجنة بعد عذاب في النار لا يعلم أمده إلا الله، وأنه لا يخلد في النار خلوداً أبدياً كخلود الكفار المكذبين، وسأعرض لهذه الأحاديث في ختام هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

والمهم هنا هو إثبات أن تارك العمل مستحق للدخول في النار، وهو من جملة المعاقبين قطعاً، وأما مسألة الخلود فمسألة أخرى حقيقتها ثانوية، وقد كان لسوء فهمها من جمهور المسلمين الأثر الأكبر في خروج طوائف كثيرة منهم من حقيقة الإيمان إلى الكفر وهم لا يشعرون.

فناقش أخي المسلم نفسك: هل أنت حقاً مؤمن بالله؟؟ فإن كنت لا تؤدي ما فرض الله عليك فراجع إيمانك.. وسل نفسك دائماً هل أنت مؤمن بالجنة حقاً؟ فإن كنت مؤمناً فلماذا تقعد عن طلبها؟ وهل أنت مؤمن بالنار حقاً؟ فإن كنت مؤمناً فلماذا تذهب بأقدامك إليها؟ وهل أنت بعد ذلك مؤمن

بالله الواحد الأحد.. فلم لا تسعى إلى مرضاته؟ لم لا تحبه؟ لم لا تطيعه؟.

واعلم أن رسول الله ﷺ لو أرادها من الناس كلمة لا امتثال بها لسارع الناس إلى ذلك ولكنه أراد ما بعد الكلمة من أمثال ولذلك أخذ العهود من الأنصار على النصرة، ومن المهاجرين على بذل المال وعلى الهجرة ومنها على الموت في سبيل الله. وأنه ما وعد كل أولئك إلا الجنة بعد كل هذا العمل والجهاد.. فهل يظن بعض ضعاف النفوس أن تكون بعدها عناء في ركعات وسجدات، ولا يخرج من ماله قرش في سبيل الله، ولا يقول لله كلمة حق، ويزعم بعد ذلك أن الجنة من نصيبه. هيهات.. هيهات.. الإيمان عقيدة والتزام، تصديق وعمل. وليس هناك إيمان بغير هذا.

موضوع الإيمان وشرطه:

عرفنا أن الإيمان تصديق وعمل، وأنهما لا ينفكان، فإذا وجد التصديق وجد العمل، وإذا انتفى التصديق انتفى العمل، فما مضمون هذا التصديق؟ وما موضوعه؟ ما الأخبار التي يجب على المؤمن التصديق بها؟

هذا التصديق يشمل جميع ما أخبره به الله سبحانه وتعالى من أمور الغيب وكذلك ما أخبر به الرسول ﷺ.

ومن كذب الله في جزء واحد مما أخبر به فقد نقض إيمانه وسيأتي بيان هذا - إن شاء الله تعالى - في مناقضات الإيمان. ولكن ليدخل المؤمن باب الإيمان لا بد وأن يعتقد بأصول لازمة تتضمنها هذه الكلمة: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فما هذه الأصول اللازمة؟

(أ) أن يعتقد أن خالق هذا الكون ومسير أموره إله واحد أحد حي قدير يتصف بصفات الكمال والجلال ويتنزه عن كل صفات النقص والعيب، وأنه لم يشاركه في خلقه أحد وليس له صاحبة ولا ولد وإن كان ما سواه فهو عبد مقهور مربوب له سواء كان ملكاً أو رسولاً، أو جنياً أو أي شيء آخر.

(ب) أن يعتقد أنه لم يخلق هذا الكون سدى ولا عبثاً - لأنه تنزه عن

اللعب والعبث - وإنما خلقه لغاية وهذه الغاية هي قيام المؤمنين لربهم بالعبادة والطاعة، وأن الكافرين الذين لم يذعنوا لربهم ولم يؤمنوا به ملعونون مطرودون من رحمته.

(ج) أن يعتقد أن من حق الله تعالى أن ينظم ويشرع لخلقه لأنه هو الخالق الموجد، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤] فما دام أن الخلق له فيجب أن يكون الأمر له. فالتشريع في جميع صوره حق لله تعالى والتعقيب على حكمه بالإلغاء أو الإبطال كفر به ونقض للإيمان السابق.

(د) أن يعبد الله وحده بما شرعه سبحانه من عبادات، ويدعوه ويرجوه وحده، وأن لا يتخذ في دعائه - بينه وبين الله - واسطة لأنه قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه. ويقبل التائبين ويحب المستغفرين. ومن اتخذ إلى الله واسطة ميتة يدعوها من دون الله فقد أشرك مهما كانت منزلة هذه الواسطة.

(هـ) أن يصدق بالبعث والجنة والنار وبكل ما قص الله من أخبار سالفة أو آتية دون الرجوع في ذلك إلى عقله وقياسه فما وافق عقله قبله وما خالفه رده لأن هذا نقض للإيمان.

وذلك أن أعمال العقل في شأن الإيمان يكون أولاً بالتعرف على صدق الرسول فيما يخبر به عن ربه فنحن نفتش عن الرسالة ونستقصي خبرها حتى نعلم يقيناً أن الرسول صادق فإن آمنا بصدقه أخذنا أخباره الغيبية بعد ذلك دون ردها إلى عقولنا ومفهومنا لأن العقل لا يفهم إلا الواقع المشاهد، ويستبعد غير المألوف المعتاد وإلا فما هي المعقولية والقياس بالنسبة للصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف، ومع ذلك يمر المؤمنون عليه كالبرق وكالطرف وأجاويد الخيل والركاب.. وما المعقولية في أن يدفن رجلان في قبر واحد فيكون أحدهما في روضة من رياض الجنة والآخر في حفرة من حفر النار؟!

هذه أصول عقيدة الإسلام الذي لا يعتد بإيمانه أحد يخالف أصلاً منها، وهذا هو المضمون لشهادة أن لا إله إلا الله، والذي يجب على كل مسلم التصديق به. وبهذا نكون قد عرفنا مضمون الشطر الأول من معاني الإيمان

وهو التصديق. فما مضمون العمل؟ هل يجب الالتزام بكل أوامر الله تبارك وتعالى وأوامر رسوله؟ أم بالبعض دون البعض؟ وما نوع البعض الذي فيه الالتزام؟ وللجواب على هذه الأسئلة لا بد من بيان أمور:

أولاً: في كل عبادة عملية جانبان من الامتثال: الجانب الأول هو الجانب الاعتقادي، والثاني هو التنفيذ أو الامتثال، ومثال ذلك القتال: يجب اعتقاد فرضيته على كل مسلم، ثم يجب تنفيذه إذا تعين على كل فرد معين أو جماعة معينة وذلك بشروط معروفة في كتب الحديث والفقه. ولذلك يقول رسول الله ﷺ: [**من مات ولم يغز، أو يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من نفاق**] (مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد). فتحديث النفس هو الجانب الاعتقادي ومعناه التهيئة النفسية اللازمة. فيجب على كل مسلم اعتقاد وجوب القتال على مجموع الأمة بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الآية [البَقَرَة: الآية ٢١٦] والقيام به عند تعيين ذلك.

وليس هذا في شأن القتال وحده بل في كل أمر واجب فإنه يجب على كل مسلم اعتقاد وجوبه أولاً ثم أداؤه عملياً إذا لم يحل بينه وبينه عذر أو ضرورة شرعية. وهذا الجانب الاعتقادي نفيه (كفر) وهو ما يسميه العلماء (الجحود) يقولون: من جحد وجوب الحج كفر. أي من لم يؤمن أن الله فرض عليه الحج عند الاستطاعة فهو كافر.

ثانياً: والجانب الثاني هو التنفيذ وهو أداء العمل ذاته، ويفرق العلماء بين ترك الجانب العملي (التنفيذ) كسلاً وبخلاً أو بعذر ما غير مقبول شرعاً كمن يترك الصوم تكاسلاً عن تحمل مشقته ويترك الحج بخلاً ويترك القتال في سبيل الله المفروض عليه خوفاً وجبناً، يفرقون بين هذا وبين ترك العمل الواجب جحوداً ونكراناً، فيعدون الأول عاصياً والثاني كافراً.

ولكن هناك عبادة واحدة فقط اختلف علماء المسلمين في تركها كسلاً، فقال قوم من أهل الحديث وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تاركها كسلاً كافر أيضاً للأحاديث المشهورة المعلومة في كفر تارك الصلاة

كقوله [**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**] (رواه الإمام أحمد وأهل السنن. وقال الترمذي حديث صحيح إسناده، على شرط مسلم) والحديث الآخر [**بين المرء وبين الكفر ترك الصلاة**] (رواه أصحاب السنن وصححه الترمذي) (وللآثار عن السلف) كنا لا نعد عملاً من الأعمال تاركها متكاسلاً أو محتجاً بأعذار غير شرعية - وليس في ترك الصلاة كلية عذر شرعي يقولون عنه مسلم عاص، ولا فرق بين ترك الصلاة الواجبة وترك غيرها من الأعمال الواجبة، ويؤولون الأحاديث السالفة بأن المقصود تاركها جحوداً أو أنه كفر أقل من الكفر المخرج من ملة الإسلام فهو كفر معصية فقط.

والحق الذي لا غبار عليه في هذه المسألة - إن شاء الله - أن تاركها كلية لا يتصور أن يكون من جماعة المؤمنين وسيفهم هذا من يفهم معنى الإيمان السابق بشقيه وأنه عقيدة وعمل، وقد ذكرت ما أورده العلامة ابن القيم رحمه الله في هذا الصدد، إذ كيف نعتبر مؤمناً بالله وبالجنة وبالنار من يسمع هذه القوارع تقرعه بالكفر والعذاب وهو لا يستجيب لذلك. ويعتذر عن الامتثال بمجرد أنه كسلان يستحيل عقلاً أن يكون أمثال هؤلاء من المؤمنين.

هذا وبقية العلماء والأئمة لا يمانعون في كفر تارك الصلاة تبعاً للنص ولكنهم يأبون أن يسوى بالكفر مطلقاً الجاحد للتوحيد ويرون أيضاً أن كفره يستحق عليه دخول النار ولكنه لا يخلد فيها أبداً خلود الكافر. وعلى كل حال فإن عامة الناس وجهالهم الذين تركوا الصلاة متكلين على مجرد الاعتقاد بوجوبها إن فحصوا إيمانهم واختبروه ورجعوا إلى أنفسهم علموا أنهم لا يملكون من الإيمان شيئاً، وأنهم مغرورون بأماني كاذبة تشبه أماني اليهود والنصارى في دخول الجنة بمجرد الانتساب إلى الدين، ويجعل عذاب الله - إن لحقهم، وهو فرض ضعيف عندهم - إنما هو لأيام معدودة فوالله ما أشبه هذا بقول الله تعالى عن اليهود، ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: الآية ٨٠).

وسيبقى الخلاف محصوراً - بشأن تارك الصلاة - في الخلود في النار أو

عدمه، والمسلم الذي يعول على مثل ذلك ساقط ضعيف إذ دخول النار وحده كاف ولو لدقيقة من الزمن بل عذاب الموقف وحده وهو خمسين ألف سنة كأيام الدنيا شيء عظيم وحده يجب أن يفر المؤمن منه.

ولعل من أعظم أدلة كفر تارك الصلاة وبقائه في النار زماناً لا يعلمه إلا الله، هو أنه لم يرد له في الموقف عقوبة مطهرة كما جاء لتارك الزكاة مثلاً.

وخلاصة هذا الأمر أن العمل - بوجه عام - من لوازم الإيمان لأنه نصف معناه، ويجب اعتقاد وجوب العمل الواجب واستحباب المستحب، وتحريم الحرام وهكذا... ثم فعل الواجب وترك الحرام، وقد اتفق العلماء على أنه لا يكفر من ترك عملاً من أعمال الإسلام إلا الصلاة، فقد قال يكفر بتركها كفراً مخرجاً من الملة الإمام أحمد ومن تابعه وطائفة أخرى من العلماء والسلف.

وبعد هذا البيان بشأن العمل الواجب سيكون الأمر واضحاً بشأن العمل المحرم، فاعتقاد تحريمه واجب ويكفر من اعتقد بحلية الخمر والزنا والسرقة والقتل وهكذا سائر المحرمات المعلومة والمنصوص عليها في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ. فمن أحل شيئاً من ذلك أو استحله لنفسه فهو كافر بإجماع المسلمين وليس لهذا مخالف، ولا شك أن المطالبة بتحليل ما حرم الله كفر مخرج من الملة لأنه في حقيقته محاربة لدين الله وحرب له، وتسفيه لقانون الله ونظامه وشريعته. وهذا هو سر كفر مستحل الحرام إذ هو في حقيقته معترض على تشريع الله، والاعتراض لا يصدر إلا عن مستصغر لأمر الله وهذا فيه نسبة النقص إلى الله وهو الكفر.

ومن فهم هذا الأصل عرف لماذا طرد الله إبليس من رحمته ولعنه بمجرد أن قال لله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: الآية ٦١] ؟.. لأن في هذا القول استصغاراً لأمر الله. واعتراضاً على حكمته فكل من قال وماذا في الخمر حتى يحرمها الله؟.. أو قال: إن الزنا عملية طبيعية لا دخل للأخلاق والدين والتقاليد فيها فهو كافر كفر إبليس عليه لعنة الله وغضبه. وهذا الأمر

نفسه ينصرف إلى من أمره الله بعمل واجب فقال لا أفعل ولا أذعن لأمر الله فما هذه الصلاة؟ وما الزكاة؟.. بل إن مثال إبليس ألصق بها لأن إبليس كان مأموراً بواجب ولم يكن منهياً عن حرام. والأمر أن مستويان، فإن حصل جحود الواجب وإنكاره فهو كفر، وإذا حصل فعل الحرام واستحلاله فهو كفر وليس لهذا الأمر مخالف في علماء المسلمين والحمد لله رب العالمين.

هذا ولم يختلف علماء المسلمين في عدم تخليد فاعل معصية في النار إلا في قتل النفس المؤمنة ولم يطلق أحد من العلماء الكفر على فاعل ذلك وقولهم بالخلود في النار إنما كان لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٣] .

ولقد قال بعض علماء السلف بذلك والبعض يقول: أنه خلود لا تأبيد معه أي مكث طويل يخرج بعده من النار جمعاً للآية والآيات الأخرى والأحاديث التي تبين أنه لا يخلد في النار إلا الكفار فقط، وأن من قال لا إله إلا الله فإنه تنفعه يوماً من عمره.

فإذا عرفنا أن الجانب الاعتقادي لازم لكل مسلم في مسائل العمل، وأعني بالجانب الاعتقادي ما أوضحته آنفاً وذلك كاعتقاد وجوب الصلاة، والزكاة والحج والقتال، وتحريم القتل إلا بالحق، والزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنه ليس مسلماً من خالف هذا الاعتقاد. بقي علينا أن نفهم كنه هذا الاعتقاد وأثره في النفس.

أما هذا الاعتقاد فمعناه بالنسبة للصلاة مثلاً: أن يصدق بأن الله فرض عليه خمس صلوات في اليوم والليلة وأن لا يجحد ذلك لا بقلبه ولا بلسانه، فإن لم يصدق أو جحد فقد كفر وهذا أمر لا خلاف فيه بين علماء المسلمين والحمد لله رب العالمين. فلنأت إلى أثر هذا في النفس إذا تصورنا مسلماً يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويعتقد بوجوب خمس صلوات في اليوم والليلة، ويسمع الوعيد الشديد والتهديد العظيم على من فرط في

ذلك.. ألا يورث ذلك فيه سمعاً وطاعة، اللهم نعم.. من قال بغير ذلك فقد أخطأ، هب أنه تكاسل وغلبته أهواؤه يوماً ألا يورث ذلك في قلبه حسرة وألماً، ألا يتحرك قلبه خوفاً أن يكون مشمولاً مع جملة المعذبين الذين توعدهم الله بترك الصلاة؟ اللهم نعم.. فإن لم يتحرك قلبه حسرة ولا ندم ولا بخوف من عقوبة، فكيف يسمى هذا مؤمناً بالله؟؟.. وهنا قد شهدنا له هذه الشهادة الجائرة وهو يصر على ترك الصلاة طيلة حياته حتى يلقى ربه الذي يؤمن به.. فليراجع إيمانه رجل لا يؤدي الصلاة. وليتق الله مؤمن يشهد بالإيمان لرجل يحكم رسول الله بكفره. ويشهد الله بالعذاب له، ويشهد كل عقل سليم أنه لا يجتمع الإيمان بالله ومعصيته المطلقة في قلب رجل أبداً.

وهذا الجانب الاعتقادي سيكون واضحاً أيضاً إن شاء الله في شأن المعصية، فأول أمر يجب على المسلم تجاه المعصية أن يعتقد بحرمتها عليه. فاعتقاد حرمة الزنا واجب ومن لم يصدق ربه في ذلك وكابره واستحل ما حرم فقد كفر. وهذا التصديق يوجب الحذر والخوف من مقاربة الإثم وفعل المعصية، فإن غلبت الشهوة والطبيعة والهوى فسقط المؤمن وعصى، فلا نقول كفر وإنما عصى ولكن استحق العقاب وعرض نفسه لسخط الله فإن كان مؤمناً بذلك تألم وخاف. فإن لم يحصل خوف ولا تألم، ولا تذكر بعقوبة الله فقد كفر، ويستحيل عقلاً أن تتصور مؤمناً يشرب الخمر أو يزني أو يفعل معصية ما تحت ظرف من الظروف ثم يمر الظرف، ويعود إلى الصواب والرشد، ولا يرد على قلبه سحابة من خوف الله ولا ألم مما جنت يداه، ولا خوف أن يسأل عن ذلك غداً أمام مالك يوم الدين. بل يمر في معصيته غير عابىء بشيء، ولا مهتم لأمر.. حاشا وكلا أن يكون هذا من جملة المؤمنين. ولقد وصف الله الإنسان الكافر بهذا الوصف فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۞ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۞ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۞ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (القيامة: ١-٦).

فالإنسان الذي ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي يلوي في فجوره غير عابىء بشيء هو

المكذب بيوم القيامة ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [القِيَامَة: الآية ٦] ؟ أي يستبعد وقوع ذلك وما حمله على الانطلاق في المعصية إلا الكفر بيوم القيامة، فكيف يكون مؤمناً من ينطلق من معاصيه ولا يهتم يوماً ما بأنه مسؤول عما جنت يداه؟.. ومع ذلك فلا نحكم بكفر على مرتكب المعصية ولا المداوم عليها، لأن الندم الذي نشترطه له حتى يكون مؤمناً لا يطلع عليه إلا عالم السرائر، ولكننا نقول لفاعل المعصية والمداوم عليها: إن لم تندم على فعلتك ولم يتحرك قلبك خوفاً من جريمتك فراجع إيمانك، فإن كنت مؤمناً فلا بد أن تخاف العقوبة وإن كنت غير ذلك فلن تهتم لها ولن تأبه أخالفت أمر ربك أم لم تخالف.

هذا الذي قدمت هو مضمون الإيمان ولازمه، فالعمل من لوازم الإيمان وهذا قول عامة السلف لهذه الأمة وأما الذين قالوا (لا يستلزم الإيمان العمل ولا يضر معه معصية)، فهم المرجئة الخلفيون الذين جعلوا الإيمان حقيقة مجردة لا واقع لها في الحياة ولا ظل له فيها، ولا أثر له في النفس، وقولهم ظاهر السقوط والبطلان فالفصل بين الإيمان بالله والانصياع لأمره والرضا بحكمه هو في حقيقته فصل بين متلازمين، وما أشبه قولهم بمن يقول: (الدين علاقة بين الإنسان وربه) يريدون بذلك فصل الدين عن واقع الحياة وإصلاح النفوس وهذا القول نفسه هو قول القائل (الدين لله والوطن للجميع) يريدون بذلك ترك أمر تنظيم المجتمع حسب شريعة الله وعقيدة الإسلام. أقول هذه الأقوال جميعها تجتمع عند غاية واحدة، وإن اختلف قائلوها شكلاً وموضوعاً وهي إفلات المجتمع وحياة الناس من عقيدة الإسلام وشريعته وهذا أمر خطير جداً. فلينظر الداعون إلى الله أي منهج يسلكون؟ وأي عقيدة يحملون؟

ويبقى في هذا الفصل من هذه الرسالة الإجابة على هذا السؤال، وما مقدار العمل الواجب واللازم لإظهار حقيقة الإيمان؟

ولن نستطيع أن نذكر مقداراً محدداً للعمل اللازم وكمية منصوصاً عليها وذلك أن العمل الواجب يختلف باختلاف الظروف والأحوال والأشخاص،

والضرورات الشرعية. فمقدار العمل الواجب المسموح به للمؤمن في مجتمع ما يختلف قدراً وكيفية عنه في مجتمع آخر، ومقدار الضرورة التي تبيح المحظور تختلف مع الشخص الواحد في حالة عن حالة، فهل يجوز أن نلزم مسلماً يعيش في مجتمع كافر يحارب الإسلام أن يظهر إسلامه ويعلنه ويؤدي الشعائر في أوقاتها وقد يتعرض في سبيل ذلك إلى الطرد والإبعاد والحرمان من دراسته. وهل يكون هذا الحكم، أعين السماح لهذا الشخص بإخفاء عقيدته وإيمانه هو الحكم لشخص آخر يعيش بين كفار لا يعادون الإسلام ولا يتعرضون لم يخالفهم في دينهم وعقيدتهم.

إن مقدار العمل اللازم للإيمان سيحدده الظرف والمجتمع وحكم المؤمنين المخلصين الذين يقبل الله شهادتهم كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣]. وقد أخبر الرسول أن هذه الأمة شهادتها عند الله مقبولة، فقد حملت جنازة فأثنى عليها المؤمنون خيراً فقال رسول الله ﷺ: [وجبت.. قالوا: ما وجبت يا رسول الله؟ قال: حملت جنازة فأثنيتم عليها خيراً فقلت وجبت أي الجنة، وحملت جنازة فأثنيتم عليها شراً فقلت وجبت أي النار أنتم شهداء الله في أرضه] (البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم).

وهذا الحديث بالطبع لا يقتضي الحكم بالكفر والإيمان كحكم نهائي لأن التقييم الأخير إنما هو لله سبحانه وتعالى العليم بالسرائر، ولكنه شاهد على أن العمل الظاهر غالباً ما يدل على الاعتقاد الباطن، ولذلك صوب رسول الله ﷺ الحكم بشهادة المؤمنين.

ولن يستطيع مجموع المؤمنين في مجتمع ما تكفير رجل لا يؤدي شيئاً من الشعائر إلا إذا أعرب لسانه أنه ترك هذا استنكافاً لأمر الله عز وجل وعلواً عليه، وحتى الصلاة التي لا يعتد بإيمان رجل لا يؤديها لوقتها فإن تكفير تاركها مرتبط دائماً بإقامة الحجة عليه وذلك لا يكون إلا بعد علمه بالآيات والأحاديث في شأن تارك الصلاة.

وخلاصة هذا الأمر أننا لا نملك كمية محددة من الأعمال يلزم بها من يقول لا إله إلا الله ويكفر تاركها وذلك كما قلت لاختلاف الظروف والمجتمعات اختلافاً بيناً في زماننا ولكن هناك حكم المؤمنين المخلصين في كل مجتمع على أنفسهم وعلى غيرهم، وهذا الحكم مقبول عند الله بوجه عام، ولا يجوز أن يحكم على شخص تارك للعمل بمقتضى لا إله إلا الله إلا بأن يعرب لسانه أنه ما ترك العمل إلا استنكافاً لأمر الله وعلواً عليه.

وعل كل هناك قضيتان لا بد من الفصل بينهما.

(أ) **القضية الأولى**: قضية حقيقة الإيمان والكفر.

(ب) **والقضية الثانية**: تطبيق هذه القضية أعني الحكم على شخص ما أو مجموعة ما بالكفر، والحكم لشخص ما أو مجموعة ما بالإيمان، ونحن ما زلنا بصدد القضية الأولى وهي بيان حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر، وأما القضية الثانية فلها شروط وآداب وحيثيات سنتعرض لها في فصل آخر من فصول الرسالة. والمهم هنا إثبات أن العمل من شروط الإيمان، وأن تحديد الكمية غير وارد لما بينت آنفاً. ولا يقدح هذا في اشتراط العمل.

الفصل الثاني

نواقض الإيمان

عرفنا في الجزء السالف مضمون الإيمان وأنه تصديق الله عز وجل فيما يخبر فيه عن نفسه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وقضائه وقدره واليوم الآخر، كل ذلك على النحو الذي بينه سبحانه أو بينه رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وعرفنا شرط الإيمان وهو العمل بشقيه: العمل الواجب الذي يجب أن يسارع المؤمن إليه، والعمل المحرم الذي يجب على المؤمن الفرار منه والبعد عنه والذي يجب أن نعرفه أيضاً، أنه على قدر ثبات مضمون الإيمان وظهور حقيقته في النفس يكون تحقيق شرط الإيمان وهو العمل. فالملتزمون العاملون بأوامر الله هم الصادقون في دعوى الإيمان، والمفرطون المخذولون هم الكاذبون الغاشون لأنفسهم. فإذ قد ظهرت لنا حقيقة الإيمان على هذا النحو **وجب علينا أن نعرف أن هذه الحقيقة لها نواقض تنقض عراها. وتعري صاحبها منها. فالرجل قد يتصف بحقيقة الإيمان التي أسلفت القول فيها، ولكنه يرد على قلبه اعتقاداً ما، أو يعمل عملاً ما فإذا به خارج عن حقيقة الإيمان داخل في إطار الكفر، فما هذه الأقوال والأعمال التي تخرج صاحبها عن حقيقة الإيمان إلى الكفر والعياذ بالله؟؟.. والجواب**: أن حصر هذه الاعتقادات التي يكفر بها صاحبها يخرج بهذه الرسالة عن حجمها المقدر لها، ولذلك سأورد الأصول من ذلك والقصد بحول الله هو بيان الحق في هذه المسألة الخطيرة التي نحن بصددها، وقبل الإجابة على هذا السؤال لا بد من فهم هذه المقدمة:

إن الإيمان حقيقة كلية لا تقبل التجزئة.. إنه حقيقة كلية يندرج تحتها فروع كثيرة، ومع ذلك فإخراج فرعية واحدة من قضايا الإيمان وجحدها هو كفر ببقية القضايا والمسائل والفروع الأخرى. والأدلة على هذه المقدمة مشهورة واضحة في كتاب الله تبارك وتعالى. قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٥].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ١٥٠ - ١٥١).

فهذه نصوص واضحة صريحة على أن الإيمان والالتزام يجب أن يكون كلياً غير منقوص، وهاتان الآيتان وإن كانتا في شأن اليهود إلا أن العبرة بعموم لفظها، ولا شك أن ما يعيبه الله على قوم يعيبه علينا إن فعلنا مثلهم . فالآية الأولى آية البقرة بشأن عمل، والثانية آية النساء، بشأن اعتقاد.

ففي الأولى: عاب الله على اليهود في المدينة انقسامهم ومحالفة بعضهم للأوس وبعضهم للخزرج، ولقد كانت تشب الحروب بين الفريقين فيقتل اليهودي الموالي للخزرج اليهودي الموالي للأوس ويساعد عليه عدوه ويخرجه من داره والعكس أيضاً، فإذا وضعت الحرب أوزارها اجتمع رؤساء اليهود من كلا الفريقين وجمعوا الأموال وفادوا الأسرى، وداووا الجرحى.. من كليهما فأنزل الله في شأن ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۞ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٨٤-٨٥).

وأما الآية الثانية: فهي رد على اليهود بشأن تصديقهم بنبوة موسى وكفرهم بنبوة محمد وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً وهذا تفريق بين الله ورسوله، والشاهد من سرد هذه الأدلة بيان أن قضية الإيمان قضية كلية لا تقبل التجزئة، وسيزاد هذا الأمر وضوحاً وبياناً عند التمثيل لكل ناقض من نواقض الإيمان على حده.

أما السبب في أن الإيمان ينتقض بانتقاض فرد واحد وقضية واحدة من قضاياه فهو أن الطعن في مسألة من العقيدة طعن في العقيدة كلها، فالذي يعتقد بأن الله هو الحكيم العليم قد آمن، فإذا ظن هذا أن هناك عملاً من أعمال الله قد خلا من الحكمة أو جاء على مقتضى الجهل فقد كفر بإيمانه السابق، والذي أعتقد بأن الله هو الرحمن الرحيم والذي يكفر برسول واحد فهو كافر بالرسل جميعاً، لأن مرسل الرسل جميعاً واحد هو الله سبحانه وتعالى، فتعصب إنسان ما لرسول تعصباً يحمله على الكفر بغيره هو طعن في مرسل الرسول نفسه وهو الله سبحانه وتعالى والكفر بالملائكة مثلاً تكذيب لله ومن كذب الله فقد كفر.

ومن هذا القبيل أيضاً استحلال المعصية إذ هو لله تبارك وتعالى. أنا لا أرضى حكمه ولا أرتضي حكمتك في تحريم هذا الأمر والواجب أن يكون حلالاً.. وهذا رد لكل إيمان سبق إن كان قد سبق إيمان، وكذلك الأمر بالنسبة للمستكبر عن الطاعة فبيان حاله أنه يقول لا أذعن ولا أفعل لأن أمرك هذا خال من الحكمة وعار عن العلم. وهذه معصية إبليس عليه لعنة الله، فقد امتنع عن أمر الله تكبراً واتهاماً لهذا الأمر بالخلو عن الحكمة والعلم. ولهذا لم يصبح الأمر مجرد معصية وإنما أصبح قدحاً في علم الله وحكمته وذماً لأمره، وهذا ناقض لكل إيمان سابق وعمل صالح سالف.

وبهذا التمهيد أرجو أن يكون الأمر جلياً واضحاً في تطبيق هذه القاعدة على بعض فروعها التي سأتعرض لذكرها بحول الله وإعانته. وليس القصد في عرض هذه الفروع الناقضة للإيمان هو الاستقصاء، ولكنه التمثيل فقط لتتضح هذه القاعدة. وسأتعرض بالذات لما يكثر عليه الخلاف والجدل في زماننا وما يختلط فيه الحق والباطل والله أسأل الهداية إلى سواء الصراط.

كيف ينتقض الإيمان؟؟

حقيقة الإيمان تدور حول الإيمان بذات الله وصفاته الكريمة وكل مسائل الإيمان وقضاياه تلتقي بهذه الحقيقة الأولى. الإيمان بالله العظيم الرب الخالق الرحمن الرحيم الملك المهيمن العزيز الجبار الذي خلق الخلق لحكمة عظيمة والذي لا يظلم ولا يعتري ذاته أي نقص من نوم أو غفلة أو ضعف أو مرض والقائم على كل نفس بما كسبت والرقيب على كل شيء الذي لا تخفى عليه خافية، والذي يخلق ما يشاء ويختار ويفعل ما يشاء ويحكم ما يشاء ويقضي ما يشاء ويأمر بما شاء وينهى عما شاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، وما الإيمان بالملائكة إلا فرع عن الإيمان بالله فالملائكة هم جنده، وكذلك الرسل الإيمان بهم فرع عن الإيمان به، **لأنهم رسله والقائمون بدعوته**، وكذلك الشأن في كتبه فهي قانونه وتشريعه وكلامه، وكذلك اليوم الآخر فهو اليوم الذي ضربه سبحانه وتعالى موعداً لخلقه من الإنس والجن لفصل القضاء بينهم. فالإيمان باليوم الآخر فرع عن الإيمان بالله وكذلك التكذيب بهذا اليوم كفراً بالله، وما القضاء والقدر إلا فعله وتصريفه سبحانه وتعالى. ولذلك كان الاعتراض على القضاء والقدر بصورة مباشرة نقصاً للإيمان بالله، وسيأتي لأمر هذا الاعتراض تفصيل في مكان آخر إن شاء الله تعالى.

وبهذا تتضح الصورة الكلية للإيمان وأنه ليس أجزاء متفرقة مبعثرة نستطيع أن نأخذ منها ما شئنا ونترك ما شئنا ونبقى بعد ذلك مؤمنين. كلا، إن قضية الإيمان لا تتجزأ ومسائله تنبع جميعها من الإيمان بالله الواحد سبحانه وتعالى. فلذلك كان الاعتراض أو الرد أو التكذيب لمسألة من مسائله وقضية من قضاياه كفراً بالأصل الأصيل وهو (لا إله إلا الله) ونقضاً لها.

فالمكذب بعذاب القبر مثلاً، أو الصراط الموصوف في الأحاديث الصحيحة أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف وأنه جسر مضروب على جهنم يجوز عليه المؤمنون بأعمالهم، وبأن بعض الكفار يحشرون على وجوههم يوم القيامة، يسيرون عليها، هو في حقيقة أمره مكذب بقدرة الله عز وجل ولا يفيده إيمانه السابق بقدرته المشاهدة في الدنيا. ولذلك لما سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ كيف يحشرون على وجوههم يا رسول الله؟.. قال ﷺ: [**إن الذي أمشاهم على أرجلهم في الدنيا قادر على أن يحشرهم على وجوههم في الآخرة**] (البخاري ومسلم والترمذي وأحمد)، فرد صلوات الله وسلامه عليه الأمر إلى القدرة الإلهية التي يؤمن بها المؤمن في الدنيا. وقس على ذلك كل تكذيب أو رد لأي مسألة من مسائل الإيمان. ويجب أن يكون هذا الأمر واضحاً أيضاً بالنسبة لمسائل التشريع، فالاعتراض على شعيرة ما من شعائر الإسلام هو في حقيقته اعتراض على المشرع سبحانه وتعالى وهذا هو الكفر، فمن قال مثلاً عن السعي بين الصفا والمروة امرأة سعت بين جبلين من جبال مكة وما شأننا نحن بهذا؟.. هو في حقيقته معترض على المشرع سبحانه وتعالى. وقد سمعت أن بعض الحجاج من المسلمين في زماننا يقول بذلك بل وبأكثر منه كالاعتراض على الطواف وتقبيل الحجر الأسود، ورمي الجمار، ولا شك أن هذا الاعتراض على هذه المناسك هو كفر بحكمة المشرع وعلمه سبحانه وتعالى، وهذا هو الكفر المخرج من الملة والعياذ بالله.

فالاستهزاء بإعفاء اللحية أو الصلاة أو الحجاب الشرعي للمرأة أو المسجد أو الكعبة أو الرسول هو كفر بالله تبارك وتعالى، فكل ما ينسب إلى الله من أمر ونهي وذات والاستهزاء به والاعتراض عليه كفر ونقض للإيمان.

وأعني بالذات ما ينسب إلى الله من شيء كالكعبة والمسجد والمصحف، فالاستهزاء بالمسلم لإسلامه كفر، ولا يتأتى هذا من مسلم أبداً. قال الله تعالى عن الكفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ (المطففين: ٢٩-٣٠).

والشاهد أن كل ما ينسب إلى الله قد كرم والاستهزاء به استهزاء بمن كرمه وأعزه، ومن شرع له الطريق الذي يسير فيه. ومن هذا الباب أيضاً معاداة المؤمن لأجل تدينه وفتنته ليرجع عن دينه هذا كفر وصد عن سبيل الله تبارك وتعالى. لأن الأصل أن يحب المؤمن لإيمانه ويقدم لإحسانه، فإذا عادى شخص ما المسلم لأجل تمسكه بدينه، ولاعتصامه بكتاب ربه وسنة نبيه فقد كفر وصد عن سبيل الله تبارك وتعالى، أي جمع بين جريمتين؛ الكفر إحداهما والعياذ بالله، والسبب في هذا عداوة المسلم لأجل تدينه هي في حقيقتها عداوة لدين الله، ومن عادى دين الله فقد عاداه وعدو الله هو الكافر وأما المؤمن فإنه ولي الله لأن الله يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٧]. وأما معاداة المؤمن لأجل شيء آخر فليس بكفر، فمن عادى مؤمناً في خصومه ما على دنيا أو جاه فهي معصية لا يكفر بها.

وأرجو بهذا البيان أن أكون قد أوضحت الصورة الكلية لحقيقة الإيمان وكيف أنها تنتقض بانتقاض إحدى جزئياتها. والله أسأل أن يعصمني وإخواني المؤمنين من أن ننقض إيماننا، وأن يرزقنا تكميل هذا الإيمان حتى نلقاه سبحانه وتعالى وهو موفور كامل.

وهذا أوان بيان بعض هذه النواقض على شيء من التفصيل وسأذكر ما يكثر فيه الوقوع - ولا حول ولا قوة إلا بالله - وما يكثر حوله الجدل والخلاف.

أولاً: الاعتراض على حكمة التشريع

لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وأسكنه الجنة، أخبره سبحانه وتعالى أنه وطنه، ولما عصى آدم وأهبطه الله إلى الأرض كانت فترة حياته عليها وحياة ذريته فترة اختبار وابتلاء يكون ثمرته العودة إلى الجنة لمن جاز هذا الاختبار بنجاح، ليدخل الجنة عن جدارة واستحقاق، والمصير إلى الجحيم لمن عطل القوى التي آتاها الله إليه، ولمن نسي التكريم الذي خلق من أجله.

والاختبار والابتلاء إنما هو الأمر والنهي. قال العلماء من السلف في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥] قالوا: عبثاً أي سدى لا تؤمرون ولا تنهون..

وهذا الأمر والنهي هو التشريع سواء كان من العبادات أم المعاملات أم الأخلاق. فإذا كان مقصود الخلق هو الابتلاء بالأمر والنهي فإن التشريع في هذه الصورة يصبح واجباً ملزماً، وفرضاً لا يجوز مخالفته لأنه غاية في ذاته من خلق الخلق وقد تولى ربنا بنفسه سبحانه وتعالى أمر هذا التشريع وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ٥٧] وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعرَاف: الآية ٥٤] .

وعندما وضع الله التشريع للبشر على ألسنة رسله فقد أنزل ذلك بعلمه وحكمته فهو العليم سبحانه وتعالى بما يصلح الناس وما يفسدهم.. وبهذه المقدمة نعلم أن الاعتراض على التشريع اعتراض على واضعه ومنزله سبحانه وتعالى، وهذا كفر. ومن المعلوم قطعاً أن "لا إله إلا الله" تقتضي الشهادة لله سبحانه وتعالى بالخلق والأمر، فمن أقر بالخلق فقط وجرد الله سبحانه وتعالى من الأمر وقال: للبشر أن يشرعوا لأنفسهم ما يرونه صالحاً لحياتهم فقد كفر وأشرك. بل لا إله إلا الله معناه لا خالق ولا معبود ولا إله يطاع أمره وينفذ حكمه إلا الله سبحانه وتعالى: ولا يفيد بالطبع الإقرار العام بحق الله عز وجل في التشريع، ونفي الحكمة عن جزئية واحدة من تشريعه لأن الرب تبارك وتعالى ليس محلاً للنقص والغفلة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٦٤] ولا يتأتى من فعله شيء خارج عن الحكمة سبحانه وتعالى، فالاعتراض على جزئية من جزئيات التشريع هو اعتراض على المشرع سبحانه وتعالى، وقد عرفنا حكم ذلك.

وقد حدث في المجتمع المسلم الأول في مكة شيء من هذا، فنزلت المفاصلة والحكم الصريح في ذلك. كان هذا عندما نهى سبحانه وتعالى عن أكل الميتة، وكانت العرب تأكلها ألقى الشيطان في نفوس أتباعه شبهة ليمزق

بها المجتمع المسلم الناشيء فقال لهم: سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من قتلها، فقال رسول الله ﷺ: الله، فقال المشركون: ما تقتلونه أنتم بأيديكم تقولون عنه حلال، مذكى وتأكلونه، وما يقتله الله تقولون عنه ميت حرام وتنهون عنه. أأنتم أفضل من الله؟ وانطلت هذه الشبهة الصغيرة على بعض النفوس الضعيفة فأنزل الله بيان الأمر قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢١].

فجعل سبحانه وتعالى طاعة المشركين في جزئية من التشريع شركاً به سبحانه وتعالى وذلك أنه اعتراف بحق غيره في التشريع، واعتراض على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا أمر واضح ظاهر والحمد لله.

وقد فشى في أوساط المسلمين اليوم ترديد شبه أعداء الإسلام فنقلوا واعتقدوا ما بثوه من اعتراض على تشريع الله، ولا يكاد اليوم يخلو حكم شرعي من أحكام الإسلام إلا ونسمع الاعتراض عليه وأظهر ذلك تعدد الزوجات، والطلاق، والرق، وحد السرقة، وحكم القصاص وحد الزنا.. الخ وترديد من يشهد أن لا إله إلا الله لمثل هذه الاعتراضات دون فهم ووعي لحكم ذلك أمر خطير، واعتقاد انتقاء الحكمة من هذه الشرائع والأحكام والحدود كفر بالله تبارك وتعالى.

وهذا الأمر أعني كفر المعترض على التشريع أشد وضوحاً فيمن ينكر الشريعة جملة. ويرى أنها لا تساير نظام حياة الناس ولا تناسب رقيهم وتطورهم المادي، فهؤلاء خارجون عن الإسلام سواء كانوا مسلمين قبلاً أو لم يسبق لهم إيمان وشهادة.

ولكن أرجو أن يعلم أن الاعتراض قد يصدر أحياناً من مسلم يفاجئه الحكم ولا يرى الحكمة منه مباشرة، ولا يخرج بهذا عن الإسلام إلا بعد أن يبين له فلا يرجع إلى الله، ولا يفيء إلى أمره عز وجل.

ومن ذلك ما صدر عن سعد بن عبادة رضي الله عنه عندما سمع ﴿وَالَّذِينَ

﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ [النُّور: الآية ٤].

أهكذا أنزلت يا رسول الله؟.. فقال رسول الله ﷺ: [يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟..] فقالوا يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها لحق وأنها من الله، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخدها رجل لم يكن لي أن أهيجه، ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته.. ثم أنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ...﴾ (النور: الآية ٦) (رواه أحمد).

والشاهد في سوقي لهذا الحديث أن أبين أنه يحصل للمسلم أحياناً الاستفسار في صورة الاعتراض على حكم الله، ولا يكون هذا مخرجاً له عن الإسلام.

وقد حدث مثل هذا لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عندما اعترض على صلح الحديبية الذي أبرمه الرسول ﷺ مع المشركين، ورأى عمر رضي الله تعالى عنه أن فيه انتقاصاً لحق المسلمين ورضاً بالدنية بالدين، ثم جاء الأمر على خلاف ظنه ورأيه فكان صلح الحديبية أعظم فتح في الإسلام. والشاهد في هذا أيضاً أنه جابه الرسول وأبا بكر بالإنكار والاعتراض ولم يكن ذلك خروجاً منه عن دائرة الإسلام رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وخلاصة الأمر أن الاعتراض على الشريعة إذا أصبح عقيدة يعتقدها صاحبها ويطعن بها في حكمة التشريع كان هذا مخرجاً له عن دائرة الإسلام، ولا يختلف هذا الأمر - أعني الاعتراض على حكمة التشريع - عن الاعتراض على ما شرع الله لنبيه ورضى له. فالاعتراض على ما أباح الله لرسوله ﷺ من مباح كالزواج بأكثر من أربع، وأخذ الخمس من المغنم وغير ذلك مما اختص به صلوات الله وسلامه عليه، تعتبر طعناً في الرسالة واتهاماً لاختيار الله للرسول ﷺ.

واتهام اختيار الله كفر به سبحانه وتعالى، ومما يجرح القلب حزناً على مسلمي اليوم اعتراضهم على ما أباح الله لرسوله ﷺ، فهل هؤلاء مسلمون؟

وخلاصة هذا الأمر أن موقف المسلم من تشريع الله عز وجل هو الرضى والتسليم (سمعنا وأطعنا) هذا شعار المسلم دائماً ولا بأس أن يسأل عن الحكمة ويلتمسها، لأن ظهور حكمة التشريع تزيد المؤمن إيماناً، وتقوي صلته بربه جل وعلا. وشتان بين أن يكون هناك تلمس لحكمة التشريع وبين أن يكون هناك اعتراض على حكمة التشريع، فدأب المسلم دائماً أن يتلمس حكمة الله في تشريعه للعباد، وقد نص سبحانه وتعالى عن الحكمة في معظم تشريعاته. ودأب الكافر الاعتراض والاستهزاء بتشريع الله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (الجاثية: ٧-٩).

ثانياً: الحكم بغير ما أنزل الله عز وجل

ما دام أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل تشريعه لعباده ليلتزموا به، وأنه لم يخيرهم سبحانه وتعالى في الأخذ به أو تركه وإنما فرض هذا وألزمه، وأخبر سبحانه أن هذا هو المقصود من خلقهم حتى لا يكون خلقهم عبثاً ولا هملاً، فإن مقتضى الإيمان به هو تنفيذ أمره ونهيه، فإذا كان معنى لا إله إلا الله لا مطاع طاعة مطلقة إلا الله ولا مشرع للناس في شئون حياتهم إلا الله، أقول ما دام أن أمر الإيمان كذلك فإن هذا الأمر ينتقض بالتعالي عن أمره، والخروج عن حكمه، وإبطال شريعته والحكم بغيرها، وقد نص الله على هذا الأمر في كتابه بنصوص صريحة واضحة، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٤].

وكان هذا تعقيباً على اليهود الذين أرادوا إبطال حكم الرجم الثابت في توراتهم وذلك بسؤال الرسول عن هذا الحكم لعله يفتي بخلافه أو بحكم أخف من الرجم فيكون لهم مندوحة عند الله في زعمهم - في التنصل من هذا

الحكم. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

وها أنت ترى أن الله سبحانه وتعالى قد ختم الآية -وإن كانت في شأن اليهود- بحكم عام يشمل كل أمة لها رسالة وتشريع . ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٤] (فمن) من صيغ العموم وهي تعم كل من اتصف بهذه الصفة.

وهناك سؤال معروف: هل يعد كافراً كل من حكم في قضية ما بحكم غير حكم الله تبارك وتعالى؟

والجواب على ذلك أن هناك صوراً ثلاثاً لهذا الأمر:

الأولى: أن يحكم بغير ما أنزل معتقداً أن ما حكم بِه هو الأفضل، وهذا كفر بإجماع المسلمين ولا مخالف لذلك.

الثانية: أن يحكم بغير ما أنزل الله معتقداً أن ما حكم به متساو مع حكم الله وأن هذا مثل هذا. وهذا أيضاً كفر بالإجماع لأنه يساوي الله بخلقه. كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١].

الثالثة: أن يعتقد أن حكم الله هو الخير وهو الحق، وكل حكم يخالفه مرجوح باطل، ولكنه يحكم به بدافع من شهوة، أو رشوة، أو منصب أو غير ذلك. وهذا الذي قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما. (كفر دون كفر) أي كفره لا يخرجه من ملة الإسلام ومن جماعة المسلمين.

وبهذا يكون الحاكم واضحاً في شأن الذين يجعلون شريعة الله على قدم المساواة مع شريعة أنفسهم أو من يتبعونهم من الكفار وفي شأن الذين يصفون حكم الله بالرجعية والجمود والتخلف عن مسايرة الزمن.

وثمة نقطة هامة في هذا الصدد أحب بيانها حتى لا تلتبس الأمور وهي أن

اجتهاد الأئمة والفقهاء في عصر ما لا يعتبر حكماً لله تبارك وتعالى وإنما حكم الله هو نص كتابه، وحديث رسوله ﷺ فقط، وما سوى ذلك معرض للصواب والخطأ لأنه اجتهاد المجتهد يصيب ويخطئ وأما حكم الله فلا يخطئ أبداً سبحانه وتعالى.

فلا يعد مخالفاً لحكم الله تبارك وتعالى وخارجاً عنه من خالف شيئاً من أقوال الأئمة والفقهاء. وإنما يعتبر كذلك من خالف النصوص الصريحة الواضحة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثالثاً: الاستهزاء بالمسلم لإسلامه، ومعاداته لتدينه

قد يغفل كثير من الناس عن هذا الحكم فيعتقدون -كما بينت سابقاً- أن الاستهزاء بشعيرة من شعائر الإسلام كفر. والاستهزاء بالمسلم ليس كفراً، وهذا أمر يحتاج إلى بيان وتفصيل.

١- الاستهزاء بالمسلم قد يكون لصفة خلقية (بفتح الخاء وإسكان اللام) أو لخلق يتصف به، أو لتصرف أو سلوك ما، وهذه معصية ليست كفراً. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١).

فجعل الله تبارك وتعالى هذه الأفعال فسقاً ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحُجرَات: الآية ١١] أي بئس اسما يطلق على الرجل أن يسمى فاسقاً بعد أن كان مؤمناً.

ولكن ليكن معلوماً أن الاستهزاء بالصفات الخلقية والتي لا تدخل للإنسان فيها قد يجر إلى الكفر لأن اختلاف الألوان والأشكال والألسنة من مراد الله تبارك وتعالى بل ومن آياته. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ (الروم: الآية ٢٢).

٢- وقد يكون الاستهزاء بالمسلم من أجل إسلامه فيستهزأ به لتمسكه

بشعيرة من شعائر الإسلام. أو لعمله عملاً من أعمال الإيمان. وهنا ينصرف الاستهزاء إلى الدين ويكون هذا العمل كفراً. وقد وصف الله الكفار فإن هذا هو دينهم مع المؤمنين قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ (المطففين: ٢٩-٣٣).

فهؤلاء المجرمون يضحكون من المؤمنين ويستهزئون بهم ويتغامزون إذا مروا عليهم ومع ذلك يرجع كل مجرم إلى منزله فرحاً فخوراً بنفسه وكأنه لم يعمل جريمة يحاسب عليها، ثم إنهم يصفون المؤمنين بالضلال، وما أشبه هذا بقول مجرمي زماننا عن المؤمنين "أنهم معقدون، رجعيون، نسوا حياتهم، ضيعوا شبابهم، لا يستمتعون بمتع الحياة، ولذائذها المبذولة"..

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطفّفين: الآية ٣٣] أي ما جعلنا هؤلاء المجرمين محصين لأعمال المؤمنين ولا قائمين عليهم. ثم تأتي الصورة الثانية. صورة الآخرة حيث يكون أهل الإيمان في العلو والرفعة في الجنات، وأهل الإجرام في النار والجحيم .﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ (المطففين: ٣٤-٣٥).. ومثل هذه الآيات قوله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة: ٢١٢).

وخلاصة هذا الأمر أن الاستهزاء بالمسلم لإسلامه كفر لأنه في حقيقته استهزاء بالإسلام، والاستهزاء بالإسلام هو طعن في واضعه ومنزله سبحانه وتعالى ومعلوم ماذا يعني هذا. وبهذه المنزلة معاداة المؤمن لتدينه، فالعداوة مع مؤمن لشأن ما من شؤون الحياة وإعراضها إن كانت بحق فليس في هذا شيء وإن كانت بباطل فهي معصية. وأما عدوانه من أجل تدينه وتمسكه بالإسلام فهي كفر لأنه محاربة لدين الله ومحادة له. وصد عن سبيل الله فكثير من الناس - ولا حول ولا قوة إلا بالله - يكون الشخص محبباً إليهم محبوباً لديهم إذا كان موافقاً لأهوائهم تباعاً لشهواتهم. وما كاد يهتدي ويلتزم طريق

الله تبارك وتعالى حتى يلاقي العداوة والبغضاء ممن كانوا له أصدقاء وهذا أمر خطير جداً نعوذ بالله منه. فإذا بلغت هذه العداوة مبلغ فتنة المسلم عن دينه، وصده عن سبيل ربه فقد بلغت هذه المنزلة منزلة الكفر، قال تعالى في وصف الكافرين: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ❁ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ❁ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ (إبراهيم: ١-٣).

فقد وصف الله الكفار هنا بوصفين: **الأول** حبهم للدنيا عن الآخرة، **والثاني** صدهم عن سبيل الله ورغبتهم أن يظل طريقه سبحانه وتعالى معوجاً للسالكين فيه حتى ينصرف الناس عنه، وينفض الناس منه. وقد توعدهم الله سبحانه وتعالى بالويل لذلك فكيف بالذين يمارسون هذا الصد عن سبيل الله بتجنيد أجهزة الدولة ومقومات الأمة لذلك، وقد رأيت في صحيفة تصدر في بلاد عربية وإسلامية هذا الخبر (صدر في استانبول قرار يقضي بأن لا تسير المرأة محجبة في شارع عام، أسوة بعربات الكارو والحمير) انتهى. أهناك صد عن دين الله أبلغ من هذا؟ وانظر إلى فعل الصحفي الخبيث (أسوة بعربات الكارو والحمير) فليس بالطبع في القرار الصادر هذه العبارة وإن كان القرار في ذاته كفراً، ولكن الصحيفة ترددها لتشفي الصدور المقرحة أن ينشر دين الله عز وجل وتصد أي امرأة مسلمة أن تتزيا بزي الإسلام، فالصد عن سبيل الله عز وجل بأي صورة من الصور، كفر بالله تبارك وتعالى لأن المؤمن يفرح إذا انتشر دين الله وعلت كلمته والكافر ليس كذلك، **ومن أبلغ الأمور صداً عن سبيل الله الاستهزاء بالمسلم لإسلامه، وذلك أن المبتدي في أمر الإيمان قد ينصرف عنه إذا قابل استهزاء الناس وسخريتهم وأبلغ من ذلك فتنه وتعذيبه ليرجع عن عقيدته، فويل للمجرمين الذين يعذبون المسلمين ويفتنونهم عن دينهم ويصدونهم عن سبيل الله ومن زعم أن أولئك ليسوا بكفار فقد جهل وكابر وعاند فما الكفر إذن، إن لم تكن فتنة المؤمن عن دينه كفراً؟..**

رابعاً: موالاة أعداء الله

العقيدة الواحدة والتشريع الواحد تفرضان على المؤمنين الالتزام بوحدة جامعة وأخوة لازمة لا يكمل إيمان فرد فيها إلا بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فالعقيدة الواحدة إيمان واحد بالله سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والشريعة الواحدة تفرض الوحدة والمحبة، وتنفي الفرقة والخلاف في كل صورة من صورها فمن الوقوف في الصلاة صفاً واحداً بين يدي الله إلى إزالة الأذى عن طريق المسلمين نجد الرغبة في الالتحام والقرب والأخوة، فأدنى عمل في الإسلام وهو رفع الأذى عن طريق المسلمين يشعر بالحب والقرب من المسلم لإخوانه ومجتمعه، وهكذا الزكاة والصيام والحج يكاد أن يكون المقصد الأول من كل ذلك بعد عبادة الله تبارك وتعالى تحبيب المسلم من أخيه المسلم، وربط المسلمين بأخوة جامعة، ووحدة عجيبة، هذه الوحدة والأخوة يصبح السعي في تفريقها وتمزيقها جريمة من الجرائم تصل إلى الكفر في بعض صورها وتكون معصية وإثماً وظلماً في صور أخرى مخففة لا تتصل بالعقيدة أعني استحلال الفرقة والخلاف، فإن استحلال تفريق المسلمين وإذهاب وحدتهم كفر مخرج من الملة بلا خلاف.

وإذا فهمت هذه المقدمة جيداً يصبح الوصول إلى الحكم الآتي سهلاً ميسوراً، فما المقصود بولاية المسلم لأعداء الله.

- الولاية في لغة العرب تطلق على النصر والتأييد والإعانة فلان ولي لفلان وموال له أي مؤيد وناصر.

والله ولي الذين آمنوا: ناصرهم ومؤيدهم ومعينهم.. أولياء الله الذين يقومون بنصره سبحانه وتعالى كما قال عز وجل: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ٧] وعلى هذا المعنى يكون اتخاذ أعداء الله أولياء، يعني اتخاذهم أنصاراً ومؤيدين. تنصرونهم وينصرونكم، وتؤيدونهم ويؤيدونكم، والأصل في هذا قول الله تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٥١] .

فهذه الآية نص صريح في النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء والحكم على من فعل ذلك من المسلمين بأنه منهم أي يهودي أو نصراني، وسمى الله من يفعل ذلك ظالماً لأنه يضع الولاية في غير محلها، فبدلاً من أن يوالي الله ورسوله والمؤمنين يوالي أعداء الله من اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم، ولكن ثمة تفصيل في أمر الولاية وهذا التفصيل ينقسم إلى قسمين:

(ا) **القسم الأول**: بحسب حالة اليهود والنصارى ووضعهم.

(ب) **القسم الثاني**: بحسب نوع هذه الولاية والتأييد.

فأما القسم الأول: فإن من اليهود والنصارى وغيرهم محاربين معادين لله ورسوله وللمؤمنين وهؤلاء لا علاقة مع أمة الإسلام بهم إلا العداوة والحرب وقد نزلت الآيات في شأن جماعة من هذا القبيل وهم حلفاء عبدالله بن أبيّ بن سلول من اليهود الذين أراد الرسول تأديبهم لخيانتهم فاستشفع ابن سلول فيهم ونهاه الرسول عن ذلك ونزلت الآية السابقة في هذا الشأن فلا يجوز بحال موالاة المحاربين لأمة الإسلام سواء كانت هذه الحرب مباشرة أي بأنفسهم أم غير مباشرة أي بمساعدتهم لأعداء الإسلام، وجميع أنواع الولاية من حب ونصر وتأييد وإعانة مرفوضة مع هؤلاء، ومن فعل فقد انتقل من معسكر المسلمين إلى معسكر الكافرين.

وأما غير المحاربين منهم وهم المحايدون المستأمنون في بلاد الإسلام أو القاطنون في غيرها الذين لا يحاربون المسلمين بأنفسهم ولا بمساعدتهم لغيرهم فهؤلاء يجوز أن يكون بين المسلمين وبينهم نوع من ولاية نص الله تبارك وتعالى عليها بقوله:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٨] . وهذا البر المسموح به

والإقساط غير الولاية التي نهانا الله تبارك وتعالى عنها وأخبر أنها خروج من الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية، وبهذا يظهر لنا معنى الولاية المسموح بها - إن صح هذا التعبير - من الولاية التي نهانا الله تبارك وتعالى عنها.

وأكبر الإثم وأعظمه في هذا الأمر هو ولاية المسلم للكافر على أخيه المسلم، أعني أن يعاضد المسلم الكافر ضد إخوانه المسلمين هذه ولاية الكفر المخرجة من الإسلام والعياذ بالله، لأنها بمثابة الحرب للإسلام والمسلمين ودين الله عز وجل. وكم يمارس مثل هذا ضعاف النفوس من الحكام رغبة في أن يحفظ عليهم أعداء الإسلام مناصبهم وكراسيهم. إلا أنها مناصب زائلة. وأنها لحسرة وندامة عليهم يوم القيامة!

وخلاصة هذا الأمر هو أن المسلمين أمة واحدة يكون ولاء كل مسلم لها، وقلبه معها ويده ولسانه وسلاحه معها، ولا يجوز أن يصرف شيء من ذلك لأعداء الإسلام، فمن فعل غير ذلك فقد انتقل من معسكر الإسلام إلى معسكر الكفر شاء أم أبى. انظر كيف يقسم الله الناس إلى معسكرين لا ثالث لهما:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾ (محمد: ١-٣).

ثم يعقب بعد هذا التقسيم للناس بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ الآية (محمد: الآية ٤).

إن هذا الانفصال بين أمة الإسلام وأمة الكفر الداعية إلى الكفر المحاربة للمسلمين واجب ولازم لاستمرار هذه الدعوة وبقاء هذه الرسالة، فإن لم يكن في الأوطان والدول فليكن أولاً في العقيدة والشعور ولا بد، وبغير هذا لا يكون هناك إسلام.

خامساً: الرضا بفشو المنكر وانتشاره

يقول الرسول ﷺ: **[ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل] (مسلم).**

هذا الحديث نص على أن من مستلزمات الإيمان إنكار بإحدى وسائل الإنكار السالفة وهي اليد ثم اللسان ثم القلب، وإنكار المنكر باليد معناه إزالته بالقوة، وأما باللسان فمعروف، وأما إنكار المنكر بالقلب فهو كراهيته وبغضه وبغض فاعليه وكراهيتهم، وهذه الصورة الأخيرة التي هي أدنى صور الإنكار لا تعرض المؤمن للأذى وهي أقل مستويات الإيمان. ومفهوم هذا الحديث أن الذي لا يكره المنكر ولا يبغض أهله فليس بمؤمن لقول الرسول ﷺ [وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل].

وهذا نص صريح واضح ومعلوم أنه لا يخرج من النار من في قلبه إيمان أقل من هذا، لأنه لا أقل من هذا. وعلى هذا يكون الراضون بفشو المنكر وانتشاره كفاراً فاقدي الإيمان وإن زعموا أنهم من المسلمين. فكيف بمن يبارك المنكر ويحبه؟!

فكم ممن ينسب إلى الإسلام اليوم يحب ويرضى ويبارك أن تتعرى النساء في الأسواق والمجتمعات العامة وأن يتم اختلاط الرجال بالنساء على هذه الصورة ليمتع نفسه بالمتاع الحرام. وكم منهم من يسب المجتمعات الإسلامية المحافظة ويستهزئ بها وبأهلها ويتهمهم بالرجعية والتأخر وشتى نعوت النقص والتحقير.. وكم من هؤلاء من يفرق إذا نودي في الناس بوجوب تحكيم كتاب الله تبارك وتعالى وغاية فرقه وخوفه أن تختفي هذه الشهوات المحرمة وتغلق الخمارات والبارات وتختفي اللذائذ الرخيصة!! **وهؤلاء هم الذين شرحوا بالكفر صدراً، وضاقت صدورهم أن يذعنوا للإسلام ديناً ودولة، ومجتمعاً نظيفاً**

طاهراً والحكم على هؤلاء بأنهم مسلمون حكم ظالم وجاهل يصدر ممن لم يعرف ما الإسلام وما رسالته وما غايته في الحياة والناس.

فليراجع كل مؤمن إيمانه ولينظر هل اختار حقاً دين الله منهج حياة وغاية وجود، فيضع نفسه في صف المسلمين محباً لعقيدتهم راضياً بشريعتهم كارهاً للكفر بكل صوره ومظاهره وللمنكر بكل أشكاله. وهذا هو الإيمان.

وفي معنى حديث هذا الباب الحديث الآخر عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] (البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم). ومعنى هذا أن إنكار المنكر بالقلب أضعف الإيمان أنه ليس هناك إيمان وراء هذا.

وأما السبب في ذلك أن الإيمان يستلزم حب شريعة الله تبارك وتعالى، والرغبة في تحكيمها، وأن تكون كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فإذا لم يتحرك القلب تجاه المعصية فيبغضها ويبغض أهلها فمعنى هذا أنه رضي بالمنكر، والرضا بالمنكر إقرار له ومعنى هذا الانسلاخ من دين الله تبارك وتعالى ومضادة الإيمان به. فإذا انضاف إلى الإقرار والرضا الحب والمتابعة، والإشادة والمباركة فقد اجتمعت جريمتان: كفر وصد عن سبيل الله تبارك وتعالى لأن محبة المنكر أن يفشو والرغبة في أن يسود الباطل، إنما هو الرغبة في أن تكون كلمة الله دون كلمة الكفر. وهذا نقيض الإيمان الذي يستلزم العمل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وهذا الأمر يحتاج من كل مسلم إلى مراعاة وعناية فائقة ليخلص قلبه من كل حب لغير شريعة الله، ومن كل هوى يناقض دينه سبحانه وتعالى والله المستعان.

الفصل الثالث

الكفر ما هو وما حقيقته؟

الفرق بين الكفر والكافر:

في الصفحات السابقة - عرفنا بحول الله - حقيقة الإيمان ولازمه وهو العمل وما ينقض هذا الإيمان ويذهب به، وقد تردد في هذه الرسالة اسم الكفر كثيراً ولا شك أننا نعلم أن الكفر الآن هو الخروج عن الإيمان والانسلاخ منه، وهذا هو المعنى الحقيقي لمعنى الكفر.

والكفر لغة معناه الستر والتغطية فالعرب تسمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء ويخفيها وتسمي الفلاح كافراً لأنه يغطي الحب في التراب، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: الآية ٢٠] .

ومعنى الكفار هنا الزراع، والسبب في تسمية الخارج عن الإيمان كافراً أنه يرى أدلة التوحيد، وما يدعوه إلى الإيمان بربه جل وعلا ثم يصر مستكبراً على باطله وكفره. انظر كلام الله عن إمام الكافرين في الأرض فرعون الذي **ترك الإيمان بالله جحوداً ونكراناً لا جهلاً**، قال تعالى على لسان موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: الآية ١٠٢].

أي لقد علمت يا فرعون أن الله تبارك وتعالى خالق السماوات والأرض هو الذي أنزل ما شاهدته من الآيات كالعصا واليد لتبصر أنت وقومك،

وتعلموا أنني رسول من الله عز وجل وكذلك أخبر سبحانه وتعالى عن قوم فرعون أنهم علموا الحق ولكنهم كذبوه وزاغوا عنه، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: الآية ١٤]. أي تيقنت أنفسهم أن الآيات التي جاء بها موسى هي آيات الله حقاً وصدقاً، ولكنهم جحدوا أي أنكروا وكابروا وردوا الحق عن علم وبصيرة، وكذلك أخبر سبحانه وتعالى عن كفار العرب الذين كذبوا رسول الله ﷺ حيث قال عنهم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: الآية ٣٣).

ومعنى هذا كله أن الكفر شرعاً هو رد الحق بعد معرفته، ومعنى هذا أن الذي يرد الحق جهلاً أو يفعل شيئاً من الكفر جاهلاً ظاناً أنه من الإسلام وأنه فعل ما لا يضاد الإيمان، فليس بكافر حتى تقوم الحجة عليه ويعلم الحق فيرده على النحو المبين سابقاً في تعريف الإيمان ومستلزماته ونواقضه، وكذلك لا يكون كافراً من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم يفعل مناقضاً للإيمان جاهلاً به غير عالم أنه مخرج له من الإيمان فإن علم ورد وكابر وجحد فقد كفر والعياذ بالله.

وقد فعل بعض الصحابة شيئاً من هذه المناقضات للإيمان عن جهل بحكمها فأنكر عليهم الرسول إنكاراً شديداً ولم يخرجهم من الإيمان. فعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنه قال قلت يا رسول الله إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله أفأقتله يا رسول الله؟ بعد أن قالها، قال رسول الله ﷺ: [لا تقتله] قال فقلت يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي. ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله، قال رسول الله ﷺ: [لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قالها] (رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد)، والمعنى أنك بذلك تقتل مؤمناً وتصبح كافراً ولهذا لما قتل أسامة بن زيد رجلاً قال لا إله إلا الله في غزوة من الغزوات عنفه الرسول ﷺ تعنيفاً

شديداً وظل يردد عليه قوله [قال لا إله إلا الله وقتلته؟..] حتى أن أسامة ليقول تمنيت أني أسلمت يومئذ، أي لم أكن أسلمت قبل (البخاري ومسلم وأحمد).

والسبب في ذلك أن أسامة كان جاهلاً بهذا الحكم والقاعدة الشرعية المعروفة هي أن المؤاخذة لا تكون إلا بعد العلم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التّوبَة: الآية ١١٥] . أي أن المسلم لا يعتبر ضالاً إلا إذا عرف الحق ثم زاغ منه وكابر، وهذه الآية نزلت تعقيباً على عتاب الله لرسوله والمؤمنين الذين استغفروا الله لأقربائهم الذين ماتوا على الشرك، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۞ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۞ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٣-١١٥).

فقرر الله سبحانه وتعالى في ختام هذا الحكم هذه القاعدة الشرعية العظيمة وهي **أن المؤاخذة دائماً بعد العلم. وهذا من فضل الله ورحمته فله الحمد** ويشبه مسألة أسامة ما جاء على بعض ألسنة المسلمين مما يعتبر شركاً، ومعلوم أن الشرك مناقض للإيمان كما قال أحدهم للرسول ﷺ: ما شاء الله وشئت فقال: [أجعلتني لله نداً قل ما شاء الله وحده] (أحمد). فرده إلى الحكم وعلمه إياه. وما قاله بعض مسلمة الفتح عندما خرج بهم الرسول إلى هوازن ومروا على شجرة للمشركين كانوا ينوطون (يعلقون) بها سيوفهم ليلة المعركة زاعمين أن من فعل ذلك لاقى النصر في معركته. يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: [الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفس محمد بيده، كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٣٨]] (أحمد والترمذي)، وذلك أن النصر من الله فكيف يرتجى النصر بتعليق السلاح في شجرة تهب البركة والنصر! إنه الشرك

والشاهد أن الرسول لم يقل لهم كفرتم وأبطلتم إسلامكم السابق ولا بد لكم من إسلام جديد، وإنما بين لهم أن هذا العمل شرك وذلك ليحذروا هذا مستقبلاً.

وهذه الأدلة وغيرها كثير نستفيد منها أنه يجب أن نفرق دائماً بين الكفر والكافر، فالكفر أعمال وأقوال ومناقضات للإيمان قد يصدر بعضها جهلاً من المسلمين، فلا يجوز والحالة هذه الحكم عليهم بالكفر، بل يجب تعليمهم أن هذا العمل كفر أو شرك أو مناقض للإيمان، وذلك ليحذروه مستقبلاً، فمن آمن وأذعن فقد تمسك بإيمانه، ومن كابر فقد انتقل من الإيمان إلى الكفر والعياذ بالله، **وأما الكافر فهو الذي ظهرت له أدلة الإيمان فجحدها وأنكرها، وعلم الحق فزاغ عنه ورده والعياذ بالله .**

الفصل الرابع

العرف الكاذب

أخي المسلم، أرجو أن تكون قد جمعت في قلبك الآن الصورة الحقيقية التي يجب أن يكون المسلم عليها، وعرفت الصورة الحقيقية التي يتصف بها الكافر حتى تصدر أحكامك بعد على نور وبصيرة.

ولتعلم أخي المسلم أن **السبب في جهل المسلمين هذه الحقائق الأولية في عقيدة الإسلام هو من جراء العرف الكاذب. فما هذا العرف؟ ولماذا كان كاذباً؟**

العرف هو ما يقبله الناس بوجه عام، ويتعارفون عليه، وهو خاضع دائماً لما يسود في مجتمعاتنا الإسلامية عقيدة عامة أن من قال لا إله إلا الله كان مسلماً، وهذه العقيدة في أساسها سليمة صحيحة. ولكن انظر ما طرأ عليها من التغيير والتبديل:

(ا) لقد كانت هذه العقيدة تعني الإيمان بالإله الواحد خالق الكون ومدبر شؤونه والذي له الطاعة المطلقة والخضوع الكامل والخروج من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان عقيدة وتشريعاً وحباً وعاطفة فيكون ولاء المسلم لدينه وعقيدته وأهل دينه. ولا شك أن المسلمين كانوا يتفاوتون في مقدار تطبيق التزامات هذه العقيدة، فكان بعضهم يتهاون في القطاعات أو يقارف المنكرات والمعاصي ولكنه محافظ على الأصل السابق.

(ب) ابتدأت العقيدة الناصعة الواضحة تضعف في النفوس، وينشأ في المسلمين أجيال يرثون الإسلام وراثة فيحملون أسماء إسلامية ويتكلمون لغة

القرآن العربية، وينسبون إلى اسم الإسلام ويضعف لديهم مفهوم (لا إله إلا الله) فلا يدركون منه إلا أنه (لا خالق إلا الله) أو (لا موجود إلا الله) وابتدأ يظهر فيهم -بفعل المؤثرات المختلفة- الشرك بكل صوره ومظاهره من عبادة القبور ودعائها بل والأشجار والأحجار.. ثم جاء فصل تشريع الإسلام عن حياتهم وإقرار شريعة الكفر في بلادهم فنشأ فيهم من تحمس لذلك، ووصف شريعة الإسلام بالجمود والرجعية وأنها تستحيل على التطبيق في مجتمع الذرة والصاروخ، والعجب بعد.. أنهم يقولون لا إله إلا الله بل ويمارسون الصلاة والزكاة والصوم والحج.

ومنهم من يخوض مستهزئاً بالمسلمين وخاصة أهل الدعوة منهم. بل ومنهم من أضحى شيوعياً، أو ملحداً يجاهد لإحلال شريعة الكفر محل شريعة الله. ثم يظن بعد أنه ما زال من أهل لا إله إلا الله (ومع ذلك فأرجو أن نفرق بين من عرف الحق من هؤلاء واطلع على رسالة الإسلام بحقيقتها. ومن بلغه الدين عن طريق بعض المشايخ الجهال الذين يفتون في كل شيء بلا علم. ويحاربون القوة المادية والوسائل الصالحة لأنها جاءت من طريق الكفار في زعمهم. فهؤلاء صادون عن سبيل الله، ومن عرف الإسلام عن طريقهم معذور برده فتاواهم الباطلة، وقصورهم وعنادهم، ولا يعتبر هذا رداً للإسلام الذي نزل من عند الله سبحانه وتعالى).

(ج) هذا العرف الكاذب أعني إطلاق اسم المسلم على من ينسب إلى الإسلام فقط، أو يحمل اسماً إسلامياً كان السبب الأول في تمييع قضية الإسلام. وتشويه الصورة الحقيقية العلمية للمسلم.

(د) ثم ابتدأت أفكار الشرك اللئيمة الخبيثة تلبس كفرها لباس الإسلام حتى يروج على من يعلل نفسه بأنه ما زال مسلماً، ومن يمسك لليوم بولائه العاطفي للإسلام فنشرت شريعة الكفر ونظامه باسم الإسلام، وهكذا رأى الناس أن الإسلام ثوب مشوه مرقع سخيف فهو مزيج من الشيوعية، والاشتراكية والديمقراطية والرأسمالية فضاعت بذلك صورة الإسلام المستقلة

الفريدة. وضاعت ميزته الأولى أنه نظام الله وشريعته وليس للبشر فيه إلا الفهم والتطبيق.

(هـ) إن الذين يعز عليهم أن يوزن الناس بميزان الإسلام، وأن يقيموا حسب موازينه وقيمه خوفاً من أن يكون كثير من الناس لا ينطبق عليهم الوصف الحقيقي لمسمى المسلم. ويلجؤون إلى هذا العرف الكاذب ليؤيدوا به حكمهم ودعوتهم يخطئون في حق أنفسهم، ويرتكبون الإثم في حق الإسلام الذي يشرفهم الانتساب إليه. وخير للناس أن يعرفوا الحق فيتبعونه وإن جحد منهم من جحد من أن يقروا على باطل ويتركوا في عماية.

(و) لقد كان هذا العرف الكاذب أكبر صاد لليهود في عهد الرسول ﷺ عن قبول الهداية، والانضواء تحت لواء الإسلام، فلقد جاؤوا الرسول وهم يعتقدون أنهم أهل دين الله وأنهم شعب الله الذي اختاره على العالمين، وأن الجنة خالصة لهم، وكل ذلك حق لو تمسكوا بالدين الصحيح، واتبعوا ما ألزمهم به دينهم من اتباع محمد ﷺ وتركوا ما أحدثوه من الفساد والتغيير والتحريف والتبديل في كتاب ربهم وشريعتهم، ولكنهم تمسكوا بالباطل وردوا الحق فكفروا ولم تفدهم أمانيهم في الجنة والمغفرة شيئاً. وما أشبه الليلة بالبارحة ها هي معاني لا إله إلا الله تتبدل في حياة المسلمين فيشركون بالله في العبادة والتشريع والطاعة، ويستهزئون برسالة الإسلام ويقتلون الدعاة إلى الله، ويفتنونهم عن دينهم - كما فعل اليهود بأنبيائهم ودعاتهم - ويهللون للكفر أياً كان، ومع ذلك يفزعون ويجزعون إذا قيل لهم أن ما تمارسونه كفر مناقض للإيمان. وأن لا إله إلا الله التي تقرون بها تلزمكم بغير هذا تماماً وتحتم عليكم غير هذا.

(ز) واجب الدعاة اليوم الجهاد لإقرار المعنى الصحيح لهذه الكلمة الصحيحة (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ) حيث تعني الإيمان بالله والخضوع لأمره، والإقرار بشريعته، والكفر بكل ما يعبد من دون الله سواء كان صنماً يدعى أو حاكماً يشرع للناس نظاماً من عند نفسه لم يأذن به الله،

والولاء للإسلام والمسلمين قولاً وعملاً والبغض للكفر والكافرين قلباً ولساناً ويداً. وإنكار القلب أضعف الإيمان وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.

(ح) تغيير هذا العرف الكاذب واجب اليوم ليس بمجابهة عوام المسلمين بالكفر، ولكن بعودتهم إلى المعنى الحقيقي لـ (لا إله إلا الله). وقد عرفنا في الفصل السابق الفرق بين الكفر والكافر فليس كافراً إلا من يعلم الحق فيرده، ويماري بالباطل.

(ط) وهنا سنصل إلى هذا السؤال اللازم، وعلى أي صورة منذ البدء سنعامل عامة المسلمين؟

أنعاملهم على أن حقيقة الإيمان قد ضاعت وجهلت وأصبح المجتمع خالصاً، ولا نحكم بالإيمان إلا لمن عرفنا حقيقة دينه وولائه؟.. أم سنعاملهم على أنهم مسلمون قد ورثوا الإسلام وتشرب كثيراً منهم عقائد الكفر جهلاً وغفلة؟

والحق الذي لا مراء فيه أنه يجب الحكم على عوام الناس بأنهم مسلمون، ما لم يظهر من أحدهم ناقض من نواقض الإيمان عالماً به، مكابراً فيه. وإن الواجب أن يعاملوا معاملة المسلمين المؤمنين، وأن يعلموا حقيقة الإيمان، وحدود الإسلام. وأن لا ينقل فرد منهم عن هذه الحقيقة إلا بفعل مناقض للإيمان بعد قيام الحجة عليه.

وبراهين هذا الحكم كثيرة منها:

١- أن هذه الأمة قد ورثت عقيدة التوحيد والإيمان وغرست فيها، وأن هذه التحولات، وشيوع التناقضات مع قضايا الإيمان إنما هو بفعل الجهل والغفلة، وبفعل شياطين الإنس والجن الذين لبسوا على الناس دينهم، وأوهموهم أن الإسلام لا يناقض ما غرسوه من أفكار وعقائد كافرة، ولذلك اعتقد كثير منهم بالباطل جهلاً بحقيقة دينه، ويوم يعلم هؤلاء الناس حدود دينهم على الحقيقة، ولوازم عقيدتهم وإيمانهم. فلا شك أن الكثير منهم سيسارع إلى تصحيح معتقده واستغفار ربه.

٢- إن الحجة - وأعني بها تمييز الحق من الباطل - في كثير من مسائل العقيدة لم تقم قياماً يتحدد معه أن يهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة. كيف وطائفة كبيرة من العلماء المضللين هم وراء نشر الباطل، وتزييف رسالة الإسلام، وتمييع قضية الإيمان، وإقرار الكفر في بلاد الإسلام، وإظهار أهل الحق والإيمان بمظهر الخارج عن تعاليم الإيمان والإسلام.

٣- أنه لم يقم بعد غلبة أنظمة الكفر على نظام الإسلام تمييز يجعل أهل التوحيد والإيمان في صف واحد. بل اختلط أمر الناس اختلاطاً عظيماً فكيف يمكن الحكم على الناس وهم بهذه الصورة.

٤- إن الأصل فيمن ينسب إلى الإسلام أنه مسلم، ولا يخالف في هذا الأصل عاقل، ولذلك يحرم - يقيناً - إخراجه عن هذا المسمى إلا بأن يقول بلسانه، أو يشهد بأعماله أنه ليس من المسلمين.

الفصل الخامس

أمور.. لا تخرج المؤمن من الإيمان

قد عرفنا في فصول الكتاب السابقة أن هناك معاص لا تخرج المسلم من الإيمان، ما لم يستحلها، ونعني بالاستحلال تبرير المعصية وعدم الخوف من العقوبة، والسرقة، وشرب الخمر، وغير ذلك معاص قد يقارفها المسلم المؤمن في لحظة من لحظات ضعفه وغفلته، ولا تخرجه عن الإيمان، ودليل هذا معلوم من الكتاب والسنة، ومن أشهر ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو نائم عليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فجلست إليه، فقال: **[ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة]**. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: **[وإن زنى وإن سرق]** ثلاثاً، ثم قال في الرابعة : **[على رغم أنف أبي ذر]** (البخاري ومسلم والترمذي). فهذا الحديث حجة واضحة في هذا الصدد وليس له مخالف عند أهل السنة والجماعة، ولكن بعضهم تهاون في هذا الأمر حتى ظن أن ممارسة المعاصي دائماً دون خوف من عقاب وخشية من عذاب غير مناقضة للإيمان، وقد فصلت هذا الأمر سابقاً بحمد الله وتوفيقه، واشتط في هذا الأمر الخوارج والمعتزلة فظنوا أن المعصية هادمة لكل عمل صحيح سلف من المؤمن فإن مات ولم يتب دخل النار أبداً وهذا غلو بعيد.

وحديث أبو ذر هذا لا يناقض حديث أبي هريرة الذي يقول فيه الرسول ﷺ: **[لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو**

مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن] (ابن ماجه) فإن هذا الحديث نص في انتفاء الإيمان وقت المعصية فقط. . ومعنى انتفاء الإيمان هو غياب حقيقته من القلب، ومن فهم قضية الإيمان - كما أسلفت القول فيها - عرف معنى غياب الحقيقة وقت الفعل، فالإيمان خرف من الله الواحد، المطلع على كل شيء، القادر على عذاب من يعصيه، هذه الحقيقة من حقائق الإيمان، أترى أن إنساناً يرتكب جريمة الزنا -مثلاً- وهو يعلم أن ربه مطلع عليه، مراقب له وأنه سيحاسبه على ذلك وأنه ملاقيه يوم القيامة، ويبقى مستمراً في فعلته القبيحة!.. لو آمن هذا الرجل وقت هذه الجريمة لجمد الدم في عروقه، ولقام من فوره خائفاً فزعاً. ولكن استمراره دليل غياب حقيقة الإيمان من قلبه، فإذا انتهى وتذكر وأبصر وندم وخاف، وهذا هو الإيمان وإن لم يتذكر ولم يندم ولم يخف فلا إيمانه البتة لا قبل الجريمة ولا أثناءها، ولا بعدها.. ومن شهد بالإيمان لمثل هذا الذي لا يندم على فعلته ولا يخاف الله بسبب جرائمه فقد جهل وشهد بالباطل.

ولكن ثمة أمور تحتاج إلى تفصيل وإيضاح، فإن بعض الناس يحكم فيها حكماً خاطئاً بسبب التصور الناقص، وهي:

١- النطق بكلمة الكفر اضطراراً لا يخرج المسلم من دينه، ولا ينقل المؤمن عن إيمانه، والأصل في هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (النحل: ١٠٦-١٠٧).

وقد نزلت الآيات بشأن عمار بن ياسر لما اضطر إلى أن يقول للكفار ما يريدون، بعد أن عذبت أمه سمية - رضي الله عنها - وأرضاها بأن ربطت بين جملين ثم جاء عدو الله أبو جهل فاتهمها بأنها لم تسلم إلا من أجل الرجال!!.. ثم ضربها في عنقها بحربة فأرداها قتيلة. ثم مات زوجها تحت التعذيب بعد ذلك، وقد رخص رسول الله لعمار الذي أتى الرسول باكياً من

قوله بلسانه كلمة الكفر، فمسح رسول الله ﷺ على أحزانه وقال: **[إن عادوا فعد]** (رواه ابن جرير والبيهقي)، أي إن عادوا إلى التعذيب فعد إلى القول. ثم نزلت الآيات لتدوين هذه الرخصة إلى يوم القيامة.

ولا يختلف اثنان من طلبة العلم أن الصبر على الأذى مع عدم النطق بالكلمة الخبيثة خير من النطق والنجاة من العذاب أو الموت. فقد ظن البعض أن هناك حالات قد يكون فيها إظهار الكفر خير من إعلان الإسلام لما يسمونه (مصلحة الدعوة) وليس هناك مصلحة للدعوة أكبر من أن يصبر حاملوها على الأذى ويموتوا في سبيل الله، ولم تتدنس ألسنتهم بكلمة الكفر، وقد يكون استشهاد رجل أو رجال لعدم نطقهم بكلمة الكفر أبلغ أثراً في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى من بقاء طوابير طويلة تنطق بكلمة الكفر!. وتعطي الطغاة ما يريدون.. فيجب أن يظل الاعتقاد السليم الصحيح أنها رخصة ولن تتعدى ذلك فتكون فضيلة وفضلاً وسابقة..

ولكن يجب أن يفرق بين ذلك -أعني النطق بكلمة الكفر اضطراراً- **وبين إخفاء حقيقة المعتقد، فإخفاء الإيمان في ظرف من الظروف قد يكون فضيلة، وسياسة شرعية واجبة**، وقد مارس هذا فضلاء الصحابة رضوان الله عليهم بمكة. ففي الحديث الصحيح عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: [احصوا لي كل من تلفظ بالإسلام] قال: قلنا: يا رسول الله أتخاف علينا، ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟ فقال رسول الله ﷺ: [إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا]. قال: فابتلينا حتى جعل الرجل منا ما يصلي إلا سراً (مسلم وابن ماجه وأحمد)، وكان هذا بالطبع في مكة.

فإخفاء المسلمين للشعائر في هذه الحقبة ليس جبناً، ولا رخصة غيرها أفضل منها وإنما هو سياسة واجبة لانتشار الإسلام، وإعلاء مناره. وقد يصل بالمسلمين ظرف من الظروف يكون إخفاؤهم لعقيدتهم وإيمانهم خيراً من إعلان ذلك، **وفرق كبير بين إخفاء حقيقة الإيمان، والنطق بكلمة الكفر.** ولكن ينبغي أن يعلم أن هذا الظرف والمناسبة يحددها النظر الشرعي السليم المبني على اجتهاد

صائب صحيح وليس الجبن والخوف من إظهار عقيدة الإسلام وشرائعه.

وليس إخفاء الإيمان فضيلة وفريضة للهروب من مكروه فقط بل ولجلب منفعة عامة للمسلمين. وقد فعل هذا محمد بن مسلمة رضي الله عنه بأمر من الرسول ﷺ، عندما أرسله لقتل كعب بن الأشرف (كان كعب بن الأشرف يهودياً، وكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ، وكان يتغزل في نساء الصحابة ويقع في أعراضهم في أشعاره، فلما كانت وقعة بدر ذهب إلى مكة وجعل يؤلب المشركين على رسول الله ﷺ، ناقضاً عهده، فلما عاد إلى المدينة انتدب له الرسول ﷺ سرية على رأسها محمد بن مسلمة لقتله. وأذن لهم أن يقولوا ما شاءوا من كلام يخدعونه به، فزعموا له أنهم ضاقوا ذرعاً بصحبة النبي وشكوا إليه ما أصابهم من ضنك وشدة في العيش. وطلبوا منه أن يبيعهم طعاماً ويرهنونه أسلحتهم، حتى إذا اطمأن إليهم وخرج معهم بعيداً عن حصنه قتلوه).

وكذلك فعل نعيم بن مسعود في غزوة الخندق (نعيم بن مسعود رجل من غطفان أسلم أثناء حصار المشركين للمدينة في غزوة الخندق، فطلب من الرسول ﷺ أن يخذل الكفار ما استطاع قائلاً له: [إن الحرب خدعة] فذهب إلى بني قريظة وكانوا قد تآمروا مع المشركين، ونقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال لهم: إن قريشاً إن أصابوا فرصة من المسلمين حاربوا، وإلا فسوف يعودون إلى ديارهم ويتركونكم تواجهون المسلمين وحدكم، ونصحهم ألا يقاتلوا مع قريش حتى يعطوهم رهائن من رجالهم، ثم ذهب إلى قريش وقال لهم: إن بني قريظة ندموا على نقضهم لعهد محمد وأنهم صالحوه على أن يأخذوا منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، فلما طال بالمشركين المقام، طلبوا من اليهود أن يناجزوا المسلمين معاً، فطلب اليهود منهم رهائن، وأبى المشركون، فتخاذل الفريقان وأرسل الله عز وجل على المشركين ريحاً وجنوداً من الملائكة، فاقتلعت خيامهم وألقت الرعب في قلوبهم فعادوا خائبين).

٢- هذا وينبغي التفريق بين الاضطرار إلى قول الكفر، والاضطرار إلى فعل فيه اعتداء على الآخرين، فليس هناك اضطرار لمسلم أن يقتل مسلماً، فليس نفس المضطر بأولى من نفس المقتول. ولذلك نص العلماء على أن من اضطره كفره أو ظالم إلى قتل مسلم وإلا قتله أنه لا يجوز له أن يفعل، لأن نفسه ليست أفضل من النفس التي سيعتدي عليها لينقذ نفسه.

وقد نص الإمام ابن القيم رحمه الله في الفوائد إلى أن من اضطر إلى أن تفعل به جريمة اللواط وإلا قتل أنه لا يفعل ولا يمكن من نفسه أحداً، وهذا الأمر ينصرف ولا شك على من اضطر أن يفعل بغيره.

وأما من اضطر أن يتكلم في عرض أخيه المسلم أو يسبه أو يحكم عليه بالكفر فمسألة فيها نظر والصحيح والله تعالى أعلم أنه يجوز له ذلك. إذ قد سمح رسول الله ﷺ أن ينال من عرضه محمد بن مسلمة وهو في سبيل جلب منفعة ما للمسلمين، وقد سمح الله سبحانه وتعالى للمسلم أن يقول في حقه ما يقول اضطراراً فكيف لا يجوز أن يقدح في عرض المؤمن اضطراراً وهو دون ذلك ولا شك؟..

ولكن مما ينبغي التنبيه عليه أن من لوازم ذلك أن يعتذر المسلم لأخيه المسلم مما قد حدث منه اضطراراً.

وخلاصة هذا الأمر أن النطق بكلمة الكفر في الفتنة رخصة غيرها أولى منها، وأما قتل مسلم أو الاعتداء على عرضه باسم الاضطرار فغير جائز، وأما سبه أو تكفيره فالصحيح والعلم عند الله تعالى، أنه جائز شريطة الرجوع عن هذا بأول فرصة سانحة.

وهنا يجب أن ننبه إلى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النّحل: الآية ١٠٦].

إلا أن المسلم في حالة الضرورة وغيرها يضيق صدراً بالكفر وأهله، ويعلم أن القول الذي اضطر إليه إنما هو حال عارض، ورخصة عابرة، فإذا زال البلاء زالت. ومعنى هذا أن استساغة الفتنة والركون إليها وجعلها نهاية

المطاف، وخاتمة السعي كفر بالله تبارك وتعالى وإبطال لجهاد المؤمن وسعيه. ولذلك قال الله تبارك وتعالى في شأن هؤلاء: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ١٠] .

فوصف الله تبارك وتعالى هذا الصنف الذي يعجز في الفتنة فيلقى عصاه ويستسلم للباطل ويعتبر الفتنة مانعة له من الإسلام والإيمان، كما يعتبر المؤمن عذاب الله في الآخرة مانعاً له من الكفر والطغيان، وصفه تبارك وتعالى بالنفاق إذ أن هذا الصنف نفسه يهرول إلى المؤمنين العاملين المخلصين عند النصر قائلاً: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ﴾ [العَنكبوت: الآية ١٠] والله سبحانه وتعالى هو العليم بمن كان مع المؤمنين حقاً، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ (العنكبوت: ١٠-١١).

فليكن المؤمن دائماً مع الله، ومع أوليائه في العسر واليسر والمنشط والمكره، فإن أماله البلاء يوماً ومال معه، فليعاود قيامه بأمر الله ودعوته إذا وجد الفسحة والراحة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل السادس

تأويل كلام الله
وصرفه عن ظاهره خطأ واجتهاداً

من الأمور التي يرمي بسببها بعض المسلمين إخوانهم بالكفر هو تأويل كلام الله وصرفه عن ظاهره خطأ واجتهاداً. والحق أن هذا من الأمور الدقيقة والخطيرة، وذلك أن هذه المسألة تتعلق بالقلب أكثر مما تتعلق بالظاهر. وذلك أن التأويل قد يصدر من الخاطئ المتعمد للإفساد والغواية وتلبيس الحق بالباطل، وهذا كفر والعياذ بالله وقد يصدر من مجتهد لم يظهر له وجه الحق فأول كلام الله وصرفه عن ظاهره .**ولا يحدد الفرق بين هذا وهذا إلا علام الغيوب المطلع على السرائر سبحانه وتعالى.**

ولذلك فالمسارعة إلى تكفير شخص ما صدرت منه فتوى أو رأي جاء على خلاف كلام الله تبارك وتعالى تعجل غير محمود، وإنما الواجب في مثل هذه الأمور التعرف الكامل على مراد المتكلم من كلامه. والغاية التي يقصدها في النهاية وإقامة الحجة عليه إن كان بالإمكان ذلك، وهذا الكلام المجمل لا يحتاج إلى تفصيل.

(ا) لكل متكلم مقصد يريده، وفي سبيل ذلك يتخذ الأسلوب الذي يقدر عليه، وقد يخونه الأسلوب وتختلط عليه الكلمات فتحتمل معنى لا يريده أبداً، ولا يقصد إليه، فمن الخطأ كل الخطأ تفسير كلام إنسان ما حسب ما يقتضيه أسلوبه، لا حسب ما يريد هو أن يعبر عنه، ولذلك لا يجوز أن نفسر كلام

شخص ما إلا بعد معرفة المعنى الذي يريد التعبير عنه، وليحمل بعد ذلك الأسلوب على المعنى المراد. ولا يقتصر هذا في كلام البشر. بل يجب تطبيق هذه القاعدة نفسها في كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

(ب) إذا فهم المعنى الذي يريد المتكلم الوصول إليه، فليكن النظر بعد ذلك في **الغاية والهدف الذي سيق المعنى من أجله فقد يكون المعنى** في ذاته صواباً، والهدف الذي يريد المتكلم الوصول إليه باطلاً ولا تنس الكلمة العظيمة (كلمة حق أريد بها باطل). فكم من كلام حق في نفسه ولكن قائله ما أراد به إلا الشر والفتنة. وليس هذا مجال التمثيل والتوضيح.

(ج) إذا تحدد المعنى والهدف اتضحت السبيل. وليس على المسلم بعد أن رأى عوجاً وانحرافاً إلا أن يقيم الحجة إن أمكنه ذلك، فإن رد أحدهم الحق بعد علمه وكابر وجحد عن علم وبصيرة فهو الزيغ والعياذ بالله.

وعلى كل فهذا المجال محفوف بالمخاطر لأنه في غالبه اتهام للنيات. واتهام النيات شيء خطير إن لم ينبن على أسس ثابتة قطعية صريحة، وأما مجرد الشبهات والظواهر وتتبع الأخطاء فكل ذلك لا يجوز أن يحمل مسلماً على تكفير مسلم، ولم يبق إلا إقامة الحجة والأعذار إلى الله وبيان الخطأ دون اللجوء إلى التكفير والتشهير، والحكم أولاً وأخيراً لله رب العالمين العليم بالنيات المطلع على السرائر.

ولقد كان هذا الباب، أعني باب تأويل كلام الله وصرفه عن ظاهره، وما يزال أعظم أبواب الشر التي فتحت على المسلمين، فيجب الحذر منه كل الحذر.

وقد كان من الأسباب التي ساعدت على التأويل ما يأتي:

١- اللغة العربية بحسب وضعها فيها كثير من الصور البلاغية والبيانية التي تلجأ إلى التمثيل والتشبيه والاستعارة والكناية، وفيها من وجوه المجاز ما فيها. ولقد ساعد هذا على اختلاف الآراء وتباين الأفكار، ليس في الأمور العملية الشرعية وحدها بل وأيضاً في الأمور العقائدية الإيمانية. وليست هذه ثغرة في

اللغة العربية أو نقص، وإنما كل اللغات كذلك، وإن كان اللغة العربية أثراها، وأكثرها تصرفاً في القول وتحسيناً في البيان وهذا في حقيقته ميزة وليس بثغرة إذا عرف الأصل الذي تحدثت عنه آنفاً وهو وجوب تفسير كلام المتكلم حسب المعنى الذي يريده لا حسب المعنى الذي يحتمله اللفظ.

٢- استغل المبطلون من أعداء الإسلام وأهل الأهواء هذا فلجأوا إلى تحريف الإسلام من داخله بدعوى أن هذا مضمون اللفظ والمعنى المقصود، ولجأوا إلى تحريف الآيات والأحاديث التي تعارض المعنى الخبيث الذي يريدون الوصول إليه.

ثم جاء من يحمل كلام الله على معان لا يريدها الله ورسوله جملة وتفصيلاً وبذلك نشأت التأويلات البعيدة وكلها تحت ستار الإسلام.

ولذلك فيجب التصدي لكل ذلك والرجوع في فهم الإسلام إلى سلطته الأولى، والقواعد العربية، والالتزام بظاهر اللفظ دائماً، إلا إذا جاء دليل حتمي نعلم به يقيناً أن مقصود المتكلم من كلامه ليس هو ظاهر لفظه وإنما هو معنى آخر.

وعلى كل حال فإن أمر المبطل المؤول للإفساد والغواية لا يشتبه بأمر المحق المجتهد المتأول، وذلك على الناقد الخبير، ولذلك فلا يجوز لنا والحالة هذه التعجل في إطلاق لفظ الكفر على من ظهر التأويل في كلامه إذا عرفنا مقصده وغايته وأنها ليست تحريفاً للإسلام ولا إيثاراً للباطل على الحق، ولذلك لم يكفر علماء السلف المعتزلة، والمؤولين من الأشعرية لأن غايتهم كانت دفاعاً عن حوزة الإسلام، وتصدياً للزنادقة والفلاسفة وإن كان هؤلاء العلماء من السلف قد حكموا ونشروا بأن كتب الكلام التي ألفوها في العقيدة (الإسلام) باطلة يجب حرقها ولا يجوز ميراثها. وكلام الإمام الشافعي رضي الله عنه واضح وصريح في هذا، وكذلك كلام الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

وهذا الموقف الصلب السليم الذي وقفه علماء السنة في كل عصر هو

الموقف اللازم في عصرنا الحاضر، حيث كثر المبطلون المؤولون الزاعمون نصر الإسلام والمسلمين.

فالرد إلى كتاب الله ورسوله أولاً والتزام بظاهر اللفظ ومعناه العربي وتحريم التأويل ما لم يأت دليل قطعي يبين أن مراد الله ومراد رسوله ليس الظاهر المتبادر وإنما هو المعنى الآخر المؤول. وهذه أمور يجب التمسك بها، وفهمها فهماً جيداً وتعلم تطبيقها على شتى أنواع التأويلات ليكون المؤمن على بصيرة من أمره، ثم بعد ذلك ترك الرمي بالكفر وغيره إلا بعد البيان القطعي الذي لا يقبل المكابرة والجدل.

كِتَابُ

الوَلَاءِ وَالبَرَاءِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد:

فقد كان مبدأ هذه الرسالة مقالات نشرتها في جريدة الوطن الكويتية في غضون عام ١٣٩٩هـ، وقد وفقنا الله بحمده فأخرجنا هذه المقالات وطبعت رسالة مستقلة في عام ١٤٠٠هـ، ثم طبعت مع رسالة الحد الفاصل بين الإيمان والكفر عدة مرات منذ عام ١٤٠١هـ، سائلاً الله تبارك وتعالى أن ينفع بها وأن يثيب عبده الضعيف العاجز عليها إنه هو السميع العليم والحمد لله رب العالمين،،

كتبه أبو عبد الله عبدالرحمن بن عبدالخالق

بالكويت المحرم ١٤٠٧هـ

الموافق سبتمبر ١٩٨٦م

الفصل الأول

الولاء أو الولاية

التعريف اللغوي:

الولاية بفتح الواو وكسرها تعني النصرة: يقال: هم على ولاية: أي مجتمعون في النصرة (لسان العرب).

والولي والمولى واحد في كلام العرب، ووليك هو من كان بينك وبينه سبب يجعله يواليك وتواليه أي تحبه وتؤيده وتنصره ويفعل هذا أيضاً معك، والله ولي المؤمنين ومولاهم بهذا المعنى أي محبهم وناصرهم ومؤيدهم كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٧]، وقال أيضاً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ١١] وولي المرأة هو متولي شئونها كالأب والأخ الأكبر ونحو ذلك، وفي لسان العرب: قال أبو الهيثم: "المولى على ستة أوجه: المولى ابن العم والعم والأخ والابن والعصبات كلهم، والمولى الناصر، والمولى الولي الذي يلي عليك أمرك، قال: ورجل ولاء وقوم ولاء في معنى ولي وأولياء لأن الولاء مصدر، والمولى مولى الموالاة وهو الذي يُسلم (أي يدخل الإسلام) على يديك ويواليك المولى مولى النعمة وهو المعتق أنعم على عبده بعتقه، والمولى المعتق (بالبناء للمجهول) لأنه ينزل منزلة ابن العم يجب عليك أن تنصره وترثه إن مات، ولا وارث له فهذه ستة أوجه" أ.هـ.

المعنى الشرعي:

وهذه المعاني اللغوية الآنفة كلها ثابتة في حق المسلم للمسلم إلا ما استثناه النص من ذلك كالميراث مثلاً كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ (الأحزاب:٦) أي أولى ببعضهم في الميراث من ولاية المؤمنين الآخرين والتي كانت ولاية الميراث ثابتة لهم في أول عهد الرسول بالمدينة وذلك لفترة محدودة ثم نسخت. ونستطيع أن نقول أن الولاية الثابتة من كل مسلم لأخيه المسلم تشمل ما يلي: الحب، والنصرة، والتعاطف والتراحم والتكافل والتعاون، وكف كل أنواع الأذى والشر عنه، وبعض هذه الأمور الإيجابية يدخل في باب الفرائض والواجبات وبعضها يدخل في باب المستحب والمندوبات.

وأما الأمور السلبية وأعني بها كف الأذى فإن بعضها يدخل في باب الكفر والخروج من الدين وبعضها معصية وبعضها يدخل في إطار المكروهات والتنزيهات، وسنبين كل ذلك بحول الله وتوفيقه بالنصوص من كتاب الله وسنة رسوله.

(أ) الأدلة على وجوب موالاة المسلم لأخيه المسلم:

الأدلة في هذا الباب أكثر من أن تحصر ونحن نذكر هنا بعضها، فمن الأدلة القرآنية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠] وهذه الآية قد جاءت بصيغة الحصر أي ليس المؤمنون إلا أخوة، ومفهوم هذا أنه إذا انتهت الأخوة انتهى الإيمان، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٢] وهذا تأكيد من الله جاء بصفة الخبر وكأنه أمر مستقر مفروغ منه، والمقصود بالأمر بأن يوالي المهاجرون الأنصار بعضهم بعضا، ثم قال بعد عدة آيات: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٥] فأشار إلى أن من يأتي بعد الرعيل الأول ويهاجر معهم فهم منهم أي قطعة وبضعة منهم، وهذه المعاني نفسها أكدها الله سبحانه وتعالى

في سورة الحشر، ففي ذكر تقسيم الفيء حق لثلاثة أصناف هم فقراء المهاجرين، وفقراء الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان قبل المهاجرين ثم فقراء التابعين إلى يوم القيامة ووصف الله التابعين بصفة لازمة لاستحقاقهم الفيء وصحة انتسابهم إلى هذه الأمة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحَشر: الآية ١٠] فوصفهم بأنهم يدعون لمن سبق من هذه الأمة بالخير ويطلبون من الله أن لا يكون في قلوبهم أدنى غل للمؤمنين، ولهذا استنبط الإمام الشافعي في هذه الآية أن الرافضة لا حظ لهم في أخماس الفيء وذلك لسبهم أصحاب الرسول ﷺ وامتلاء قلوبهم بالحقد والغل لهم.

ومن الآيات الدالة على معنى الولاء أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبَة: الآية ٧١] وفي هذه الآية تقرير لولاية المؤمنين والمؤمنات واتصافهم بما وصفهم الله به من أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.. الخ.

والسنة مليئة بمثل هذه المعاني كقوله ﷺ: [المسلم أخو المسلم] (الشيخان وأبو داود والترمذي) وقال أيضاً: [المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً] (مسلم وغيره) وقال: [مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى] (متفق عليه) وقال أيضاً كما روى مسلم: [المسلمون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله وإنْ اشتكى رأسه اشتكى كله] (مسلم والترمذي وأحمد).

وهذه الأحاديث مقررة للمعاني السابقة التي جاءت به الآيات.

أولاً: الحقوق اللازمة من كل مسلم لأخيه المسلم:

(١) الحب:

يدل لهذا قوله ﷺ: [لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه]

(الشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم). وهذه أدنى درجات المحبة والمقصود أن كل مسلم يجب عليه أن يحب لأخيه من خير الدنيا والآخرة ما يحبه هو لنفسه ولا يمكن أن يحصل هذا إلا بأن تحب الشخص لأنك لا تحب الخير لمن تكره.

ولا يتصور أن تحب الخير إلا لمن تحب، وهذا الواجب قد تناساه وأهمله أكثر المسلمين في زماننا بل لا نكاد نجد إلا قليلاً ممن يحبون إخوانهم المسلمين حباً دينياً حقيقياً مجرداً عن الهوى والمصلحة والعصبية، وبالرغم من أن هذه المنزلة - أعني محبة المسلم لأخيه المسلم - من لوازم الموالاة فإنه أيضاً باب عظيم من أبواب الخير في الآخرة والشعور بحلاوة الإيمان في الدنيا كما جاء في الصحيحين في شأن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ذكر رسول الله ﷺ منهم: [رجلين تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه] (متفق عليه) وكذلك جاء في الصحيحين قوله ﷺ: [ثلاث من وجدهن وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار] (البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم).

وقد يظن ظان أن المحبة عمل قلبي ولا يستطيع الإنسان التحكم فيه فكيف يرغم على محبة المسلمين؟! والجواب أن هذا خطأ لأن القلب تابع للعقيدة والإيمان فمن آمن بالله وأحبه فلابد أن يحب من يحب الله، والمسلم مفروض فيه أن يحب الله ويطيعه ولذلك وجب علينا محبة المسلم لمحبتنا الله ولدينه، بل لا يمكن أن يتصور إيمان أصلاً دون أن يحب المسلمون بعضهم بعضاً، كما قال ﷺ: [لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم] (مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه).

وهكذا نعلم أنه لا إيمان قبل المحبة، وقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى

سبيلها وهي إفشاء السلام لأنه أدنى معروف من الممكن أن يبذله المسلم لأخيه المسلم وهو لا يكلف أكثر من كلمة طيبة تتضمن دعاء وطلباً من الله بالسلامة والعافية من كل شر والرحمة لمن تسلم عليه. ولا شك أن الدعاء والتمني على هذا النحو يرقق القلب ويشعر بمحبة المسلم لأخيه المسلم، فأين المسلمون اليوم من تطبيق هذه الجزئية في هذا الأصل الشرعي "الموالاة"؟

(٢) المجاملة:

وهي تضم حقوقاً خمسة واجبة جمعها النبي في حديث واحد كما قال ﷺ: [حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وتشميت العاطس، واتباع الجنازة، وعيادة المريض، وإجابة الدعوة] (متفق عليه)، ومعنى تشميت العاطس أن تقول له إذا سمعته يحمد الله بعد عطاسه: "يرحمك الله" فيرد عليك "يهديكم الله ويصلح بالكم"، وأما إجابة الدعوة فالمقصود إجابة دعوة الطعام حتى وإن كره الإنسان الحضور لقوله ﷺ: [ومن لم يحب الداعي فقد عصا أبا القاسم] (مسلم وأبو داود وابن ماجه)، وفي البخاري قال النبي ﷺ: [ولو دعيت إلى كراع لأجبت] والكراع هو رجل الماشية، وهذه الحقوق الخمسة الآنفة من باب المجاملات اللازمة الواجبة من كل مسلم على أخيه المسلم.

(٣) النصرة:

وهي تعني أن يقف المسلم في صف إخوانه المسلمين فيكون معهم يداً واحدة على أعدائهم ولا يخلي بتاتاً -ما استطاع إلى ذلك سبيلاً- بين مسلم وعدوه ويدل لهذا المعنى آيات وأحاديث كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: الآية ٧٥] وقد جعل الله هنا القتال في سبيل تخليص المسلمين المستضعفين قتالاً في سبيله ونصراً له سبحانه وتعالى، وقال ﷺ: [انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً] (الشيخان والترمذي وأحمد)، وقد فسر ﷺ نصر الأخ ظالماً بأن ترده

عن الظلم وأما نصره مظلوماً فمعناه رد الظلم عنه، ومثل هذا المعنى أيضاً قوله ﷺ: [المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه] (البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم) ومعنى أن يسلمه أي يخلي بينه وبين أعدائه.

ولما كان هذا الحق يتعلق بعلاقات المسلمين والكفار قوةً وضعفاً وفي وقت عهد وهدنة وفي غير ذلك، وفي دار الإسلام ودار الكفر أقول لما كان الأمر كذلك كان للنصرة قواعد وأحكاماً كثيرة ملخصها أنه يجب أن ننصر إخواننا المسلمين المستضعفين فلا يجب عليهم ذلك كما كان رسول الله ﷺ يمر على آل ياسر وهم يعذبون فلا يملك إلا أن يقول لهم [صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة] (سيرة ابن هشام ١/٣١٩-٣٢٠)، ولم يستطع أن يرد عن أحد المستضعفين شيئاً طيلة مكوثه ﷺ بمكة، ولكن بعد أن عزه الله بسيوف الأنصار استطاع أن يمد يد العون للمستضعفين بمكة فكان يرسل إليهم من ينقذهم ويساعدهم على الفرار إلى المدينة، ولكن الله سبحانه وتعالى نهانا أن نساعد المستضعفين من المؤمنين بديار الكفار إذا كان بيننا وبين قومهم عهد كما كان موقف الرسول ﷺ بعد الحديبية حيث امتنع عن مساعدة المستضعفين في مكة بعد هذا الصلح ولذلك اضطروا إلى الفرار إلى ساحل البحر كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] وهكذا نعلم أن هذا النص [ولا يسلمه] الوارد في الحديث وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء: الآية ٧٥] مخصصين بالاستطاعة، وبأن لا يكون المسلمين قد ارتبطوا بعهد وميثاق مع قوم من الكفار فلا يجوز خيانتهم في هذا.

وهذه الحقوق السالفة "الحب والمجاملة والنصرة" هي حقوق عامة من كل مسلم لأخيه المسلم في الشرق أو الغرب لا تمييز فيها بين مسلم وآخر ولكن ثمة حقوق أخرى لبعض المسلمين يوجبها ويلزمها المناسبة والموقع ومن ذلك:

ثانياً: الحقوق الخاصة:

(١) حق النبي ﷺ:

وهو هادي هذه الأمة وقائدها ورسولها ﷺ وإليه المرجع في التبليغ والإتباع، وحق كل مسلم في هذه الأمة أن يحبه أكثر من نفسه وماله ووالده وولده، وأن يجعل طاعته كلها له وذلك بعد الله سبحانه وتعالى وأن يذب عنه وعن دينه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد جاءت في هذا آيات وأحاديث كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفتح:٨-٩) فجمع الله حقه وحق رسوله في آية واحدة فحق الرسول التعزيز والتوقير والإيمان به وتسبيحه بكرة وأصيلاً، وجعل الله إيذاء الرسول موجباً للعن مهما صغر مادام أن صاحبه يقصد كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٧] فجمع سبحانه بين نفسه وبين رسوله أيضاً في آية واحدة ليبين أن الأذى الواقع على رسوله يقع على الله أيضاً.

وجعل إساءة الأدب ولو دون قصد بحضرة الرسول محبطة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: الآية ٢] فقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: الآية ٢] دليل على أن من لم يقصد هذه الإساءة يحبط عمله، وأما من رفع صوته على النبي وبحضرته يقصد الإساءة إليه فلا شك أنه كافر ملعون كما مر في آية الأحزاب الآنفة، فكيف بعد ذلك الذين يتهمون الرسول بشتى التهم ويعادون سنته ويستهزئون بهديه ومع ذلك يزعمون أنهم من المسلمين؟

(٢) حق الربانيين والعلماء:

ويأتي بعد حق الرسول ﷺ حقوق الربانيين من أهل العلم والفضل والذين وفقهم الله لتعليم الناس وتربيتهم وتوجيههم والأخذ بأيديهم إلى الهدى والنور،

وهؤلاء حقوقهم في المحبة والطاعة والموالاة والنصرة ورد الجميل بعد حقوق النبي ﷺ مباشرة إذ هم السبب المباشر في الهداية والإرشاد وشكرهم واجب كما قال النبي ﷺ: [لا يشكر الله من لا يشكر الناس] (أبو داود والترمذي وأحمد) ولاشك أن أعظم الناس معروفاً من هداك الله على يديه وأرشدك به ولو إلى قليل من الخير، فكيف إذا كنت ضالاً فهداك الله بواسطته، وكافراً فأسلمت على يديه والرسول ﷺ يقول: [من صنع لكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تظنوا أنكم قد كافأتموه] (أبو داود والنسائي وأحمد) ومعلوم أن مكافأة من هداك إلى الدين مستحيلة لأن الخير الذي ساقه الله لك على يديه لا تستطيع أن ترد مثله إليه فقد هداك الرباني إلى الجنة بتوفيق الله وإعانته فهل تستطيع أن تكافئه بمثل الجنة؟ لا، إلا أن تدعو له بأن يحقق الله له من الخير مثل ما أسدى إليك.

وقد جمع الله ولاية نفسه والرسول والمؤمنين في آية واحدة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٥٥] أي هؤلاء هم من يجب علينا أن نوالهم الله ورسوله والمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهو متصفون بالركوع الدائم كما وصف الله ورسوله معه بقوله ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: الآية ٢٩].

(٣) حق الوالدين والأرحام:

ثم يأتي بعد حق النبي ﷺ وحق المربي والمعلم للخير حق الوالدين والأرحام، وأولى الوالدين الأم ثم الأب كما جاء في الصحيحين "أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: [أمك] قال: ثم من؟ قال: [أمك] قال: ثم من؟ قال: [أمك] قال: ثم من؟ قال: [أبوك]" (متفق عليه)، وقد أمر الله بالبر بهما في آيات كثيرة من كتابه كما قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤)، والبر بالوالدين يستمر ويجب حتى مع كفرهما ودعوتهما ابنهما إلى الكفر والشرك والمقصود بالبر هنا المصاحبة بالمعروف كالقول اللين وعدم التعنيف وعدم التأفف وعدم الزجر والإحسان إليهما بالمال والإعانة والخدمة كل ذلك حاشا الطاعة في الكفر والشرك كما قال تعالى في سورة لقمان ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ❁ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ (لقمان: ١٤-١٥).

ويأتي بعد الوالدين الأرحام الأقرب فالأقرب كالأخوة والأخوات والأبناء وأبناء الأبناء وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات، وهكذا وكل هؤلاء يجب وصلهم حتى لو قطعوا، وقد هدد الله من يقطع أرحامه بالقطع والدخول في النار بل جعل الله قطع الأرحام من الفساد في الأرض كما قال تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ❁ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ (محمد: ٢٢) وقال ﷺ: [لا يدخل الجنة قاطع] (الشيخان وأبو داود والترمذي وأحمد) وقال أيضاً: [يقول الله تعالى: "أنا الرحمن خلقت الرحم ووضعت لها إسماً من إسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته"] (أحمد وغيره) وصلة الأرحام واجبة أيضاً مع كفرهم ما داموا غير محاربين لله كما سيأتي تعريف ذلك في باب البراءة، أما إذا كانوا مسالمين غير محاربين للمسلمين فيستحب برهم والإحسان إليهم ولو كانوا كفاراً والنصوص السالفة عامة في كل الأرحام وقد بينا كيف نص الله على الوالدين بالبر والإحسان مع الكفر وهما من جملة الأرحام وكذلك نص على وجوب الإحسان إلى الأقارب مع الكفر كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٢] وقد نزلت هذه الآية في بعض الأنصار كان لهم أقارب كفار يحسنون إليهم رجاء إسلامهم،

فلما استبطئوا ذلك قطعوا عنهم النفقة، فأنزل الله الآية، والعجيب بعد كل هذه النصوص المحكمة الواضحة أن نجد مسلمين يتشدقون باسم الإسلام ويقطعون أرحامهم بدعوى أنهم على بعض المعاصي، وسيأتي أن موالاة المسلم واجبة مع فعله للمعصية فكيف بالأرحام والأقارب.

(٤) حق الجوار والصحبة والشراكة والضيافة:

ويأتي بعد حقوق الأرحام حقوق الجوار والصحبة والشراكة والضيافة وكل ذلك ثابت أيضاً في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء:٣٦)، وقال ﷺ [ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه] (متفق عليه)، وأما الضيف فقد جاء فيه قوله ﷺ: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.. الحديث] (البخاري وأحمد وأبو داود وابن ماجه) وقال أيضاً: [والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن] قالوا: من يا رسول الله ؟ قال: [من لا يؤمن جاره بوائقه] (البخاري ومسلم وأحمد).

(٥) حق الفقير والمسكين وابن السبيل والسائل:

ثم يأتي بعد ذلك حق الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والسائلين، وقد جاءت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة توصي بهم وتجعل لهم نصيباً في الزكاة وأموال المسلمين العامة بل ويجعل لهم حقوقاً في مال المسلمين غير الزكاة وهي أشبه من المعلوم بالدين ضرورة ولذلك فلا داعي لسرد النصوص في ذلك.

ثالثاً: نواقض الموالاة:

عرفنا فيما مضى هذا الأصل من أصول الموالاة وعرفنا معناه الشرعي

واللغوي، ولمن يجب ومراتب المؤمنين ومنازلهم بحسب الموالاة، والآن نأتي إلى نواقض هذا الأصل، ونستطيع تلخيصها فيما يلي:

(١) إخراج المسلم من الإسلام عن معرفة وبصيرة:

كل من حكم على رجل مسلم بأنه كافر وهو يعلم في قرارة نفسه أنه مسلم فقد كفر، وذلك لقوله ﷺ: [أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما] (متفق عليه)، أي إما أن يكون كافراً في الحقيقة وهذا الوصف ينطبق عليه، وإما عاد القول إلى قائله، كما قال أيضاً ﷺ: [من قال لأخيه يا كافر وليس كما قال إلا حار عليه] (مسلم) أي رجع الوصف عليه، وأما تكفير المسلم خطئاً وظناً فهو معصية وليس بكفر، كمن ظن أن مسلماً فعل مكفراً وليس بمكفر فكفره لذلك ظاناً أنه قد كفر بذلك، فهذا مرتكب للمعصية وخاصة إذا اقترن هذا مع الجهل والتهجم على الفتيا، وعدم التروي دون استفراغ الوسع في معرفة متى يكفر المسلم ومتى لا يكفر، وأما من كفر مسلماً وهو يعلم أو يغلب على ظنه أنه لا يكفر بما رآه عليه أو سمع عنه فقد كفر قطعاً، لأنه يكون قد كفر مسلماً عن علم وبصيرة.

(٢) من استحل دم المسلم أو عرضه أو ماله:

وذلك أن عرض المسلم ودمه وماله حرام كما قال ﷺ: [إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا] (متفق عليه) ومعلوم أن استحلال المعصية كفر، ومعنى الاستحلال أي الظن والاعتقاد فيما حرمه الله أنه حلال، ومعلوم أيضاً أن حرمة دم المسلم وعرضه وماله وانتهاك هذا أشد عند الله من انتهاك حرمة الزنا والخمر والربا كما قال ﷺ: [الربا إحدى وسبعون بابا أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم] (ابن ماجه) أي أعظم من الربا.

وقد حكم الله على من استحل الربا بالكفر والخلود في النار، كما قال

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٥] فقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٩] دليل على كفرهم وقولهم ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٥] أي أنهم استحلوا هذا ورأوا أنه لا فرق بين البيع والربا، ومن المعلوم في الدين ضرورة أن مستحل المعصية كافر، وهذا يعني أن مستحل دم المسلم وعرضه وماله فهو كافر.

(٣) موالاة الكافر وإعانته على المسلم:

كل من والى كافراً وأعانه وظاهره على مسلم فقد كفر ونقض هذا الأصل "الموالاة" وخرج من دين الله سبحانه وتعالى وهذا يصدق أيضاً على من اطلع الكفار على عورات المسلمين في الحرب وأفشى لهم أسرار المسلمين وقد جاء بشأن هذا آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٥١] فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المَائدة: الآية ٥١] يدل على أنه قد خرج بذلك من الإيمان إلى الكفر وهو نص صريح، ويخرج من هذا أيضاً من فعل هذا غير مستحل له، في حال ضعف أو خوف أو رغبة كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ الآية (آل عمران:٢٨) فقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٨] يدل على أن اتقى شر الكفار وداراهم وردهم عن نفسه في حال ضعف ولا يحب أن ينتصر الكفار ولا أن يظهروا على المسلمين فإنه لا يكفر بذلك بل يكون معذوراً عند الله، والله أعلم بالقلوب، ولذلك عفا الرسول ﷺ عن حاطب بن أبي بلتعة الذي أفشى سر المسلمين وأخبر قريشاً بأن الرسول قد جمع لهم يريد حربهم وذلك قبل غزوة الفتح، وذلك عندما علم منه الرسول أنه فعل

ذلك في حال ضعف وخوف على أولاده بمكة وبما كان لحاطب رضي الله عنه من سابقة في حضوره وغزوة بدر مع المسلمين.

وأما من استحل ورضي بمعاونة الكفار ومظاهرتهم على المسلمين وهو غني عن ذلك فهو كافر قطعاً ناقض لأصل الموالاة وسيأتي لهذا مزيد إيضاح إن شاء الله عند بيان الأصل الثاني وهو "البراء".

هذه الأمور الثلاثة التي تنقض أصل الموالاة وتخرج المسلم من حظيرة الإسلام إلى حظيرة الكفر وهي كما أسلفنا: تكفير المسلم عن عمد وإصرار ومعرفة، واستحلال دمه أو ماله أو عرضه، وموالاة أعداء الله عليه، واستحلال العرض يدخل فيها استحلال سبه أو شتمه أو غيبته.

رابعاً: قوادح الموالاة:

الأمور السالفة تنقض أصل الموالاة وتخرج المسلم من الإيمان ولكن ثمة أمور أخرى لا تصل إلى هذا الحد ولكنها تقدح هذا الأصل وهي كثيرة جداً سنكتفي ببعضها:

(١) الظلم:

ولا يجوز ظلم المسلم بأي نوع من أنواع الظلم لقوله تعالى في الحديث القدسي: [يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً.. فلا تظالموا] (مسلم وأحمد)، ولقوله ﷺ: [المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه] (البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم)، وقد جاء في الزجر عن الظلم أحاديث كثيرة منه قوله ﷺ: [من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب له الله النار]، قالوا: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: [وإن كان عوداً من أراك] (ابن ماجه وأحمد والدارمي) وهذا بالطبع ما لم يغفر الله له.

(٢) السب والشتم والغيبة والنميمة:

من سب مسلماً فقد فسق لقوله ﷺ: [سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر]

(متفق عليه) ومن لعن مسلماً فكأنما قتله لقوله ﷺ [لعن المسلم كقتله] وقد اشتملت سورة الحجرات على آيات كثيرة محذرة من هذا: منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: الآية ١١] والمعنى أن من فعل ذلك كان فاسقاً بعد أن كان مؤمناً، كما أطلق الله وصف الفسق أيضاً على من سب المحصنة المؤمنة فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النُّور: الآية ٤] فسمي الذين يفعلون ذلك فساقاً، وأما الغيبة فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢] أي لمن تاب من هذه الآثام وقد سبق في الحديث ان الغيبة أشد من الربا والربا اشد من الزنا بالأم.

ولا يجوز لمسلم أن يستحل سب المسلم أو شتمه أو عيبه أو غيبته إلا في حق كأن يكون مظلوماً يرد عن نفسه كما قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾ (النساء:١٤٨) أي من اعتدى عليه أولاً فله الحق أن ينتصر من ظالمه بأن يسبه كما سبه، أو يذكر ظلمه للناس ولكنه لا يجوز له أن يعتدي بأكثر مما سب وعيب به، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البَقَرة: الآية ١٩٠] وكقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى:٤١-٤٢) ولا شك أن الصفح والمغفرة لأعظم وآجر عند الله لقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشّورى: الآية ٤٣].

وفي النميمة يقول ﷺ: [لا يدخل الجنة القتات] (البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد) والقتات هو النمام الذي ينقل الحديث ليوقع بين الناس والذي يسمع إنساناً أو يغيبه فيوصل كلام المسبوب له بغية الوقيعة حتى لو كان صادقاً فيما نقل، ولاشك أن تشريع الله لكل هذه الأمور إنما هو للحفاظ على

وحدة الجماعة الإسلامية وتنقية صفوفها من الفرقة والخلاف.

(٣) البيع على البيع والخطبة على الخطبة والنجش والغش:

حذر الرسول أيضاً من أمور في المعاملات من شأنها إيقاع العداوة بين المسلمين وخدش أخوتهم وقدح أصل الموالاة من ذلك البيع على البيع والخطبة على الخطبة كما قال ﷺ: [ولا يبع بعضكم على بيع أخيه] (البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم) وقال: [لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه] (البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وغيرهم) وقال أيضاً: [ولا تناجشوا] (البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وغيرهم) والنجش هو الزيادة في السلعة ممن لا يريد شراءها بغية إغلاء سعرها على مسلم وهذا ما يحدث في "المزاد العلني" حيث يعمد البائع إلى الاتفاق مع من يزيدون في السعر حتى يوهم المشتري بحسن السلعة ويشتريها بعد غلو ثمنها.

وأما الغش فقد قال فيه رسول الله ﷺ: [من غش فليس منا] (مسلم والترمذي وأبو داود وغيرهم)، وهذا زجر شديد لمن غش المسلمين في بيع أو نحوه.

(٤) الهجران:

نهى رسول الله ﷺ أن يهجر المسلم كلام أخيه المسلم أكثر من ثلاث ليال كما قال ﷺ: [لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام] (البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم) وهذا نص عام في كل هجران بأي سبب من أسباب الدنيا.

هذه أهم الأمور التي تخدش الأخوة الإسلامية وتقدح أصل الموالاة ولكن المسلم لا يخرج بها عن الدين إلا إذا استحل شيئاً منها وهناك أمور كثيرة غيرها كالهمز واللمز والهزء والسخرية.

ونحو ذلك مما يسبب العداوة والبغضاء بين المسلمين.

خامساً: المخالفون لأصل الموالاة:

يخالف لأصل الموالاة طوائف من الناس إليك بيان أحوالهم حتى تحذر منهم وتبعد عن سبيلهم:

(١) المنافقون:

وهم أعدى الناس لأصل الموالاة والخارجون عنه وذلك لكفرهم الباطن وامتلاء قلوبهم بالحقد والغل على المسلمين، ورغبتهم الدائمة في اندحارهم وكشر شوكتهم وهؤلاء هم الذين يستهزئون بالمسلمين ويلمزونهم ويسخرون منهم ويفجرون في خصومتهم معهم، ويخلفون وعدهم وينقضون عهدهم مع المسلمين، ويخونوهم ويغشوهم ويكذبون عليهم، ويصابون بالنكد والحسرة وضيق الصدر إذا أصاب المسلمين خير من الله وبركة، ويفرحون ويهللون إذا أصابهم شر ومكروه، والقرآن مليء بوصف أحوال المنافقين وبيان فضائحهم وخاصة سورة التوبة والمنافقون والحشر والأحزاب وأوائل البقرة ودراستنا لهذه السور يطلعنا على حقيقة النفاق الذي يستتر أصحابه بأعمال الإسلام الظاهرة ولكن قلوبهم تكون مع أعداء الله ويسعون جاهدين في تفتيت وحدة المسلمين وبعثرة جهودهم وإطلاع أعداء الله على عوراتهم، وهؤلاء المنافقون هم أخطر على المسلمين من أعدائهم الظاهرين وخاصة إذا كانوا أهل علم بالدين ولسان فصيح كما قال ﷺ: [أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان] (رواه أحمد) فهؤلاء باستطاعتهم تحريف الكلم عن مواقعه وإيقاع الفتنة في صفوف المسلمين، وقد يكون في المسلمين من يسمع للمنافقين ويعجب بحديثهم كما قال تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التّوبَة: الآية ٤٧] وذلك من حلاوة حديثهم وطلاوته كما قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنَافِقون: الآية ٤] .

وخطورة المنافقين أيضاً أنهم يغلفون أنفسهم بالكذب ويغلظون الإيمان ويلينون كالحرير والمرمر فلا يستطيع أحد أن يكشف أمرهم كما قال تعالى

لرسوله ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التّوبَة: الآية ١٠١] ومعنى مردوا أي كانوا ناعمين لينين وذلك من رقة حديثهم وحلاوة منطقهم وحلفهم وإشهاد الله على ما في قلوبهم حتى أن الرسول نفسه يخفى عليه أمرهم.

والمنافقون في المجتمع الإسلامي شر لا مفر منه وما على المؤمنين إلا الحذر منهم بما أرشدنا الله إليه من وعظهم في أنفسهم والغلظة عليهم عند معرفتهم، ومع هذا يجب على المسلمين أن يعاملوا بعضهم بما ظهر منهم من إسلام ولم نؤمر أن نشق قلوب الناس لنعرف أمنافقين هم أم لا، وإن كان الرسول ﷺ قد ذكر علامات تدل عليهم إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بأن من ظهرت فيه هذه العلامات كان منافقاً حقيقياً لأن بعضها قد يقع من المسلم كما قال ﷺ: [آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان] (البخاري ومسلم والترمذي).

وقال: [أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان وإذا خاصم فجر] (أخرجه البخاري والنسائي وأحمد).

ولما كانت هذه الأمور قد تظهر في بعض المسلمين لجهلهم فإن كل مسلم مطلوب منه الحذر على نفسه من النفاق وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخشى على نفسه من النفاق وكذلك قال عمر بن الخطاب لحذيفة - وكان رسول الله ﷺ قد أخبره بالمنافقين- أما سماني رسول الله من المنافقين؟ فقال: لا، ولن أقول لأحد غيرك.

وهكذا يجب على كل واحد منا ألا يخلف وعداً أو يكذب على مسلم أن يخون أمانة أو يفجر في خصومة أخيه المسلم فتكون فيه شعبة من شعب النفاق أو يجمعها جميعاً فيطمس الله على قلبه فيزيغه عن الإيمان.

﴿اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا برحمتك يا أرحم الراحمين ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾.

(٢) الخوارج المارقون:

الصنف الثاني من أصناف الناس الخارجين على أصل "الولاء" هم الخوارج المارقون واسم الخوارج يطلق على كل من استحل دماء المسلمين أو أعراضهم أو أموالهم بالمعصية، وخرج على جماعتهم بالسيف، وأصل بلائهم من الجهل بأحكام الإسلام والاندفاع فيما يرونه منكراً إلى حدود العدوان على المسلم وظلمه، وهم الذين أفتوا بوجوب الخروج على الإمام العام بالمعصية، وقتاله بالسيف إذا رأوا منه ما يخالف رأيهم، ورأوا أيضاً وجوب البراءة من المسلم وهجرانه بالمعصية، وعدم جواز موالاة أحد من المسلمين بذلك، وهم في الغالب أهل حماسة وشدة في أخذ الدين ولكن هذه الحماسة والشدة لما كانت في غير موضعها انقلبت عليهم مروقاً وخروجاً عن الدين بالكلية وقد وصفهم الرسول ﷺ قبل خروجهم بأنهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم (البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم) وأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية (البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود)، وأن المسلم الصالح يحقر صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم (البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد) وذلك من كثرة تعبدهم وزهادتهم، وقد ظهرت أول أفكار الخوارج وأقوالهم في عهد النبي ﷺ وذلك عندما كان يوزع غنائم هوازن فأعطى مسلمة الفتح مائة من الإبل لكل واحد منهم ولم يعط المهاجرين الأولين والأنصار شيئاً فرأى ذلك رجل جاهل متشدد مارق فظن أن الرسول إنما حابى أهله وعشيرته بالغنائم وظن أن هذه مداهنة لقريش فقال للرسول: اعدل يا محمد، فوالله هذه قسمة ما أريد به وجه الله، هذا الجاهل الجلف المارق يقول للرسول: اعدل، ولو علم أن الله اختار رسوله لرسالته وأن الله لا يضع الرسالة إلا في موضعها لما ظن بالرسول سوءاً ثم اتهم نية الرسول ﷺ وحاشاه ﷺ أن يظهر خلاف ما يبطن وأن يفعل شيئاً لا يريد به وجه الله ولذلك قال له رسول الله ﷺ: [ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ يأمنني الله على خبر السماء ولا تأمنوني؟!] فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال: [دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه] ثم قال: [يخرج من

ضئضئ هذا قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد] وقال أيضاً: [إذا أدركتموهم فاقتلوهم فإن لمن قتلهم أجراً كبيراً] (رواه البخاري).

على منوال هذا الضال المارق خرجت الفتنة على عثمان رضي الله عنه، تعيب عليه أشياء من الصغائر وهو من هو رضي الله عنه سابقةً وفضلاً وإنفاقاً في سبيل الله وسبقاً إلى الإسلام وجهاداً مع رسوله أنكروا عليه أنه لم يول فلانا وولى فلانا، أو أنه ضرب فلانا أو نفى فلانا ومعلوم أن هذا كله في صلاحية الإمام العام، ولكنهم أخذوا هذه الصغائر وطيروها في كل مكان وأغروا الغوغاء والسفهاء من أهل مصر والشام والعراق والذين لا علم لهم بحقيقة الخليفة ومنزلة ذي النورين رضى الله عنه وأرضاه، وبذلك أججوا الفتنة عليه واستحلوا في النهاية دمه، ووقع بذلك على المسلمين أعظم بلاء في تاريخ الخلافة الراشدة، وهؤلاء المتنطعون الجاهلون أنفسهم هم الذين أرغموا علياً على البيعة ثم انتقضوا عليه لأمور جهلوها من الدين وظنوها مخالفة للقرآن فقد أنكروا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه تحريم نساء من حاربوهم في موقعة الجمل، وتحريم استرقاق ذراريهم وأخذ أموالهم حتى قال لهم: كيف أحل لكم نساءهم وهم مسلمون؟ ولو أحللت لكم نساءهم فأيكم يأخذ عائشة في سهمه؟ وكذلك أنكروا عليه رفضه لإيقاف القتال عندما رفع جيش معاوية المصاحف على أسنة الرماح حتى قال له زيد بن خالد الطائي وهو أحد رؤوس الخوارج: "القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف؟" فقال له علي بن أبي طالب: أنا أعلم بما في كتاب الله.. ولكن هذا الجلف الجاهل رد على أمير المؤمنين رضي الله عنه بقوله "لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان" فاضطر علي رضي الله عنه إلى رد الأشتر بعد أن هزم الجمع وولوا مدبرين وما بقي إلا شرذمة قليلة فيهم حشاشة قوة" (انظر البداية والنهاية ٧/ ٢٧٣).

وبالرغم من أن الخوارج هم الذين حملوا علياً على قبول التحكيم، والتحاكم إلى القرآن فإنهم عادوا وأنكروا عليه وقالوا له: كيف تحكم الرجال

في القرآن؟ لا حكم إلا الله.. فقال علي: كلمة حق أريد بها باطل. ثم أتى بالقرآن أمامهم وقال: يا قرآن احكم بيننا (انظر البداية والنهاية ٧/ ٢٧٦) أي ليس للقرآن لسان حتى يحكم وإنما يحكم الرجال بما عرفوا من كلام الله سبحانه وتعالى. وفي النهاية فارقوه وشقوا جيشه، واستحلوا دم عبدالله بن عبدالله بن حرام عندما حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: [ستكون فتنة النائم فيها خير من القاعد فيها، والقاعد فيها خير من القائم فيها والقائم فيها خير من الساعي فيها] (البخاري ومسلم والترمذي وأحمد). ولذلك قاتلهم علي وانتصر عليهم، ولم ينج منهم إلا تسعة أشخاص فقط وكانوا اثني عشر ألفاً انحاز منهم أربعة آلاف إليه وقاتل الباقي. ولكن هؤلاء الذين نجوا ذهبوا وألبوا عليه وعلى معاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم واستحلوا دماءهم جميعا وتمكن مارقهم الأكبر عبد الرحمن بن ملجم من قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو خارج إلى صلاة الفجر في آخر جمعة من شهر رمضان وكان علي في ذلك الوقت خير من يدب على الأرض وإمام المسلمين، فانظر إلى بشاعة هذه الجريمة وانظر إلى ظن قاتله أنه كان يفعل خيراً ويريد رضوان الله ومرضاته كما قال عمران بن حطا شاعر الخوارج في وقته:

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

ولكن صدق ابن المبارك الذي رد عليه فقال :

بل ضربة من شقي أوردته لظى وسوف يلقي بها الله غضباناً

وفي الوقت الذي التأمت في الأمة مرة ثانية على معاوية رضي الله عنه قامت قيامة الخوارج وظلوا يشاغلون أمراء الدولة الإسلامية الأموية ويؤججون النار في جنباتها ويصرفونها عن فتح الأمصار، وكثيراً ما كانت جيوش المسلمين تتحول من بلاد الشرك لإخماد فتنتهم التي كانوا يشعلونها كلما سنحت لهم الظروف واستمر حالهم هذا طيلة الدولة العباسية أيضا فكانوا بذلك أعظم شر وبلاء مني به المسلمون. والأفكار الخارجية لم تمت إلى يومنا هذا بل يتناقلها الجهال من الخوارج المعاصرون ممن يقرءون القرآن ولا

يفقهون آياته، ويحفظون الحديث لا يدرون معانيه، وما زال المسلمون إلى يومنا هذا يطلع عليهم بين الحين والآخر من يزعم نصر الدين وقول كلمة الحق فيترك أهل الأوثان والشرك و الإباحية والكفر ويعمل قلمه ولسانه في المسلمين بل وجدنا منهم من لا هم إلا مشاغله الدعاة إلى الله والتعرض لهم بالسب والتشهير وتأليف الرسائل في بيان مثالبهم في زعمهم واتهامهم بالمداهنة تارة، والركون إلى الظالمين تارة، وفعل بعض المعاصي تارة، والإفتاء بما يخالف آراءهم تارة ولمثل هذه الأمور التي يرونها مخالفات وما هي بمخالفات يستحلون أعراضهم وينتهكون حرماتهم ويفتشون على أسرارهم ولا يجدون لهم ديناً في الأرض إلا تفريق جماعاتهم وتمزيق وحدتهم وملء صدور الناس بكراهيتهم ومحاولة فض الناس عنهم. وهذا من أكبر الآثام ومن أكبر النواقض لأصل الإيمان الأصيل وهو أصل الولاء، ولو فقه هؤلاء الذين لوجب عليهم محبة إخوانهم في الإسلام والدعاء لهم بظهر الغيب، وشد أزرهم والنصح لهم، وبذل الأمر بالمعروف لهم بالتي هي أحسن ولكن الحقد والبغضاء ملأت صدورهم، ونفخ الشيطان في قلوبهم فتراهم يرون أكبر المنكرات فلا يأبهون ويشاهدون أعظم الطواغيت فلا يغضبون ولكنهم يرون الهفوات والصغائر على إخوان العقيدة والدين، و أهل الدعوة والجهاد فتحمر أنوفهم وتزبد أفواههم ويعددون في كل مجلس مخالفتهم.

وأمثال هؤلاء الذين ساروا على درب أسلافهم في المروق من قبل حيث تركوا أهل الأوثان، ونصبوا العداء لأهل الإسلام هم أخطر على المجتمع الإسلامي من المنافق المستتر لأن هؤلاء يظنون أنهم على الحق وانهم يحسنون صنعا، ويتكلمون بالآية والحديث وهم أعظم ستار لأهل النفاق والشر الذين يريدون هدم الإسلام، فالمنافقون يستترون بأمثال هؤلاء الأغرار الذين لا يفقهون حكمة ولا دعوة ويقرأون القرآن دون فهم وتدبر يأخذون منه ما شاءوا دون إن يكون لهم سلف في الترك وإنما بما تمليه عليهم أهواؤهم المريضة، وعصبيتهم البغيضة. وهؤلاء تجدهم يميلون إلى الشدة في كل شيء فالمستحب عندهم واجب، والمباح عندهم إثم ومعصية والرخصة جريمة وتهاون، واللين

مداهنة والسكوت عن بعض الحق اتقاء الفتنة عندهم نفاق. وهكذا جعلوا دين الله بلاء على الناس وشرا بل جعلوا دين الله لا يصلح إلا لمن ترك الحياة كلها والمجتمع كله وخرج إلى البراري والقفار يرعى غنيمات وأما الاختلاط بالناس ففتنة عندهم والعمل في الحكومات كفر ومعصية، والتعلم في المدارس جريمة واستعمال النقود إثم لان عليها صورة. والسفر إلى بلاد الكفار جريمة عندهم ما بعدها جريمة. وويل لك ثم ويل إن حملت جواز سفر أو رخصة قيادة لأن ذلك إثم ومعصية إذ كيف تحمل صنما في جيبك؟ والتلفزيون رجس من عمل الشيطان لأن فيه أصنام.. انظر، والصحيفة أشد لعنة من التلفزيون لأن فيها أصناما كذلك وويل لك ثم ويل إن تعلمت الجغرافيا والفيزياء والكيمياء لأنها من علوم الكفار وفي دين هؤلاء يجب عليك أن تنتظر الدجال ولا تأخذ عدة الحرب العصرية لقتال كفار زماننا بمثل سلاحهم، لأن التوصل إلى هذا السلاح لا يمكن إلا بتعلم علوم الكفار، ومادامت علوم الكفار حرام ولا يجوز لنا اقتراف الحرام فإذن لا يجب علينا امتلاك أسلحة العصر بل يجب أن ننتظر حتى تهلك هذه الحضارة ويعود الناس إلى السيف لنحارب الكفار وننتصر على الدجال.. الخ.

كل هذه الأفكار التي هي أشبه بأفكار الحمقى والمجانين تشكل اليوم أسلوبا لفهم الدين طلع به علينا من يزعم نصر الدين وإقامة ملة إبراهيم في الأرض وما درى هؤلاء أن هذه الأفكار هي أمثل طريقة لهدم الدين والقضاء عليه. ومثل هذه الأفكار أيضاً من احتقار العلم ووضعه عند غير أهله أن نناقشها بالدليل والبرهان لأنها لا تستقيم عند بداهة العقول، وإذا كان هناك من يجادل في البديهيات والمسلمات فإن إثبات هذا بالبرهان لا يفيد.

هذه - أخي القارئ - الفئة الثانية من الفئات التي خالفت أصل الولاء وهي تخرج على المسلمين الفينة والفينة بمثل هذه الخزعبلات. فما أشبه حمقى هذه الأيام بالحمقى السابقين الذين قالوا لعلي بن أبي طالب: كيف تحكم الرجال في القرآن؟ لا حكم إلا لله. فوضع علي المصحف أمامهم وقال: احكم بيننا يا قرآن.

الفصل الثاني

البراء

الأصل الثاني من أصول الإيمان الذي نتعرض له في هذه الدراسة هو "البراء" وهو الموقف الواجب على كل مسلم تجاه الكفار فماذا يعني هذا الأصل؟ وما أدلته من الكتاب والسنة ؟ وما أحكامه وحدوده؟ واليك بحمد الله تفصيلا لكل ذلك:

أولا: أدلة "البراء" من الكتاب والسنة:

قال تعالى في سورة الممتحنة التي نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه عندما أرسل إلى قريش يخبرهم بأن الرسول ﷺ خارج لغزوهم وذلك في غزوة الفتح كما روى البخاري بإسناده إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: [انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع بين الحرمين بقرب حمراء الآسر من المدينة "معجم البلدان ج ٢ ص ٣٣٥") فإن بها ظعينة (امرأة سافرة) معها كتاب فخذوه منها]، فذهبنا تعادي بنا خلينا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها (ضفيرة من الشعر تلف على الرأس) فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: [ما هذا يا حاطب؟] فقال: لا تعجل علي يا رسول الله. أني كنت امرءا من قريش ولم أكن من أنفسهم،

وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذا فاتتني من النسب فيهم أن اصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني. فقال النبي ﷺ: [إنه قد صدقكم]. فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه. فقال ﷺ: [إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم] (البخاري).

قال عمرو - أي ابن دينار - وهو من رواة الحديث: ونزلت فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المُمتَحنَة: ١] وهكذا قال ابن عباس أيضاً أن آيات الممتحنة قد نزلت في حاطب وفي شأن هذه الواقعة كما روى ذلك الحاكم بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [المُمتَحنَة: ١] إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ نزلت في مكاتبة حاطب بن أبي بلتعة ومن معه من كفار قريش يحذرهم (رواه الحاكم وقال: "صحيح على شرط الشيخين" ولم يخرجاه واقره الذهبي).

وفي آيات الممتحنة يحذر سبحانه وتعالى من اتخاذ الكفار أولياء، وإلقاء المودة لهم مع كفرهم، وإخراجهم للرسول والمسلمين من مكة ولم يكن للمسلمين ذنب إلا إيمانهم بالله سبحانه وتعالى وقد بين سبحانه أن اتخاذ الكفار أولياء وهم بهذه المثابة من الظلم والعدوان ضلال عن سواء السبيل، ثم بين سبحانه الحكمة من هذا النهي فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المُمتَحنَة: ٢] أي انهم لو ظهروا على المسلمين وتمكنوا منهم فلن يتركوا أو يرحموا أحداً منهم وهم جاهدون مع ذلك في تكفير المسلمين، فكيف يجوز إذن لمسلم موالاتهم ونصرتهم ومحبتهم. ثم أخبر سبحانه أن الأرحام والأولاد لا تنفع يوم القيامة مع الكفر وذلك أن الله يفصل بين المسلمين والكفار يومئذ مهما تقاربت بينهم الأرحام والصلات الدنيوية. ثم ضرب الله سبحانه وتعالى إبراهيم والذين معه

مثلاً وأسوة للمسلمين فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمتحنَة: ٤] . أي عليكم أيها المؤمنون أن تأتسوا بإبراهيم والذين آمنوا معه في براءتهم من الكفار وإعلانهم العداوة والبغضاء لهم ما داموا على شركهم وكفرهم.

وهذه كلها بحمد الله آيات واضحة بينة في وجوب التبري من الكفار ووجوب إعلان البغضاء والكراهية لهم.

ولقد حذر سبحانه وتعالى في آيات أخرى بأن تولي المسلم للكافر كفر ومروق من الدين كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (المائدة: ٥١) وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٥١] نص صريح في كفر من اتخذ نصرانياً كان أو يهودياً ولياً له. ومثل هذه الآية أيضا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبَة: ٢٣] وقال أيضا: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨) وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨] ظاهر في تكفير من فعل ذلك أي انه قد انحلت عقدته مع الله واصبح خارجاً كلياً عن حماية الله وولايته. وهذه الآيات وغيرها كثير في القرآن ظاهر في وجوب البراءة من الكفار وعدم جواز موالاتهم بحال مهما كانوا أقارب أو أرحام أو يرجى منهم نصر وتأييد كما قال تعالى أيضاً: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢).

وهذه كلها بحمد الله آيات صريحة واضحة مبينة أنه لا موادة ولا نصرة، ولا موالاة مع من حاد الله ورسوله، ولو كانوا من أخص الأرحام، وأن المؤمنين المخلصين المؤيدين بنصر الله وتوفيقه هم من حققوا هذا الأصل العظيم.

والآن ما مفهوم تولي الكفار الذي نهينا عنه في هذه الآيات؟ وماذا يعني على التحديد البراءة منهم؟

كيف تحقق البراءة من أعداء الله؟!

أولاً: وجوب الالتزام بالإسلام كله:

وذلك أن دين الكفار باطل سواء كان في الأصول والعقائد والفروع من التحليل والتحريم والصبغة والهدي والأخلاق إلا ما وافق الفطرة الصحيحة والشرع الذي شرعه الله لنا ولذلك أمرنا الله أن نقول للكفار إذا دعونا إلى دينهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (سورة الكافرون).

وحذر الله رسوله في آيات كثيرة أن يطيع الكفار ولو في شيء يسير مما يدعونه إليه مخالفاً بذلك أمر الله كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (الإسراء:٧٣-٧٥). وهذا تهديد عظيم للرسول لو ركن إلى الكفار ولو في شيء قليل. وفي هذا المعنى أيضا يقول تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (هود:١١٢ - ١١٣) وقال أيضاً: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ (المائدة:٤٩) وهذه كلها آيات ناهية للرسول أن يطيع المشركين والكفار ولو في شيء قليل مخالفا بذلك ما أنزله الله إليه وقد هدد الله رسوله هنا بكل أنواع التهديد إن هو فعل ذلك

ومعلوم أن الرسول لا يفعل ذلك وإنما هذا تهديد لنا بطريق الأحرى والأولى.

ولا شك أن طاعة الكفار في شيء من تشريعهم هو من أكبر أنواع التولي لهم، وبالتالي هو أعظم أسباب الكفر والخروج من الدين والتعرض لسخط رب العالمين.

ثانياً: وجوب إعلان البراءة من الكافرين:

وهذا يستلزمه الأمر الأول فما دام أن للمسلم دينه الخاص المميز فإن لم يلتزم هذا الدين فإنه خارج عنه، وكل خارج عن دين الإسلام الحق بعد إقامة الحجة عليه فهو كافر ولا شك أن للكافر منهجاً وطريقاً وعقيدة ما في حياته وكل منهج وعقيدة وطريق غير الإسلام فهو باطل ويجب على المسلم البراءة من الباطل كله والكفر بالطواغيت جميعا كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] والطاغوت هو كل من جاوز حده ودعا إلى عبادة نفسه وتهجم على حق الله في العبادة والطاعة وقال تعالى أيضاً: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۞ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.. الآيات (الكافرون) فأمرنا أن نعلن البراءة من الكافرين وآلهتهم. وقال إبراهيم لقومه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الشعراء:٧٥-٧٧)، وقال لهم أيضا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمتَحنَة: ٤] وقد جعل الله إبراهيم لنا أسوة في هذا القول.

ولذلك فإعلان البراءة من الكافرين وكفرهم هو الأمر الثاني واللازم للالتزام بدين الله وحده واتباع صراطه المستقيم، فمن اتبع صراط الله واهتدى بهدي رسوله وجب عليه أن يعلن مفارقه كفر الكافرين ومخالفة هديهم ودينهم كله.

ثالثاً: تحريم إعانة الكافر على المسلم:

الأمر الثالث الذي تقتضيه البراءة من الكفار وعدم موالاتهم هو عدم

جواز إعانتهم على المسلم بحال، فإذا كان المسلم دمه وماله وعرضه حرام على أخيه المسلم، وكان سباب المسلم فسوقاً، واقتطاع حقه موجباً للنار وسفك دمه ظلما موجباً للخلود فيها أيضا فإن إعانة الكافر على مسلم خروج من الدين مطلقاً وكفر أو ردة والآيات التي صدرنا بها هذا البحث هي في هذا الصدد خاصة كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] وكذلك آيات الممتحنة وقد نزلت كما علمنا آنفا في شأن حاطب بن أبي بلتعة الذي أفشى سر الرسول ﷺ إلى كفار قريش.

وبهذا يعلن أن إعانة الكفار على المسلمين لا شك أنه كفر. ولم يسمح الله في هذا الصدد بأي صورة من صورة الإعانة. ولا لأي أحد حتى للمستضعفين في بلاد الكفار أن يقاتلوا مع قومهم ضد المسلمين كما قال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٩١) والمقصود بالفتنة هنا حرب المسلمين.

رابعاً: تحريم اتخاذهم بطانة وحاشية:

الأمر الرابع: الذي نهانا الله عنه تجاه الكافرين واخبرنا أنه من جملة موالاتهم هو اتخاذهم بطانة أي وزراء وعمالاً في الأمور الحساسة من أمور الدولة والحكومة الإسلامية. وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ولهذا لم يتخذ الرسول والخلفاء الراشدون غير المسلمين في أعمال الدولة الهامة كقيادة الجيوش. والأشراف على بيت المال، والجنود والشرطة

وسائر الأمور التي فيها اطلاع على عورات المسلمين ومعرفة بأحوالهم. ولذلك كانت الدولة الإسلامية في عافية وقوة. ولكن بعد أن اتخذ الخلفاء الكفار بطانة لهم ووزراء تغير الأمر وبدأت أحوال المسلمين إلى زوال.

عرفنا أن البراءة من الكافرين تعني أن لا نتنازل لهم عن شيء من الدين، وأن لا نحبهم فنحب ما هم عليه من كفر، وأن لا نساعدهم على مسلم قط، وأن لا نتخذ منهم بطانةً وأعواناً في أماكن يطلعون منها على أسرار المسلمين وينفذون من خلالها إلى إضعافهم وتفشيلهم. والذين يأخذون أصول البراءة على إطلاقها دون تفصيل ومعرفة بالاستثناءات قد يقعون في كثير من الظلم والحرام.

ولذلك سنفصل - بحول الله - فيما يأتي هذه الاستثناءات والأمور التي لا تخالف ولا تناقض أصل البراءة:

استثناءات لا تنقض أصل البراءة:

أولاً: اللين عند عرض الدعوة:

لا تعني البراءة من الكافرين حجب دعوة الإسلام عنهم وتركهم لما هم فيه من ضلال. بل يحتم الإسلام على أهله دعوة الناس إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر والحرص على هدايتهم والرغبة الأكيدة في تحولهم إلى الإسلام ولما كان هذا لا يأتي إلا بالدخول إلى النفوس من مداخلها واستجلاب رضاها وراحتها فإن الإسلام جعل سبيل الدعوة مع الكفار وغيرهم هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ (النحل:١٢٥).. وذلك أن النفوس الشاردة، والقلوب القاسية لا تعود إلى الإسلام ولا تلين إلا بالملاينة والملاطفة وإظهار العطف والشفقة والحرص.

ولذلك قال تعالى لموسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وهكذا صنع موسى مع فرعون لاطفه في أول لقاء له وشرح له دعوته وجادله بالحسنى ووكل أمره لله بعد أن أعلن فرعون عداوته له. وهكذا أيضاً فعل رسول الله ﷺ مع المشركين والكافرين والمعاندين ممن عرض عليهم دعوته سواء كانوا من العرب المشركين أو اليهود أو النصارى جادلهم رسول الله بالحسنى ودعاهم باللين والبيان وصبر معهم صبراً طويلاً ولم يثبت قط أنه أهانهم أو اغلظ عليهم عند عرض الدعوة أبداً وذلك امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمّل: الآية ١٠] وقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:٢٢) وقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٦] ولم يقل: فاغلظ لهم القول وسبهم واشتمهم.

وهذه الآيات كلها ومثلها بالمئات في القرآن الداعية إلى الحكمة والصفح الجميل عن المكذبين لا تناقض قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وذلك أن الغلظة المأمور بها هنا إنما هي الغلظة في القتال فقط، وهذا مقام يحتاج إلى شدة وغلظة بخلاف مقام الدعوة، ولكل مقام مقال، كما يقولون. وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]. فهذه الغلظة هنا تفسر الغلظة في الآية الأخرى وأن ذلك إنما يكون في مقام القتال والمقاتل إن لم يتصف بالشجاعة والقوة والغلظة لمن يقاتلونه لا ينتصر. فلو رحمه أو لاينه أو أشفق عليه فإنه لا يقتله. ومما يوضح ذلك جلياً ما صنعه الرسول ﷺ مع المشركين في موقعة بدر، فقد رص رسول الله ﷺ الصفوف ودعا المؤمنين إلى الشجاعة في القتال وقال: [والله لا يقاتل رجل منكم اليوم مقبل غير مدبر إلا دخل الجنة] (رواه أبو إسحاق. انظر البداية والنهاية ٣/ ٢٧٦-٢٧٧). وفي هذا غاية التحريض على بذل النفس ولكنه

بعد المعركة وهزيمة الكفار وأسر سبعين منهم لاطف الأسرى ولاينهم وداوى جراحاتهم وأمر الصحابة بإكرامهم فقال ﷺ [اكرموا الأسرى] (الترمذي وأبو داود)، حتى أن الصحابة كانوا يؤثرونهم بالطعام الجيد على أنفسهم وأنزل القرآن في ملاطفة الأسرى ودعوتهم للإسلام فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الأنفال: ٧٠)، وهذا غاية الملاينة والملاطفة في دعوتهم إلى الإسلام وأن الله سيعوضهم عن الفدية التي أخذت منهم إن هم أذعنوا للإسلام وآبوا إلى الله ورسوله. وبهذا يظهر لنا جليا التفريق بين مقام القتال ومقام الدعوة.

فمقام الدعوة هو مقام اللين والملاطفة وتخير الألفاظ وإحسان القول رغبة في تطميع الكافر في الدين، واستمالة لقلبه إليه.

والجاهلون بهذا لا يميزون بين مقام ومقام ويظنون أن البراءة من الكفار تعني سبهم وشتمهم وإغلاظ القول لهم في مقام الدعوة وهذا غاية الجهل والحماقة.

ثانياً: حل الزواج بالكتابية وأكل ذبيحة الكتابي:

لا شك أن الكتابي يهودياً كان أو نصرانياً هو ممن حكم الله عليهم بالكفر والخلود في النار إذا سمع بالإسلام ولم يدخل فيه كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۞ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٢-٧٣).

وهذا نص واضح في كفرهم لمقالتهم الشنيعة في الله ولا شك أيضاً أنهم لا يخرجون من مسمى أهل الكتاب بهذه المقالة فقد ناداهم الله مراراً بهذا

الاسم مع وجود معتقدهم هذا فيهم كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٧١)، فقد ناداهم الله بمسمى أهل الكتاب مع مقالتهم هذه.. وبالرغم من ذلك فقد أباح الله للمسلم أن يأكل مما ذبحه الكتابي وأن يتزوج المرأة الكتابية وهذا مجمع عليه بين المسلمين ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٥) وأنت ترى هنا أن الله قد جعل طعام أهل الكتاب من الطيبات المباحة والمقصود بطعامهم ذبيحتهم وهذا لا خلاف فيه أيضاً، وكذلك جعل الله المحصنة الكتابية أي العفيفة التي لا ترضى الزنا مباحاً الزواج بها كالعفيفة المسلمة أيضا. وبهذا تعلم أن الأكل من طعام اليهود والنصارى لا ينافي ولا يعارض البراءة منهم، بل هذا مما استثنى، وكذلك الزواج من نسائهم. ومعلوم انه يحصل مع الزواج من نسائهم كثير من المودة والمحبة الزوجية الفطرية التي تقوم بين الأزواج عادة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّوم: ٢١] ولا شك أن المودة هنا مستثناة من النهي عن المودة للكفار المنصوص عليها في مثل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] .. الآية. فمودة الزوج المسلم لزوجته الكتابية مخرج من ذلك ولا شك لأنه من المباح الذي لا يؤاخذ الله عليه ولا شك إن هذه المودة المباحة هي المودة الفطرية التي ينشئها الله في قلب الزوج لزوجته والتي لا يجوز معها اطلاع هذه الزوجة على عورات المسلمين أو إعانتها أو إعانة قومها على الإسلام و أهله. ومعلوم كذلك إن الزواج بالكتابية يستلزم أيضا السماح لها

بالبقاء على دينها إن شاءت وعدم الوقوف في وجه أدائها لشعائر هذا الدين إن أرادت وأن لا تجبر على الإسلام ولا تدخل فيه إلا برضاها وهذا من المعلوم من الدين ضرورة لا يماري فيه إلا جاهل.

وكذلك الأمر بالنسبة لأكل طعام أهل الكتاب لا شك أنه لا يمنع أن يأكله المسلم هديةً أو بيعاً وقد أكل رسول الله ﷺ من الشاة التي أهدتها له اليهودية في خيبر. وأكل منها أصحابه، ومعلوم أن الإهداء والبيع ونحو ذلك قد يحصل به تعارف ونوع صداقة ومودة وكل ذلك لا ينافي ولا يناقض الأصل الذي شرحناه آنفا وهو البراءة من الكفار.

ثالثا: المجاملة والإحسان والدعاء له بالهداية:

.. ومن الأمور التي لا تنقض أصل البراءة من الكفار أيضا مجاملة الكافر المعاهد والذمي والمستأمن والإحسان إليه والأصل في هذا هو قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المُمتَحنَة: ٨] ويدخل في البر بهم عيادة مرضاهم، واتباع جنائزهم، وقبول هداياهم والإهداء لهم، وتهنئتهم في الأفراح، وتعزيتهم في الأحزان ومساعدة فقرائهم والمحتاجين منهم وزيارتهم في منازلهم، وقبول دعوتهم، والدعاء لهم بالهداية، ونحو ذلك وهذا مما أجمع عليه المسلمون ولا مخالف لذلك ممن لهم رأي يعتد به.

ويدل لذلك ما يأتي:-

(أ) الدعاء بالهداية لهم:

وهذا حتى لو كانوا محاربين أيضاً وقد دعا الرسول ﷺ لطوائف كثيرة من الكفار ليهديهم الله: كما جاء في مسلم أنه قال: [اللهم اهد أم أبي هريرة] (مسلم وأحمد) وذلك عندما طلب أبو هريرة من الرسول أن يدعو الله لأمه الكافرة كي تسلم، ولذلك جاء في البخاري عن أبي هريرة قال: قدم الطفيل وأصحابه على رسول الله فقال الطفيل: يا رسول الله، إن دوساً قد كفرت

وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، فقال ﷺ: [اللهم اهد دوساً وأئت بهم] (البخاري ومسلم وأحمد) ودوس قبيلة أبي هريرة. وجاء في الترمذي وأحمد أن رسول الله دعا لثقيف فقال: [اللهم اهد ثقيفاً]، وكانوا قد تحصنوا منه بعد فتح مكة في ديارهم وامتنعوا من المسلمين ولم يستطع المسلمون فتح الطائف، فدعا الرسول ﷺ أن يهديهم، فأسلموا وقدموا المدينة، وفي كل هذا استحباب الدعاء للمعاندين من الكفار لعل الله يهديهم.

(ب) الإهداء لهم وقبول هداياهم:

وقد جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ أهدى إلى عمر بن الخطاب حلة من حرير فقال: يا رسول الله تكرهها وترسلها لي؟ فقال ﷺ: [أني لم أرسلها لك لتلبسها ولكن البسها بعض نسائك] فأهداها عمر بن الخطاب لأخ له مشرك بمكة. وهذا دليل واضح أيضاً على أنه يجوز الإهداء للكفار ما لا يحل لبسه للمسلمين كالحرير وكذلك قبل رسول الله هدايا المقوقس (ابن خزيمة وأبو نعيم)، وقبل الشاة المصلية من اليهودية في خيبر (البخاري وغيره عن أنس).

(ج) عيادة مرضاهم:

وقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده: فقعد عند رأسه فقال له: [أسلم] فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم - ﷺ -، فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: [الحمد الله الذي أنقذه من النار]. وروى البخاري أيضاً تعليقاً جازماً به إلى سعيد بن المسيب عن أبيه انه قال: [لما حُضِر أبو طالب جاءه النبي ﷺ] وهذا مشهور في قصة عرض النبي ﷺ الإسلام على أبي طالب في مرض موته وقول عمرو بن هشام له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فمات وهو يقول: هو على ملة عبد المطلب. والشاهد من هذا أن النبي ﷺ عاد المشركين واليهود.

د- التصدق عليهم والإحسان لهم:

وهذا ثابت في النص القرآني الذي ذكرناه وكذلك في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٢] وقد قال ابن كثير عن هذه الآية: قال أبو عبدالرحمن النسائي: أنبأنا محمد بن عبد السلام بن عبد الرحيم أنبأنا الفريابي حدثنا سفيان عن الأعمش عن جعفر بن عباس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فرخص لهم" فنزلت هذه الآية ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ..﴾ وهذا ما رواه أبو حذيفة، وابن المبارك وأبو أحمد الزبيري، وأبو داود الحضرمي عن سفيان وهو الثوري، وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا أحمد بن القاسم عن عطية حدثني أحمد بن عبدالرحمن يعني الأشتكي حدثني أبي عن أبيه حدثنا أشعث ابن إسحاق عن جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ..﴾ إلى آخرها. فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

وكذلك روى البخاري وغيره عن أسماء بنت الصديق أنها ذكرت للنبي ﷺ أن أمها قد أتتها وهي راغبة -أي عن دين الإسلام- أفتتصدق عليها؟

فأمرها النبي ﷺ أن تصلها، وهذا بالطبع موافق ومقرر لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمَان: ١٥].

والخلاصة من كل هذا أن الصدقة والإحسان على الكفار جائزة بل مستحبة كما قال النبي ﷺ [في كل كبد رطبة أجر] (البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد وغيرهم).

***

شَهَادَةُ الإِنْجِيلِ

عَلَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ
وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ
وَرُوحٌ مِنْهُ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

استفتاح:

إن الحمدلله ، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٢] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ❊ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾.

وبعد:

فلا شك ولا ريب عند كل مسلم أن الله سبحانه وتعالى أنزل كتاباً مقدساً على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام، وقد سمى الله هذا الكتاب الإنجيل كما قال تعالى في سورة المائدة في القرآن الكريم: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ❊وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾

في هاتين الآيتين دليل واضح على أن الله أنزل كتابه الإنجيل على عيسى ابن مريم مصدقاً لما سبقه من التوراة، وأن عيسى عليه السلام جاء مصدقاً لما

في التوراة وأنزل الله عليه الإنجيل كذلك مصدقاً لما جاء في التوراة، ثم والإنجيل نزل من الله هدى ونوراً وموعظة للمتقين، وقد أمر الله النصارى أن يحكموا بما أنزل الله فيه، ولا شك أنهم لو حكموا بما أُنزِل فيه لآمنوا بمحمد ﷺ، واتبعوه، وذلك أن محمداً ﷺ قد جاء بكتاب مصدق لما سبقه من التوراة، والإنجيل، فالكتب الثلاثة: التوراة، والإنجيل، والقرآن كلها من الله، وكل كتاب يصدق الكتاب الذي جاء قبله.

والقرآن - بحمد الله - قد تهيأ له من أسباب الحفظ ما لم يتهيأ للتوراة، والإنجيل، ثم هو الكتاب الخاتم، لذلك كان ما فيه مهيمناً على ما سبقه؛ فهو المرجع عند الخلاف، وهو الحكم الفصل لأنه كلمة الله الختامية إلى الناس كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: الآية ٤٨] الآية.

ولا شك أن الإنجيل والتوراة قد نالهما كثير من التحريف والتبديل بقصد من منافقي الديانتين، أو بغير قصد منهم، والقرآن - بحمد الله - هو كلمة الفصل، فقد جاء مكذباً اليهود فيما ادعوه، وكتبوه في التوراة من أن الله استراح في اليوم السابع من عمله الذي عمل خالقاً.. فقال تعالى في القرآن:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: الآية ٣٨] .

وهذا هو اللائق بالله سبحانه وتعالى أنه لا يصيبه تعب ولا نصب: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾..

وكذلك كذب النصارى فيما ادعوه، وكتبوه في الإنجيل أن عيسى - عليه السلام - هو ابن الله نسباً، وجزءاً، وأن اليهود قبضوا عليه، وصلبوه، وبصقوا في وجهه، وصفعوه على قفاه، وسمروا رجليه بالمسامير في خشبة الصليب، وسقوه خلاً قبل أن يموت، وكتبوا كل ذلك في الإنجيل المقدس عندهم، ولا شك أن هذا كذب، وضلال محض، فإن عيسى عبدالله ورسوله

وكلمته، أنجاه الله، ورفعه إلى السماء حياً، ولم يمكن منه أعداءَه اليهود الذين سعوا في قتله، بل قال الله تعالى في القرآن الكريم بياناً لإجراء اليهود، وتعديداً لظلمهم وفجورهم: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

وهذه الآية القرآنية قاضية أن ما زعمه النصارى في إنجيلهم من أن عيسى صُلِبَ كَذِبٌ مَحْضٌ، وإضافةٌ إلى الإنجيل المنزل ما ليس منه.

وهناك طريقان للتدليل على أن الأناجيل التي بأيدي النصارى اليوم فيها كثير من المحَرَّفِ المكذوب، والخطأ الذي ربما وقع باجتهاد، وحسن قصد:

١- تناقض نصين بعضهما مع بعض تناقضاً كلياً يستحيل معه الجمع بينهما.

٢- مخالفة صريح القرآن الكريم، وهو كتاب الله الحاكم على كل كتاب قبله.

ولا شك في أن الإنجيل الذي بيد النصارىٰ اليوم فيه كثير من الهدىٰ، والنور الذي يصدق القرآن الكريم، ولو أن النصارىٰ أقاموا ما بقي في هذا الكتاب من الهُدىٰ والنور لاهتدوا إلى الحق، وآمنوا بالرسول الخاتم ﷺ.

هذه الرسالة:

وعملنا في هذه الرسالة الموجهة لهم، ولكل مسلم، هو إبراز وإظهار الحق الموجود في الإنجيل الذي لو أخذوا به هُدُوا إلى الصراط المستقيم، ومن ذلك أساس المعتقد: (بشرية عيسىٰ عليه السلام)، وأنه عبدالله حقاً ورسوله وكلمته التي ألقاها إلىٰ مريم، وروح منه، كما جاء بذلك الكتاب العزيز القرآن، ونطق بذلك سيد المرسلين، وإمام المتقين سيدنا ونبينا محمد ﷺ، أولىٰ الناس بعيسى بن مريم، وأحق الناس بموالاته، ونصره وتأييده، لأن عيسى هو الرسول المبشر الأخير به، وليس بينه وبين نبينا محمد ﷺ نبي.

ثم تبين ما في هذه الأناجيل من الاختلاف، والاضطراب، والتناقض لتبيين أن كل ما فيها ليس هو كلمة الله، وأنه المنزل المعصوم الذي لا يجوز خلافه، بل في الأناجيل التي بأيديهم ما هو ملفق مكذوب، أو منتحل قد أخطأ فيه من كتبه، وأضافه إلى كلام الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة أن التوراة، والإنجيل ما زال فيهما كثير من الهُدى، والنور الذي بقي، لم تنله يد التحريف، والتبديل، وقد أبقاه الله حجة على أهل الكتاب، ولو طبقوه لاهتدىٰ كل منهم إلى الحق؛ فاليهود لو طبقوا التوراة، وأقاموها لآمنوا أولاً بعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام الذي جاء مصدقاً لما في التوراة، عاملاً به، مؤيداً بالمعجزات من الله، والبينات الدالة على صدقه، وأمانته، ولكنهم اختلفوا في شأنه، فمنهم من آمن بعيسىٰ، ومنهم من كفر به كما قال تعالىٰ عنه:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وقال أيضاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

فاليهود الذين آمنوا بعيسىٰ هم الذين اتبعوا الحق، وعملوا بما جاءهم في التوراة؛ وكذلك لو أن النصارى أقاموا الإنجيل وما أوصاهم به عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام لآمنوا بالقرآن، وبمحمد ﷺ، واتبعوه، ولكن كان منهم من عرف الحق وآمن، وكان منهم من كفر فأيد الله أهل الإيمان منهم علىٰ أهل الكفر ثم بعث الله عبده ورسوله محمداً وسلطه على الكفار من أهل الكتاب فغلبوهم، وهزموهم، وأزال الله دولتهم كما قال سبحانه وتعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (القصص: الآية ٥٤).

وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ..(البقرة: الآية ١٤٦).

ولا شك أن معرفة اليهود والنصارى بالنبي محمد ﷺ قبل مبعثه إنما كانت بما عندهم في التوراة والإنجيل من صفة النبي محمد ﷺ، والبشارة به

على لسان موسىٰ، ولسان عيسىٰ عليهما الصلاة والسلام كما قال تعالى لموسىٰ:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.. الآيات (الأعراف: ١٥٦-١٥٧).

وكل ذلك يدل بما لا شك فيه على أن التوراة، والإنجيل أو ما يسميه النصارى (بالعهد القديم، والعهد الجديد) قد بقي فيهما من الهدى والنور، والحق ما تقوم به الحجة على أتباعهما، وما لو طبقوه لاتبعوا الحق كله، وآمنوا بالرسول محمد ﷺ الذي جاء مصدقاً لما معهم، ومؤيداً بالبينات من ربه، وسائراً في طريق الأنبياء الذين أرسلوا إليهم.

وقد عقد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فصلاً مطولاً في هذا الموضوع في كتابه العظيم (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) بين أقوال الناس في حقيقة التوراة والإنجيل التي بأيدي الناس الآن فقال:

"والصحيح أن هذه التوراة، والإنجيل الذي بأيدي أهل الكتاب، فيه ما هو حكم الله، وإن كان قد بُدِّلَ، وغُيِّر بعض ألفاظهما لقوله تعالى:

﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ (المائدة: الآية ٤١).

إلى قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٣].

فعلم أن التوراة التي كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس، بعد مجيء (بختنصر) (رداً على من يقول أن التوراة بقيت صحيحة إلى دخول بختنصر البيت المقدس وإحراقه) وبعد مبعث المسيح، وبعد مبعث محمد ﷺ، فيها حكم الله.

والتوراة التي كانت عند يهود المدينة على عهد يهود رسول الله ﷺ، وإن قيل إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه، فلا نشهد علىٰ كل نسخة في العالم بمثل ذلك، فإن هذا غير معلوم لدينا، وهو أيضاً متعذر، بل يمكن تغيير كثير من النسخ، وإشاعة ذلك عند الأتباع حتىٰ لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير بعد ذلك، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة، والإنجيل متفقة في الغالب، إنما يختلف في اليسير من ألفاظها، فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول ممكن لا يمكن أحداً أن يجزم بنفيه، ولا يقدر أحد من اليهود، والنصارىٰ أن يشهد بأن كل نسخة في العالم بالكتابين متفقة الألفاظ، إذا هذا لا سبيل لأحد إلىٰ علمه، والإختلاف اليسير في ألفاظ هذه الكتب موجود في المتواتر لا يحتاج أن يحفظ في كتاب كما قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: الآية ٩].

وذلك أن اليهود قبل النبي ﷺ، وعلىٰ عهده، وبعده منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة، وكذلك النصارى عندهم نسخ كثيرة من التوراة، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ، وتبديلها، ولو كان هذا ممكناً لكان ذلك من الوقائع العظيمة التي تتوفر الدواعي على نقلها، وكذلك في الإنجيل قال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: الآية ٤٧].

فعلم أن في هذا الإنجيل حُكْماً أنزله الله تعالى، لكن الحكم هو من باب الأمر، والنهي، وذلك لا يمنع أن يكون التغيير في باب الإخبار، وهو الذي وقع فيه التبديل لفظاً، وأما الأحكام التي وردت في التوراة، فما يكاد أحد أن يدعي التبديل في ألفاظها" (الجواب الصحيح ج١-٣٦٨،٣٦٩)، وقد أمر الله سبحانه وتعالى أهل التوراة أن يحكموا بما أنزل الله فيها كما قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وكذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٧].

وقال تعالى أيضاً: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ...﴾.

ولا شك أن أهل التوراة لو حكموا بالتوراة حقاً في العقيدة، والشريعة لآمنوا بعيسىٰ بن مريم - عليه السلام - لأن الأمر به موجود في التوراة، وقد جاء عيسىٰ - عليه السلام - مصدقاً، وعاملاً بما فيها ثم ناسخاً لبعض أحكامها، والنسخ موجود في كل الشرائع حتى في شريعة النبي الواحد الذي قد يبيح حكماً في وقت ما من رسالته، ثم ينزل نسخه بعد مدة، وكذلك لو أقام النصارىٰ ما أنزل إليهم من ربهم في الإنجيل، وما أُمِروا أن يحكموا به من التوراة لأوصلهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وتصديقه، واتباعه، فقد جاء مكملاً لما جاء به الأنبياء قبله، ومبشراً به منهم، ولا يتصور أن يأمر الله أهل الكتابين أن يحكموا بما أُنْزِلَ إليهم والتوراة وجميع ما فيها مكذوب، بل لا بد وأن يكون فيهما الحجة، والحق كما قال الله سبحانه وتعالىٰ لما جاءت اليهود لتحكيم رسول الله ﷺ في شأن يهودية، ويهودي زنيا قال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٣] فحكم الله بالرجم باق في التوراة، وقد قرأه عبدالله بن سلام بمحضر من رسول الله.

وبالرغم من وقوع التحريف، ففي بعض التوراة، والإنجيل -كما أسلفنا- إلا أنه ممكن الاستدلال عليه، ومعرفته، وذلك لأنه أولاً قليل بالنسبة إلى ما لم يبدل، ثم إن ما لم يبدل قد جاء بنصوص واضحة صريحة يؤيد بعضها بعضاً ويكشف ما سواه مما دخله التحريف، والتغيير، ثم إن القرآن بحمد الله حاكم، وشاهد، ومهيمن، على ما جاء قبله من الكتب كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ

تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال تعالىٰ أيضاً: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٨] .

قول شيخ الإسلام ابن تيمية أن المحرف من التوراة والإنجيل قليل يمكن معرفته:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - جواباً لمن قال:

"إذا كان التبديل قد وقع في ألفاظ التوراة، والإنجيل قبل مبعث محمد ﷺ، لم يعلم الحق من الباطل، فسقط الاحتجاج بهما، ووجوب العمل بهما على أهل الكتاب، فلا يذمون حينئذ علىٰ ترك اتباعهما، والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيهما، واستشهد بهما في مواضع؟ (يقول شيخ الإسلام) وجواب ذلك: أن ما وقع من التبديل قليل، والأكثر لم يُبَدَّل، والذي لم يُبَدَّل فيه ألفاظ صريحة بينة بالمقصود تبين غلط ما خالفها، ولها شواهد، ونظائر متعددة، يصدق بعضها بعضاً، بخلاف المبدل فإنه ألفاظ قليلة، وسائر نصوص الكتب يناقضها، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبي ﷺ، فإنه إذا وقع في سنن أبي داود، والترمذي أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة، وكان في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ ما يبين ضعف تلك، بل وكذلك صحيح مسلم فيه ألفاظ قليلة غلط، وفي نفس الأحاديث الصحيحة مع القرآن ما يبين غلطها" (الجواب الصحيح ج١-٣٧٨).

عملنا في هذه الرسالة:

والذي فعلناه في هذه الرسالة المباركة - إن شاء الله تعالى - هو استخراج النصوص الدالة علىٰ عقيدة التوحيد من الإنجيل، وأن عيسى - عليه الصلاة والسلام - لم يكن إلا عبدالله ورسوله، وأنه خُلِقَ بكلمة الله (كن) كما كان شأن آدم كما قال تعالىٰ في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عِمـرَان: الآيـة ٥٩]، وأن هذه الكلمة حملها الملك (روح القدس) الذي ينزل على الأنبياء، وأنه نفخ في مريم فخلق الله من هذه النفخة عيسى - عليه السلام - كما قال تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾.. الآيات.

ففي نصوص الإنجيل الموجودة الآن ما يؤيد هذه العقيدة الصحيحة بل في نصوص الإنجيل هذه العقيدة الصحيحة، وأن عيسى ما هو إلا عبد أنعم الله عليه وجعله مثلاً لبني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٥٩] .

وقد عنيت باستخراج هذه النصوص من الإنجيل الذي بأيدي النصارى الآن، وذكرت ما يؤيد ذلك من القرآن الكريم الذي جاء يصدق ما جاء في الإنجيل الحق.

هدفنا في هذه الرسالة:

١- أن تزداد إيماناً بأن الذي جاء به نبينا محمد ﷺ هو الحق من ربه، وأنه جاء بأخبار من أخبار الرسل ما كان يقرؤها، ولا اطلع عليها، وقد جاء بها كما جاءت في الكتب السابقة تماماً، وهذا من أعظم الأدلة علىٰ أنه رسول الله حقاً، وصدقاً، فإن هذا لا يُعْرَفُ من رجل أمي لم يقرأ، ولم يكتب، فلم يبق طريق يعلم به إلا الوحي.

٢- دعوة أهل الكتاب أن يراجعوا الحق، ويقيموا التوراة، والإنجيل، وما جاءهم علىٰ لسان أنبيائهم الصادقين - عليهم السلام - ولا يحيدوا عنه فيزداد غضب الله عليهم، ويستمروا في درب الغواية، والضلال.

٣- تقديم سلاح وحجة بأيدي المؤمنين يدافعون به عن معتقدهم، ويقيمون به الحجة علىٰ من كفر من اليهود، والنصارىٰ، ويوقنون بأن ما جاءهم من الله في القرآن هو الحق الذي لم يشب، الذي تكفل الله بحفظه، وأنهم على الهدى الذي ارتضاه الله لعباده الصالحين، وأنهم أولىٰ الناس بموسىٰ، وعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام، وأن أمتهم هي الأمة المهتدية التي أنعم الله عليها، وأن تمتلئ قلوبهم محبة لله، وإيماناً، واطمئناناً للإسلام، وهم يدعون في صلاتهم:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ اليهود مغضوب عليهم، والنصارى الضالون وأهل الإسلام هم الذين أنعم الله عليهم.

والحمدلله أولاً وأخيراً.

عبد الرحمن عبدالخالق

الكويت في العاشر من محرم سنة ١٤١٤هـ

الباب الأول

الأدلة من الإنجيل على أن عيسى رسول اللّه وليس هو اللّه، أو ابن اللّه

١- عيسى يعلّم إبليس أنه لا سجود إلا لله، وأن الله هو الرب وحده سبحانه وتعالى:

في إنجيل متى فقرة ٤:

(ثم صعد الروح بيسوع إلى البرية، ليُجَرّب من قبل إبليس، وبعدما صام أربعين نهاراً، وأربعين ليلة، جاعَ أخيراً، فتقدم إليه المجربُ وقال له: "إن كنت ابن الله، فقل لهذه الحجارةِ أن تتحول إلى خبز!" فأجابه قائلاً: "قد كتب: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمةٍ تخرجُ من فَمِ الله!" ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة، وأوقفه علىٰ حافة سطح الهيكل، وقال له: "إن كنت ابن الله، فاطرح نفسك إلىٰ أسفل، لأنه قد كتب: يوصي ملائكته بك، فيحملونك علىٰ أيديهم لكي لا تصطدم قدمك بحجر!" فقال له يسوع: "وقد كتب أيضاً لا تجرب الرَّب إلهك!".

ثم أخذه إبليس أيضاً إلى قمة جبل عال جداً، وأراه جميع ممالك العالم وعظمتها، وقال له: "أعطيك هذه كلها إن جثوت وسجدتَ لي!" فقال له يسوع: "اذهب يا شيطان! فقد كتب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد!".

فتركه إبليس، وإذا بعض الملائكة جاءوا وأخذوا يخدمونه).

وفي هذا النص من الأدلة على عبودية المسيح لله ما يلي:

١- أن روح القدس (وهو ملاك الرب الذي ينزل بالوحي من الله للأنبياء) أصعد عيسى إلى البرية ليمرنه ويجربه على عصيان إبليس والرد عليه، ويعرفه بأساليبه في الغواية ليحذرها، ويستحيل لو كان عيسىٰ هو الله أو أنه الله كما تدعي النصارىٰ أن يأخذه الملاك ليعلمه!! كيف يتقي شر الشيطان، فهل يحتاج خالق للسماوات والأرض إلى تعليم؟!

٢- صام عيسى أربعين يوماً وليلة وجاع.. فهل الرب يصوم ويجوع!! أم أن الرب الإله لا بد وأن يكون غنياً عن كل ما سواه.. قال تعالى في القرآن في بيان بطلان كون عيسى وأمه إلهين: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٧٥] فمن يحتاج إلى الطعام لا يكون إلهاً ورباً وخالقاً، لأن الإله الرب لا بد وأن يكون غنياً عن كل ما سواه، ولا شك أن من يأكل من البشر ويشرب ويبول ويتغوط.. فهل يوصف الإله بذلك؟ أليس لمن يقول بألوهية المسيح وربوبيته من عقل يميزون بين الرب الإله الخالق المنزه عن كل نقص وبين الإنسان المحتاج الفقير العاجز؟؟

٣- تقدم الشيطان إليه ليجربه بقوله له: إن كنت ابن الله حقاً اقلب هذه الأحجار إلى خبز.. أي لتأكل منها بعدما جعت، ورد عيسىٰ عليه بأنه (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله). ومعنىٰ أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان أي أن الحياة الحقيقية ليست بما يحيي الجسد فقط، وإنما الحياة الحقيقية بما يحيي الروح فمن آمن بالله وعمل بكلماته فهو الحي حقيقة، وأما الكافر الذي يعيش لبطنه فقط فهو ميت في ظاهر حي كما قال تعالى في القرآن: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢] أي لا يستوي هذا وهذا.. فمن كان ميتاً أي بالكفر فأحيينا أي بالإيمان وجعلنا له نوراً أي هداية وشريعة يعرف بها الحلال من الحرام والحق من الباطل،

والهدىٰ من الضلال، والشرك من التوحيد، والصلاح من الفساد، ليس يستوي هذا ومن هو ضال لا يهتدي يعيش للدنيا فقط ولا يميز بين شرك وتوحيد، وهدي وضلال، وخير وشر.

معنى ابن الله كما ورد في النص:

٤- ألفاظ ابن الله التي جاءت في الأناجيل والكتب المقدسة عند النصارى من المتشابه الذي يجب رده إلىٰ المحكم فإن هذه اللفظة (ابن الله) استخدمت في عيسىٰ، وفي أتباعه، وفي كل مؤمن بالله غير كافر به.. وقد ادعاها كل من اليهود والنصارىٰ جميعاً كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: الآية ١٨].

وهذه الكلمة تحتمل معنيين: بنوة الهداية، والإيمان، والتشريف، وهو ما يسمونه بالبنوة الروحية، ويقال في مقابلها: أبناء الشيطان، وأبناء الأفاعي كما جاء في الإنجيل في وصف اليهود: (يا أبناء الأفاعي)، والكل يعلم أنهم ليسوا أبناء الأفاعي من النسب، ولا الشيطان من الصُّلْب، وإنما نُسِبُوا إلى الأفاعي لمكرهم وخطرهم، وسمومهم، وإلى الشيطان لتلبيسهم، وكذبهم.

والنسبة إلى الله بالأبناء للهداية، والتوفيق، والعمل بشريعة الله، والسير على هداه، والإستضاءة بنوره المنزل على عباده المرسلين.

والمعنى الثاني نبوة النسب، والإبن الذي هو قطعة من أبيه، وبضعة منه.

ولا شك عند كل ذي لب، وإيمان، وبصيرة، وتمييز بين الخالق، والمخلوق أن المعنى الثاني منتف عن الله سبحانه وتعالى، فليس بين الله وأحد من خلقه بنوة نسب قط، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإذا كانت هذه اللفظة: (ابن الله) دائرة في المعنى بين بنوة الشريف، والإيمان، والتقديس، والمحبة.. وبين بنوة النسب، والولادة، والجزئية، فتكون هذه اللفظة هنا من المتشابه الذي يجب أن يحمل على المحكم الذي لا يتغير معناه، واللفظ المحكم هو ما لا يكون معناه إلا واحداً، ولا يختلف أهل اللسان فيه، ولا أهل العقل حول حقيقة معناه.

ونحن نورد هنا عشرات من الأدلة من الإنجيل نفسه أن لفظ (ابن الله) الوارد في الأناجيل، وفي كتب رسل المسيح -عليه السلام- ما أريد بها إلا بنوة التشريف، والتقديس، والرفعة، والمحبة، وأنها لا تنتمي إلى بنوة النسب، والولادة بأي حال تعالى الله عما يقول الجاهلون الكافرون الضالون علواً كبيراً.

فقول إبليس المتكرر.. (إن كنت ابن الله) هو من هذا الباب. ومن ذلك قول عيسى لتلاميذه:- **(وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، ويضطهدونكم لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات)** (متى ٦/ ٤٥).

وقوله عليه السلام: **(فعندما تصلي فادخل غرفتك، وأغلق عليك بابك، وصل إلى أبيك الذي في الخفاء، وأبوك الذي يرى في الخفاء هو يكافئك)** (متى ٦/ ٧).

ومثل هذا كثير جداً من الكلام المنسوب إلى المسيح عليه السلام، وكله شاهد أنه كان يستعمل اسم (الأب) في التعبير عن الله بمعنىٰ المربي، والذي يكلأ عباده المؤمنين وليس بمعنىٰ أبوة النسب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٥- قول إبليس لعيسىٰ: "إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه قد كتب: يوصي ملائكته بك فيحملونك على أيديهم لكي لا تصطدم قدمك بحجر"!! فقال عيسى: (وقد كتب أيضاً: لا تجرب الرب إلهك)!! .

في هذا النص إقرار عيسىٰ لإبليس على النص السابق من كلام الله، وأنه هو المقصود به، وإذا كان هو المقصود بذلك، فكيف يكون هو ابن الله أو الله كما يدعون ويزعمون أن صفاته وأعماله هي صفات الرب وأعماله ثم يقال عنه: (يوصي ملائكته بك)!!

فهل يحتاج الإله الرب أن يُوَصَّىٰ عليه، وأن يكون الملائكة حفظٌ له، وحماية له ألَّا يصطدم قدمه بحجر!!، وهل يكون مَنْ يحتاج أن تحميه الملائكة من السقوط إلا عبداً محتاجاً ذليلاً فقيراً؟!!

٦- قول عيسىٰ - عليه السلام - رداً على إبليس وقد كتب أيضاً: **"لا تجرب الرب إلهك"!!**

فهذا من أعظم الأدلة على أن عيسى يعتقد أن الله سبحانه وتعالى هو ربه، وهو إلهه وأنه لا يَحْسُنُ به أن يجربه بمعنىٰ أن يطلب منه شيئاً لينظر أيقدر عليه أم لا؟ فإذا كان عيسى - عليه السلام - هو الله كما يزعمون فمن يُجَرِّبُ؟! هل يُجَرِّبُ أباه؟! فينظر أيحميه من الحجارة أم لا؟ أم يجرب نفسه فينظر هل يستطيع إذا قفز من فوق الهيكل أن يحمي نفسه من السقوط أم لا؟ تباً لعقول تقرأ ولا تفقه!!.

هل هناك أصرح من هذا الدليل في أن عيسىٰ - عليه السلام - يتبرأ من الحول، والقوة، ويجعل الله وحده هو صاحب الحول، والقوة، وأنه هو وحده ربه وإلهه.

٧- دعوة إبليس للمسيح -عليه السلام- أن يسجد له!! وقوله له بعد أن أراه من فوق جبل عال جداً جميع ممالك العالم، وعظمتها: **"أعطيك هذه كلها إذا جثوت، وسجدت لي"!** وقول عيسى عليه السلام رداً عليه: **(اذهب يا شيطان، وقد كُتِبَ: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد)** فيه من الأدلة علىٰ فساد معتقد النصارى في ألوهية المسيح وربوبيته الشيء الكثير فمن ذلك:-

أ- عرض إبليس عليه ممالك الدنيا، وإيراءه إيَّاها، واطلاعه عليها، ولو كان عيسىٰ هو الله، أو ابن الله لقال له: أنا مالكها، وخالقها، وهي لي، وتحت تصرفي؟ بل ما كان لإبليس أن يتجرأ أصلاً ليقول للإله، أعطيك هذه إن سجدت لي!!..

ب- عجباً أن يأمر إبليس خالق السماوات والأرض أن يسجدَ له!! ألا يستحي النصارى وهم يقرأون هذا الكلام!! ألا يستحون أن من يعتقدون فيه الألوهية، والربوبية أن يصحبه إبليس، ويعرض عليه السجود له مقابل أن يُملكه الدنيا.

ج- لو كان عيسى هو الله أو ابن الله لما كان رده علىٰ عرض إبليس هذا أن يقول: لا قد نزل في كتب الأنبياء السابقين: "**للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد**".

هل هناك أصرح من هذا في أن عيسىٰ دعا إلى عبادة الله خالق السماوات، والأرض، وأن عيسىٰ لا يعبد إلا الله، ولا يسجد إلا له سبحانه وتعالى.

يكفي هذا الدليل لكل من يريد بصيرة في الدين أن عيسى عليه السلام جاء ليقول كما قال الله عنه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

د- يأس الشيطان من عيسىٰ، وذهابه عنه، وعدم قدرته عليه حق لعصمة الله له تحقيقاً لقول امرأة عمران أم مريم عندما وضعت مريم: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، وليس من ذرية مريم إلا عيسى عبدالله ورسوله، وقد أعاذه الله الشيطان الرجيم صغيراً وكبيراً.

٨- وقول الإنجيل: "**فتركه إبليس، وإذا بعض الملائكة جاءوا إليه وأخذوا يخدمونه**" دليل جديد علىٰ عبودية المسيح، فالذي يحتاج إلى الخدمة هو العبد الفقير المحتاج، وهم جاءوه، ولم يستدعهم، وهذا مما يدل على أن الله أرسلهم إليه، وهم كانوا يخدمونه، ولم يأتوا ليعبدوه، والرب سبحانه وتعالى تعبده الملائكة، ولا تخدمه، لأنه الحي القيوم القائم بنفسه المقيم لغيره، فالملائكة تحتاجه، وهي فقيرة إليه، وأما هو فغني عن الجميع سبحانه وتعالى.

٢- عيسى عليه السلام يبشر في بلدته الناصرة التي تطرده وترفضه:

ذكر إنجيل لوقا أن عيسى عليه الصلاة والسلام بدأ (معموديته) علىٰ يد يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا عليهما السلام)، وأنه بينما كان يصلي

(هكذا) انفتحت السماء، وهبط عليه روح القدس متخذاً هيئةً جسميةً مثل حمامةٍ، وانطلق صوت من السماء يقول: "**أنت ابني الحبيب بك سُرِرْتُ كُلَّ سرور**" (لوقا ٣/ ٢١).

وبالرغم من أن هذا كله حكاية، وليس كلاماً منزلاً من الله سبحانه وتعالى كما نرىٰ، ولا هو مروي، أو منقول من قول عيسىٰ - عليه السلام -، ومعلوم أن لوقا كاتب هذا الإنجيل لم يكن أيضاً تلميذاً للمسيح عليه السلام..، بالرغم من كل هذا فإن هذا النص يدل دلالة قطعية علىٰ أن عيسىٰ لم يكن إلا رسولاً نزل عليه الوحي، وليس هو ابن الله نسباً، أو ذاتاً، أو أقنوماً كما ادعت النصارىٰ بعد ذلك، وهذه هي الأدلة:-

١- ذكره أن عيسىٰ تعمد.. والرب لا يَتَعَمَّدُ (أي يُؤَهَّلُ ليدخل في خدمة الله وعبادته) فكيف يَتَعمَّدُ الرَّبُ؟.. ألعبادة نفسه؟!! أم لعبادة أبيه؟! أم لعبادة ذاته؟!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

٢- قوله: (**بينما كان يصلي**)، والرب لا يصلي لأحد، لأنه هو المعبود سبحانه وتعالىٰ.

٣- قوله: (**هبط عليه روح القدس مثل حمامة**) يدل على أن روح القدس هذا هو الملاك الذي ينزل على الأنبياء، وليس أقنوماً، ولا جزءاً من الله كما ادعت النصارىٰ، وهذا إبطال لقولهم إن الله ثالث ثلاثة لأنه لو كان روح القدس الذي كان مثل حمامة جزءاً من الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ، وكان المسيح جزءاً آخر، وكان الله في السماوات جزءاً ثالثاً، كما تدعي النصارى لكان هذا من أبطل الباطل، لأنه ليس إلا ربٌّ واحد، تعالى أن يكون له جزء، كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

فكيف يدعي النصارىٰ - وهذه مقالتهم في الشرك، والتثليث - أنهم يؤمنون بوحدانية الله سبحانه وتعالىٰ؟!!

٤- لو فرضنا أن من روىٰ هذا الإنجيل سمع النداء الذي انطلق من

السماء يقول: (**أنت ابني الحبيب بك سُررْتُ كل سرور**). فإن هذا لا يعني بحال أن عيسىٰ بن مريم - عليه السلام - جزءٌ منه، تعالى الله سبحانه وتعالى عما يقولون المبطلون علواً كبيراً وإنما كما يطلقون علىٰ الله بأنه الأب فيقولون (**أبانا الذي في السماوات**)، وكما يذكرون أن عيسىٰ قال لهم مراراً: (**أبي، وأبيكم**) فلماذا لا يكون معنىٰ البنوة هنا بنوة الرحمة والتعليم والإرسال؟

وبعد هذا النص السابق

ساق الإنجيل هذا النص تحت عنوان:

الناصرة ترفض يسوع:

(وعاد يسوع إلى منطقة الجليل بقدرة الروح، وذاع صيته في القرىٰ المجاورة كلها، وكان يعلم في مجامع اليهود، والجميع يمجدونه، وجاء إلى الناصرة حيث كان قد نشأ، ودخل المجمع كعادته يوم السبت، ووقف ليقرأ، فقدم إليه كتاب النبي أشعياء، فلما فتحه وجد المكان الذي كتب فيه: "روح الرب علي، لأنه مسحني لأبشر الفقراء؛ أرسلني لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعميان بالبصر، لأطلق المسحوقين أحراراً، وأبشر بسنة القبول عند الرب". ثم طوى الكتاب وسلمه إلى الخادم، وجلس، وكانت جميع عيون الحاضرين في المجمع شاخصة إليه، فأخذ يخاطبهم قائلاً: "اليوم تم ما سمعتم من آيات..". وشهد له جميع الحاضرين، متعجبين من كلام النعمة الخارج من فمه، وتساءلوا: "أليس هذا ابن يوسف؟"، فقال لهم: "لا شك أنكم تقولون لي هذا المثل: أيها الطبيب اشف نفسك! فاصنع هنا في بلدتك ما سمعنا أنه جرى في كفر ناحوم.." ثم أضاف: "الحق أقول لكم: كان في إسرائيل أرامل كثيرات في زمان إيليا، حين أغلقت السماء ثلاث سنين وستة أشهر حتىٰ حدثت مجاعة عظيمة في الأرض كلها؛ ولكن إيليا لم يرسل إلى أية واحدة منهن بل إلى امرأة أرملة في صرفة صيدا، وكان في إسرائيل، في زمان النبي أليشع، كثيرون مصابون بالبرص؛ ولكن لم يطهر أي واحد منهم، بل نعمان السوري!" فامتلأ جميع من في المجمع غضباً لما سمعوا هذه الأمور، وقاموا يدفعونه إلى خارج

المدينة، وساقوه إلى حافة الجبل الذي بنيت عليه مدينتهم ليطرحوه إلى الأسفل، إلا أنه اجتاز من وسطهم، وانصرف) (لوقا ٤/ ١٤-٣٠).

وفي هذا النص من الأدلة على عبودية المسيح ما يأتي:

١- قوله: **(وعاد يسوع إلى منطقة الجليل بقدرة الروح)** فيه دليل أنه ليس الله أو ابن الله كما يدعون، وأن له قدرة إلهية من ذات، وهنا يقول بأنه عاد إلى الجليل بقدرة الروح أي أن الملك أعانه ليذهب إلى الجليل، ومن في حاجة إلى الملك لا يكون رباً ولا إلهاً، ولا خالقاً، ولا قادراً بنفسه.

٢- قول عيسىٰ - عليه السلام - لمن كان يعلمهم ويعظهم في مجمع الناصرة: **(اليوم تمَّ ما قد سمعتم من آيات)**، أي أنه تحقق وعد الله الذي جاء على لسان النبي أشعياء، والنص هو: **(روح الرب عليَّ، لأنه مسحني لأبشر الفقراء، وأرسلني لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعميان بالبصر، لأطلق المسجونين أحراراً، وأبشر بسنة القبول للرب)**..

هل هناك ما هو أصرح من هذا النص في أن عيسى هو رسول الله الذي بشرت به الأنبياء فالنص يقول: **(روح الرب عليَّ)**: أي وحي الله إلى طريق الله روح القدس وانظر فلم يقل روح الرب هي ذاتي، أو أقنومي، أو جزئي، أو نفسي، ومعنىٰ **(مسحني لأبشر الفقراء)**: أي جعلني مسيحياً، والمسيح سواء أريد به من يمسح بالزيت على عادة بني إسرائيل عندما يتنبأ منهم نبي، أو المسيح من المسح وهو المحو للشرك، والكفر، أو غير ذلك فالمعنىٰ علىٰ كل حال بمعنىٰ النبوة والرسالة وليس بمعنى الألوهية والربوبية.

ثم قوله: **(أرسلني لأُنادي للمأسورين بالإطلاق.. الخ)** دليل علىٰ أنه نبي مرسل، وليس هو الرب، أو ابنه النازل إلى البشر، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

٣- لقد كان رد أبناء بلده (الناصرة) على عيسى - عليه السلام - رداً في منتهى السوء، والقباحة، والإفك، فبدلاً من الاعتراف برسالته، ونبوته إذا بهم يسبونه في عرضه، ويتهمونه أنه (ابن زنا)!!!

حاشاه -عليه الصلاة والسلام- فيقول له هؤلاء المجرمون: (**أليس هذا ابن يوسف؟**) يوسف النجار الذي كما ذكر خطيباً لمريم -عليها السلام- قبل أن ينزل عليها ملاك الرب، ويبشرها بعيسى عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾..

وهؤلاء المجرمون من اليهود أبناء بلدته الذين جاءوا ليستمعوا إلى مواعظه في الهيكل ردوا عليه هذا الرد عندما قال لهم: (**إنه مسيح الرب الذي جاء ليفتح الله به آذاناً صماً، وقلوباً عمياً، ويفك أسر المأسورين من معاصيهم، والذين قيدهم الشيطان بخطاياهم، ويبشرهم بمغفرة الذنوب**) لقد كان ردهم على هذه الدعوة الكريمة أن قالوا: (**أليس هذا ابن يوسف؟**) متهمين إياه.. ولما قالوا له هذا القول الفاجر الآثم، وأنكروا عصمته، وعصمة أمه، وأنكروا نبوته بعد أن شاعت في كل بلدان اليهودية، عند ذلك ردّ عليهم قائلاً: (**لا كرامة لنبي في بلده**)!!، (ما من نبي يقبل في بلده)!! (لا يكون النبي بلا كرامة إلا في بلدته وبيته) (إنجيل متىٰ ١٣/ ٥٨) .

ثم بين لهم أن أهله، وأولىٰ الناس به من يقبلونه، ويؤمنون برسالته، وأخبرهم أن نبي الله إيليا لم يشفع وقت المجاعة إلا إلى أرملة غير إسرائيلية، وأن أليشع لم يشفع في شفاء مريض إلا مريضاً سورياً غير إسرائيلي..: (نعمان السوري)، وأخبرهم أن رحمة الله برسالة عيسىٰ قد لا تصيب إلا من هم خارج بني إسرائيل، وأن ما يمكن أن يجريه الله علىٰ يديه من خير قد يحوزه غير أبناء بلده (الناصرة) التي كفرت به!! ولما سمع أبناء بلده هذا الكلام كان من شأنهم أن أخرجوه منها، (**وساقوه إلىٰ حافة الجبل الذي بنيت عليه مدينتهم ليطرحوه إلى أسفل**).

وكل هذا النص شواهد أنه لم يقل إني إله، وإنما قال لهم فقط: **إنني نبي، ولا كرامة لنبي في بلده، فلماذا لم يقل لهم**: (أنا ربكم وخالقكم)..؟

وهل كان يليق بالرب أن يقول له أهل بلدته (هكذا)؟! أنت ابن زنا..

وهل ينزل الرب سبحانه وتعالى من السماء ليقول له البشر الذي خلقهم ورزقهم: (ألست ابن يوسف النجار؟).. **سبحانك ربنا لا إله إلا أنت أستغفرك، وأتوب إليك، وأعتذر لك حتى ترضى من ذكر هذا الكفر، وسبحانك لا أحد أصبر على أذى منك وحدك!!. يدّعون لك الولد، وأنت ترزقهم، وتعافيهم، لا إله إلا أنت، سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك!! وتعاليت عما يقول المجرمون الظالمون علواً كبيراً.**

٤- وهل ينزل الرب من عليائه سبحانه وتعالى ليقبض عليه أهل بلدته (هكذا)، ثم (**يدفعونه إلى خارج المدينة، ويسوقونه إلى حافة الجبل ليطرحوه**).. هل من يُفعل به هكذا يكون رباً إلهاً خالقاً للسماوات والأرض؟! وهل يليق بالرب ذلك؟!

٣- معجزات عيسى عليه السلام لا تدل إلا على أنه نبي مرسل مؤيد بالمعجزات:

لا يوجد في الأناجيل كلها رغم ما نالها من التحريف، والخطأ نص واحد يقول فيه عيسى عليه السلام أنه الله، أو أنه ابن الله بنوة نسب، وولادة، وجزء (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

أو أن ذاته ذات الله، وفعله فعله، أو أن مشيئته مساوية لمشيئة الرب، أو أنه خالق، أو رازق أو مصور، بل الموجود على العكس من ذلك تماماً، ولو كان عيسى إلهاً، ورباً، وخالقاً، ورازقاً كما يدعي الضالون لأظهر ذلك، وقاله إذ أن مثل ذلك هو الاعتقاد.. ألا نرى إلى قول الله سبحانه وتعالى في القرآن وهو يذكر عن نفسه جل وعلا أنه هو الخالق، والرازق، والبارئ، والمصور، والذي بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، وأن له كان صفات المجد، والألوهية، والربوبية لا ينازعه أحد، ولا يشاركه مشارك، وليس لأحد معه من الأمر شيء، بل لا يملك أحد من كل خلقه ملائكة، وإنساً، وجناً، لنفسه من أمره خيراً، ولا شراً إلا بمشيئة الرب الواحد سبحانه وتعالى.

وعيسى - عليه السلام - لم يَدَّع شيئاً من ذلك قط، ولا خلع على نفسه قط صفة من صفات الألوهية، والربوبية، بل تكلم بضد ذلك تماماً ذكر أنه عبد يصلي، ولا مشيئة له مع مشيئة من أرسله، وأظهر دائماً من الضعف، والعجز، والخوف، والتبرء من الحول، والطول ما يظهر لكل ذي عينين أنه عبدالله ورسوله، وليس ابن الله، أو الله، أو أن له شركة مع الله في شيء من صفاته قط، وعامة ما روته الأناجيل، وتمسك به الضالون في إدعاء ربوبية المسيح -عليه السلام- بعض المعجزات والبركات، والكرامات التي أظهرها الله على يديه كإحياء بعض الموتى، وشفاء من لهم آفات وعاهات دائمة يعجز الطب عنها، وإخراج بعض الأرواح الشريرة، والشياطين التي تتلبس بعض الناس، وقد أفاضت الأناجيل بخاصة في قضية تخليص بعض الناس التي تلبست بهم الشياطين، علماً بأن هذا الأمر يجري على يد أناس بسطاء من أمة محمد ﷺ بل ذُكر عن بعض سادة هذه الأمة الإسلامية كالإمام أحمد بن حنبل أن الشياطين كانت تخرج ممن تلبست به بمن يأمرها بإسمه دون أن يتكلف عناء الذهاب إلى المريض بنفسه، أو حتى نقله إليه، وهناك من أمة محمد ﷺ من أخرج آلافاً من هذه الشياطين من جسوم المرضى، والذين يؤذنهم، ويصرعونهم.. وأما إحياء الموتى فقد كان على يد كثير من الأنبياء قبل عيسى -عليه السلام- كما جاء في قتيل بني إسرائيل على عهد موسى، وطيور إبراهيم، وأما شفاء الأمراض المستعصية فهي معجزة لهذا النبي الكريم، وقد جاء وصفه في القرآن: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريَم: الآية ٣١] ، فعيسى رسول مبارك، ومن بركته ما أجرى الله على يديه من الخير والبركة للناس في الدنيا كشفاء من شفي من المرض، والخير والبركة في الآخرة كالدعوة إلى الإيمان، والتوحيد، وابتغاء ما عند الله سبحانه وتعالى.. وكل هذه المعجزات، والكرامات قد جرى أمثالها على يد كثير من الأنبياء، والمرسلين، وخيار الصالحين، ولا يعني مطلقاً أن فاعلها هو الرب الإله خالق السماوات والأرض.

وهذه نماذج مما جاء في الإنجيل عن معجزاته -عليه السلام- والبركات

التي أجراها الله على يديه:

أ- يسوع يطرد روحاً نجساً:

(ونزل إلى كفر ناحوم، وهي مدينة بمنطقة الجليل، وأخذ يعلم الشعب أيام السبت، فذهلوا من تعليمه، لأن كلمته كانت ذات سلطة، وكان في المجمع رجل يسكنه روح شيطان نجس، فصرخ بصوت عال: "**آه! ما شأنك بنا يا يسوع الناصري؟ أجئت لتهلكنا؟ أنا أعرف من أنت: أنت قدوس الله**". فزجره يسوع قائلاً: "**إخرس، واخرج منه**". وإذ طرحه الشيطان في الوسط، خرج منه، ولم يصبه بأذى، فاستولت الدهشة على الجميع، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم: "**أي كلمة هي هذه؟ فإنه بسلطة وبقدرة يأمر الأرواح النجسة فتخرج!**" وذاع صيته في كل مكان من المنطقة المجاورة) (ومثل هذا العمل يقوم به اليوم وأمس ألوف من أمة محمد ﷺ ولا يدعي لهم أحد نبوة، ولا ألوهية أو ربوبية).

ب- يسوع يشفي الله على يديه كثيرين:

(ثم غادر المجمع، ودخل بيت سمعان، وكانت حماة سمعان تعاني حمى شديدة، فطلبوا إليه إعانتها، فوقف بجانب فراشها، وزجر الحمى، فذهبت عنها، فوقفت في الحال، وأخذت تخدمهم، ولما غربت الشمس، أخذ جميع الذين كان عندهم مرضى مصابون بعلل مختلفة يُحْضِرُونهم إليه، فوضع يديه على كل واحد منهم، وشفاهم، وخرجت أيضاً شياطين من كثيرين، وهي تصرخ قائلة: "**أنت ابن الله**"، فكان يزجرهم، ولا يدعهم يتكلمون، إذ عرفوا أنه المسيح.

ولما طلع النهار خرج، وذهب إلى مكان مقفر، فبحثت الجموع عنه حتى وجدوه، وتمسكوا به لئلا يرحل عنهم، ولكنه قال لهم: "**لا بد لي من أن أبشر المدن الأخرى أيضاً بملكوت الله، لأني لهذا قد أرسلت**". ومضى يبشر في مجامع اليهودية) (لوقا ٤/ ٣١-٤٤).

ومن الأدلة في هذا النص على عبودية المسيح لله، وأنه رسول الله ما يأتي:

١- قول الشيطان لعيسى عليه السلام: **(ما شأنك بنا يا يسوع الناصري)**.. فقد نسبه إلى بلدته، وأقره عيسى على ذلك، ومثل هذا المنسوب إلى بلدة لا يكون إلهاً، ورباً، وخالقاً..

٢- قول الشيطان له: **(أنت قدوس الله)**، وإقرار عيسى لذلك، والمعنى أنت مقدس من قبل الله سبحانه وتعالى، ولا شك أن عيسى مقدس لأن الله سبحانه وتعالى قدَّسَه، وطهّره، وزكّاه، والذي يقدسه الله لا يكون هو الله.

٣- قول الشياطين له (أنت ابن الله) لا تعني أنه جزء منه، وأنه ولده نسباً وصهراً كما ذكرنا ذلك مراراً، وإنما هذا جار على عادتهم في استعمال هذا اللفظ.

٤- قال عيسى في النهاية: **(لا بد لي أن أبشر المدن الأخرى بملكوت الله لأني لهذا أُرسِلْتُ)** نص واضح جلي على أنه رسول مرسل من الله سبحانه وتعالى، وأنه لم يأت بنفسه.

٥- قول راوي الإنجيل **(ومضى يبشر في مجمع اليهودية)** أي أنه رسول إلى بني إسرائيل كما قال تعالى في القرآن عنه: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٩] .. الآية.

٤- الجميع يشهدون بأن عيسى عليه السلام نبي الله بعد أن رأوا معجزاته:

وهذا نص آخر يبين أن الشعب اليهودي الذي أُرْسِلَ إليهم عيسى - عليه السلام - شهد كثير منهم له بالنبوة بعد أن رأوا ما أجرى الله على يديه من المعجزات.

ج- يسوع يحيي ابن الأرملة:

"وفي اليوم التالي ذهب إلى مدينة اسمها نايين، يرافقه كثيرون من تلاميذه وجَمْعٌ عظيم، ولما اقترب من باب المدينة، إذا ميت محمول، وهو ابنٌ محمول، وهو ابنٌ وحيدٌ لأمِّهِ التي كانت أرملة، وكان معها جَمْعٌ كبير من المدينة، فلما رآها الرب، تحنَّن عليها، وقال لها: **"لا تبكي!"** ثم تقدم، ولمس النعش، فتوقف حاملوه، وقال: **"أيها الشاب لك أقول: قم!"** فجلس الميت، وبدأ يتكلم، فسلَّمه إلى أمه، فاستولى الخوف على الجميع، ومجَّدوا الله قائلين: **"قد قام فينا نبي عظيم وتفقد الله شعبه!"** وذاع هذا الخبر عنه في منطقة اليهودية كلها، وفي جميع النواحي المجاورة" (إنجيل لوقا ٧/ ١١-١٧).

الأدلة من هذا النص على أن عيسى عليه السلام هو رسول الله، وليس هو الله:

والشاهد في هذا النص أن عيسى - عليه السلام - بعدما أحيا الله على

يديه هذا الميت الذي يذكر إنجيل لوقا أنه ابنٌ وحيدٌ لامرأة أرملة أنَّ جميع الناس الحاضرين مجَّدوا الله قائلين:

(قد قام فينا نبي عظيم، وتفقد الله شعبه) ولست أرى أصرح من هذا الدليل على بشرية عيسى، وأنه عبد رسول، فإنه بعد أن أحيا هذا الميت استطاع جميع الحاضرين أن يفرقوا بين الله، وبين عيسى فمجدوا الله سبحانه وتعالى خالق السماوات، والأرض وشهدوا لعيسى عليه السلام بالنبوة، وشكروا الله إذ أرسل في بني إسرائيل نبياً، ويسمون أنفسهم شعب الله إذ أن الله (تفقده) أي اهتم به، ونظر إليه بعين رحمته، وأرسل فيهم نبياً جديداً، وانظر قول الإنجيل: **(قد قام فينا نبي عظيم، وتفقد الله شعبه).**

وانظر كيف أقرهم عيسى على هذا القول، وكيف ذاع خبر ذلك في كل مكان..، ولو كان عيسى هو الرب الإله الخالق المحيي المميت لقال للجمع: **(انظروا هكذا أحيي الموتى، فإني أنا الرب الإله)**، ولم يوافقه على قولهم: **"قد قام نبي عظيم وتفقد الله شعبه"**.

٥- الأناجيل تشهد جميعها أن عيسى عليه السلام كان رسولاً داعياً إلى الله:

من يقرأ الأناجيل المعتمدة من النصارى يجد أنها تشهد لعيسى أنه رسول الله الداعي إليه، ولو كان إلهاً، ورباً، وخالقاً للسماوات، والأرض كما يزعمون لما كان رسولاً داعياً إلى الله، بل كان داعياً لنفسه، أو قائلاً لهم: إنني أنا الله خالق السماوات والأرض أدعوكم أن تعبدوني، وتسجدوا لي، وتعظموني، وتسبحوا بحمدي، ولا يوجد قط في الأناجيل دعوة كهذه، بالنص، ولا بالمعنى، بل ليس فيها إلا أنه نبي رسول من الله، ومن ذلك:

١- ففي إنجيل متَّى: الفصل الرابع:

أ- بدء خدمة يسوع:

ولما سمع يسوع أنه قد أُلْقِيَ القبضُ على يوحنا، عاد إلى منطقة الجليل، وإذ ترك الناصرة، توجه إلى كفر ناحوم الواقعة على شاطئ البحيرة ضمن زبولون، ونفتاليم، وسكن فيها، ليتم ما قيل بلسان النبي إشعياء القائل: **"أرض زبولون، وأرض نفتاليم على طريق البحيرة ما وراء نهر الأردن، بلاد الجليل التي يسكنها الأجانب - الشعب الجالس في الظلمة، أبصر نوراً عظيماً، والجالسون في أرض الموت، وظلاله، أشرق عليهم نورٌ!"**.

من ذلك الحين بدأ يسوع يبشر قائلاً: **"توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات!"** (إنجيل متّى: الفصل الرابع).

الأدلة من هذا النص:

وهذا النص واضح في أن عيسى بدأ الخدمة هكذا، أي بدأ في العمل للدعوة إلى ربه سبحانه وتعالى ومولاه بعد أن سمع بالقبض على يحيى - عليه السلام - ويحيى هو المسمى عند النصارى (بيوحنا المعمدان)، وقول عيسى للناس الذين يدعوهم إلى الله: **"توبوا، فقد اقترب ملكوت السماوات"**، أي ارجعوا أيها الناس إلى الله فقد اقترب وعد الله بتمكين أهل الإيمان في الأرض، وهو ما يعبر عنه بملكوت السماوات، أو مملكة الله، ولا شك أن ذلك قد تحقق بحمد الله على يد النبي الخاتم محمد ﷺ الذي بعث الله نبيه عيسى مبشراً به كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الصف: الآية ٦)

ب- نماذج من كلمات عيسى عليه السلام في دعوته إلى الله:

وهذه نماذج من مواعظ عيسى عليه السلام، ودعوته كما جاء في إنجيل

متَّى: (طوبى للمساكين بالروح، فإن لهم ملكوت السماوات، طوبى للحزانى، فإنهم سيعزّون، طوبى للودعاء، فإنهم سيرثون الأرض، طوبى للجياع، والعطاش إلى البرِّ، فإنهم سيشبعون، طوبى لأنقياء القلب، فإنهم سيرون الله، طوبى لصانعي السلام، فإنهم سيُدعون أبناء الله، طوبى للمضطهدين من أجل البرِّ، فإن لهم ملكوت السماوات، طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدوكم، وقالوا فيكم من أجلي كل سوء كاذبين، افرحوا وتهللوا، فإن مكافأتكم في السماوات عظيمة، فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم!).

ج- ملح الأرض ونور العالم:

"أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح، فماذا يعيد إليه ملوحته؟ إنه لا يعود يصلح لشيء إلا لأن يطرح خارجاً ليدوسه الناس!

أنتم نور العالم، لا يمكن أن تُخفى مدينة مبنية على جبل؛ ولا يضيء الناس مصباحاً ثم يضعونه تحت مكيال، بل يضعونه في مكان مرتفع ليضيء لجميع من في البيت هكذا، فليضيء نوركم أمام الناس، ليَرْوا أعمالكم الحسنة ويُمَجِّدوا أباكم الذي في السماوات".

د- موقف المسيح من الشريعة:

ولا تظنوا أني جئتُ لألغي الشريعة، أو الأنبياء، ما جئت لألغي بل لأكمل، فالحق أقول لكم: "إلى أن تزول الأرض والسماء، لن يزول حرف واحد، أو نقطة واحدة من الشريعة، حتى يتم كل شيء يا من خالف واحدة من هذه الوصايا الصغرى، وعلم الناس أن يفعلوا فعله، يدعى الأصغر في ملكوت السماوات، وأما من عمل بها، وعلمها، فيدعى عظيماً في ملكوت السماوات"، فإني أقول لكم: "إن لم يزد بِرُّكم على برَّ الكتبة الفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات أبداً" (إنجيل متّى الفصل الخامس).

وفي هذه النصوص دليل واضح على أن عيسى -عليه السلام- عندما كان يدعو تلاميذه، ويعلمهم لم يكن يدعوهم إلا على أنه رسول من الله -سبحانه

وتعالى- يدعوهم إلى توحيد الله، وعبادته، انظر إلى قوله لهم: (**هكذا فليضيء نوركم أمام الناس ليروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات**).

فها أنت ترى هنا أنه يدعوهم إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة، والصفات الكريمة ليكونوا شامة في الناس، وعلامة مضيئة لهم، وأن الناس إذا رأوا أن من انتسب إلى الدين كان صالحاً باراً فإنهم بسبب هذا يتوجهون إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذي في السماء، ولو كان عيسى - عليه السلام - إلهاً، ورباً، أو ابناً للإله، والرب لكان قال لهم: (**إني آمركم بما آمركم به لأُعبد، ولأُمجَّد وأُعظَّم**)، وقد عبَّر عيسى - عليه السلام - هنا عن الرب سبحانه وتعالى بأنه (أبوهم) الذي في السماء وقد كان سائغاً في لغتهم تسمية الرب الإله الخالق بالأب على أنه هو المربي وهو الذي يرعى عباده الصالحين، وقد تكرر من عيسى عليه السلام القول أن الله سبحانه وتعالى هو أبوه، وأبوهم كما علم تلاميذه أن يقولوا في صلاتهم:

"**أبانا الذي في السماء، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك..**".

وبالتالي فَحَمْلُ ما جاء عن عيسى - عليه السلام - باسم الأب أنه يعني - كما يقول الظالمون - أبوة النسب، وأن عيسى - عليه السلام - إله من جوهر أبيه، وأن ذاته هي ذات الرب - حَمْلُهُم خطأ كبير وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -.. وهذه النصوص من الإنجيل الذي يؤمنون به، ويعترفون به شاهدة عليهم أن عيسى - عليه السلام - لم يكن إلا عبداً مربوباً مخلوقاً فقيراً عاجزاً نبياً رسولاً يدعوا إلى تمجيد إلهه، ومولاه خالق السماوات، والأرض.

٢- قول عيسى - عليه السلام - لتلاميذه إنهم إذا تخلقوا بالأخلاق الكريمة، وصبروا على الجوع، والعطش كانوا رحماء، كرماء، أنقياء القلب، صانعين للسلام، مُضطَّهدين في الله ولله، قال عيسى عن هؤلاء: "**طوبى لصانعي السلام، فإنهم سيدعون أبناء الله**"، "**طوبى لأنقياء القلب، فإنهم سيرون الله**"..

هذه نصوص صريحة واضحة أنه ما عنى بأبناء الله إلا بنوة التحنن، والتربية، والرحمة، والرعاية، وليست بنوة النسب، والجزء..

وقوله: (**طوبى لأنقياء القلب فإنهم سيرون الله**) تبشير بأن أهل الإيمان يرون ربهم يوم القيامة، وهو ما جاء به كذلك النبي الخاتم ﷺ..

ولو كان عيسى - عليه السلام - إلهاً كما يزعم الضالون لما كان لقوله إن أنقياء القلب سيرون الله!! كيف سيرونه وهو معهم يأكل، ويشرب، وينام!!، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقول عيسى - عليه السلام - لهم كما جاء في الإنجيل: "**افرحوا، وتهللوا فإن مكافأتكم في السماء عظيمة، فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء قبلكم**".. دليل على أن المكافئ، والمجازي هو الله، وأن الجزاء لا يكون إلا عنده يوم القيامة، ولو كان عيسى - عليه السلام - هو الله لقال لهم: "**سأكافئكم وأجازيكم وأفعل بكم وأفعل**".. ولكنه رد الأمر إلى خالق السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

٣- قول عيسى عليه السلام: (لا تظنوا أني جئت لألغي الشريعة، أو الأنبياء، ما جئت لألغي بل لأكمل).

هذا نص جَليّ واضح لكل ذي عينين أن عيسى - عليه السلام - رسول قد خلت من قبله الرسل، وأنه واحد من سِلكِهم، وليس رباً، أو إلهاً لهم، أرسلهم إلى الناس كما يزعمون، وأنه ما جاء عليه السلام إلا ليعمل بالشريعة التي سبقته وهي شريعة موسى - عليه السلام - ويكمل ما بناه الأنبياء قبله، وقد جاء تصديق ذلك في القرآن الكريم كما قال سبحانه وتعالى عن عيسى - عليه السلام- أنه قال لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران: ٥٠، ٥١).

فعيسى - عليه السلام - لم يكن إلا نبياً رسولاً جاء للعمل بشريعة موسى

- عليه السلام - ولم يُلْغِها، وإنما جاء ليكملها بتحليل بعض ما حرَّم الله على بني إسرائيل، وجاء ليدعو بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويجدد لهم ما اندرس من دينهم، ويبعث فيهم جذوة الإيمان التي انطفأت بظلمهم وعُتوهم، وتحريفهم كلام الله سبحانه وتعالى..

ولو كان عيسى - عليه السلام - إلهاً ورباً كما يدعي الضالون ما كان ليصح بتاتاً أن يقول لهم: **(ما جئت لألغي بل لأكمل)**!!، يكمل ماذا؟!

فلا شك أنه - عليه السلام - حلقة في سلسلة الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - وليس رباً إلهاً كما يدعي الظالمون المشركون الحائدون عن تعاليمه، ودينه عليه الصلاة والسلام.

٦- عيسى عليه السلام يخبر أنه نبي رسول ويبين حقيقة يحيى عليه السلام (يوحنا المعمدان) وأنه هو (إيليا) المبشر به في التوراة:

جاء في الفصل الحادي عشر في إنجيل (مَتَّى) النص الآتي:

يسوع ويوحنا المعمدان:

بعدما انتهى يسوع من توصية تلاميذه الإثني عشر، انتقل من هناك، وذهب يُعلم ويُبَشِّر في مدنهم، ولما سمع يوحنا، وهو في السجن، بأعمال المسيح، أرسل إليه بعض تلاميذه، يسأله: **"أأنت هو الآتي، أم ننتظر غيرك؟"** فأجابهم يسوع قائلاً: **"اذهبوا أخبروا يوحنا بما تسمعون وترون: العمي يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يُطهَّرون، والصمُّ يسمعون، والموتى يُقامون، والمساكين يُبشرون، وطوبى لمن لا يشك في!"**.

وما أن انصرف تلاميذ يوحنا، حتى أخذ يسوع يتحدث إلى الجموع عن يوحنا: **"ماذا خرجتم إلى البرِّية لتروا؟ أقصبةً تهزها الرياحُ»**؟

بل ماذا خرجتم لتروا: أإنساناً يلبس ثياباً ناعمة؟ ها إن لابسي الثياب الناعمة في قصور الملوك! إذن، ماذا خرجتم لتروا؟ أنبياً؟ نعم، أقول لكم،

وأعظم من نبي، فهذا هو الذي كُتِبَ عنه: ها إني مرسل قدامك رسولي الذي يمهد لك طريقك! الحق أقول لكم: إنه لم يظهر بين من ولدتهم النساء أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه! فمنذ أن بدأ يوحنا المعمدان خدمته، وملكوت السماوات معرض للعنف؛ والعنفاء يختطفونه! فإن الشريعة والأنبياء تنبأوا جميعاً حتى ظهور يوحنا، وإن شئتم أن تصدقوا فإن يوحنا هذا، هو إيليا الذي كان رجوعه منتظراً، ومن له أذنان فليسمع!"

"**ولكن بمن أشبه هذا الجيل؟ إنهم يشبهون أولاداً جالسين في الساحات العامة، ينادون أصحابهم قائلين: زَمَّرْنا لكم، فلم ترْقُصوا! ونَدَبْنا لكم فلم تَنْتَحِبوا! فقد جاء يوحنا لا يأكل، ولا يشرب، فقالوا إن شيطاناً يسكنه! ثم جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فقالوا: هذا رجل شَرهٌ، وسكير صديق لجباة الضرائب، والخاطئين، ولكن الحكمة قد بررها أبناؤها**" (إنجيل متّى ١١/ ١-٢٠).

وفي هذا النص من الأدلة على بشرية عيسى - عليه السلام - وأنه عبدالله ورسوله، وأنه لم يكن رباً، وإلهاً وأن هذا يتناقض تماماً مع ما دعا إليه ما يأتي:

١- قول كاتب الإنجيل (**بعدما انتهى يسوع من توصية تلاميذه**) ولم يقل عبيده، بل هم تلاميذه، ومعنى ذلك أنه ليس إلا أستاذاً ومعلماً ورسولاً ونبياً، فالرب الخالق - سبحانه وتعالى - لا يقال لمن يعلمهم تلاميذه.

٢- سؤال يحيى (يوحنا المعمدان) وإرساله، وهو في السجن من يسأل عيسى - عليه السلام - (**أأنت هو الآتي، أم ننتظر غيرك؟**) يدل على أن عيسى - عليه السلام - نبي مرسل، وهو المسيح المبشر به في التوراة، ولا يوجد نص واحد في التوراة يقول إن الله سيأتي بنفسه إلى أهل الأرض، أو سيرسل ولده إليهم،.. ولو كان شيئاً من ذلك لأخبر الله عنه في الرسالات السابقة، وخاصة في بني إسرائيل الذي أرسل عيسى منهم، وإليهم كما قال تعالى في القرآن الكريم عنه: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٩] .

فكيف لم يخبرهم الله -عز وجل- على لسان موسى والأنبياء -عليهم

السلام- الكثيرين منهم قبله وبعده أنه سيرسل إليهم إبنه أو نفسه وأن هذا الإبن سيكون منسوباً إلى بني إسرائيل من نسل داود إنساناً، وإلى الله سبحانه وتعالى روحاً، ونفساً، وذاتاً كما يدَّعون، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٣- إشادة عيسى بن مريم - عليه السلام - بيحيى - عليه السلام - وبيان أنه لا يختلف مع يحيى إلا في الأسلوب، فقد كان يحيى -عليه السلام- آخذاً بالحزم، والتقشف كما جاء في الإنجيل من أنه كان لا يلبس إلا ثوباً من وبر الجمال، ويشد وسطه بحزام من جلد، ولا يأكل إلا من البرية الجراد، والعسل البري (متّى ٣/ ٥) وأخذ نفسه بذلك.

وبالبعد عن مخالطة العصاة، وتشديد النكير عليهم، وأما عيسى - عليه السلام - فقد جاء باللين، والرحمة معهم، ومحاولة استمالتهم بالتي هي أحسن إخراجاً لهم من المعصية، ودعوة لهم بالخير، وكان يأكل مع العصاة، ويشرب معهم، ويجالسهم، وقد ضرب عيسى عليه السلام له وليحيى مثلاً - في عدم قبول بني إسرائيل لهما بالرغم من تنوع أسلوبيهما في الدعوة - بأولاد جالسين في الساحات العامة ثم جاءهم أصحاب لهم زمروا لهم فلم يطربوا، ونَدَبوا فلم ينْتَحبوا!!.

قال عيسى عليه السلام كما جاء في الإنجيل: **"جاء يوحنا لا يأكل، ولا يشرب" فقالوا: (إن شيطاناً يسكنه!! وجاء ابن الإنسان)** (وهو عيسى بن مريم)، وكان دائماً يسمي نفسه ابن الإنسان ليثبت لهم دائماً بشريته، وأنه إنسان، وليس إلهاً، وذلك كما كان كل نبي يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: الآية ١١٠] .. قال عيسى: **(وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب - أي مع العصاة والخاطئين - فقالوا هذا رجل سِكِّيرٌ وشره، صديقٌ لجباة الضرائب والخاطئين).**

وَوَصْفُ عيسى - عليه السلام - نفسَه بذلك دليل واضح، وصريح على أنه رسولٌ من الله شأنه شأن يحيى - عليه السلام -، ولا اختلاف بينهم إلا في أسلوب الدعوة إلى الله، وهل يهجر العصاة، ويشدد عليهم زجراً لهم أم يتلطف معهم ويدعوهم بالحُسنى لاستمالتهم إلى الحق؟..

فهل من يقول هذا الكلام قد قام في نفسه مجرد ظن أنه هو الله أو إبنه نزل يدعو الناس إلى عبادة نفسه؟

٤- أجاب عيسى - عليه السلام - تلاميذ يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) بأن ينظروا ما أجراه الله على يديه من الأعمال العظيمة: "**فالعُمْيُ يُبْصرون، والعُرْجُ يمشون، والبُرْصُ يَطَّهرون، والصُّمُ يسمعون، والمَوْتى يُقامُون، والمساكين يُبَشَّرون**".

وكل هذه من المعجزات التي أيده الله بها والتي مضى مثلها في الرسل قبله، وجاء أعظم منها على يد محمد بن عبدالله - عليه الصلاة والسلام - بعده، وقد استدل عيسى بهذه الآيات على أنه فِعْلاً هو المسيح المبشر به في التوراة وذلك جواباً على سؤال يحيى.

فالذي بشرت به التوراة كما أسلفنا هو المسيح الذي يمهد الأرض أمام النبي الخاتم محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، ولم تبشر التوراة، وأي كتاب من السماء قط بأن الله ينزل بنفسه من فوق سبع سماواته ليكون بشراً يمشي في الأرض، ويخاطب الناس، ويدعوهم، ويأكل، ويشرب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فضلاً أن يُكذِّب، ويهان ويصفع على قفاه، ويُعلق على خشبة الصلب، ويبصق في وجهه، تعالى الله أن يمكن أعداءه من رسولٍ، وتعالى الله في ذاته أن يكون محلاً لكل هذه النقائص..

٥- قارن عيسى - عليه السلام - بين نفسه وبين يحيى - عليه السلام - بأن عيسى هو الأصغر ولكنه الأعظم في ملكوت الله حيث قال: (**إني أقول لكم: إنه ليس بين من ولدتهم النساء أعظم من يوحنا، ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه**) (لوقا ٧/ ٢٩).

وأنت ترى هنا أن عيسى -عليه السلام- قد قارن بين نفسه وبين يحيى - عليه السلام- مقارنة بشر ببشر، ونبي بنبي، ولا شك أن يحيى - عليه السلام - عظيم كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم: الآية ٧] ولكن عيسى - عليه السلام - أعظم

منه، والصِّغَرُ هنا صغر السن، ومثل هذه المقارنة ما كانت لتُعْقَدَ لو أن عيسى - عليه السلام - كان إلهاً، ويحيى - عليه السلام - كان بشراً نبياً، لأنه لا مقارنة بين الله، وخلقه، ولو كان عيسى موجوداً قبل الخلق كله كما يزعم النصارى ما قال عن نفسه ويحيى **(ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه)**!!.

فهل يرى النصارى هذه الآيات من الإنجيل الدالة على كذب ما قالوا في عيسى وأنه لم يكن إلا بشراً رسولاً عليه وعلى كل رسل الله الصلاة والسلام.

٦- قول عيسى - عليه السلام - **(كل من يعترف بي أمام الناس أعترف أنا أيضاً به أمام أبي الذي في السماوات)**.

هو بمعنى من يؤمن بي هنا في الدنيا أشهد له بالإيمان أمام الله يوم القيامة، وهذا معنى قول الله تعالى في القرآن:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۞ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

فكل رسول شاهد وشهيد على قومه يوم القيامة، سيشهد لمن أطاعه بالجنة، ولمن عصاه بالنار، وعيسى - عليه السلام - يستشهد الله - عز وجل - على قومه، فيشهد على من كان معه كما قال تعالى حاكياً عنه:

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

٧- قول عيسى - عليه السلام - **(ما جئت لأرسي سلاماً على الأرض بل سيفاً.. فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، والكُنَّة مع حماتها.. الخ)** هو معنى قول الرسل جميعاً أنهم جاءوا للتفريق بين أهل الإيمان، وأهل الكفران، وبين الحق ومن اتبعه والباطل ومن اتبعه كما قال تعالى عن صالح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ وكما قال سبحانه وتعالى عن حال الناس مع كل رسول أنهم يفترقون إلى مؤمن وكافر، وأن أهل الإيمان يجب عليهم أن يوالي بعضهم

بعضاً في الله دون موالاة النسب مع الكفر، فلا ولاية للكافر وإن كان أباً، أو أخاً، أو زوجاً، أو ما كان من القرابة..

فعيسى - عليه السلام - رسول شأنه شأن جميع الرسل الذين جاءوا بدعوتهم، ففرقوا بين أهل الإيمان، وأهل الكفر، ووقعت الخصومة، والحرب حتى بين أبناء الرجل الواحد.

٧- عيسى عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له:

(وفي إنجيل مرقص ١٢/٢٨-٣٥)

الوصية العظمى:

(وتقدم إليه واحد من الكتبة كان قد سمعهم يتجادلون، ورأى أنه أحسن الرد عليهم، فسأله: "أيةُ وصية هي أولى الوصايا جميعاً؟" فأجابه يسوع: **"أولى الوصايا جميعاً هي اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحدٌ، فأحِبَّ الربَّ إلهك بكل قلبك، وبكل نفسك، وبكل فكرك، وبكل قوتك، هذه هي الوصية الأولى، وهناك ثانية مثلها، وهي: أن تحب قريبك كنفسك، فما من وصية أخرى أعظم من هاتين". فقال له: "صحيح يا معلم! حسب الحقِّ تكلمت، فإن الله واحدٌ، وليس آخر سواه، ومحبته بكل القلب، وبكل الفهم، وبكل القوة، ومحبة القريب كالنفس، أفضل من جميع المخلوقات، والذبائح!".**

فلما رأى يسوع أنه أجاب بحكمة، قال له: **"لست بعيداً عن ملكوت الله!"** ولم يجرؤ أحد بعد ذلك أن يوجه إليه أي سؤال) (مرقص ١٢/٢٨-٣٥).

وفي هذا النص من الأدلة على أن عيسى - عليه السلام - دعا إلى توحيد الله وعبادته ما يأتي:-

١- جوابه في أن أولى الوصايا هي ما جاء في التوراة من أن الله سبحانه وتعالى إله واحد: **"اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد"**.

وهذا موافق تماماً لما جاء في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٣]، وكذلك من وجوب محبته سبحانه وتعالى فوق كل محبوب كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥] الآيات.

٢- إقرار السائل أن التوحيد هو أعظم الوصايا، وقوله له أجبت بالحق، ولست بعيداً عن ملكوت الله، أي الدخول إلى الجنة، والحياة الأخرى الأبدية.

فكيف يكون عيسى - عليه السلام - دعا بعد ذلك إلى عبادة نفسه، أو أمه! حاشاه، بل هو رسول كريم دعا كإخوانه من الرسل إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

٨- عيسى عليه السلام يدعو ربه خالق السموات والأرض:

في إنجيل متّى: ١٢

جاء أن عيسى -عليه السلام- بعد أن وعظ الناس بموعظة بليغة في الهيكل، وحَذَّر اليهود، من أن عقوبة الله ستحل بهم قريباً في مدن صور، وصيدا، وكفر ناحوم، وأنه سيكون لها مثل ما صار لقرى لوط سدوم، وعمورة.

قال عيسى بعد ذلك:

راحة للتعابى:

"أحمدك أيها الآب، رب السماء والأرض، لأنك حجبت هذه الأمور عن الحكماء والفقهاء، وكشفتها للأطفال! نعم أيها الآب، لأنه هكذا حَسُنَ في نظرك. كل شيء قد سلمه إليَّ أبي، ولا أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الأب إلا الإبن، ومن أراد الإبن أن يعلنه له.

تعالوا إليَّ يا جميع المُتْعَبين، والرازحين تحت الأحمال الثقيلة، وأنا أريحُكم، إحملوا نيري عليكم، وتتلْمذوا على يديّ، لأني وديع متواضع

القلب، فتجدوا الراحة لنفوسكم، فإن نيري هينٌ، وحملي خفيف!" (متّى:١٢/ ٢٦-٣٠).

وفي هذا النص من دلائل عبودية المسيح - عليه السلام - ما يلي:

١- توجهه بالحمد إلى خالق السماوات والأرض -سبحانه وتعالى-، ولو كان هو الله لحمد نفسه، وأثنى على ذاته.

٢- جعله شرح صدور الأطفال والصغار إلى الدين الحق، وحجب هذا عن رؤساء اليهود، وعظماء ديانتهم، وأن هذه مشيئة الله سبحانه وتعالى **(لأنه هكذا حَسُنَ في نظرك)** وهذا شبيه بما جاء في القرآن الكريم من أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأنه هدى لنوره كثيراً ممن لم يكن يؤبه بهم كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٣- وأما قول عيسى كما جاء في الإنجيل: **(كل شيء قد سلمه لي أبي..)** فمعناه أن الطريق إلى الله في وقت عيسى لا يكون إلا باتباعه، ولا يجوز أن يُفْهَمَ منه أن الله قد سلَّمَهُ مقاليد السماوات والأرض، وإدخال الجنة، والنجاة من النار بدليل أن الهداية بيد الله، وأنه قد وفق لها من شاء من عباده كما جاء: **(لأنه هكذا حسن في نظرك)**، ولأنْ عيسى في كل أمر كان يَفْزَعُ إلى الله، ويدعوه، فقد دعاه، وألحّ عليه أن يصرف عنه كأس الموت بعد أن علم بتآمر اليهود عليه لقتله، وقد دعاه من أجل تلاميذه، وأدعية عيسى -عليه السلام- وطلبه من الله في الإنجيل كثيرة..

وإنما معنى قوله: **(كل شيء قد سلمه لي أبي)** هو ما قلناه، وهذا من باب ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٣١] ، فالهداية في وقت عيسى - عليه السلام - لا تكون إلا باتباعه لأنه الرسول المرسَل في وقته، ولا يجوز لهم إلا اتباعه، والكفر به كفر بالله.

وكذلك الحال بعد بعثة محمد ﷺ فالإسلام الحق، والدين المقبول عند الله لا يكون إلا باتباعه لأنه الرسول المرسل إلى الجميع: إلى اليهود،

والنصارى، والمشركين، وكل الملل والطوائف، والأجناس لا قبول لأحد عند الله إلا باتباعه، وطاعته ﷺ.

٤- وصف عيسى - عليه السلام - لنفسه هنا بأنه وديعٌ، ومتواضع، القلب، وصفٌ لائقٌ بالعبد، وأما الرَّب سبحانه وتعالى فهو متصفٌ بالرحمة، ومعها الجبروت، وبالحلم ومعه الشدة، والمؤاخذة كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، قاله، - سبحانه وتعالى - هو الرب الرحيم الودود، وهو كذلك الجبار المتكبر القوي ذو القوة المتين، شديد العقاب، ذو الطَّوْلِ لا إله إلا هو إليه المصير، وأما صفات الرحمة، والوداعة وحدها فهي لائقة بالعبد، وعيسى - عليه السلام - لم يكن إلا عبداً لله سبحانه، وتعالى ولذلك لم يصف نفسه دائماً إلا بالرِّقَّة، والوداعة، والضعف، والإنكسار..

٩- عيسى عليه السلام يشهد أنه رسول من عند الإله الواحد سبحانه وتعالى:

جاء في الأناجيل أن عيسى - عليه السلام - كان دائماً يُذَكِّرُ تلاميذه أنه رسول الله إليهم، وأن الإله وحده هو الله سبحانه وتعالى، وأن عيسى - عليه السلام - ليس إلا مجرد رسول تفَضَّل الله عليه بكل ما أعطاه، وهذه بعض النصوص في هذا الصدد.

في إنجيل يوحنا ٨/ ٣٢-٤٨:

وفي معرض جدال عيسى لليهود الذي آمن بعضهم به، وكفر بعضهم، كما قال تعالى في القرآن: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾، قال عيسى -عليه السلام- للذين آمنوا به من اليهود: "**إن ثَبَتُّمْ في كلمتي، كنتم حقاً تلاميذي، وتعرفون الحق، والحق يحرركم**". فرد اليهود: "**نحن أحفاد إبراهيم، ولم نكن قط عبيداً لأحد! كيف تقول لنا: إنكم ستصيرون أحراراً؟**" **أجابهم يسوع**: "**الحقّ الحقّ أقول لكم: إن من يرتكب الخطيئة يكون عبداً لها، والعبد لا**

يبقى في بيت سيده دائماً: أما الابن فيعيش فيه أبداً، فإن حرركم الابن تصيرون بالحق أحراراً، أنا أعرف أنكم أحفاد إبراهيم، ولكنكم تسعون إلى قتلي، لأن كلمتي لا تجد لها مكاناً في قلوبكم، إني أتكلم بما رأيته عند الأب، وأنتم تعملون ما سمعتم من أبيكم". فاعترضوه قائلين: "أبونا هو إبراهيم!" فقال: "لو كنتم أولاد إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم، ولكنكم تسعون إلى قتلي وأنا إنسان كلَّمْتَكُم بالحق الذي سمعتُه من الله، وهذا لم يفعله إبراهيم، أنتم تعملون أعمال أبيكم!" فقالوا له: "نحن لم نولد من زنا! لنا أب واحد هو الله"، فقال يسوع: "لو كان الله أباكم لكنتم تحبُّونني، لأني خرجت من الله وجئت، ولم آت من نفسي، بل هو الذي أرسلني، لماذا لا تفهمون كلامي لأنكم لا تطيقون سماع كلمتي! إنكم أولاد أبيكم إبليس، وشهوات أبيكم ترغبون في أن تعملوا.. فهو من البدء كان قاتلاً للناس، ولم يثبت في الحق لأنه خالٍ من الحق، وعندما ينطق بالكذب فهو ينضح بما فيه، لأنه كذّابٌ، وأبو الكذب! أما أنا فلأني أقول الحق لستم تصدقونني، من منكم يثبت على خطيئةً؟ فما دمت أقول الحق، فلماذا لا تصدّقونني؟ من كان من الله حقاً، يسمع كلام الله، ولكنكم ترفضون كلام الله، لأنكم لستم من الله!" أ.هـ (إنجيل يوحنا ٨/ ٣١-٤٢).

أ- فانظر إلى ما نسبه يوحنا إلى المسيح - عليه السلام - هنا: (**لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجت من الله وجئت، لم آت من نفسي، بل هو الذي أرسلني**) واليهود دائماً كانوا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، كما قال تعالى في القرآن عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (المائدة: الآية ١٨).

وقد رد المسيح على قولهم أنهم أبناء الله فقال لهم لو كنتم أبناء الله حقاً كما تدعون لآمنتم بي لأني خرجت من عند الله، أي أن الله هو الذي أخرجه وأرسله، قال عيسى: (**لم آت من نفسي بل هو الذي أرسلني**) وهذا نص في أنه مجرد رسول أرسله الله تعالى، وليس إلهاً كما تدعي النصارى وكفرت به، أن

جوهره من جوهر الرب، تعالى الله عن ذلك.

ب- وفي هذا النص مما يوافق ما جاء في القرآن العزيز سعي اليهود - عليهم لعنة الله - في قتل عيسى بن مريم - عليه السلام - ولذلك قال لهم عيسى هنا (**لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم، ولكنكم تسعون إلى قتلي وأنا إنسان كلَّمتكم بالحق الذي سمعته من الله**) فاحتج عيسى - عليه السلام - وأبطل مدعاهم في بنوتهم لإبراهيم أنهم لو كانوا أبناءه حقاً. بنوة إيمان ومتابعة له لعملوا مثل عمله في الإيمان والعمل الصالح، وَلَما سعْوا في قتل عيسى بن مريم الذي هو رسول الله يدعو إلى الإيمان والعمل الصالح كما كان إبراهيم كذلك.. ولكنهم كما قال عيسى أبناء الشيطان لعملهم مثل عمله.

وهذا يدلك على أن إطلاق لفظ الابن في لغتهم تطلق على بنوة النسب، وبنوة الطاعة، فسائغ في لغتهم أن يطلق على المطيع لأمره الله ابن الله، والمطيع للشيطان ابن الشيطان ، ولا شك أن عيسى -عليه السلام- يعلم يقيناً أن اليهود هم من نسل إبراهيم فهم أولاد إسحاق، وإسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ونفيه هنا أن يكونوا أبناء إبراهيم ليس نفي بنوة النسب وإنما نفي بنوة الطاعة والإتباع والمحبة على ما هو جار في لغتهم.

ج- وقول عيسى - عليه السلام - (**لأني خرجت من الله وجئت**) ليس كما ادعت النصارى أنه مولود من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فالإله الواحد سبحانه وتعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ وإنما هذا كقوله - عليه السلام - أيضاً (**من كان من الله حقاً يسمع كلام الله، ولكنكم ترفضون كلام الله لأنكم لستم من الله**).

د- وفي هذا النص مما يوافق القرآن الكريم في اتهام اليهود - عليهم لعنة الله - لعيسى - عليه السلام - أنه ابن زنا كما قال تعالى عنهم في القرآن الكريم: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٥٦] .

وفي هذا النص يقولون لعيسى عليه السلام مُعَرّضين به (**نحن لم نولد من زنا!! لنا أب واحد هو الله**)، وهذا تعريض بعيسى - عليه السلام - واتهام له

ولأمه برأها الله وشَرَّفَها..

هـ- في النص قال عيسى - عليه السلام -: **(لم آت من نفسي بل هو الذي أرسلني)** وهذا يثبت أن عيسى - عليه السلام - رسول الله، وليس هو الله أو أن له مشيئة مع الله وقد تكرر ورود مثل هذا النص كثيراً في الأناجيل:

١- **(ولكن الذي أرسلني هو الحق، وما أقوله للعالم هو ما سمعته منه)** (يوحنا ٨/ ٢٧).

٢- **(إن الذي أرسلني هو معي، ولم يتركني وحدي لأني دوماً أعمل ما يرضيه)** (يوحنا ٨/ ٣٠).

وهذا نص واضح في عبودية عيسى - عليه السلام -، وخضوعه لإرادة الله، وتعبده بما يرضي الرب تبارك وتعالى، ولو كان إلهاً مع الله بمشيئة مستقلة كما تدعي النصارى لما كان يقول **(ودائماً أعمل ما يرضيه)**، وأما معية الله لعيسى فهي كائنة لكل مؤمن يتقي الله سبحانه وتعالى، ومعية الله للأنبياء - عليهم السلام - عظيمة لأن الله يرعاهم ويصنعهم على عينه كما قال تعالى لموسى - عليه السلام - لما أرسله إلى فرعون:

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: الآية ٤٦] . وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النّحل: الآية ١٢٨] .

ومعية الله مع المؤمنين معية تأييد، ونصر، ورعاية، وعيسى -عليه السلام- كان رسولاً باراً تقياً، وكان الله معه دائماً بالتأييد، والرعاية، والنصرة.

٣- في إنجيل يوحنا - أيضاً - أن عيسى -عليه السلام- بعد أن أحيا (لعازر) الذي مات منذ أربعة أيام رفع بصره إلى السماء، وقال:

(أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لي، وقد علمت أنك دوماً تسمع لي، ولكني قلت هذا لأجل الجمع الواقف حولي ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني) (يوحنا ١١/ ٤٢، ٤٣).

وهذا النص يوضح أن عيسى - عليه السلام - كان يحيي الموتى بإذن الله، وليس من عند نفسه، ولا بقوته، وقدرته، وأن الله - سبحانه وتعالى - قد أقدره على إحياء الموتى ليكون هذا معجزة له، ودليلاً على نبوته، ورسالته كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المَائدة: الآية ١١٠].

فإخراج الموتى من قبورهم الذي صنعه عيسى إنما صنعه بأمر الله - عز وجل - وإقداره له عليه، لا لأنه هو ابن الله صفتُه صفة الرب، أو أن له قدرة من ذاته أن يحيي الموتى وإنما أقدره الله على ذلك ليعلم الجميع أنه رسول الله كما جاء في نص الإنجيل: **(لأجل الجمع الواقف حولي ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني)** وقد كانت الجموع حوله تنتظر هذه المعجزة، وكل ما طلبه عيسى أن يشهدوا له فقط بالرسالة، وأن الله هو الذي أرسله، ولو كان هو الله لقال لهم: انظروا بقدرتي صنعت، وأحييت، وخلقت، ورزقت، وسبحان الله أن يكون له ولد، أو أن يكون له شريك في الملك، أو شريك في الألوهية، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه سبحانه وتعالى.

٤- (في إنجيل يوحنا ١٣-٢١):

أن عيسى - عليه السلام - قال لتلاميذه عندما أرسلهم لنشر الدعوة: **(من يقبل الذي أُرسله يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني).**

وهذه العبارة كقول الرسول الخاتم ﷺ: [**من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصى أميري فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله**].

والشاهد أن عيسى - عليه السلام - قال: **(من يقبلني يقبل الذي أرسلني)** فيخبر أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسله إلى بني إسرائيل.

٥- في إنجيل يوحنا أن المسيح - عليه السلام - قال:

"والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، والذي أرسلته يسوع المسيح". وفي هذا دليل على الخلود في الجنة للذي يؤمن بالله الإله

الحق وحده سبحانه وتعالى، وأنه هو الذي أرسل عيسى المسيح عليه السلام. (يوحنا ١٧/ ٣-٤).

٦- في إنجيل يوحنا أيضاً:

أن عيسى - عليه السلام - لَمَّا أَحَسَّ بقرب انتهاء وجوده على الأرض شرع يصلي (يدعو) من أجل أن يحفظ الله تلاميذه، فقال في جملة صلاته:-

"**أظهرت اسمك للناس الذين وهبتهم لي من العالم (أي الذين آمنوا بي) وقد عملوا بكلمتك، وعرفوا الآن أن كل ما وهبته لي فهو منك لأني نقلت إليهم الوصايا التي أوصيتني بها فقبلوها، وعرفوا حقاً أنني خرجت من عندك** (أي لست ابن زنا كما يدعي اليهود لعنهم الله) **وآمنوا أنك أنت أرسلتني**" (يوحنا ١٧/ ٨، ٩).

٧- وقال أيضاً:

"**أيها الأب البار إن العالم لم يعرفْك، وأما أنا فعرفتك، هؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني وقد عرفتهم اسمك، وسأعرفهم أيضاً لتكون فيهم المحبة التي أحببتني بها، وأكون أنا فيهم**" أ.هـ

وهذا النص دليل واضح أن عيسى - عليه السلام - كان نبياً رسولاً صالحاً، عرف الله ولم يكن هو الله، لأن الرب الإله لا يجهل شيئاً قبل وجوده، ولا يعرف شيئاً لم يكن يعرفه، وغاية عيسى - عليه السلام - كما دل عليه النص أنه آمن بالله وعرفه يوم كفر الناس، وأنه علَّم تلاميذه اسم الله، وصفاته، وأنه كان يتضرع لربه من أجلهم، ويتمنى أن تبقى فيهم روح الوحي التي نشرها فيهم وعلمهم إياها، وأن تظل تعاليمه في نفوسهم وهذا معنى قوله: **(وأكون أنا فيهم)** وإلا فإن عيسى - عليه السلام - لا يحل في تلاميذه، ولا يحل تلاميذه فيه، وإنما الذي يكون في التلاميذ من المعلم هو العلم الذي علمه، والنور الذي نشره، والهدى الذي هداهم به، والإيمان الذي يجمع بين أهله، فأهل الإيمان جميعاً ملائكةً وبشراً قد حل فيهم نور الإيمان، وهداية الله، ورحمته، ورضوانه، وتنزلت عليهم سكينته.

ولا يفهم من مثل هذه العبارات أن ذات الله سبحانه أو صفاته جل وعلا تحل في مخلوقاته، ومصنوعاته، ومخترعاته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فالرب جل وعلا هو الإله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

١٠- إطلاق لفظ (الآب) على الله سبحانه وتعالى بمعنى المربي والرحمن، وليس بمعنى أبو النسب:

تكرر استعمال لفظ الأب في الأناجيل التي يعتمدها النصارى بمعنى المربي، والرحمن، وهي نسبة تحبب إلى الله، وَتَقرُّبٌ منه، وليست مطلقاً نسبة بنوة، ونسب وهذه جملة من الأقوال المنسوبة إلى عيسى - عليه السلام -:

١- قول عيسى - عليه السلام - **"وصَلُّوا من أجل الذين يسيئون إليكم، ويضطهدونكم لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات"** (متّى ٦/ ٣٤).

٢- وقوله أيضاً: **"فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم السماوي كامل"** (متّى ٦/ ٣٤).

٣- وقوله أيضاً: **"أما أنت فعندما تتصدق على أحد فلا تَدَع يدي اليسرى تعرف ما تفعل اليمنى لتكون صدقتك في الخفاء، وأبوك السماوي الذي يرى في الخفاء هو يكافئك"**.

٤- وقوله أيضاً: **"أمّا أنت فعندما تصلي فادخل غرفتك وأغلق الباب، وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء، وأبوك الذي يرى في الخفاء هو يكافئك"**.

٥- وقوله أيضاً - عليه السلام -: **"فصلوا أنتم الصلاة: أبانا الذي في السماوات، ليتقدس أسمك! لِيأت ملكوتك! لتكن مشيئتك على الأرض كما هي في السماء! خُبزَنا كفافَنا أعطِنا اليوم! واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن للمذنبين إلينا! ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجِّنا من الشرير! فإن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم، وإن لم تغفروا للناس لا يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم"** (متّى ٦/ ١٥).

٦- وقوله -عليه السلام- أيضاً: "وأما أنت فعندما تصوم، فاغسل وجهك، وعطر رأسك لكي لا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخفاء، وأبوك الذي في الخفاء هو يكافئك" (متّى ٦/ ١٨".

٧- وقوله أيضاً: "تأملوا طيور السماء لأنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع في مخازن، وأبوكم السماوي يَعُولها" (متّى ٦/ ٢٧).

٨- وقوله: "لا تحملوا الهم قائلين: ما عسانا نأكل، ما عسانا نشرب، أو ما عسانا نكتسي فهذه الحاجات كلها تسعى إليها الأمم، فإن أباكم السماوي يعلم حاجتكم إلى هذه كلها، وأما أنتم فاسعوا أولاً إلى ملكوت الله وبِرِّه" (متّى ٦/ ٣٤).

٩- وقوله أيضاً - عليه السلام -: "اطلبوا تُعْطَوْا.. اسْعَوْا تَجِدوا. اقرعوا يُفْتَحْ لكم.. إلى أن يقول: فأي إنسان فيكم يطلب منه ابنه خبزاً فيعطيه حجراً، أو سمكة فيعطيه حية، فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالأحرى جداً يعطي أبوكم السماوي عطايا جيدة للذين يطلبون منه" (متّى ٧/ ١٢).

١٠- وكذلك ما جاء في إنجيل مرقص (١٢/ ٢٦،٢٧) على لسان عيسى - عليه السلام -: "ومتى وقفتم تصلون، وكان لكم على أحد شيء فاغفروا له لكي يغفر لكم أبوكم الذي في السموات زلاتكم، ولكن إن لم تغفروا، لا يغفر لكم أيضاً أبوكم الذي في السموات زلاتكم".

الباب الثاني

خلاصة معتقد أهل الإسلام
في عيسى بن مريم عليه السلام
كما دل على ذلك الكتاب والسنة:

١- عيسى - عليه السلام - عبد الله، ورسوله أرسله الله - سبحانه وتعالى - إلى بني إسرائيل ليقيمهم على الدين الصحيح بعد أن فسدت أحوالهم.

٢- أيد الله سبحانه وتعالى عيسى -عليه السلام- بكثير من المعجزات لتكون دليلاً على صدقه ورسالته، ومن ذلك إحياء الموتى، وإرجاع البصر إلى عيون العُمْي، والسمع إلى الصُّمِّ، وإبراء المشلولين، ومن بهم عاهات تستعصي على علاج البشر، كشفاء الأبرص، وكذلك إخبار الناس بما يدخرون في بيوتهم، وما سيأكلونه في الغد، وتكثير الطعام القليل ليشبع العدد الكبير من الناس، وجعل الله عيسى - عليه السلام - مباركاً في أي مكان يكون فيه.

٣- دعا عيسى - عليه السلام - إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكان هو - عليه السلام - نموذجاً، ومثلاً في العبادة، والتقى، فلم يعرف عنه ذنب قط، وأمضى حياته بعد الرسالة في الدعوة وجهاد الكلمة، ولم يصرفه عن ذلك زوجة، ولا ولد، ولا مسكن، ولا تجارة، وكان كل همه أن يُخْلِصَ الناس دينَهم لخالق السموات والأرض، وأن يعملوا للآخرة الباقية، وأن يتمسكوا بحقيقة البرِّ والتقوى، وليس بالظاهر فقط.

٤- كانت بداية عيسى - عليه السلام - نذراً نذرته امرأة عمران حيث نذرت لله أن تجعل ما في بطنها خادماً لبيت الله منقطعاً للعبادة فيه، ولكنها وجدت أن حملها الذي وضعته أنثى، فاستمرت في الوفاء بنذرها كما نذرته، وسَمَّتْ هذه الأنثى مريم، وكان من فضل الله عليها أن جعلها في كفالة نبي الله زكريا الذي كان يسوس بني إسرائيل كما هي سنة الله فيهم، أن يكون النبي مرشداً ومعلماً وكذلك متولياً لشئونهم الحياتية، وكان زكريا كلما دخل محراب مريم (والمحراب هو الخلوة التي تلحق ببيوت الله من أجل الانقطاع للعبادة) وجد عندها الفاكهة في غير أوانها، فإذا سألها زكريا عن ذلك قالت: هو من عند الله؟، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ثم لما كبرت مريم وبلغت مبلغ النساء أرسل الله إليها جبريل (روح القدس، وملاك الرب) فدخل عليها محرابها في صورة رجل فاستعاذت بالله سبحانه، فأخبرها أنه ملاك الرب قد جاءها ليبشرها بأن الله قد قضى أن يهبها ولداً مباركاً يكون نبياً لبني إسرائيل، يدعوهم إلى الله ويقيمهم على الحق، وأن الله سيعلمه التوراة، وينزل عليه الإنجيل ويؤيده بالمعجزات، فاستعظمت أن يكون منها ولد وليس لها رجل فكيف؟!

فأخبرها ملاك الرب جبريل، روح القدس أن الله - عز وجل - قادر على كل شيء، وأنه يخلق ما يشاء مما يشاء، وأنه إذا قضى أمراً فإنه يقول له كن فيكون.. ثم نفخ في جَيْبِ دِرْعها، فحملت من تلك النفخة كما تحمل النساء، ثم لما جاءها الوضع خرجت إلى مكان منعزل بعيداً عن أعين الناس، فوضعت ابنها عيسى عليها السلام، وباتت في حال عظيمة من الخوف من الفضيحة، والذل، والوحشة، والإنكسار فتمنت أن تكون قد ماتت قبل هذا الابتلاء، أو أن تكون شيئاً منسياً لا يَأْبَهُ له أحد، ولا يتذكره أحد: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فأنطق الله وليدها وهو ما زال مُلْقىً تحتها قائلاً: أماه لا تجزعي، ولا تحزني هذا جدول ماء، فاشربي منه، وهذه النخلة هزي جذعها يهتز، ويسقط عليك من رطبها.. وإذا رأيت أحداً فصومي عن الكلام وسأتولى أنا الرد عنك..

وكانت هذه أول معجزاته - عليه السلام -،.. فلما حملته مريم وعادت إلى أهلها استعظموا أمرها عندما وقعت أعينهم عليها وهي تحمل غلاماً، وبادروها باللوم والتعنيف قائلين: يا مريم لقد جئت شيئاً فَرِيًّا، لقد أتيت شيئاً منكراً أيتها العابدة الناسكة، لم يكن أحد من أهلك على هذا المَسْلَكِ المشين، فلم يكن أبوك رَجُلَ سَوْءٍ، ولا أُمُّكِ بَغِيَّةً زانيةً، ولا أحداً من إخوانك، فما كان منها -وقد نذرت لله صوماً عن الكلام- إلا أن أشارت إليه: أي اسألوا ابني عن نفسه، فاستنكروا منها كذلك أن تشير إلى طفل رضيع ليرد عنها ويحدث الناس: ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢٩] ، فانتصب عيسى لبيان حقيقة نفسه، وتبرئة والدته فقال: إنني عبدالله، سأعيش لأعمل بالتوراة ولأكون نبياً رسولاً من الله، وسَيُنَزِّلُ الله عليَّ كتاباً يُتْلى هو الإنجيل، وسأكون مثلاً يحتذى في الخلق، والفضل، والعلم والتقى، ورجلاً مباركاً في كل مكان، وسأكون مُصَلِّياً عابداً لله الذي أرسلني لأدعو الناس إلى عبادته، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

٥- ولما بلغ عيسى - عليه السلام - مبلغ الرجال آتاه الله علم التوراة، وأنزل عليه الإنجيل، وأرسله إلى بني إسرائيل رسولاً معلماً داعياً إليه، وأيده بصنوف من المعجزات ولكن بني إسرائيل وقفوا منه موقف التكذيب شأنهم معه كشأنهم مع سائر أنبيائهم، ورسلهم فعارضوه، وأنكروه، عامتهم،. وجمهورهم ولكن آمن به بعضهم، ثم اشتد مكر اليهود به وسعيهم في إبطال دعوته، وقطع رسالته، فوشوا به إلى الحاكم الروماني في فلسطين ليقتله.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٤] .

ولما جاء الوقت الذي أرادوا فيه تنفيذ جريمتهم، وأرادوا القبض على عيسى، وقتله وصلبه، ألقى الله شَبَهَهُ على رجلٍ آخر، وأصعده الله إلى السماء عنده، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۞ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ

﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فقبض اليهود وأعوان الحاكم الروماني على من ألقى عليه شبهه، واقتادوه، وصلبوه، وقتلوه، فظن كثير من الناس أن المصلوب هو عيسى - عليه السلام -، ولكن الخاصة من تلاميذه هم الذين كانوا يعرفون حقيقة ما حدث.

٦- يعتقد أهل الإسلام أن عيسى -عليه السلام- حي موجود في السماء وأنه سينزل في آخر الزمان في شرقي دمشق، فيصلي مع المسلمين من أمة محمد ﷺ، ويقود أهل الإيمان منهم في فترة عصيبة بها فتن عظيمة، ومن هذه الفتن ظهور المسيح الدجال الذي يزعم أنه هو الله، والذي تجري على يديه أمور عظيمة من خوارق العادات، كأمره للسماء أن تمطر فتمطر، وللأرض أن تُخْرِجَ كنوزها، ومعادنها فتخرجها، وإحيائه لبعض الموتى، ولكنه مع ظهور هذه الخوارق فهو كافر ملعون، مدع للألوهية والربوبية، أعورُ العين اليُمنى، لا يتبعه إلا الأشرار، والفجار، والكفار، ويفر منه كل مؤمن تقي.. ثم يكون من شأن عيسى المسيح الحقيقي، أن يلحق بهذا المسيح الكذاب فيقتله ويطهر الأرض من شره وكفره، وعندما ينزل عيسى عليه السلام، فإنه يأمر بكسر الصلبان وقتل عَبَدَتها من أهل الأوثان، ويأمر بقتل الخنازير الذي استباح أكله المدّعون للنصرانية واتباع المسيحية، ويأمر الناس بالصلاة، ويحكم بين الناس بالقرآن.

٧- عيسى - عليه السلام - هو أحب الرسل إلى أهل الإسلام بعد محمد - عليه الصلاة والسلام - لأنه هو آخر نبي قبل نبينا محمد ﷺ وهو آخر من بشر به من الرسل العظام، وهو الذي يقود أمة الإسلام في آخر الزمان، وقد قال فيه رسول الله ﷺ محمد بن عبدالله: **[أنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي].**

٨- ويعتقد المسلمون أن النصارى القائلين بأن عيسى عبدالله ، ورسوله، وكلمته والذين شهدوا في عيسى بما شهد به الإنجيل أنه عبد رسول، وأنه جاء مبشراً بمحمد ﷺ فهؤلاء مسلمون مؤمنون وأن من مات على ذلك قبل مبعث

رسولنا محمد ﷺ فهو من أهل الجنة، ومن أدرك النبي محمداً وآمن به منهم فله أجره مرتين، مرة للإيمان بعيسى - عليه السلام -، ومرة للإيمان بمحمد ﷺ.

وأما من اعتقد من النصارى أن عيسى هو الله، أو أنه ابن الله ذَاتُهُ ذَاتُهُ، أو أنه ثالث ثلاثة (أقنوم الرب، وأقنوم عيسى، وأقنوم الروح القدس).

أو أن عيسى إله كامل وإنسان كامل فهؤلاء جميعاً يعتقد المسلمون أن كل من اعتقد عقيدة من هذه فهو كافر بالله خالد في النار خلوداً أبدياً خارج من دين الرسل جميعاً، ليس من أتباع عيسى، ولا مؤمن بموسى أو بأي نبي من الأنبياء، فإن أي نبي لم يقل إن ربه وإلهه الذي يدعو إليه هو عيسى ابن مريم.

٩- ويعتقد المسلمون المؤمنون أن القول بأن عيسى -عليه السلام- مات مصلوباً أو أن الله مكَّن منه اليهود ليقتلوه، ويصلبوه، ويبصقوا في وجهه أنه كذلك كافر مؤمن بالباطل في شأن عيسى المسيح عليه السلام الذي لم يُقْتَلْ، ولم يُصْلَبْ، وإنما رفعه الله إليه، وطَهَّرَهُ من الذين كفروا، وألقى شبهه على غيره، وأن الذي قتلته اليهود لم يكن عيسى - عليه السلام - وإنما كان شبيهه.

١٠- يعتقد المسلمون أن ما ادعاه النصارى من أن عيسى هو ابن الله أو الله أو أنه التقاء الناسوت باللاهوت وأنه نزل ليُخَلِّصَ الناس من خطيئة آدم، وأنه فدى الناس بدمه، كل ذلك من الكذب والإفتراء، وأن من ادعى ذلك، واعتقده فهو كافر مُخَلَّدٌ في النار.

١١- يعتقد المسلمون أن النصارى هم أقرب الناس إلى أهل الإسلام وأولى الناس بالإيمان بمحمد ﷺ، وأنهم لو تمسكوا بالإنجيل حقاً، وأقاموا ما بقي فيه من الحق لآمنوا بالرسول الخاتم صلوات الله وسلامه عليه.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

هذه خلاصة ما يعتقده أهل الإسلام في عيسى ابن مريم عليه السلام، والذين انتسبوا إليه.

معنى أن عيسى كلمة الله:

ومعنى أن عيسى كلمة الله، أي أن الله - سبحانه وتعالى - قد خلقه بالكلمة وهي (كن) كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. وهذا الذي ذكره جميع المفسرين من السلف أن تسمية عيسى بكلمة الله أنه مخلوق بالكلمة، وأن الكلمة نفسها ليست ذات عيسى، أو أنه خلق منها، تعالى الله عن ذلك.

فكلمات الله غير مخلوقة، كما قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل؛ فكان عيسى - عليه السلام - بإذن الله عز وجل؛ فهو ناشيء عن الكلمة التي قال له: ﴿كُن﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٧] فكان، والروح التي أرسل بها: هو جبريل عليه السلام".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فيمن زعم أن عيسى -عليه السلام- مخلوق من الكلمة أي أن الكلمة هي نفس عيسى قال: "فلا ريب أن المصدر يعبر به عن المفعول به في لغة العرب، كقولهم: هذا درهمٌ ضرب الأمير، ومنه قوله: (هذا خلق الله)، ومنه تسمية المأمور به أمراً، والمقدور قدرة، والمرحوم به رحمة والمخلوق بالكلمة كلمة، لكن هذا اللفظ إنما يستعمل مع ما يقترن به مما يبين المراد، كقوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عِمـرَان: الآية ٤٥]، فبين أن الكلمة هو المسيح.

ومعلوم أن المسيح نفسه ليس هو الكلام ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فبين لما تعجبت من الولد أنه سبحانه يخلق ما يشاء؛ إذا قضى أمراً أن يقول له كن فيكون، فدل ذلك على أن هذا الولد مما يخلقه الله بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعَام: الآية ٧٣] ؛ فلهذا قال أحمد بن حنبل: عيسى مخلوق بالكُنْ؛ ليس هو نفس الكن ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ

﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٩] فقد بين مراده أنه خلق بكن لا أنه نفس كن ونحوها من الكلام. (الفتاوي (٢٠/ ٤٩٣-٤٩٤).

معنى أن عيسى -عليه السلام- روح الله:

وأما معنى أن عيسى روح الله فهو أنه عليه الصلاة والسلام قد خُلِقَ بنفخة المَلَكِ الذي أرسله الله إلى مريم، وهذا الملاك هو جبريل، والذي سماه الله روح القدس كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النّحل: الآية ١٠٢] فمنزل القرآن على محمد ﷺ هو جبريل وسُمِّيَ روح القدسِ أي الروح المقدسة، لأن الله نَزَّهَهُ وقَدَّسَهُ وهو روح لأنه نزل بالروح، كما سَمّى الله القرآن روحاً فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾..

وأما نسبة روح القدس إلى الله فنسبةُ تشريفٍ كما قال تعالى لمريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۞ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

والنسبة إلى الله إن كانت معنى لا يقوم بنفسه، ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله سبحانه وتعالى كما نقول سَمْعُ الله، وبَصَرُ الله، ورحمةُ الله، وإن كان المضاف إلى الله عيناً قائمة بنفسها كما نقول بيتُ الله، وناقةُ الله، ورسول الله، فهذه مخلوقات أضيفت إلى الله، وإضافتها هنا إلى الله إضافة تشريف وتعظيم.

وكذلك الشأن في وصف عيسى بأنه روح الله، ومعلوم أن عيسى ذات إنسانية فتسمية روح الله تسمية تشريف كما سمي جبريل كذلك روح الله تشريفاً له، وتقديساً.

وبهذا نفهم معنى قول النبي ﷺ: [**وأنَّ عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه**].

وفي الحديث الآخر: [**ائتوا عيسى عبدالله ورسوله وكلمة الله، وروحه**] (حديث البخاري، كتاب التفسير باب ٢ حديث ١).

الباب الثالث

النصارى أعظم الناس إختلافاً في دينهم

لا يوجد أمة عندها من الاختلاف في دينها كما عند النصارى في دينهم، وخلافهم لا يكاد ينحصر، وقد بدأ حول شخص المسيح عيسى بن مريم -عليه السلام-، وحقيقة الرب سبحانه وتعالى، وروح القدس، وتشعب إلى كل فروع دينهم، ولا يوجد فرقة منهم إلا وهي تُكفِّرُ الأخرى، وتَلْعَنُها.

١- الموحّدون:

فمنهم من قال إن المسيح عيسى بن مريم هو رسول الله فقط لم يزد على أنه رسول الله خلق بأمر الله، وكلمته كُن، وهو روح الله، أيده بالمعجزات، وأرسله إلى بني إسرائيل، يدعوهم إلى الإيمان بالله، وتوحيده، وعبادته، وهذه عقيدة النصارى الأول الذين سلَّط قياصرة الروم العذاب عليهم، وأحرقوا كتبهم، وأناجيلهم، واضطهدوهم حتى أبادوهم إلا قليلاً، وهذه الطائفة المؤمنة هي التي يوافق اعتقادها اعتقاد أهل الإسلام، وما جاء به محمد ﷺ، وهم الذين أثنى الله عليهم في القرآن كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۚ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

فالحواريون الذين وصفهم الله بأنهم (أنصار الله)، والفئة التي آمنت من بني إسرائيل وأظهرها الله بحجتها، ودعوتها إلى التوحيد هم المؤمنون حقاً

بعيسى ابن مريم - عليه السلام -.

ولقد تناقصوا بعد عيسى إلى ظهور النبي محمد ﷺ، وذلك للاضطهاد العظيم الذي وقع عليهم، وخاصة بعد أن دخل قسطنطين القيصر الروماني في النصرانية وفرضها في ممالك الدولة الرومانية الواسعة ولكنها فرضها - يوم فرضها - وثنية إلحادية كافرة كما جاء في مجمع نيقية الأول المنعقد في سنة ٣٢٥م، والذي وضع فيه (الأمانة النصرانية) التي هي في حقيقتها أعظم خيانة لدين المسيح - عليه السلام - حين غُيِّرَ الدينُ الحقُّ عقيدةً، وشريعةً، وفُرِضَ ديناً باطلاً يقول بأن المسيح إلهٌ حق من إله حقٍّ وجد مع الأب منذ الأزل.

إندراس التوحيد والدين الحق بسبب الاضطهاد وإحراق الكتب:

وبفعل الاضطهاد الشديد للقائلين بالتوحيد، ومنكري ألوهية المسيح بدأ الدين الصحيح يندرس شيئاً فشيئاً، فقد أحرقت الأناجيل الصحيحة، وكتب هذه الطائفة، وفرض الدين الباطل بقوة السلاح والقانون.

وهكذا بدأ يتناقض أهل الإيمان الصحيح من النصارى حتى إذا بُعِثَ رسولُ الله ﷺ لم يكن قد بقي منهم إلا عدد قليل كما قال ﷺ: **[إن الله نظر إلى أهل الأرض قبل أن يبعثني فمقتهم عَرَبَهم، وعجمهم إلا غَبَراتٍ من أهل الكتاب]**.

ومن هؤلاء الذين أدركهم الإسلام، وكانوا على الحق النجاشي ملك الحبشة الذي تُلِيَتْ عليه الآيات الأولى من سورة مريم في شأن عيسى - عليه السلام - فأخذ عُوداً من القش وقال: لم يزد عيسى بن مريم على هذا ولا مثل هذه (أي العود)، فأنكرت بطارقته ذلك.

ولكنه بقي مؤمناً موحداً، ومات على ذلك، فصلى رسول الله ﷺ عليه يوم مات.

٢- مقالة آريوس:

ومنهم من رأى أنه ابن الله، ولكنه مخلوق مصنوع، وهذه مقالة آريوس الذي كان يقول: (**الأب وحده الله، والابن مخلوق مصنوع، وقد كان**

الأب ولم يكن الابن)، واتبع مقالة آريوس جمع عظيم من النصارى في مصر، وفلسطين، ومقدونية، والقسطنطينية ولكن بطريرك الإسكندرية عمد إلى لعن آريوس هذا، وطرده وزعم أنه رأى المسيح في النوم مشقوق الثوب فقال له: يا سيدي من شق ثوبك؟ فقال له: آريوس!! وبهذه الرؤيا المكذوبة أصدر حكمه بوجوب طرد آريوس، ولعنه وإخراجه من الكنيسة، ولكن آريوس لم يستسلم واستمر في نشر دعوته في أماكن كثيرة وزاد أتباعه في كل مكان.

اختلاف النصارى حول حقيقة المسيح وعقد مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥م:

ومن أجل ذلك عقد قسطنطين مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥م من أجل الرَّدِّ على مقالة آريوس.

يقول ابن البطريق:

(بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطاركة، والأساقفة، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة، وكانوا مختلفين في الآراء، والأديان، فمنهم من كان يقول إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم البربرانية، ويسمون الريميتين، ومنهم من كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، وهي مقالة سابليوس، وشيعته، ومنهم من كان يقول لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنها، وخرجت من حيث الولد من ساعتها، وهي مقالة البيان وأشياعه.

ومنهم من كان يقول إن المسيح إنسان خُلِقَ من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الإبن من مريم، وإنه اصْطُفِيَ ليكون مُخْلصاً للجوهر الأنسي صحبَتْهُ النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سُمِّي ابن الله، ويقولون إن الله جوهرٌ قديمٌ واحدٌ، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس، وهي مقالة بولس الشمشاطي بطريرك أنطاكية، وأشياعه، وهم البوليقانيون، ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم

تزل، صالح، وطالح، وعدل بينهما، وهي مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين، وأنكروا بطرس، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح وهي مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشرة أسقفاً. أ.هـ

ولما وجد قسطنطين أنهم مختلفون في حقيقة المسيح على هذا النحو، اختار من المجتمعين ثلاثمائة وثمانية أسقفاً من الذين ارتضى مقالتهم في ألوهية المسيح، وعقد لهم مجلساً خاصاً، وأصدروا القرارات التي أعلنت ألوهية المسيح - عليه السلام - أنه موجود في الأزل من جوهر أبيه، وأصدروا ما سموه (بالأمانة) المسيحية، وقد كان هذا - كما أسلفنا - أعظم خيانة للدين الذي بُعِثَ به المسيح - عليه السلام -.

وهكذا استطاع قسطنطين أن يجعل دين القلة وهم الثلاثمائة وثمانية عشراً أسقفاً هو الدين الرسمي، وينفي ويضطهد الكثرة المخالفة لألوهية المسيح، وزاد قسطنطين أن أعطى خاتمه، وسيفه إلى هؤلاء، وسلطهم على من يخالفهم في الاعتقاد، هذا مع أن قسطنطين هذا لم يعلن الدخول في المسيحية إلا وهو على فراش الموت.

وهكذا نشأ الحكم الكهنوتي الذي يحتكر فهم الدين، وتفسيره، ويَحْرِمُ من الجنة من يخالفه، ويطرد من الكنيسة والنصرانية ما يضادّه، وكان هذا من أعظم البلاء على دين النصرانية حيث فرض عليهم الإنحراف، والخروج على تعاليم المسيح - عليه السلام -، وأمر هذا المجمع بتحريق جميع الكتب التي تخالف العقيدة التي خرج بها مجمع نيقية.

وهذا هو نص ما سماه النصارى (بالأمانة) وهي القرارات التي خرج بها المجمع الأول:

(الأمانة) النصرانية:

١- نؤمن بإله واحد، الله الأب، ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، ما يُرَى وما لا يُرَى.

٢- ونؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء.

٣- الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاص نفوسنا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تَأَنَّسَ.

٤- وصُلِبَ عن البشر على عهد بيلاطس البنطي، وتألم، وقبر.

٥- وقام من الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب.

٦- وصعد إلى السموات وجلس على يمين الأب.

٧- وأيضاً يأتي في مجده ليدين الأحياء، والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء.

ولأن هذه (الأمانة) هي خلاصة المعتقد الذي فرضته الكنيسة المؤيدة بالسلطان، وجعلت من لا يؤمن بها كافراً خارجاً من دين المسيحية، فإنها فرضت كذلك تلاوته في بداية كل قداس وصلاة، وفرضت حفظها وتلاوتها على كل مسيحي.

الخلاف حول روح القدس ومقالة (مقدونيوس):

خرج مجمع نيقية الأول سنة ٣٢٥م كما ذكرنا بألوهية المسيح، ولم يتعرض لحقيقة روح القدس، وقام في النصارى من يقول إن روح القدس ليس بإله وإنما الإله هو الأب والإبن فقط -في زعمهم- وكان صاحب هذه المقالة رجل يقال له (مقدونيوس)، فخشي أصحاب التأليه منهم أن تنتشر هذه المقالة، وتمتد إلى القول بأن المسيح كذلك مخلوق مصنوع، فعقد من أجل ذلك مجمع في مدينة القسطنطينية، اجتمع فيه (١٥٠) مائة وخمسون أسقفاً، وقام فيهم بطريرك الإسكندرية (ثيموثاوس) قائلاً:

(ليس لروح القدس عندنا معنى إلّا أنه روح الله، وليس روح الله شيئاً غير حياته، فإذا قلنا روح القدس مخلوق فقد قلنا إن حياته مخلوقة، وإن قلنا إن حياته

مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حي، وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللعن).

واتفق الحاضرون بعد هذه المقالة على لعن (مقدونيوس) الذي قال بأن روح القدس مخلوق، وليس هو الإله، وطردوا كذلك جميع البطاركة الذين يقولون بمقالته.

وزاد الحاضرون على ما يسمونه بالأمانة التي خرجت عن المجمع الأول: **(ونؤمن بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والإبن وروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجوه، وثلاثة خواص وحديَّةٌ في التثليث وتثليث في وحدية، كيان واحد في ثلاث أقانيم، إله واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة).**

ولا يخفى ما في هذه الأقوال من التخبط والضلال، والمقصود هنا بيان الاختلاف في دينهم، وعقيدتهم.

ومثل هذا الكلام الذي لا يستند إلى نص في الإنجيل، أو التوراة، ولا إلى عقل صحيح يفرق بين الخالق والمخلوق، وبين الرب الإله خالق السماوات والأرض، وبين مخلوقاته، ومصنوعاته، ومخترعاته كروح القدس الذي هو جبريل، وعيسى - عليه السلام - الذي خلقه من أنثى بلا ذكر، أقول مثل هذا الكلام ما كان ليجتمع الناس عليه إلا بالتقليد، والإرهاب، وهذا ما فعلته الكنيسة.

مقالة نسطور ومجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م:

ولما استقرت العقيدة النصرانية عبر المجامع الأولى على القول بالتثليث: في الأب والإبن، وروح القدس، قام بطريرك القسطنطينية (نسطور)، فأعلن التفريق بين الأقنوم والطبيعة فقال: الأقنوم هو الأب، وهو الإله، وأما الطبيعة فهو الإنسان، وهو المسيح، ومريم ولدت الإنسان ولم تلد الإله، فهي أم الإنسان، وليست أم الإله، وقال: **(إن المسيح متحد مع الله بالمحبة، وآخذ منه بالألوهية).**

وقامت قيامة الكنيسة لذلك، ورأت أن هذا البطريرك (نسطور) قد جاء بهرطقة (الهرطقة في لغة النصارى معادلة لمعنى البدعة والإلحاد عند المسلمين) وإلحاد لأنه بذلك أنكر ألوهية المسيح، وادعى أنه فقط إنسان مملوء من البركة، والنعمة فهو رسول من الله ملهم لم يرتكب خطيئة، وبهذا رفع نسطور المسيح شيئاً فوق مرتبة الإنسانية، ولم يقل إنه بذاته إله مع الله، أو متحد بالله.

ومن أجل ذلك انعقد مجمع في مدينة أفسس سنة ٤٣١م، وخرج بالقرار الآتي: (**إن مريم العذراء والدة الله، وأن المسيح إله حق، وإنسان معروف بطبيعتين، متوحد في الأقنوم**)، ثم لعنوا نسطوراً، وأخرجوه من رحمة الكنيسة، والدين النصراني ولكنه ذهب يدعو إلى مذهبه فتبعه كثيرون في نصيبين، والعراق، وأرض الجزيرة.

ثم نشأ خلاف جديد حول كيفية اجتماع الإله مع الإنسان، أو ما يسمونه التقاء اللاهوت بالناسوت..

هل أصبح بعد ذلك في عيسى - عليه السلام - طبيعة واحدة؟ أم طبيعتان منفصلتان؟ وكيف أصبح عيسى - عليه السلام - إلهاً كاملاً؟ وإنساناً كاملاً؟ كيف؟

مقالة (ديسقورس) بطريرك الإسكندرية وإعلان الطبيعة الواحدة للمسيح ومجمع أفسس الثاني:

وخرج بطريرك الإسكندرية (ديسقورس) برأي خالف فيه ما خرج به المؤتمرون في مجمع أفسس الأول وهو أن للمسيح طبيعة واحدة لا طبيعتين منفصلتين، وأن المسيح قد امتزج فيه اللاهوت بالناسوت كما يمتزج النار بالحديد.

وقام بطريرك القسطنطينية معارضاً لهذا القول، ووصل الخلاف أن أمرت

ملكة الرومان في ذلك الوقت بانعقاد مجمع لمناقشة هذا الأمر، فانعقد مؤتمر (خليكدونية سنة ٤٥١م) وخرج بالقرار الآتي:

"إن مريم العذراء ولدت إلهنا، ربنا يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلهية، ومع الناس في الطبيعة الإنسانية، وشهدوا أن للمسيح طبيعتين، وأقنوماً واحداً ووجهاً واحداً، ولعنوا نسطوراً، ولعنوا ديسقورس، ومن يقول بمقالتهما":

ونُفِيَ ديسقورس (بطريرك الإسكندرية) إلى فلسطين، فدعا لدعوته، هناك فاتبعه جمهور أهل فلسطين، وبيت المقدس.

وانشقت تبعاً لذلك الكنيسة المصرية عن الكنيسة الأوربية، وكان سبب الإختلاف كما أسلفنا حول المسيح طبيعة واحدة أم طبيعتان؟

ولقد لخص صاحب كتاب تاريخ المسيحية في مصر عقيدة الكنيسة المصرية فقال: **"كنيستنا المستقيمة الرأي التي تسلمت إيمانها من كيرلس، وديسقورس، ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية، والسريانية الأرثوذكسية تعتقد بأن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم، أقنوم الأب، وأقنوم الإبن، وأقنوم الروح القدس، وأن الأقنوم الثاني أي أقنوم الإبن تجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، فصير هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط، والامتزاج والاستحالة، بريئة من الإنفصال، وبهذا الاتحاد صار الإبن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين، ومشيئة واحدة"**.

القول بالمشيئة الواحدة وانفصال المارونية:

ظهر في سوريا راهب يسمى يوحنا مارون في القرن السابع كان يقول بالمشيئة الواحدة، مع قوله بالطبيعتين، وخالف بذلك قرارات المجامع السابقة التي تقول بطبيعتين ومشيئتين، فاجتمع من أجل ذلك المجمع السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠م، وأقر لعن من قال بأن للمسيح مشيئة واحدة، كما لَعَنَ وكَفَّرَ وقطع من قال بأن للمسيح طبيعة واحدة وخرج بالقرار الآتي:

"إننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الإبن الوحيد الذي هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الأب الإله في أقنوم واحد، ووجه واحد، يعرف تاماً بناسوته، تاماً بلاهوته في الجوهر الذي هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين، وفعلين، ومشيئتين في أقنوم واحد".

كما شهد المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١م: "أن الإله الإبن في آخر الأزمان اتخذ من العذراء السيدة مريم القديسة جسداً إنسانياً بنفسٍ ناطقةٍ عاقلةٍ، وذلك برحمة الله محب البشر، ولم يلحقه في ذلك اختلاط ولا فساد، ولا فرقة ولا فصل، ولكن هو واحد يعمل ما يشبه الإنسان أن يعلمه في طبيعته، وما يشبه الإله أن يعمله في طبيعته، الذي هو الإبن الوحيد، الكلمة الأزلية المتجسدة التي صارت بالحقيقة لحماً، كما يقول الإنجيل المقدس من غير أن تنتقل من مجدها الأزلي، وليست بمتغيرة، ولكنها بفعلين، ومشيئتين وطبيعتين إله وإنسان، وبهما يكمل قول الحق، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها، فتعملان بمشيئتين غير متضادتين".

الاختلاف حول منشأ انبثاق روح القدس وانفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية:

علمنا أن المجمع الأول قرر ألوهية المسيح، ولعن وكفر من يقول بغير ذلك، ثم جاء المجمع الثاني وقرر ألوهية روح القدس وأنها جزء من ثلاثة أجزاء - كما يدعون - ثم جاء المجمع الثالث فقرر أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله (اللاهوت والناسوت كما يقولون) وأنه ليس إنساناً فقط وأن مريم - عليها السلام - ولدت الإله، والإنسان، وجاء المجمع الرابع فقرر أن المسيح له طبيعتان منفصلتان لا طبيعة واحدة، ومشيئتان كذلك، وعلمنا أن الكنيسة المصرية انفصلت عن كنيسة أوربا لقولها بالطبيعة الواحدة، والمشيئة الواحدة، وانفصلت الكنيسة المارونية السورية لقولها بالمشيئة الواحدة، والطبيعتين.

وعلى مدار سبعة مجامع آخرها مجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧م لم تناقش وتطرح قضية (كيفية وجود روح القدس) الذي قرروا أنه جزء أو أقنوم من

الرب المثلث - عندهم - وهل روح القدس هذا كان وجوده مع الأب؟ أم أن وجوده متأخر عن وجود الله؟! وهل وجد روح القدس من الأب وحده، أم من الإبن وحده، أم منهما جميعاً، أم أنه واجب بذاته..؟!

وجاء بطريرك القسطنطينية (فوسيوس) وأثار فكرة روح القدس، وحكم بأن روح القدس إنما انبثق (هكذا) من الأب وحده، فتصدى له بطريرك روما قائلاً: إن روح القدس انبثق من الأب والإبن جميعاً.

وقام كل منهما بعقد مجمع، أو مؤتمر خاص، وقرر كل مجمع العقيدة التي اختارها بطريركهم.

وأعلن كل مجمع منهما لَعْن، وطرد الآخرين من الدين المسيحي والرحمة الإلهية، وكفَّرَ كل مجمع المجمع الآخر، وقام بطريرك روما بعزل بطريرك القسطنطينية، وعقد مجمعاً في القسطنطينية سنة ٨٦٩م أصدروا فيه القرارات الآتية:

١- أن انبثاق روح القدس إنما كان من الأب والإبن جميعاً.

٢- أن كنيسة روما هي الحَكَمَ والفَيْصَل في كل خلاف يتعلق بالمسيحية.

٣- أن كنيسة روما هي مرجع المسيحية في كل مكان.

٤- لعن البطريرك (فوسيوس)، وجميع أتباعه، وحرمانه، وقطعه من الكنيسة.

ولكن (فوسيوس) هذا استطاع أن يعود إلى منصبه مرة ثانية (بطريرك القسطنطينية)، وكان أول أمر فعله هو أن يعقد مجمعاً آخر في القسطنطينية أيضاً سنة ٨٧٩م، وقد قرر هذا المؤتمر رفض جميع القرارات التي أصدرها المجمع السابق، وقرر أن روح القدس إنما كان انبثاقه من الأب، وحَكَمَ كذلك بكُفْر الآخرين، ولعنهم.

وهكذا انفصلت الكنيسة الشرقية وعاصمتها القسطنطينية عن الكنيسة الغربية وعاصمتها روما.

ومن العرض السابق نستفيد أن النصارى اختلفوا في أصل دينهم على المقالات الآتية:

أولاً: مقالة الحق والدين الصحيح:

وهم الذين اعتقدوا أن المسيح عبدالله ورسوله، وأنه مخلوق مصنوع ولكن الله ملأه حكمة، وعلماً، ورحمة، وجعله مباركاً أينما كان، وهذه هي العقيدة الصحيحة، ومن الذين كانوا على هذه العقيدة تلاميذ المسيح - عليه السلام - بشهادة الله سبحانه وتعالى لهم في القرآن كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ ..﴾، وأمة عظيمة على الحق كما جاء في الأحاديث النبوية الكثيرة، ومنها حديث: [**عرضت على الأمم.. ثم رفع لي سواد عظيم فإذا عيسى وأمته**] - الحديث.

ومن الموحدين المشهورين آريوس وكان لأتباعه انتشار عظيم في فلسطين، ومقدونية، والقسطنطينية، وأنطاكية، وبابل، والإسكندرية، وأسيوط بمصر، ويقول ابن البطريق المؤرخ: (**فأما أهل مصر والإسكندرية فكان أكثرهم أريسيون**) وكذلك غلب الأريسيون على بيت المقدس، وهذه المدن والأقاليم هي مهد النصرانية الأولى.. وكان ذلك قبل انعقاد أول مجمع للنصارى.. فلما عقد المجمع الأول في نيقية سنة ٣٢٥م، وخرج بالقول بألوهية المسيح، بدأ السلطان الغاشم يستعمل الاضطهاد، والقمع، والمصادرة لعقيدة التوحيد، ويقوم بتعقب أفرادها في كل مكان وقتلهم وتشريدهم، فلم يأت الإسلام إلا وهم ملاحقون مضطهدون مطيَّرون، ولعل كلمة الرسول ﷺ لهرقل: [**أسلم تسلم، وإن لم تسلم فإنما عليك إثم الأريسيين**] وهم أتباع آريوس الذين كانوا ما زالوا ملاحقين من قياصرة روما..

ثانياً: مقالات الباطل والشرك والضلال:

وهي متعددة جداً، وقد اختلفت النصارى على أقوال كثيرة في حقيقة الإله:

١- فمنهم من قال بأن المسيح، وأمه إلهان من دون الله، وهم فرقة البربرانية.

٢- ومنهم من قال بأن المسيح كشعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم تنقص الأولى، وهي مقالة سابليوس وشيعته.

٣- ومنهم من قال بأن المسيح إنسان حَلَّتَ فيه النعمة الإلهية بالمحبة، والمشيئة وسمي ابن الله لذلك وهذه مقالة (بولس الشمشاطي)، وقوله قريب من قول الموحدين...

٤- ومنهم من قال إن المسيح إله كامل، وإنسان كامل، وأنه اجتمع فيه اللاهوت والناسوت بإرادتين، ومشيئتين، وهو ما خرج به مجمع نيقية الأول، وفرضه في الإمبراطورية الرومانية.

٥- ومنهم من قال بأن روح القدس إله مع الله والإبن، وكَفَّرَ من قال بغير ذلك.

٦- ومنهم من قال بأن روح القدس مخلوقٌ مصنوع، وليس بإله.

٧- ومنهم من قال بأن المولود من مريم هو الإنسان، وليس الإله، وأن المسيح متحد مع الله بالمحبة والموهبة فقط، أي ولم يجتمع فيه اللاهوت والناسوت، وهي مقالة نسطور.

٨- ومنهم من قال بأن المسيح لما اتَّحَدَ فيه اللاهوت بالناسوت تحول إلى طبيعة واحدة، وهي مقالة ديسقورس بطريرك الإسكندرية، ومن شايعه، وكفَّرَ من يقولِ بالطبيعتين والمشيئتين.

٩- ومنهم من قال بأن المسيح اجتمع فيه اللاهوت والناسوت، وأصبحا طبيعتين ومشيئتين، ووجه واحد، وأقنوم واحد، وهذه العقيدة هي التي خرج بها مجمع خليقدونية سنة ٤٥١م.

١٠- ومنهم من قال بأن المسيح له طبيعتان ولكن له مشيئة واحدة، وليس مشيئتان وهي مقالة يوحنا مارون، ومن شايعه.

وأما اختلاف النصارى في الشرائع، والعبادات، فلا يوجد عندهم شيء من دينهم أجمعوا عليه، واتفقوا عليه، في صلاة أو صيام، أو طعام..

العبرة التي نستفيدها من اختلاف النصارى في أصل دينهم:

١- أن الخلاف الذي نشأ في النصرانية كان أساسه حقيقة الإله.

٢- أن الذين غلبوا على أمرهم، وقرروا ألوهية المسيح -عليه السلام- كانوا القلة، ولكنهم كانوا مؤيدين من السلطان الغاشم بدءاً بقسطنطين ابن هيلانة وتبعه على ذلك معظم أباطرة الرومان الذين لاحقوا عقيدة التوحيد.

٣- أن النصرانية المُثَلَّثَة المشركة إنما فُرِضَتْ بالبطش والطغيان.

٤- أن الدين الحق الذي جاء به المسيح -عليه السلام- من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وأنه عبدالله ورسوله، وكلمته وروحه، وليس إلهاً مع الله، هذه العقيدة قد كانت عقيدة الأغلبية التي لاقت الاضطهاد، والنفي والتشريد، فانقرضت شيئاً فشيئاً حتى جاء الإسلام ولم يبق من أتباعها إلا القليل.

٥- أن الحكام الرومان الذين دخلوا في النصرانية لم يتنصروا، ولكن النصارى هم الذين تَرَوَّمُوا، وحَوَّلُوا النصرانية من عقيدة التوحيد إلى عقيدة وثنيةٍ شركيةٍ، تُؤَلِّهُ البشر وتعبُدُهم.

٦- أن هؤلاء النصارى المشركين بالله لا يستدلون على عقيدتهم بنص صريح من التوراة (التي يزعمون الإيمان بها، وأنها العهد القديم)، ولا من الإنجيل.

فالتوراة لم يأت فيها نص قط، يذكر التثليث، ولا الصَّلْب، ولا الفِداء، ولا أن روح القدس إله مع الله، وإنما في التوراة التوحيد فقط..

وكذلك الإنجيل مملوء كما أسلفنا ببيان النصوص القطعية التي تثبت بشرية المسيح، وعبوديته لله رب العالمين.

٧- أن أصدق وصف يطلق على النصارى هو (الضالون)، وذلك أنهم قد ضلوا حقاً وكان ضلالهم في أصل دينهم، وهو حقيقة الرب الإله الذي له العبادة والخضوع، والذي خلق السماوات والأرض، وخلق المسيح وأمه، ويملك أن يهلك المسيح وأمه، ومن في الأرض جميعاً كما قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٧).

الباب الرابع

الأدلة على بطلان وفساد دين النصرانية

عرفنا في الأبواب السابقة أن عيسى - عليه السلام - قد جاء بالدعوة إلى توحيد الله وعبادته، شأنه في ذلك شأن جميع الرسل الذين سبقوه، وأنه جاء مبشراً برسول يأتي من بعده، وهذا الرسول هو محمد ﷺ الذي دعا إلى ما دعا إليه عيسى - عليه السلام -، وجميع الرسل الذين سبقوه، وبهذا يتبين أن جميع الرسل كانت دعوتهم واحدة، وأنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وعرفنا أن أصحاب عيسى - عليه السلام - والجمع العظيم من أتباعه كانوا على الدين الصحيح والتوحيد، وأن التبديل جاء بعد ذلك، وقد بدأ شاول اليهودي الذي تسمى ببولس، وادعى أنه رسول من عند المسيح الذي جاءه في النوم وأمره أن يدعو إلى النصرانية فذهب يدعو إلى دين مبتدع جديد مدعياً أن عيسى - عليه السلام - هو ابن الله لذاته، وأنه جزء من الله، وأن جوهره من جوهر أبيه، وأنه إله كامل.. ثم أبطل الشريعة التي عمل بها عيسى وأمر بها، وكان هذا الدين المحرف هو الدين الذي أخذت به القياصرة، وفرضه الرومان، الذين أدخلوا النصارى في وثنيتهم، وعبادتهم للآلهة المتعددة، والتماثيل، ولم يدخل الرومان في دين المسيح والنصرانية الحقة، أعني أنهم لم يَتَنَصَّروا ولكن النصارى هم الذين تَرَوَّمُوا، وذلك لقهر السلطان وملاحقة الموحدين.. ومن ثم اندراس الدين الحق شيئاً فشيئاً، وبقاء الدين

الباطل الذي اعتنق هذه العقائد الوثنية فقال بألوهية المسيح، وأنه إله حق من إله حق، وأنه إنسان كامل، وأن روح القدس إله مع الله، فهؤلاء الثلاثة هم الإله -في زعمهم- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأن كل واحد منهم يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعذب ويرحم، ويغفر الذنوب، ويدعى، ويسجد له..

وأن كل من ادعى حسب رؤية فردية رآها أنه رأى المسيح وأنه أرسله للدعوة، كان يبدأ بعد ذلك في دعوة النصارى وابتداع ما يشاء من الدين، وبذلك تعدد الرسل الذين بعثوا أنفسهم رسلاً من قبل المسيح بادعاء رؤيته في النوم.. وذلك منذ أن رفع الله المسيح إليه وإلى اليوم..

وهؤلاء المدعون الكاذبون بأن المسيح اختارهم وأرسلهم إلى الناس غَيَّرُوا دين المسيح، وأعطوا للناس ما يشتهون من الدين، فأسقطوا عنهم التكاليف، وأباحوا لهم ما حرمه الله عليهم، واجتهدوا فقط في جمع أموالهم وصرفها على ملذاتهم وشهواتهم، ولا يزال النصارى إلى يومنا هذا يكتشفون فساد أخلاق هؤلاء الذين نَصَّبوا أنفسهم عليهم باسم المسيح -عليه السلام-.

ونحن نعرض هنا في هذا الباب مجموعة من الأدلة القاطعة التي لا تُدْفَعُ على فساد الدين المُحَرَّفِ المُبَدَّلِ الذي اخترعه وابتدعه هؤلاء الكذابون الذين زعموا أن المسيح - عليه السلام - جاءهم في النوم، وأمرهم بالدعوة إلى المسيحية، وبذلك نشروا التثليث والشرك وأحلوا المحرمات، وأبطلوا شرائع الأنبياء، ووضعوا أنفسهم في خدمة الشيطان، بل جعلوا من أهم الأعمال النصرانية محاربة الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ الذي بَشَّرَ به عيسى والذي هو وعيسى عليهما السلام يدعوان إلى دين واحد شأنهما شأن جميع الرسل السابقين، وأن كُلّاً منهما من أبناء إبراهيم - عليه السلام -، محمد ﷺ من أولاد إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام -، وعيسى ابن مريم - عليه السلام - من أبناء داود، وداود من فرع يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام -.

والشاهد أن هؤلاء الكذابين الذين زعموا أن عيسى -عليه السلام- جاءهم

مناماً، أو ظهر لهم في السماء، وأمرهم بالدعوة إلى النصرانية، فانطلقوا يحاربون الله، ورسالته، فيحلون ما حَرَّم الله، ويحرمون ما أَحَلَّ الله، ويعملون لإطفاء نور الله في الأرض، ويجمعون الأموال لإبطال دعوة التوحيد، وصرف الناس عن العبودية له تبارك وتعالى، وقد صرح عدد من مجامعهم النصرانية أن هدفهم هو صرف المسلمين عن الإسلام، وإن لم يدخلوا في أي دين!!، فإن مقصودهم - كما يدعون ويفترون - صرف الناس عن الخير، وتحذيرهم من الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ.

وبعد هذه المقدمة الضرورية نأتي إلى الأدلة على فساد هذا الدين المُحْدَثِ المُبْتَدَع الذي هو في حقيقته تبديلٌ للدين الصحيح الذي بُعِثَ به عيسى - عليه السلام -.

١- النصرانية المحرفة دين مخترع مبتدع لم يعرفه أي نبي أو رسول قبل عيسى عليه السلام ولم يقله عيسى قط:

النصرانية بعد فسادها، ودعوتها إلى الشرك، والتثليث، والصلب، والفداء، والخطيئة.. وكون عيسى -في زعمهم إله- من الله، وأن روح القدس إله مع الله دين مبتدع، ومخترع، فلو كان هذا الدين حقاً هو دين الله الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب لكان هذا معلوماً منذ بداية الإنسان على هذه الأرض، منذ خلق آدم، وإرسال الرسل، فهل كان من كلام الرسل الذين أرسلهم الله - والذين يدعي النصارى الإيمان بهم - أن عيسى إله حق من إله حق، وأنه ابن الله، وأنه موجود مع الأب - حسب زعمهم - منذ الأزل، وأن روح القدس انبثق (هكذا) من الأب، والإبن، أو من الأب وحده - حسب قول بعضهم منذ الأزل.

أين هذه العقائد في العهد القديم (التوراة والزبور..) الذي زعم النصارى الإيمان به؟! بل أي آية فيها أن الله يرسل ولده إلى أهل الأرض، ويحصل له القتل، والصلب، ..الخ مما افتروه؟!

لقد حدث الأنبياء قبل عيسى - عليه السلام - بما هو أقل من هذه الأحداث المزعومة بكثير.. حدث كل منهم بالأنبياء الذين يأتون بعدهم، وبالمسيح الدجال، والأنبياء الكذابين، خراب أورشليم.. والفتن التي تكون قبل يوم القيامة، فَهلَّا حَدَّثوا بما هو أعظم من هذه الأحداث كلها، نزول ابن الله من السماء ليُقْتَلَ، ويُصْلَبَ في الأرض، ويفدي البشرية كلها من خطيئة أبيهم آدم التي دنستهم جميعاً - حسب زعمهم -، ولم يستطيعوا الفكاك منها، ولا إرضاء الرب بالتكفير عنها، فلما عجزوا عن ذلك أنزل الله ابنه ليصلب تكفيراً عن خطايا البشر بسبب ذنب أبيهم آدم، وكان هذا - في زعمهم - حباً من الله للبشر وللناس، أن يفديهم بابنه، فيُمَكِّن منه اليهود ليصلبوه ويقتلوه، ويَبْصُقوا في وجهه، ويصفعوه على قفاه، وكل ذلك من محبة الله لعباده.. إلخ من هذا الكفر، والتخليط، والإجرام في حق خالق السماوات والأرض سبحانه وتعالى.. أين كل هذا التخليط، والكفر الذي جعلوه قمة الاعتقاد، وغاية الدين، وهدف الحياة؟.. أين كل ذلك في كلام الأنبياء الذين سبقوا المسيح - عليه السلام - والذين يزعم النصارى الإيمان بهم وبرسالاتهم؟!

٢- لو كانت النصرانية المحرفة حقاً لكان الأنبياء والرسل جميعاً كفاراً ضلالاً:

لو كان هذا الدين النصراني المزور الزائف حقاً لكان الأنبياء الذين سبقوا المسيح ضلالاً أو كفاراً لأنهم لم يؤمنوا الإيمان الحق، ولم يعبدوا الله العبادة الحقة، ولم يعلموا أن لله ابناً موجوداً قبل خلق السماوات والأرض، وأنه إله مع الله يُدْعَى كما يدعى الله، بل وأن هناك إلهاً ثالثاً يُدْعى معهما وهو روح القدس، فكيف ضل الأنبياء السابقون جميعاً ولم يدعوا ولم يصلوا، ويسجدوا إلا لإله واحد خالق السموات والأرض؟ لم يكن معه أحد، ولم يعلموا بتاتاً أن له ابناً ولا صاحبة، ولا انبثق منه أقنوم ثالث يُسَمَّى روح القدس، وأن روح القدس هذا إلهٌ مع الله؟

والحق أن حقيقة قول النصارى في أن الله ثالث ثلاثة هو قول بالكفر على الأنبياء السابقين بل والمعاصرين للمسيح نفسه كيحيى بن زكريا الذي يسمونه (يوحنا المعمدان) فإن يحيى - عليه السلام - أرسل إلى المسيح من يسأله: **(أأنت هو الآتي أم ننتظر غيرك؟!)** وقتل يحيى - عليه السلام - وهو لا يعتقد إلا أن عيسى نبي قد بشر به الأنبياء قبل ذلك، ولم يمت على عقيدة النصارى في أن عيسى - عليه السلام - هو ابن الله وأنه كما تقول النصارى إله حق من إله حق.

فهل يقل النصارى أن الأنبياء جميعاً قبل عيسى - عليه السلام - كانوا بحسب عقيدتهم كفاراً أو ضلالاً لم يعرفوا ولم يدعوا إليه؟!

٣- كل الذين قالوا بألوهية المسيح يكفّر بعضهم بعضاً ولا يتفقون على شيء أبداً ولا يستطيع أحد منهم أن يدلي بحجة قاطعة على عقيدته ولا أن يبطل دين غيره:

جميع الذين قالوا بالتثليث من النصارى وأن الإله المعبود ثلاثة هو الأب والإبن وروح القدس، مختلفون أشد الاختلاف في حقيقة هذه الآلهة الثلاثة على أقوال متعددة وكل قول يناقض الآخر، وكل فرقة منهم تكفِّر الأخرى، فمن قائل أن الإبن مساوٍ للأب في الجوهر والصفات، ومن قائل إنه دونه، ومشيئة الأب غالبة عليه، ومن قائل أن روح القدس منبثق من الأب وحده، ومن قائل بل انبثق روح القدس من الأب والابن جميعاً، ومن قائل أن المسيح إله فقط، ومن قال إنه إله وإنسان، اجتمع فيه اللاهوت والناسوت بغير اختلاط وبغير امتزاج وبغير فساد، ومن قائل لا بل أصبحا طبيعة واحدة، وعنصراً جديداً، ومن قائل أن للمسيح (الإنسان والإله) مشيئة واحدة، ومن قائل لا بل مشيئتان: مشيئة للإنسان، ومشيئة للإله.. إلخ تخليطهم الذي لا ينتهي عند حد. وكل من أصحاب هذه المقالات كما أسلفنا يُكَفِّر بعضهم بعضاً، ويلْعَنُ بعضهم بعضاً، ولا يستطيع أحد منهم أن يقيم دليلاً على معتقده فليس بالأناجيل التي بأيدي القوم دليل واحد أصلاً على أيٍ من هذه العقائد المختلفة.

ولا يوجد عقل سليم يؤمن بهذه الخرافات والخزعبلات التي تُسوِّي بين خالق السماوات والأرض والإنسان المخلوق المصنوع الضعيف الذي كان يأكل ويشرب وينام، ويخاف، ويبكي ويتألم، ويهرب من أعدائه، بل ويُمكِّن منه أعداءه - حسب زعمهم -، ويستسقيهم ليشرب، فيسقوه خلّاً، ويسترحمهم فلا يرحمونه إلى آخر هذياناتهم.

فحسبك من فساد عقيدةٍ اختلاف أهلها فيها، وتناقضهم وعدم استطاعة أي قوم منهم أن يقيموا دليلاً على صحة معتقدهم وإبطال ما سواه.

٤- لم يقل نبي قط قبل عيسى أن لله ولداً، أو إنه سبحانه يولد له:

العقائد ومسائل الإيمان التي بشر بها الأنبياء جميعاً قبل عيسى -عليه السلام- كلها تدعو إلى توحيد الله، وأن الله إله واحد، وأنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وليس هناك أي دليل قط في كلام الأنبياء على أن لله ولد، أو أنه يولد له، أو أنه يتخذ زوجة، ولو كان التثليث هذا حقاً لكان ما نشره الأنبياء وبشروا به عقيدة باطلة وكفراً، وهرطقة على حد مُعْتَقَدِ النصارى.

٥- الأناجيل شاهدة أن عيسى عليه السلام لم يدع إلا إلى عبادة الله وحده لا شريك له:

قد عقدنا باباً كاملاً أتينا فيه بعشرات النصوص من الأناجيل التي يعتمدها النصارى الآن أن عيسى - عليه السلام - كان يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولا يذكر عن نفسه إلا أنه رسول الله، وهذا وحده كاف في إبطال الدين المبتدع الذي اخترعه بولس وأقرته المجامع النصرانية بعد ذلك، فالرد على هذه العقائد الباطلة من الإنجيل نفسه هو أبلغ الرد، والأناجيل الأربعة جميعها مليئة بالنصوص الواضحة الصريحة التي تبين أن عيسى -عليه السلام- لم يكن إلا مجرد رسول اصطفاه الله، وأكرمه، وعلَّمه، وأيده بالمعجزات، وأرسله داعياً إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وقد أوردنا بحمد الله عشرات من النصوص في الباب الخاص بشهادة الإنجيل على أن عيسى - عليه السلام - عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

٦- لم يقل عيسى عليه السلام قط إنه إله مساو للرب جل وعلا وإن على البشر أن يعبدوه ويسجدوا له:

لا يوجد في الأناجيل نصٌّ صريح قط على أن عيسى -عليه السلام- دعا الناس إلى عبادة نفسه، أو قال لهم أنا لكم إله مع الله فاعبدوني أو اعبدوا أمي، أو اعبدوا روح القدس الذي هو إله معي ومع الله، نعم فيها أن عيسى دعا الناس إلى الإيمان به، والإيمان بالرب الإله خالق السماوات والأرض، والإيمان بروح القدس، ومعلوم أن الإيمان بعيسى -عليه السلام- على أنه عبدالله ورسوله وكلمته وروحه حق يجب على كل مؤمن الإيمان به وإلا كان كافراً، وهذا يتناقض بالطبع مع القول أنه إله مع الله يُعْبَدُ كما يعبد الرب سبحانه وتعالى، أو أن له من الأمر شيء مع الله، أو أنه خالق ورازق مثل الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وكل هذا يدلك على أن النصارى إنما اخترعوا ديناً بأهوائهم، بل نقلوا دين بعض الوثنيين القدامى، وجعلوه ديناً لله كما قال تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٠] ، وهذا الدين المُخْتَرَعُ ليس في الإنجيل، ولا في أقوال عيسى - عليه السلام - ما يدل عليه، بل إن في الإنجيل ما يُضادّ ذلك ويُبْطِلُهُ.

٧- عقيدة التثليث منقولة بحذافيرها من العقائد الوثنية قبل المسيح عليه السلام:

قدمنا أن عقيدة التثليث التي قال بها النصارى لم يأت أي خبر عنها في الرسالات الأولى، بل في رسالات الأنبياء جميعاً، وإنما جاء وصف الإله مثلثاً أو ثالث ثلاثة وبأقانيم ثلاثة عند كثير من الأمم الوثنية قبل وجود المسيح - عليه السلام -.

٨- القرآن المنزل على خاتم الرسل أعظم شاهد على بطلان الدين المحرف الوثني للنصرانية:

أعظم شاهد على دين النصرانية المحرف هو القرآن الكريم، الكتاب الخالد المعجز، المنزل من الله سبحانه وتعالى على خير خلقه محمد ﷺ، والذي تحدى الله به الأولين والآخرين أن يأتوا بسورة من مثل سوره، فهو شهادة الله القائمة إلى آخر الدنيا، وكلمته الباقية في عباده، وحجته الدائمة على خلقه، وقوله الفصل في كل خلاف سبق نزوله، أو تأخر عنه، ولا يشكك في هذا القرآن إلا من أعمى الله بصره وبصيرته، وطمس على قلبه، وأصم أُذنيه عن سماع الحق، وأعرض، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، وإلا فكل من به أدنى إيمان، ومعرفة، وعقل، ونظر يعلم يقيناً أنه كتاب منزل من الله سبحانه وتعالى، وأن محمداً ﷺ الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب، وقد نشأ في مكة لم يخالط أحداً من أهل الكتاب، ولم يسمع منهم لم يكن له أن يعلم تاريخ النبوات الأولى، وتفاصيل ما جاءت به الرسل قبله، وأن يكون ما أخبر به هو عين ما عند أهل الكتاب مما يأثرونه وينقلونه..

وكذلك ما كان لرجل أمي أن يأتي بمثل هذا التشريع الكامل، والشريعة المطهرة التي لو اجتمع لها كل أساطين القانون والعدل لما استطاعوا أن يصوغوا مثلها في العدل والقسطاس، بل إن أحكامها معجزة في إرساء العدل والرحمة والإحسان.

وكذلك ما كان لرجل أمي أن يحيط علماً بكل هذه الأسرار العظيمة من أسرار الخلق في السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والنبات والحيوان، والمطر والرياح، ودقائق الجسم الإنساني، والنفس البشرية، وأن يأتي في هذا من العلوم والحكم والأسرار مما لم يعرفه الناس إلى زمانه، ولا يزالوا يجهلونه إلى زماننا، ولا يزال يظهر كل يوم من أسرار هذه العلوم المبثوثة في القرآن ما يقطع يقيناً أنه ليس من تأليف إنسان ولو فرَّغ حياته للعلم المادي، وأوقف نفسه له.

وكذلك ما كان لرجل أمي أن يكتب في صفة الله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والغيب، والعوالم الأخرى خارج هذا العالم المشاهد ما جاء به هذا النبي الكريم محمد بن عبدالله ﷺ.

وكذلك فقد أخبر هذا النبي الكريم بآلاف الغيوب والأحداث المستقبلية ما كأنه يراه رأي العين، ويطلع عليه.. مما يدل أنه تكلم بنور الله، وبعلمه، ولم ينطق في شيء من هذا، وغيره عن هواه، وعن نفسه..

وكل هذا يدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم هو كتاب الله الحق المنزل على عبده ورسوله محمد سيد ولد آدم وخير الرسل جميعاً وأعظمهم أثراً وهداية في هذه الأرض، وإمام خير أمة، أخرجت للناس إيماناً وصدقاً، ودعوة إلى توحيد الله وعبادته.

الفرقان بين عقيدة القرآن في عيسى عليه السلام وعقيدة النصارى الضالين:

وهذا القرآن الكريم قد أتى بالقول الفصل في شأن عيسى - عليه السلام - وأنه عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنه لم يكن هو الله، ولا ابن الله نسباً وولادة، وذاتاً - تعالى الله علواً كبيراً.. وأن عيسى - عليه السلام - لم يقتل، ولم يصلب، وإنما قد رفعه الله إليه في السماء منجياً له من مكر اليهود، وتآمرهم لقتله، وأن عيسى - عليه السلام - ينزل في آخر الزمان في دمشق، فيصلي مع أهل الإيمان من أمة محمد ﷺ، ويأمر بقتل الخنازير، وتكسير الصلبان، ولا يقبل من المشركين عبدة الصليب إلا الإسلام أو القتل، فلا يقبل منهم جزية..

وهذه العقيدة الواضحة الكريمة التي جاء بها القرآن، وبينها رسول الله محمد ﷺ تناقض ما زعمه النصارى من الرومان، وغيرهم بظنونهم الواهية، وعقولهم المريضة الفارغة في الوثنية، والشرك حيث زعموا أن عيسى هو الله خلق نفسه في رحم مريم، وولد منها صغيراً، ونشأ وترعرع في الناصرة،

وهرب إلى مصر، ثم عاد إلى الناصرة، واتهمت أمه بالزنا وسماه أهلها عيسى ابن يوسف النجار.. ثم تنبأ، ودعا إلى عبادة نفسه، وأبيه وروح القدس، وأنهم الثلاثة إله واحد، ثم تعقبه اليهود فخاف منهم، واختبأ في بستان، ولما علم بأنهم سيقتلوه، تألم وتضايق، وأصابه الكرب حتى الموت، وظل يناشد أباه أن يصرف عنه كأس الموت فما استجاب له، وبات ليلة الصلب يستعطف تلاميذه ألا يناموا حتى يؤنسوه، ويثبّتوه، ويقووا من عزيمته، فما فعلوا!!، ثم خانه أحدهم، وذهب فأتى باليهود، والشرطة ليقبضوا عليه فاستاقوه إلى رئيس الكهنة فحققوا معه، وصفعوه على وجهه، ثم استاقوه صباحاً إلى مكان صلبه، وقتله فألبسوه ثوباً أحمر أرجوانياً، ووضعوا إكليل شوك على رأسه، وألزموه حمل الصليب الذي يقتل عليه، وجعلت جموع اليهود تتبعه مستهزئة وهي تقول له: **(يا ملك اليهود أنقذ نفسك)** حتى وصل مكان الصلب فصلبوه، وسمروا رجليه في الصليب ورفعوه عليه، ثم استسقاهم وهو على الصليب فما سقوه إلا خلاً، ثم أسلم الروح، وهذه الحال من الذل، والقهر، والعذاب هي الحال التي صوروا بها الإله، خالق السموات والأرض العزيز المتكبر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وجعل هؤلاء الكذابون المعتوهون المشوهون هذا الفعل صادراً من الإله فداءاً للبشر من خطيئة لم يرتكبوها، وإنما ارتكبها أبوهم آدم وأنهم لما لم يستطيعوا أن يُكفِّروا عنها أنزل الله ابنه ليهينه هذه الإهانة، حتى يكفر لأبيه عما صنع البشر من خطيئة ارتكبها أبوهم.. فمثل هذه العقيدة التي تخالف كل عقل، وحكمة وتدبير، والتي تنسب إلى الله سبحانه وتعالى كل جهل، وسفه، وظلم، والتي تجعل الإنسان مذنباً بذنب أبيه، وبريئاً من الذنب بتوبة خالقه، وتجعل كفارة الذنب الصغير بجريمة من أعظم الجرائم.. فلئن كان البشر قد أجرموا، وأذنبوا بذنب آدم الذي أكل من شجرة في الجنة لم يسمح له بالأكل منها، فلذنب البشر بقتلهم ابن الله، وصلبه، والبصق في وجهه أعظم، وأشد جرماً، فأي شيء يمكن أن يكفر ذنب اليهود الذي فعلوا ما فعلوا في ابن الله الوحيد - كما يزعمون - إن تخليص اليهود من دم المسيح يحتاج إلى أن ينزل الرب بنفسه من السماوات ليشنق نفسه حتى

يبرئ اليهود من فعلتهم النكراء بابنه، وذلك قياساً على عقيدة النصارى أن الرب لم يجد من سبيل لتخليص البشر من ذنب آدم إلا أن يرسل ابنه ليقتل على الصليب فداءاً للبشر!!

والعجيب حقاً أن هؤلاء الحمير من النصارى موالون لليهود وينصرونهم ويؤازرونهم، وهم حسب معتقدهم هم الذين قتلوا (ابن الله الوحيد الذي سُرَّ به أبوه كل سرور) - حسب ما افتروه في الإنجيل..

وهذه الموالاة لليهود لا يفعلها جَهَلَتُهُم وعوامهم بل قد أصدر البابا (المعصوم عندهم) قراره التاريخي بتبرئة اليهود من آثامهم، ومغفرة ذنوبهم علماً أن اليهود لم يقدموا شيئاً يغفر لهم هذه الخطيئة، بل ما زالوا إلى اليوم يفتخرون أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم - رسول الله -.

والخلاصة أن القرآن الكريم الذي نزل بالكلمة الإلهية الأخيرة إلى أهل الأرض، قد قرر الوحدانية لله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض، وأنه جل وعلا لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأنه جل وعلا لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وأنه خالق عيسى وأمه وأنه يملك أن يُهْلِكَ المسيح ابن مريم وأمه، ومن في الأرض جميعاً، وأن المسيح -عليه السلام- ليس إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل، وأنه بشر كان يأكل ويشرب، وشهادة الله سبحانه في القرآن الكريم الذي جاء مصدقاً لما في الإنجيل والتوراة أعظم شهادة.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

وشهادة الله قد أثبتها القرآن على هذا النحو: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨].

وفي كل ما شهد الله به في القرآن في شأن عيسى بن مريم - عليه السلام - تكذيب وإبطال لعقيدة النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، والذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم.

لا يوجد عقل سليم يؤمن بالنصرانية:

عقيدة التثليث التي اخترعها النصارى وضاهئوا بها قول بعض الوثنيين قبل المسيح - عليه السلام - لا يوجد عقل سليم يؤمن بها، فهي تنافي وتضاد العقل كل المنافاة، ومن هذا التضاد، ومصادمة العقل ما يأتي:

أ- جعل الإله الذي هو محل العزة، والكبرياء، والرفعة، والذي هو أهل للمجد، والتقديس والتنزيه، محلاً للذلة، والمهانة، والعجز والنقص، وهذا غاية الفساد والتناقض.

فالرب المعبود خالق السموات والأرض القادر على كل شيء، والمحيط علماً بكل صغير وكبير، لا بد وأن يكون منزهاً عن كل عيب ونقص، لأنه لو كان ناقصاً لما استحق أن يكون إلهاً معظماً، مسجوداً له، تخافه الخلائق، وتمتثل أمره، وتهابه وتُعَظِّمه وتقدسه.

وهؤلاء النصارى جعلوا إلههم الذي يعبدونه بحال من الذل، والمهانة، والعجز، والفقر بحيث أنه يستدر رحمة الناس عليه، وإحسانهم إليه، وبكاءهم من أجل مصائبه ورزاياه، وإشفاقهم، من أجل آلامه.. وهذا الإله الذي يستحق من البشر كل ذلك يثير رثاءهم له، وعطفهم عليه، ولا يثير فيهم الانكسار إليه وطلب إحسانه، والخوف من عقوبته وامتثال أمره..

فعيسى -عليه السلام- الذي جعله النصارى إلهاً وعبدوه قد صوره النصارى بغاية الذل والهوان والعجز والفقر، فعندهم أن المسيح -عليه السلام- لما حملت به أمه مريم، وكانت في ذلك الوقت مخطوبة ليوسف النجار فأراد أن يتركها، فرأى في النوم رؤيا تمنعه من ذلك، وتأمره أن يأخذها إلى بيت لحم لتلد هناك حيث يقيد اسمه في الإحصاء العام الذي أمر به الرومان، وأن يوسف ومريم نزلا في خان في الطريق، ولما كانا فقيرين فإنهما لم يجد لهما مأوى إلا مكان الدواب، وأن أم عيسى لما ولدته قَمَّطَتْهُ، ووضعته في مزود البقر.. وأن يوسف عاد بهما إلى الناصرة، ثم فر بهما إلى مصر خوفاً من (هيردوس) الذي كان ينوي قتل عيسى -عليه السلام-، ونزلوا

هناك بمكان في مصر يسمى (المطرية) ثم عادوا بعد مدة إلى الناصرة إلى أن بلغ عيسى ثلاثين سنة، عمَّدُه (يوحنا المعمدان) في نهر الأردن، وأن عيسى - عليه السلام - صام بعد ذلك أربعين يوماً ثم شرع يدعو ويبشر بقيامة الأموات، فجاءه الشيطان ليجربه وقال له: اسجد لي وأنا أعطيك ممالك الأرض كلها، فقال له عيسى: **(اذهب يا شيطان فقد كتب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد)** (إنجيل متّى ٤/ ١١). وأنه بعد ذلك بدأ خدمته ومواعظه في أنحاء الجليل، وأورشليم، فتآمر اليهود ضده وأرادوا قتله، ورَشَوْا تلميذاً من تلاميذه ليدلهم عليه، ولما علم عيسى ذلك بكى وتألم، وصَلَّى من أجل أن يصرف عنه الرب هذه الكأس (الموت)، ولكن الله لم يستجب لدعائه، فجاءه اليهود وجنود السلطان الروماني فقبضوا عليه وحققوا معه، وصفعوه على وجهه، ثم حكموا عليه بالإعدام صلباً، فألبسوه ثوباً أحمر أرجوانياً ووضعوا تاجاً من الشوك على رأسه استهزاءاً به، وأرغموه على حمل صليبه الذي يُصْلَبُ عليه على ظهره، واقتادوه مع لِصَّين نكاية به ليصلب وسطهما، ثم أصعدوه على خشبة الصلب، وسمروا رجليه فيها، فاستسقاهم ليسقوه، فرفعوا إليه قطعة من القماش مبللة بالخل ليزيدوا في آلامه، وذله، وقهره، ثم طعنه جندي بحربة في جنبه فقتله ثم قبروه.. وبقي في الأموات ثلاثة أيام، ثم قام وصعد إلى السماء..

وأقول: فهل الذي يُصْنَع به ذلك ويعيش هذه الحياة الذليلة البائسة، ويلاقي من أصناف الإضطهاد والتنكيل كلَّ ذلك، يستحق أن يكون هو الرب الإله خالق السماوات والأرض العزيز المتكبر المتصرف في الملك، الذي له المجد كله، والأمر كله.. أم أن الذي يصنع به ذلك وتكون هذه حالته منذ الولادة في مكان الدواب وإلى الموت على الصليب ذليلاً محقراً، لا يمكن إلا أن يكون عبداً فقيراً لا يستحق السجود له ولا التقديس ولا الخوف منه إن الإله الذي يمكِّن أعداءه ليفعلوا به ذلك لا يستحق أن يقول للناس خافوني، واسجدوا لي، ومجِّدوني، بل ربما يَحْسُنُ منه أن يقول ارحموني، وارزقوني، وعافوني، واحموني..

والنصارى القائلون بألوهية المسيح لا عقل لهم إذ لصقوا كل هذه الصفات التي لا تليق بالإله الذي أوجبوا له الطاعة، والخضوع، والذي قالوا إنه يملك السموات والأرض..

ب- يُصِرُّ النَّصارى أن إلههم الذي يعبدونه مكون من ثلاثة أقانيم، أو ثلاثة تجسدات، أو ثلاثة شخوص، ولكنه مع ذلك إله واحد وذات واحدة.. وإن جئت تقول لهم كيف أصبح الثلاثة واحداً، والواحد ثلاثة، وفي أي حساب يكون ذلك، وأي عقل يستسيغ ذلك فإما أن يأتوك بسفسطة لا تغني من الحق شيئاً، وأما أن يقولوا: آمن على هذا النحو، فالإيمان ينافي العقل والتفكير، وما لا تستطيع أن تدركه اليوم يمكن أن تدركه يوم القيامة، وأن حقيقة التثليث لا تظهر إلا يوم القيامة.. وحقاً تظهر حقيقة شركهم يوم القيامة كما قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۞ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

وكما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ..﴾.

وسيرى القائلون بألوهية المسيح، وألوهية روح القدس، وألوهية مريم التي يسمونها أم الإله، سيرون أن المسيح يتبرأ منهم يوم القيامة، ويتبرأ منهم جبريل، ولا يكون أمامهم إلا النار.

والخلاصة أن التثليث الذي يدعون أنه هو التوحيد وأن الثلاثة إله واحد قول مناقض للعقل، وهم مختلفون في كيفية كون الثلاثة إلهاً واحداً كما بينا في الفصل الخاص باختلافهم في حقيقة دينهم، والشاهد هنا أن القول بالتثليث وأنه عين التوحيد قول مناقض للعقل، ومبادئ الحساب.

ج- من خصائص الإله الحق أن يكون هو الخالق والرازق والمبدع

للكون، والمحيط علماً بكل شيء، ومن أجل ذلك يكون من حقه على العباد أن يعبدوه، لا يشركون به شيئاً لأنه ربهم، وخالقهم، ورازقهم، ومدبر شئونهم، وهم المحتاجون إليه الفقراء إليه، وأما هو فغني عنهم، لا يستطيعون أن يضروه، ولا يستطيعون كذلك أن ينفعوه.. لأنهم إن كانوا يستطيعون نفعه كان هو الفقير إليهم المحتاج لهم، وهم المتفضلون عليه، وإن كانوا يستطيعون ضره كان عاجزاً ضعيفاً لا يستحق العبادة، وهذه هي خصائص الألوهية وخصائص العبودية، فالعبودية مَحَلُّها الذلُّ، والاحتياج، والفقر، والربوبية محلُّها الترفع، والكبرياء، والقهر، والغنى..

وإذا كان الأمر كذلك فإن العبد يكون في مقام العبودية لإلهه، ومولاه فيعبده، ويصلي له ويسجد له، ويخافه، ويهابه.. والرب يكون في مقام المعبود..

وهؤلاء النصارى الوثنيون المشركون قَلَبُوا الأمور، فجعلوا الرب في محل الذل، والفقر، والخدمة للعبد، فعيسى - عليه السلام - عندهم جاء ليخدمهم وليحمل ذنوبهم، ويكفر بنفسه عن أخطائهم، ويستدر رحمتهم، وعطفهم عليه، وبكاءهم من أجله، ورثاءهم له وجعلوا من شرط النجاة، والخلاص، ودخول الملكوت في الآخرة أن ترحم أنت الإله، وتبكي من أجله، وتأسى لأحزانه، وتتألم لصراخه على الصليب الذي كان كما يقولون يقطع القلوب، وتعترف أن هذا الإله المصلوب جاء ليخدمك ويتوب عنك، ويحمل أوزارك..

وأي عقل سليم لا يستسيغ مطلقاً أن يكون الذليل إلهاً، والذي يبكي على الصليب معبوداً، والذي يتوجع لأنه لا يملك بيتاً يضع رأسه فيه في حين تملك الطيور أعشاشاً والثعالب أوجاراً، مالكاً للسماوات والأرض متصرفاً في الكون؟!!

فهل هذا الإله المصلوب يستحق إلا الرثاء، والبكاء لآلامه وأحزانه، وهذه ليست عبادة، لأن العبادة الحقة تعني الذل، والخضوع، والخوف،

والرهبة، والإنابة، والتعظيم، والحب، وعيسى -عليه السلام- كما صوره النصارى لا يستحق إلا الشفقة عليه والرحمة له، ومثل هذا لا يكون قط إلهاً ورباً.

والخلاصة أن دين النصرانية وشركهم وتثليثهم وقولهم بالصَّلب، والفداء والخطيئة والخَلاص.. لم يأت به دليل في النبوات الأولى، وكل ما نُقِلَ عن عيسى -عليه السلام- فهو يناقضه، ويخالفه، ولا يستسيغه عقل سليم قط، وهو دين ابتدعه بولس اليهودي، واخترعه الرومان الذين أرادوا الدخول في النصرانية دون أن يفارقوا عقائدهم الوثنية في تعدد الآلهة، وفي أن الإله يجب أن يكون في خدمة البشر، لا أن يكون البشر في خدمة إلههم، ومولاهم!!

كتاب

الرد على أسئلة

(توني بولدر وجوفال)

وتشكيكاته حول القرآن الكريم والنبي العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبدالله ورسوله الأمين سيدنا محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر إخوانه الأنبياء والمرسلين الذين دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأقام الله بهم الحجة على الكافرين المعاندين والمخالفين.. وبعد

مقدمة

فقد قدم لي أحد الأخوة المهاجرين في أمريكا رسالة كتبها من ادعى أن اسمه (توني بولدروجوفاك) وهذه الرسالة مصدرة بإسم (السيد الكريم - السلام عليكم) ولم يذكر كاتبها من هو هذا السيد الكريم الذي وجهها إليه، وإنما وزع كاتب الرسالة رسالته هذه على المراكز الإسلامية في أمريكا. وتشمل هذه الرسالة التي تقع في نحو صفحة واحدة ونصف مجموعة كبيرة من الشبهات والإعتراضات والتشكيك في صحة القرآن الكريم، ورسالة الإسلام.

فقد ادعى في هذه الرسالة -حسب زعمه- أن في القرآن ما يدل على أنه من تأليف النبي محمد ﷺ، وأنه متناقض، وادعى أن ترتيب سور القرآن غير متناسق تاريخياً ولا منطقياً، وأن الإنجيل قد فاق القرآن تنظيماً وترتيباً.

وادعى كذلك أن سنة النبي ﷺ وأقواله كان فيها كثير مما يخالف العقل والعلم والحياة، واستدل لذلك بوصف النبي لخلق آدم وأنه خلقه ستين ذراعاً في السماء، واستدل لذلك بحديث الذباب الذي ادعى أنه يناقض الطب،

وتفسير النبي ﷺ لسبب مجيء الطفل يشبه أباه تارة، وأمه تارة أخرى مدعياً أن أحداً لا يصدق الرسول في تفسيره أن مَرَدَّ ذلك لسرعة القذف.

وقد رأيت من واجبي وإن كنت في زيارة سريعة للولايات المتحدة أن أرد على هذه الشبهات والأسئلة التي جاءت للطعن والتشكيك في دين الإسلام الحق.

فأقول - مستعيناً بالله:

أولا: لا وجه للمقارنة بين القرآن والإنجيل:

كنت أتمنى أن يفصح كاتب الرسالة والذي سمى نفسه (توني بولدروجوفاك) عن دينه الذي يدين به، وعقيدته التي يراها حقا، لنعرف أين يقف هذا المنتقد والمعترض لدين الإسلام من الرب سبحانه وتعالى ورسالاته، ومسائل الغيب، وما هي نظرته للكون والحياة، وذلك أن الذي يعترض على أمر ما من المفروض أن يكون قد اعتقد ما يراه هو صوابا وحقاً، وسؤالنا الأول للمشكك في الإسلام والقرآن ونبي الإسلام ما الدين الذي تراه أنت صواباً وحقاً حتى نجادلك على أساسه؟ والذي يظهر من اعتراضات صاحب الرسالة (توني بولدروجوفاك) أنه يؤمن بالنصرانية، ومما يدل على ذلك عقده للمقارنة بين القرآن الذي يرى فيه اضطراباً واختلافاً وتناقضاً وتشويشاً وعدم ترتيب، وبين الإنجيل الذي يراه بريئا من ذلك بالرغم من أن الإنجيل -حسب زعمه- كتب قبل آلاف السنين (هكذا)!!.

وأقول للأسف الشديد أن يعقد من له أدنى عقل مقارنة بين الكتاب المعجز الخالد القرآن الذي تحدى الله به الأولين والآخرين أن يأتوا بسورة من مثله، وقد عجز أئمة البيان وفرسان الكلمة، وحذاق العلم في كل العصور أن يجاروا القرآن بلاغة وفصاحة وبيانا، وعجز الأولون والآخرون أن يجدوا فيه ثغرة أو اختلافاً، وعجز المشككون فيه أن يجدوا تناقضاً واحداً مع ما يكتشفه البشر من علوم وأسرار الكون ما كان للأولين أن يحلموا بشيء منها، بل لو قيلت لهم في ذلك الوقت لكفروا بها، ومع ذلك أخبر بها القرآن صراحة ووضوحاً.

أقول للأسف أن يعقد عاقل مقارنة بين هذا القرآن الكريم الخالد المعجز وبين الإنجيل الذي فقد أصله، وتعاورته آلاف الأيدي بالتبديل والتغيير والتنقيح وحوى آلاف المتناقضات وليس فيه ما يدل على أنه كتاب منزل من الله فما هو إلا مذكرات ويوميات كتبها بعض تلاميذ المسيح عليه السلام أو تلاميذ تلاميذه، وكلهم كتب قصة حياة المسيح، وليس وحياً أوحاه الله إلى المسيح عليه السلام فبدأ بعضهم بذكر نسب المسيح، واختلف هؤلاء في سياق نسبه وجعل بعضهم بعض أجداده مولودا من سفاح وذكروا كيف ولد، وكيف هرب به خطيب أمه، وكيف سجل اسمه بعيداً عن بلدته (الناصرة) حتى يعمى خبره على اليهود، وكيف سافر به خطيب أمه من بلدة إلى بلدة.. ثم كيف تعمد على يد يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا عليهما السلام)، وكيف بدأ دعوته إلى توحيد الله وعبادته، وكيف توجه من قرية إلى قرية يشفي المرضى، ويعالج الزمنى، ويحيى بعض الموتى، ويبارك له في الطعام القليل ليصبح كثيراً، ويبشر بالآخرة، ويسب اليهود ويلعنهم قائلا لهم: "يا أبناء الأفاعي، لستم أولاد أبيكم إبراهيم، وإنما أنتم أبناء الشيطان".

وكيف بشر بالنبي الخاتم محمد بن عبدالله ﷺ الذي سماه (المعزي)، (والفارقليط) الذي يبقى دينه إلى آخر الدنيا، ويعاقب الناس على الخطيئة، وأنه سيرحل ويترك الأرض حتى يأتي هذا المخلص وهو محمد بن عبدالله ليس غيره صلوات الله وسلامه عليه.. فهو الذي أتي من بعده، وخلص الله العالم به من الخطيئة وكان رحمة للعالمين، فكل من آمن به من اليهود والنصارى وسائر الشعوب خلصهم، وأنقذهم الله به من الضلالة، وبصرهم به من العمى، وعرفهم به طريق الرب سبحانه وتعالى ودلهم على الصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه، والذي فصل الله فيه أحكام كل شيء، وأبان فيه لليهود والنصارى ما كانوا يختلفون فيه من شأن الدين فلم يبق بعد رسالته عذر لمعتذر. ولا شبهة لأحد..

والخلاصة أن الإنجيل الموجود بأيدي النصارى إنما ذكر فيه كاتبوه سيرة

المسيح حسب ما تصورها كل منهم، وليس فيه أن هذا خطاب الله من السماء إلى عيسى وليس فيه ما يدل كذلك على أن عيسى هو الله الذي كتب هذا الإنجيل، وإلا فكيف يكتب الرب سبحانه وتعالى عن نفسه "أنه ولد يوم كذا وكذا في (مذود بقرة) ولفته أمه بقماط، وهرب به خطيب أمه خوفاً من اليهود وأنه كان يصلي، ويبكي ويجوع، ويتوجع، ويتحسر أنه لا يملك مسكنا يضع فيه رأسه"!! هل يكون هذا وحي أوحاه الله من السماء للأرض، وهل يكون هذا كلام الإله؟ خالق السماوات والأرض، أو ابن الإله الذي هو مثله أو ذاته ونفسه كما تقول النصارى.. هل يتوجع الإله أنه لا يملك بيتاً يستريح فيه، في الوقت الذي للطير أعشاش تأوي إليها، وللثعالب جحور تختبيء وتستريح فيها، حيث يقول الإنجيل عن عيسى أنه كان يتوجع قائلاً: "للطيور أوكار، وللثعالب أوكار وليس لإبن الإنسان مكان يضع فيه رأسه".. هل يتحسر خالق السماوات والأرض، وملك العالم والكون أنه لا يملك ما يملكه ثعلب أو غراب.. وأقول هل يمكن أن يكون مثل هذا الكتاب هو وحي الله النازل من السماء..

وهل يعقل أن يقوم عاقل (مثل صاحب الرسالة) بعقد مقارنة بين القرآن والإنجيل ويفضل فيها الإنجيل على أنه كتاب مؤتلف منتظم في حين أن القرآن كتاب مشوش متناقض؟!!

وهل يعقل يا أصحاب العقول والفهوم أن يكون الإنجيل هذا وحياً وهو يحكي كيف حوكم الرب الإله (يسوع) وسيق ذليلاً مهاناً إلى حبر اليهود ورأسهم في زمانه ليحكم فيه بحكم التوراة، وأنه سأله "هل أنت ملك اليهود" فلما أجاب بما يفيد ذلك، صُفعَ على قفاه، وحكم بقتله جزاء تجديفه وكفره وبدعته فسيق إلى الموت والصلب مغلوباً ذليلاً مبصوقاً في وجهه يحمل صليبه على ظهره، ويسير معه إلى الموت لِصَّان زيادة في إذلاله وأنه رفع إلى الصليب فسمرت فيه يداه ورجلاه، وعطش فاستسقى فرفع له الخل بدلاً من الماء، ثم طعن في جنبه فسال دمه "ولكنه لم ينزل إلى الأرض لأنه لو نزل لهلكت

الأرض ودمر العالم" هكذا يدعي النصارى، وكأن كل الإذلال السابق لا يكفي لدمار الأرض وهلاك العالم!! والمحذور والجريمة فقط أن يسقط دم الإله على الأرض، لكن أن يصلب ويصفع ويبصق في وجهه، لا يهم ولا يضر..

ثم إن المسيح (إله الأرض والسماوات كما يزعم النصارى) تكسر رجلاه، وينزع قميصه ويتقاسمه الحراس ويبقى عارياً على الصليب، ثم ينزل ويقبر ويمكث في القبر ثلاثة أيام.. وكل ذلك وهو الملك خالق السماوات والأرض وإله الكون كما يزعمون، وخالق الرسل والأنبياء، ومن له ملكوت السماوات والأرض وجنود السماوات والأرض.. ثم إنه بعد هذا الإذلال كله والإهانة جميعها يصعد إلى السماء تاركا أكفانه التي كفن فيها في الأرض!! وتاركاً أمه، وتلاميذه في حيرة من أمرهم فيه..

وكل هذا الهراء والسخف يقولون إنه وحي الله النازل من السماء.

وأنا أسأل: من أنزل هذا الهراء والسخف؟ الأب الذي في السماء؟! وعلى من أنزله بعد موت ابنه هذه الميتة البئيسة -كما يزعمون-؟! أم الابن الذي فُعِلَ به كل هذا الشر، وهو يبكي تارة، ويتوجع أخرى، ويتوسل إلى الأب أن يصرف هذه الكأس المرة عنه، ومع ذلك فلا يستجيب له، ولا يرق لبكائه وعبراته، وصراخه، ويحكم عليه أنه لا بد وأنه يذوق الموت على هذا النحو الذليل؟! ولماذا؟. ليخلص البشر من خطيئة أبيهم آدم؟! لأن آدم، الذي ارتكب تلك الخطيئة الكبرى لوثته ونجست جميع ذريته، ولم يستطع لا آدم ولا كل الأنبياء والرسل بعده أن يتخلصوا من هذه النجاسة والجريمة التي ارتكبها أبوهم، وكان لا بد وأن يرسل الله ابنه الوحيد -كما يزعمون- ويحكم عليه بالموت صلباً وقهراً وذلاً حتى يرضى الرب الإله الذي لا يرضيه إلا أن يموت ابنه على هذا النحو البئيس.. ليفدي البشر. فيا له من إله ظالم يَلْعَنُ الأبناء بفعل آبائهم، ويتوب عليهم بتوبة ابنه ويصحح الخطأ الصغير لآدم، بجريمة كبرى لليهود، ويخلق الخلق لغير حكمة، أو مراد معقول، وأقول: تعالى الله عما يقول الضالون الظالمون علواً كبيراً..

والعجيب أن كل هذا السخف والهراء، والكذب والافتراء وسب الله ورسالاته، واتهام الأنبياء السابقين جميعاً أنهم كانوا جهلة كفاراً إذ لم يعلم أحد منهم أن لله ابنا، وأن الإله الواحد إله مثلث يتكون من الأب والابن وروح القدس بثلاثة أقانيم، وأنه سيرسل ابنه ليفديهم من خطيئة أبيهم آدم التي لم يعرفوا كيفية الخلاص منها..

أقول العجب أن يكون هذا الدين، وهذا الإنجيل الذي يسب الله على هذا النحو، ويسب عيسى بن مريم عليه السلام، ويسب جميع الأنبياء وينسب إليهم الجهل والكفر والخطيئة. العجب أن يعتقد عاقل هذا وحياً أوحاه الله إلى عباده..

والأعجب أن يقوم من يدعي العقل والدين ليعقد مقارنة بين هذا السخف كله وبين القرآن الكريم الكتاب المعجز الذي عرفنا بالله سبحانه وتعالى الإله الحق الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، الإله الحق الرحيم الودود العزيز المتكبر، الذي لا يبلغ العباد ضرة فيضروه، ولا يبلغون نفعه فينفعوه.. فالبشر عاجزون عن ضر الله ونفعه.. هذا الكتاب الذي أثنى على الأنبياء وشرفهم وأعلى منازلهم، ورفع درجاتهم، وبين عزتهم ومكانتهم، والذي جعل الرسل في مكان التحدي والعزة فلا يستطيع البشر مهما أوتوا من قوة أن يكون لهم سبيل عليهم فلا نوح ولا إبراهيم ولا موسى ولا هود، ولا صالح ولا لوط، ولا عيسى استطاع أعداؤهم أن يصلوا إليهم رغم ما تميزت قلوبهم من الغيظ عليهم.

كما قال تعالى عن نوح وهو يتحدى قومه أن يقتلوه أو ينالوا منه: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (يونس: ٧١).

وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٧٠] وذلك أنهم أرادوا حرقه فأنجاه الله من النار وقال: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وكذلك هود قال لقومه متحدياً وقد هددوه بالقتل والهلاك: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٤-٥٦).

وكذلك صالح أنجاه الله عندما تآمر قومه على قتله وعزموا على اغتياله ليلاً حيث لا يراهم أحد ولا يعرف أقاربه من قتله، فأنجاه الله ودمر قومه كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾..

وكذلك لم يستطع فرعون قتل موسى مع ضعف موسى وقلة نصيره في مصر، وكان فرعون الجبار يتحرق شوقاً إلى مقتله فلم يستطع كما قال تعالى عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] ومع ذلك لم يستطع حيث انبرى قومه يحذرونه، وقام له رجل مؤمن يحذره مغبة ذلك فرد الله كيد فرعون في نحره وبقي ذليلاً مقهوراً لا يستطيع وهو ملك مصر المتصرف فيها أن يقتل غريباً ملاحقاً طريداً قد قتل منهم يوماً ما، وأهانهم، وعاب دينهم وهو يتوعدهم كل يوم بالويل والثبور، ومع ذلك صانه الله أن يصلوا إليه..

فهل يكون كل هؤلاء الرسل أعز على الله من عيسى بن مريم الذين يهينه الله هذه الإهانات البليغة، ويمكن أعداءه ليفعلوا به كل هذا الشر، والحال أن الرب العزيز الذي يحمي من التجأ إليه ويغيث من استغاث به، ولا يمكن أن يرسل الرسل وهم منتسبون إليه، متكلمون باسمه، داعون إلى دينه، ثم يمكن أعداءهم منهم ليقتلوهم ويصلبوهم.. لو فعل ذلك الرب لكان هذا أعظم تنفير للناس من دينه والإيمان به والالتجاء إليه.. فكيف والنصارى المشركون يقولون إن عيسى ليس رسوله فقط بل هو ابنه الوحيد الذي يحبه من كل قلبه -كما يزعمون-.. فإذا كان الرب الإله يصنع في ابنه الوحيد كل هذا الإذلال والقهر فكيف بغيره؟

ولا يُعتَرض على ما نقول بما يَبتلي الله به الأنبياء غير الرسل الذين قتل منهم عدد كبير، وكذلك عموم المؤمنين الذين يبتلون بالتعذيب والقتل وذلك أن الرسل في مقام التحدي وأما الأنبياء والمؤمنين فإنهم ليسوا كذلك، ويبتليهم الله ليرفع درجاتهم ويعلي منازلهم عنده فيكون منهم الشهداء الذين يقتلون في سبيله وأما الرسل فهم في مقام التحدي ولا بد أن يمكن الله لهم ليبلغوا رسالة ربهم، ولا يقتلوا بيد البشر حتى لا يسقط دليلهم، وتدحض حجتهم بأنهم رسل الله المعصومون أن ينالهم أعداؤهم..

وهذا رسولنا محمد ﷺ مع حرص الكفار على مقتله وتآمرهم على ذلك واجتماع كلمتهم على اشتراك جميع القبائل في مقتله، لكن الله أنجاه منهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠). ومعلوم كيف أنجى الله عبده ورسوله محمداً، وأخرجه من بين ظهراني المشركين وأعزه ونصره حتى دخل مكة فاتحاً منتصراً .﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

وهكذا الشأن في عيسى عليه السلام أيضاً فإن اليهود لما مكروا مكرهم به، ووشوا به إلى (بيلاطس) الحاكم الروماني في فلسطين نائب القيصر عليها، وحكم عليه اليهود بأنه مبتدع ضال (مجدف) يستحق القتل.. فإن الله سبحانه وتعالى لم يمكن اليهود من تنفيذ هذا المكر الخبيث.. فرفع الله عيسى إليه في السماء دون أن يمسه هؤلاء المجرمون بأذى، بعد أن بَلَّغَ رسالته، ونشر دينه، وأقام الحجة على المعاندين، وأقام من أنصاره من يحمل الدين بعده، وعاهدهم على ذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٥٢].

والخلاصة أن عيسى بن مريم عليه السلام كان الشأن معه هو الشأن مع إخوانه الرسل جميعاً حيث أن الله أنجاه من أعدائه اليهود عندما تألبوا عليه، وأرادوا أن يقتلوه ويصلبوه - فطهره منهم ورفعه إلى السماء عزيزاً كريماً، وادخره عنده لينزل في آخر الزمان حاكماً بالقرآن الكريم، تابعاً للنبي الخاتم

مصلياً مع المسلمين، كاسراً للصليب المزعوم، قاتلاً للخنزير الخبيث الذي يستحل أكله المنسوبون إليه من النصارى، وهو الحيوان الخبيث الذي جاءت كل شرائع الأنبياء بخبثه وشينه، وجاء (بولس اليهودي (شاول) المغير لدين المسيح) ليحل لهم ما حرم الله عليهم على لسان عيسى وموسى.. واتبعه هؤلاء الضالون الذين لا يميزون بين شريعة الله وشريعة الشيطان أقول أنجى الله عيسى بن مريم عليه السلام أن يناله القتل والصلب والإذلال والإهانة كما أنجى الله سائر الرسل الكرام.

وأعود فأقول كيف يستوي في العقل والمنطق ذلك القرآن الكريم الكتاب المعجز الخالد، وهذا الإنجيل الذي حوى كل هذه الخرافات والخزعبلات والعظائم والقبائح مما لا يجوز أن ينسب إلى الله رب العالمين..

والخلاصة أن هذا المدعو (توني بولدروجوفاك) الذي توجه بأسئلته التافهة ليطعن في القرآن أو يدعي أنها لا توافق عقله ومنطقه وفهمه ويمدح الإنجيل ويثني عليه أنه يستقيم مع العقل والمنطق والفهم..

فإذا كان هذا عقلك وفهمك حيث تفضل هذا الغثاء والكفر على الدين الحق القويم وعلى كتاب الله رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. فحسبك هذا البيان لتراجع عقلك وفكرك.

وإذا كنت تعرف الحق وتجحده وتنكره.. فاعلم أن هذا يضرك غداً عندما تقف بين يدي مولاك وخالقك وإلهك إله السماوات والأرض، ويكون أول من يبرأ منك ويلعنك هو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، الرسول الكريم.

ثانياً: ونبدأ الآن بعرض أسئلة المعترض سؤالاً والجواب على كل سؤالاً منها.

(١) حديث الله سبحانه وتعالى عن نفسه في القرآن بصيغة المتكلم تارة وبصيغة الغائب أخرى.

*** السؤال أو الاعتراض الأول: يقول السائل (توني بولدروجوفاك):**

كيف يمكن اعتبار القرآن قد أوحى إلى محمد، وفي نفس الوقت نجد أن محمداً - ﷺ - هو المتكلم في آيات عديدة كما في سورة ١ الآية ٥، ٧ - وفي سورة ٢، ١٠٥ الآية ١١٧، ١٦٣ وكما في سورة ٣ الآية ٢، وفي سورة رقم ٤٠ الآية ٦٥، والسورة رقم ٤٣ الآية ٨٨، ٨٩؟

*** والجواب:**

أن السائل لا يعرف أساليب اللغة العربية، ولا طرائق البلغاء في الكلام، ولا منهجهم في البيان، ومعلوم أن القرآن نزل بلغة العرب، وقد تحدى الله الأولين والآخرين أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة وبيانا وحلاوة وبناءاً معجزاً يستحيل الإتيان بكلام مثله في الحلاوة والبيان.

ومن أساليب العرب في البيان أن يتحدث المتكلم عن نفسه تارة بضمير المتكلم، وتارة بضمير الغائب، كأن يقول المتكلم: فعلت كذا وكذا، وذهبت وآمرك يا فلان أن تفعل كذا، وتارة يقول عن نفسه أيضاً: إن فلاناً -يعني نفسه- يأمركم بكذا وكذا، وينهاكم عن كذا، ويحب منكم أن تفعلوا كذا كأن يقول أمير أو ملك لشعبه وقومه وهو المتكلم إن الأمير يطلب منكم كذا وكذا.. وهو يشير بذلك أن أمره لهم من واقع أنه أمير أو ملك. وهذا أبلغ وأكمل من أن يقول لهم أنني الملك وآمركم بكذا وكذا.. فقوله: أن الملك يأمركم أكثر بلاغة من قوله أنني الملك وآمركم.. وقد جاء القرآن بهذا النوع من البيان كما في الآيات التي اعترض بها السائل فظن أن هذا لا يمكن أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى: نحو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: ١٦٣] ، وقوله في سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ۞ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ فظن هذا الذي لا يعرف العربية أن الله لا يمكن أن يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب وأنه كان لا بد وأن يقول (نزلت عليك يا محمد الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه..) ونحو ذلك وهذا جهل بأساليب اللغة العربية، وموقعها في البيان والبلاغة..

ولا شك أن خطاب الله هنا وكلامه عن نفسه بصيغة الغائب أبلغ من لو قال سبحانه (ألم، أنا الله لا إله إلا أنا الحي القيوم نزلت عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه الآيات).

وعلى كل حال فهذا أسلوب من أساليب البلاغة في اللغة، والظن أن هذا يطعن في القرآن وأنه ليس من عند الله وإنما من عند الرسول ظن تافه ساذج في منتهى الركاكة والجهل.

وأما الالتفات في الخطاب من الحضور إلى الغيبة والعكس، كأن يخاطب المخاطب بضميره فيقول أنك فعلت كذا وكذا ثم تخاطبه تارة أخرى بضمير الغائب فتقول له: فعل فلان كذا وكذا وأنت تعنيه. فهذا كذلك أسلوب من أساليب البلاغة: كقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ولا شك أن النبي هو المقصود، ثم حول الله الخطاب إليه قائلا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۞ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾.

وأما أن القرآن كتاب تعليم وتوجيه فقد جاء ليعلم المسلمين ماذا يقولون في صلاتهم، وبماذا يدعون ربهم فقد أنزل الله سورة (الفاتحة) لتكون دعاءا وصلاة للمسلمين يتلونها في كل ركعة وفيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهذا كلام الله عن نفسه سبحانه يصف نفسه بهذه الصفات الجليلة العظيمة ثم يعلم المسلمين أن يقولوا في صلاتهم ودعائهم هذا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فهذه السورة تعليم وتوجيه من الرب سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ليصلوا ويدعوا بها في كل ركعة من ركعات صلاتهم.. وفي هذه السورة من البلاغة والإعجاز والمعاني ما لا تسعه هذه الرسالة الموجزة. ولو أن عالماً بالعربية تدبرها كفته إعجازاً وشهادة أن هذا القرآن منزل من الله سبحانه وتعالى وليس من كلام بشر.

والخلاصة من هذا السؤال أن صاحبه إنما أتى به من كونه لا يعلم العربية

ولا أساليب البيان والفصاحة وما أظن إلا أن معظم اللغات تعرف هذا اللون من التعبير والذي يسمى بـ (الإلتفاف) أي التحول من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، لمقاصد كثيرة كتخفيف العتاب، أو توجيه النظر إلى البعيد أو استحضار المشهد، أو التعظيم، أو التحقير ونحو ذلك من مقاصد البلغاء.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة (غافر: ٦٥) ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو خطاب لله سبحانه وتعالى عن نفسه بصيغة الغائب وهو تعريف للعباد بذاته العلية جل وعلا.. وقد قدمنا أن هذا أسلوب من أساليب العربية في الخطاب.

ومثل هذا أيضاً ما اعترض به هذا الجاهل باللغة وهو قوله تعالى في (سورة الزخرف: ٨٨، ٨٩): ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. فإن هذا جميعه من حديث الرب جل وعلا عن نفسه، وعن رسوله، وأن محمداً ﷺ كان إذا سأل المشركين عن خالق السماوات والأرض يعترفون أنه الله سبحانه وتعالى فعجب الله نبيه ﷺ من حال هؤلاء المشركين الذين يعتقدون بأن الله خالق السماوات والأرض ثم لا يفردونه وحده بالعبادة، ولا يؤمنون بقدرته على إحيائهم بعد موتهم ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] أي يقلبون، ثم ذكر الله توجع رسوله محمد ﷺ وشكاته من قومه ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ [الزّخرُف: ٨٨] أي وهذا قول الرسول لربه ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزّخرُف: ٨٨] وعندئذ يأتيه الجواب وهو بمكة ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزّخرُف: ٨٩] أي لا تعلن حرباً عليهم الآن: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩] ما يكون مآلهم في الدنيا من القتل بأيدي المؤمنين، ومآلهم في الآخرة من الخلود في النار أبد الآبدين.

وهذا الجاهل باللغة يظن أن قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٨٨] .. الآية، أن هذا من كلام محمد ﷺ وإذن فالقرآن لا يمكن أن يكون من كلام الله. ومثل هذا السخف لا يحتاج إلى رد ولكن ماذا نفعل إذا كان هؤلاء هذا هو مستواهم من العلم.. ومع ذلك يعارضون

القرآن، ويشككون في رسالة الإسلام.

(٢) لا تناقض في القرآن حول عدد أيام خلق السموات والأرض.

*** السؤال الثاني ونصه كما يلي:**

السورة (٣:١٠) ذكر بها أن خلق السموات والأرض تم في ستة أيام. السورة (٩:٤١ إلى ١٢) ذكر بها أن خلق الأرض تم في يومين وخلق الله الأنهار والغابات.. الخ في الأرض (بعد خلقها) في أربعة أيام، وأنه قد خلق السموات في يومين (السورة ١٠ تتناقض مع السورة ٤١ (٢+٤+٢=٨ أيام)).

*** والجواب:**

هذا السؤال يتعلق بقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۞ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۞ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ..﴾.

نعم بجمع هذه الأيام دون فهم وعلم يكون المجموع ثمانية وقد ذكر الله في مواضع كثيرة من القرآن أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام..

وما ظنه السائل تناقضا فليس بتناقض فإن الأربعة أيام الأولى هي حصيلة جمع اثنين واثنين.. فقد خلق الله الأرض خلقاً أولياً في يومين ثم جعل فيها الرواسي وهي الجبال ووضع فيها بركتها من الماء، والزرع، وما ذخره فيها من الأرزاق في يومين آخرين فكانت أربعة أيام. فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فُصِّلَت: ١٠] ، هذه الأيام الأربعة هي حصيلة اليومين الأولين ويومين آخرين فيكون المجموع أربعة. وليست هذه الأربعة هي أربعة أيام مستقلة أخرى زيادة على اليومين الأولين.. ومن هنا جاء الخطأ عند السائل.. ثم إن الله خلق

السموات في يومين فيكون المجموع ستة أيام بجمع أربعة واثنين..

ولا تناقض في القرآن بأي وجه من الوجوه.. ثم إن القرآن لو كان مفترى كما يدعي السائل فإن محمداً ﷺ لم يكن ليجهل مثلاً أن اثنين وأربعة واثنين تساوي ثمانية وأنه قال في مكان آخر من القرآن إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام.. فهل يتصور عاقل أن من يقدم على تزييف رسالة بهذا الحجم، وكتاب بهذه الصورة يمكن أن يخطئ مثل هذا الخطأ الذي لا يخطئه طفل في السنة الأولى الإبتدائية؟!

لا شك أن من ظن أن الرسول افترى هذا القرآن العظيم ثم وقع في مثل هذا الخطأ المزعوم فهو من أحط الناس عقلا وفهما. والحال أن السائل لا يفهم لغة العرب وأن عربياً فصيحاً يمكن أن يقول: زرت أمريكا فتجولت في ولاية جورجيا في يومين، وأنهيت جولتي في ولاية فلوريدا في أربعة أيام ثم عدت إلى لندن.. لا شك أن هذا لم يمكث في أمريكا إلا أربعة أيام فقط وليس ستة أيام لأنه قوله: في يومين في أربعة أيام يعني يومين في جورجيا ويومين في فلوريدا..

وهذه الآية التي نحن بصددها تشبه أيضاً قول الرسول ﷺ بأن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة في مثل ذلك يكون مضغة في مثل ذلك فإن هذا جميعه في أربعين يوماً فقط وليس في مائة وعشرين يوماً كما فهمه من فهمه خطأ فقول الرسول (في مثل ذلك) أي في هذه الأربعين، ومثله هنا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فُصّلَت: ١٠] أي بزيادة يومين عن اليومين الأولين.

(٣) مقدار الأيام عند الله.

*** السؤال الثالث هو:**

هل اليوم الواحد يساوي ألف سنة أو خمسين ألف سنة عند الله (السورة ٣٢: الآية ٥، مناقضة للسورة ٧٠: الآية ٤)؟

*** والجواب:**

سهل وبسيط وهو أن الأيام عند الله مختلفة فيوم القيامة يوم مخصوص وهذا مقداره خمسين ألف سنة من أيام الدنيا كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۞ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۞ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۞ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، وأما سائر الأيام عند الله فكل يوم طوله ألف سنة من أيام هذه الدنيا، كما تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحَجّ: ٤٧]. ومعلوم أن الأيام على الكواكب تختلف بحسب حجمها وحركتها، فماذا يمنع أن يكون يوم القيامة أطول من سائر الأيام.

(٤) إخبار الله سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام وابنه.

*** السؤال الرابع هو:**

السورة ٢١ :الآية ٧٦ ذكر بها أن نوح وأهل بيته قد نجوا من الفيضان، ولكن السورة ١١ :الآيات ٣٢ إلى ٤٨) ذكر بها أن أحد أولاد نوح قد غرق؟

*** الجواب:**

إن الاستثناء أسلوب معروف في لغة العرب فيذكر المتكلم المستثنى منه على وجه العموم ثم يخرج منهم من أراد إخراجه. ويمكن أن يأتي الإستثناء منفصلاً، ويمكن أن يأتي متصلاً.. وفي سورة الأنبياء قال الله تعالى عن نوح: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنبيَاء: ٧٦] وقد بين سبحانه وتعالى المراد بأهله في آيات أخرى وهو من آمن منهم فقط حيث أخبر سبحانه وتعالى في سورة هود أنه قال لنوح: ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ ۞ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾. فقد أمره الله سبحانه وتعالى أن يحمل أهله معه إلا من سبق القول من الله بهلاكهم.. وقد كان قد سبق في علم الله أن يهلك ابنه مع الهالكين لأنه لم يكن مؤمنا..

ولم يكتب الله لأحد النجاة مع نوح إلا أهل الإيمان فقط، وابنه لم يكن مؤمناً.. وبالتالي فلا تناقض بين قوله تعالى في سورة الأنبياء إنه نجى نوحاً وأهله، وبين ما جاء في سورة هود إنه أغرق ابن نوح لأن ابن نوح لم يكن من أهله، كما قال تعالى لنوح لما سأله عن ابنه ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هُود: ٤٦] . وبالتالي فلا تناقض بحمد الله في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(٥) لا مجال للمقارنة بين القرآن الكريم والإنجيل.

*** السؤال الخامس هو:**

هناك أخطاء نحوية في القرآن. فيوجد به جمل غير متكاملة، ولا تفهم تماماً بدون إدخال بعض الكلمات الأخرى عليها (٢:٥، ٧:١٦٠-١٦١.. الخ). إن ترتيب السور بالقرآن غير متصل تاريخياً أو منطقياً، فلا تشعر بوقت أو مكان. هناك شك في موضوعية تكامل القرآن لأننا نجد أن أناس وأماكن غير محددة وأحداث وضعت معاً في رؤية واحدة وكأنهم جميعاً كانوا يعيشون معاً في نفس الزمان. وهذا يسبب مشاكل عديدة واختلاط الأمر لكل من يحاول فهم القرآن كقطعة أدبية، لإعادة بناء حياة وتعاليم محمد بوسيلة مرتبة فلا بد للفرد أن يقفز من سورة إلى أخرى في القرآن كله. ويترك الفرد بإحساس عدم التكامل وعدم الرضا لأنه لم يحصل على القصة الكامل. وهذا مضاد تماماً للإنجيل الذي كتب فيما يزيد عن عدة آلاف السنين بما يزيد عن ٤٠ مؤلف مختلف.

*** الجواب:**

إن صياغة هذا السؤال على هذا النحو يدل على أن كاتبه إما أنه لا يدرك شيئاً من اللغات، عربية كانت أم غير عربية، أو أنه يعترض لمجرد الاعتراض. وتفصيل ذلك على هذا النحو:

(أ) الآية الخامسة من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥] يشير الله بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [البَقَرَة: ٥] على المذكورين قبل ذلك وهم المتقون الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، ويؤمنون بالقرآن والكتب التي نزلت على الرسل قبل القرآن ويؤمنون بالآخرة، وهؤلاء المذكورون قد عبر الله عنهم بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [البَقَرَة: ٥] وهي اسم إشارة للبعيد تعظيماً لشأنهم ورفعاً لمنزلتهم ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥] .. ويبدو أن السائل ظن أنه إشارة الله لهؤلاء المذكورين (بأولئك) وهي صيغة إشارة للبعيد أن هذا خطأ نحوي إذ يعبر عن القريب بالبعيد، ولم يفهم أن هذا أسلوب بلاغي من أساليب العرب، وهي تعبيرهم بالإشارة بالبعيد للتعظيم والتهويل.. أحيانا، وللتقليل والتحقير أحياناً حسب السياق، ومرامي الكلام.. وهنا عبر الله عن هؤلاء المتقين الذين يتصفون بهذه الصفات بصيغة البعيد وهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [البَقَرَة: ٥] رفعاً لشأنهم وإعلاءاً لمنزلتهم. ولا شك أن هذا أمر عظيم لأن فيه إشارة ورفعة لهؤلاء المذكورين.

(ب) وأما قوله تعالى في سورة الأعراف الآية رقم (٢٦٠) وهي قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.. [الأعراف: ١٦٠] واعتراض السائل هو كيف يقول تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ﴾ [البَقَرَة: ٥٧] ، ويتكلم بصيغة الخطاب وهو قبل ذلك قد تكلم عن بني إسرائيل بصيغة الغائب وأنه سبحانه قطعهم اثنتي عشرة أسباطاً وأنه قال لموسى كذا وكذا..

ومرة أخرى لا يفهم السائل أسلوب العربية، ولا بلاغة الخطاب، ويظن أن الانتقال من الغيبة إلى الخطاب خلل في الأسلوب، وخطأ نحوي!! وهذا يدل على أنه لا يعرف نحواً، ولا بلاغة، ولا يدرك معنى للفصاحة ولا

البيان.. وهذه الآية في منتهى الإعجاز والبلاغة فإن الله تحدث فيها عن بني إسرائيل وما صنع لهم من الخير والإحسان، وأنه ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، وبدلاً من أن يقول: وقلت لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم، أو وقال لهم موسى إن الله يقول لكم (كلوا من طيبات ما رزقناكم).. فإن الله حذف هذا وانتقل رأساً إلى القول دون ذكر القائل.. لأن القائل معروف من السياق وهو الرب تبارك وتعالى ولا يمكن أن يفهم أن القائل هو غير الرب جل وعلا لأن القول هو ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٥٧] فمن سيقول هذا القول إلا الله، ومعلوم أن حذف ما يعلم جائز، بل ذكر المعلوم ضرورة حشو وزيادة لا داعي لها، والقرآن ينزه عن الحشو والزيادة..

ويفهم كل من يعلم العربية أن قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الأعرَاف: ١٦٠] أن معنى ذلك وأنزلنا عليهم المن والسلوى وقلنا لهم ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٥٧] فحذف ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ [النِّساء: ١٥٤]، أو (أمرنا موسى أن يقول لهم) لأن هذه زيادة لا داعي لها في السياق لأنها معلومة!!

(ج) وأما قول السائل إن ترتيب السور غير متصل تاريخياً أو منطقياً حيث لا يفهم القارئ الوقت ولا المكان.. فهذا كذلك من قصور علمه وفهمه وبعده عن إدراك الإعجاز القرآني في ترتيب المصحف، والوحدة الموضوعية في السورة، وهذا باب عظيم لا تسعه العجالة من الرد على هذه الشبهات السخيفة.. وقد كتب في هذا مجلدات ومجلدات قديماً وحديثاً، وأحيل السائل على كتاب مختصر حديث وهو كتاب (النبأ العظيم للشيخ الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله)، وأظنه مترجماً إلى الإنجليزية. وهنا في هذه الآية من سورة الأعراف لا يسجل الله الأحداث التي وقعت لبني إسرائيل من حيث كونها تاريخاً وإنما يذكر أنعامه عليهم، ويسجل مخازيهم، ونكثهم لعهودهم وكفرانهم لنعمة الله سبحانه وتعالى. فهذه الأحداث التي وقعت لبني إسرائيل وإن كانت متباعدة في الزمان ولكنها ذكرت مجتمعة في الآية لتذكرهم بنعم الله

على آبائهم ثم جحودهم ونكرانهم.

(د) وأما قول السائل (توني بولدروجوفاك) إن الإنجيل أفضل من القرآن من حيث الوحدة الموضوعية والترتيب الزمني، وتسلسل الأحداث فإن هذا مما يدل حقيقة وللأسف على تدني عقل السائل وعدم تمييزه بين الكتاب المعجز المتناهي في البلاغة والعصمة، والإحكام، وبين كتاب لم يسلم من التحريف والتبديل والتناقض، وهو أشبه بمذكرات يومية كتبه تلاميذ أو تلاميذ تلاميذ المسيح عليه السلام من الذاكرة معبرين فيه عن تصور شخصي لهم، وتفسير شخصي للأحداث التي نقلت أو رآها بعضهم، وقد اختلفوا في هذا النقل اختلافاً كبيراً، وجاءت عباراتهم في كثير من الأحيان ركيكة متهالكة.. ولا شك الإنجيل الحقيقي لم يكن كذلك وإنما أتكلم عن الأناجيل الموجودة الآن بين أيدي النصارى وهي مختلفة فيما بينها.

ولا شك أن القرآن الكريم لم ينزل قط على طريقة الأناجيل المحرفة التي لا تعدو أن تكون كما ذكرنا مذكرات ويوميات لحياة السيد المسيح عليه السلام، فيها كثير من الاختلاف والتناقض والتضاد ومن ذلك ما ذكرناه آنفا، ومنها كذلك نسبة المسيح إلى عنصرية بغيضة تارة كالزعم أنه قال (إن خبز البنين لا يجوز أن يعطى للكلاب) وذلك عندما استغاثت به امرأة كنعانية أن يشفي ابنتها.

وقوله في مقام آخر (لا كرامة لنبي في بلده) وتفضيله الأجناس الأخرى على بني إسرائيل..

وكذلك قوله (لم أبعث إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) وقوله في مقام آخر (اذهبوا واكرزوا بالإنجيل في العالم أجمع)!!.

وكذلك قوله بوجوب التزام الشريعة كلها، ثم الإدعاء أنه نسخ الشريعة كلها وأباح للحواريين أن يأكلوا كل النجاسات والخبائث وأن كل ما يدب على الأرض حلال لهم.. وهذا التناقض كثير في الإنجيل.

وليس في الإنجيل قط ما يدل على أن الله أوحى شيئاً أو شرع شيئاً أو تكلم بنفسه كلاماً مباشراً بل هو رواية عن أعمال المسيح، أو خبر عن المسيح

أنه يقول قال أبي كذا أو كذا.. وأما أنه في الإنجيل ما يدل على أن الله هو الذي يتكلم أو يخاطب عباده فليس شيئا من هذا موجوداً..

ومعلوم أن القرآن غير هذا تماماً فليس القرآن مذكرات ويوميات كتبها النبي أو كتبها الصحابة عن حياة النبي.. وإنما القرآن هو كلام الله المعجز الذي ليس للنبي فيه إلا التبليغ فقط ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يُونس: ١٥] .

ولا مجال بتاتاً للمقارنة بين القرآن الكريم الكتاب العظيم الذي نزل تبيانا لكل شيء فجمع الدين كله أصولاً وفروعاً عقيدة وشريعة وأخلاقاً وأمثالاً ووعظاً، وبين الأناجيل المحرفة المتناقضة التي لم تزد على كونها يوميات للسيد المسيح عليه السلام يظهر فيها لكل ذي بصيرة التناقض والتزيد والتقول على الله بغير علم.

(٦) الآيات النازلة في شأن جبريل عليه السلام.

*** السؤال السادس هو:**

هناك وجهات نظر متضاربة في إدعاء محمد النبوة. فالسورة (٥٣ :٦-١٥) ذكر بها أن الله نفسه أوحى إلى محمد. والسورة (١٦: ١٠٢، ٢٦: ١٩٢-١٩٤)، ذكر بها أن "روح القدس" نزلت إلى محمد. والسورة (١٥ :٨) ذكر بها أن الملائكة (وهم أكثر من واحد) نزلوا إلى محمد. السورة (٢: ٩٧) ذكر بها أن الملاك جبريل (واحد فقط) لم يذكر في القرآن ولا في الأناجيل ما يقول أن "روح القدس" هو جبريل.

*** والجواب:**

قوله سبحانه وتعالى في سورة النجم (٥٣ :٣-١٢) عن رسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:

٣-٩] الآيات. فهذا وصف لجبريل الروح القدس الأمين الذي نزل على محمد ﷺ بحراء، وجاءه بالوحي من ربه، ولقد رآه رسول الله ﷺ على صورته التي خلقه الله عليه وله ستمائة جناح مرتين: واحدة في مكة في بدء الوحي، وثانية عندما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء كما جاء ذلك في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين في الصحيحين (البخاري ومسلم) بالإسناد المتفق عليه. وجبريل المذكور في سورة النجم (٥٣)، هو نفسه الذي ذكره الله في سورة النحل (١٤)، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢] (١٦ : ١٠٢)، فقد سماه الله روحاً لأنه ينزل بما يحيي موات القلوب وهو وحي الله إلى رسله ووصفه بروح (القدس) أي المقدس المنزه عن الكذب أو الغش فهو الذي قدسه الله ورفعه وأعلى من شأنه عليه السلام.

وأما ما ذكره الله في سورة الحجر الآية رقم ٢٨ فإن الله لم يذكر فيها أن الملائكة نزلوا على النبي بالوحي كما فهم هذا الجاهل حيث يقول (والسورة رقم (١٥ : ٨) ذكر فيها أن الملائكة وهم أكثر من واحد نزلوا على محمد).

وإنما الآيات هكذا ﴿وَقَالُوا۟﴾ [البقرة: الآية ٨٠] -أي الكفار- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فرد الله مقالة الكفار هؤلاء الذين استعجلوا نزول الملائكة بالعذاب عليهم وهو ما هددهم الله به إن أصروا على التكذيب فقال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] أي إن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق وإنهم إذا نزلوا نزلوا بالعذاب عليهم فمعنى ذلك أنهم غير ممهلين، والحال أن الله أمهلهم ليقيم الحجة عليهم، ولم يشأ سبحانه وتعالى أن يعجل العقوبة الماحية المستأصلة لهم كما حدث للأمم السابقة بل شاء الله أن يعاقبهم بالعقوبات التي لا تستأصلهم فقد أنزل الملائكة في بدر وغيرها من معارك الرسول خزياً للكفار ونصراً للرسول والمؤمنين.

وأما آية سورة البقرة (٢: ٩٧) فهي نص صريح في أن جبريل عليه السلام

هو الذي أنزل القرآن على رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: ٩٧] وهذا رد على اليهود الذين كرهوا جبريل، وأنه ينزل بحربهم وهلاكهم فأخبرهم الله أن هذا الملاك هو ملاك الرب، وأنه هو الذي أنزل القرآن على قلب محمد ﷺ. وقد وصف الله جبريل في القرآن بأنه روح القدس أي الروح المقدسة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النّحل: ١٠٢] . وقد قدمنا معنى روح القدس.

(٧) لا تناقض في إخبار الرب عن خلق الإنسان.

* السؤال السابع هو:

هناك آراء متضاربة في كيفية خلق الإنسان. فالسورة (٢٥: ٥٤-٥٥) يذكر بها أن الإنسان خلق من ماء، (٣٦: ٧٧-٧٨) ذكر بها أنه خلق من نطفة و (٣٧: ٧١-٧٢) ذكر بها أنه خلق من طين رغم أن سجلات الحفريات لا تساند نظرية التطور.

* والجواب:

أن الله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنه بدأ خلق الإنسان بخلق أبي البشر آدم الذي خلقه من التراب، الذي أصبح طينا يعجنه بالماء، ثم حما مسنونا، أي طينا مخمراً، ثم سواه الله بأن خلقه بيديه سبحانه ثم أصبح آدم وهو في صورته الطينية صلصالاً كالفخار، وهو الطين إذا يبس وجف، ثم نفخ الله فيه الروح فأصبح بشراً حياً، ثم أمر الملائكة بالسجود له بعد أصبح كذلك ثم خلق الله من أحد أضلاعه زوجته حواء (كما جاء ذلك في الحديث النبوي).. فهي أنثى مخلوقة من عظام زوجها..

والله يخلق ما يشاء مما يشاء كيف يشاء، ثم لما عصى آدم بأكله من

الشجرة التي نهاه الله أن يأكل منها أهبطه الله إلى الأرض.

ثم جعل الله تناسل آدم من اجتماع ماء الرجل وماء المرأة، والعرب تسمي المني الذي يقذفه الرجل في رحم الأنثى ماءا، وسماه الله في القرآن ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾.. وكل ذلك موجود في القرآن الكريم.

وهذا المسكين ظن أن هذه آراء متعارضة، وظن أن كل ذلك آراء متعارضة ولم يفهم أن خلق آدم لم يكن كخلق حواء فآدم خلق من الطين، وحواء خلقت من ضلع آدم، وأن كل إنسان خلق من أنثى وذكر، من ماء مهين، وأن عيسى عليه السلام خلق من أنثى بلا ذكر كما قال سبحانه وتعالى عن عيسى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عِمرَان: ٥٩] .

وكان تنوع خلق البشر على هذه الصور ليبين الله لعباده قدرته الكاملة، فهو يخلق ما يشاء مما يشاء كيف يشاء، وقد خلق الإنسان الأول آدم من طين من غير أنثى أو ذكر، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من إجتماع الذكر والأنثى فسبحان من له القدرة الكاملة، والمشيئة النافذة. وهذا كله يدل على الخلق المستقل للإنسان وأنه لا ينتمي إلى حيوانات هذه الأرض، فالتطور إن كان حقا فهو إنما يكون في حيوانات وأحياء هذه الأرض فقط. وأما الإنسان فإنه خلق خلقاً مستقلاً في السماء، وإن كان الله قد خلقه من طين هذه الأرض. وهذا هو الذي يؤيده العلم والنظر في الكون.

هذا ما اعترض به المعترض على القرآن الكريم. ونأتي الآن إلى ما اعترض به على جمع القرآن وحفظه وكذلك اعتراضه على ما ظنه أنه يخالف الحق والعلم من كلام رسول الله ﷺ.

(٨) لم يختلف أصحاب رسول الله ﷺ حول القرآن.

*** السؤال الثامن هو:**

الحديث أكد أن الخليفة عثمان راجع القرآن وجمعه بعد وفاة محمد (جزء ١: نمرة ٦٣، جزء ٤: نمرة ٧٠٩، جزء ٦: نمرة ٥٠٧-٥١٠) بعد ذلك حاول عثمان أن يدمر كل نصوص القرآن المختلفة مع ما جمع (جزء ٦: نمرة ٥١٠). كثير من الناس (تحت تهديد الموت) كانوا يرفضون نصوص عثمان ويتمسكوا بالنصوص التي يحفظونها. فكيف يختلف الناس على القرآن إذا لم يكن هناك إلا نص واحد وهو نص (محمد)؟

*** والجواب:**

لا شك أن القرآن الكريم قد توافر له من دواعي الحفظ ما لم يتيسر لكتاب غيره قط تحقيقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩] فقد حفظه الرسول ﷺ عن ظهر قلب، وكان يقرأ به في صلاته جماعة بالناس على مدى عشر سنوات في المدينة وعشر سنوات أخرى في مكة، فقد نزل عليه القرآن في عشرين سنة من عمره الرسالي ﷺ، وعَلَّمه وحَفَّظه أصحابه الكثيرين الذين كانوا أصفى الناس ذهنا وأعظمهم حفظاً.

وأمر النبي ﷺ بكتابة كل آية نزلت عليه فحفظ في الصدور والسطور، ولم يمت رسول الله ﷺ إلا والقرآن يحفظه الألوف من قراء المسلمين وحفاظهم، ولا يمنع هذا أن يخطئ قارئ منهم في حفظ آية، أو اختلاف لفظ فيرد عليه الآخرون وكان بعضهم إذا سمع خلاف ما يحفظ راجع النبي ﷺ فبين له الرسول الحق فيما يختلفون.

ثم إن القرآن جمع في صندوق واحد في عهد الصديق، حتى لا تتفرق أوراقه، وأصبح هذا القرآن المجموع هو الأصل الذي يرجع إليه ثم نسخ القرآن كله في نسخة واحدة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو الذي أمر الصحابة أن يحرق كل منهم ما يخالف المصحف الإمام المجمع عليه. لأن ما يخالف القرآن الإمام يمكن أن يكون تفسيراً أو خطأ وقع فيه بعضهم.

وقد أجمعت الأمة الإسلامية بحمد الله أن ما جمعه عثمان وما أثبته في

المصحف أنه كتاب الله المنزل دون زيادة أو حذف، وأن ما عداه يمكن أن يكون تفسيراً من السنة أثبته الصحابي، أو رواية فرد قد يصيب أو يخطيء ولا شك أن ما خالف المجموع يترك، فإن قول الجميع قاض على قول الواحد..

وبعض الذين كان عندهم قليل من الألفاظ المخالفة قد تكون فيما أنزله الله من القرآن اجتمعت الأمة على ترك ذلك لأنه من التوسع الذي يفضي إلى الخلاف فإن القرآن نزل على سبعة أحرف، ومن هذه الحروف اختلاف لهجات العرب ونطقهم لبعض الكلمات.

وكذلك نزول الآية الواحدة بأكثر من لفظ يفيد نفس المعنى كقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النِّساء: ٩٤] فقد قرئت ﴿فتثبتوا﴾ وهو نفس المعنى وهذا بحمد الله مثبت في القراءات السبع المجمع عليها وليس فيما رفضه عثمان بن عفان رضي الله عنه شيئاً يتناقض أو يختلف مع هذا القرآن اختلاف تضاد، ولكنه أثبت في المصحف ما يوافق لغة قريش التي نزل بها القرآن، وحتى هذه القراءات الشاذة التي كانت عن بعض الصحابة نقلت كذلك بالإسناد وليس فيها بحمد الله ما يناقض القرآن المجمع عليه.

وهذا بخلاف الإنجيل مثلاً الذي تتناقض رواياته وتتعدد، ويحصل بين كل واحدة منها والأخرى اختلاف وتضاد.

والخلاصة أن القرآن الكريم لم يدخله بحمد الله ريب ولا شك قط كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ فلا شك في أي حرف منه، ومن ادعى أنه زيد فيه، أو نقص منه فهو كاذب مفتر كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

(٩) اعتراضات على السنة النبوية الشريفة.

* الاعتراض التاسع:

وأما قول المعترض على السنة: في الحديث جزء ٥ :نمرة ٥٤٣ نجد أن (الله خلق آدم وجعله ٦٠ ذراعا). هذا يجعل طول آدم ٩٠ قدماً. هذا يجعل

سلالة آدم (وسلالاتهم من بعدهم) نفس الطول وهذا يناقض تاريخ البشرية. وعن الذبابة يقول محمد أن في أحد جناحيها الداء وفي الآخر الدواء (الجزء ٤ :نمرة ٥٣٧)؟ وعن المرضى بالحمى فهي الحرارة من جهنم (جزء ٤ :نمرة ٤٨٣-٤٨٦)؟ وأن الشيطان يعيش في أنفك (جزء ٤ :نمرة ٥١٦)؟

*** والجواب:**

أما قول الرسول ﷺ وأخباره أن آدم قد خلقه الله ستين ذراعاً في السماء فثابت عن الرسول ﷺ بالإسناد الصحيح. وهو حق لا ريب فيه لأنه من إخبار من لا ينطق عن الهوى ولا يعني ذلك بالضرورة أن يبقى خلق الإنسان باقياً كما كان بل الخلق يتناقص كما هو مشاهد من حيث الطول والقوة، ومن حيث العمر والبقاء أيضاً ومن حيث بركة الأعمار وثمرة الحياة..

وليس عند المعترض إلا التكذيب فقط، والدعوى أنه كان ينبغي أن يبقى الخلق بهذا الطول قياس فاسد لأننا نشاهد أن حياة البشر على الأرض في تغير دائم من حيث الطول والقوة والعمر.

وأما حديث الذبابة فصحيح فقد أرشد رسول الله ﷺ من وقع الذباب في طعامه أن يغمسه ثم يمقله (أي يخرجه ويلقيه خارج الشراب أو الطعام) وعلل ذلك ﷺ أن بأحد جناحي الذبابة داء وبالآخر شفاء لهذا الداء. وقد قام حول هذا الحديث جدل كبير وانبرى أطباء مسلمون وغيرهم إلى اختبار ذلك فوجدوه حقاً وأن في الذبابة من المضاد ما يبطل مفعول ما تلقيه من الداء، وصدق من لا ينطق عن الهوى ﷺ.

وأما قول الرسول ﷺ فإذا قام أحدكم من نومه فليستنثر ثلاثا فإن الشيطان يبيت على خيشومها فحديث صحيح وهو كلام من لا ينطق عن الهوى، ومن علمه الله سبحانه وتعالى وأطلعه على كثير من الغيب. وماذا يمنع أن يكون الشيطان الخبيث يأوي إلى هذه الأماكن القذرة وأن التخلص من قذارة الشيطان لا تكون إلا (بالاستنثار) وهو تنظيف الأنف صباحاً بالماء بإدخال

الماء فيه ثم إخراجه بضغط الهواء، لتنظيف ذلك المكان.. وعلى كل حال نحن لا نرى الشيطان، ولا شك أنه موجود وله ملابسة للإنسان ولا نعرف كيف يلابس ويدخل ويخرج ويوسوس، ويبيت، وقد أعلمنا الله بذلك عن طريق الرسل ونحن نعتقد أن الرسل صادقين ولا يقولون إلا حقا.

وأما أن الحمى وهي حرارة الجسم بسبب المرض من فيح جهنم فحق لأن من لا ينطق عن الهوى أخبر بذلك، والله هو خالق المرض سبحانه وتعالى وخالق الخير والشر، وماذا يمنع أن يكون لجهنم وهي بعيدة عنا زفرات معينة، وتأثيراً ما على مناخ الأرض، وحياة الناس.

(١٠) لماذا يأتي الولد تارة لأبيه وتارة لأمه.

*** الاعتراض العاشر هو:**

يقول محمد أن جبريل كشف له عن سر تشابه الطفل لأبيه أو لأمه. (فبالنسبة لتشابه الطفل لوالديه: إذا حدثت علاقة جنسية بين الرجل وزوجته فإذا أفرز الرجل أولاً كان الطفل مشابهاً لأبيه وإذا أفرزت المرأة أولاً كان الطفل مشابها لها) (جزء ٤ :نمرة ٥٤٦). فمن من المسلمين في هذا العصر مستعد لإثبات أن أسبقية الإفراز هي السبب الأساسي للصفات الجسمانية لأطفالنا؟

*** الجواب:**

إن هذا الحديث صحيح وهو موجود أيضا عند أهل الكتاب، فقد سأل عبدالله بن سلام رضي الله عنه وهو حبر اليهود وعالمهم رسول الله عن ذلك فانتظر الرسول الوحي ونزل عليه بذلك. وليس المراد بالسبق هو القذف أولاً.. وإنما المراد به هو الغلبة فقد جاء الحديث بلفظ فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة خرج الولد لأبيه، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل خرج الولد لأمها والعلو هو الظهور والغلبة والسبق.

وقد قال هذا رسول الله ﷺ في الوقت الذي لم تكن العرب ولا غيرها يعلمون أن للمرأة ماءاً أو أن الولد يخلق باجتماع ماء المرأة وماء الرجل، فما كان هذا معلوماً قط.

وهذا من أعلام نبوته ﷺ، وبراهين رسالته، وأنه رسول الله ﷺ حقاً وصدقاً. والشاهد أن العلو هو الغلبة.. وستظل كيفية هذه الغلبة غير معلومة للبشر، رحمة من الله بعباده لأنهم لو عرفوا سر ذلك لفسدت حياتهم إذ من هو على استعداد لينجب الأنثى إذا كان في مقدور كل أحد أن يتحكم في نوع المولود الذي يريد؟ فنحمد الله أن جعل ذلك مما استأثره بعلمه وإلا لفسدت حياة البشر على الأرض، ولقد أخبر رسول الله في ذلك الشأن بما يدل حقاً وصدقاً على أنه رسول الله..

والحمد لله رب العالمين، الذي أكرمنا وأكرم البشرية جمعاء ببعث هذا النبي الكريم الخالد محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر إخوانه المرسلين الذين دعوا جميعا إلى توحيد رب العالمين، وأنه الإله الواحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وسبحان الله رب العالمين وسلاماً على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

نص ترجمة الخطاب الذي وجهه

(توني بولدروجوفاك) إلى المراكز الإسلامية في أمريكا:

سيدي العزيز السلام عليكم

لقد كتبت إليك منذ فترة فيما يتعلق ببعض الأسئلة عن عقيدة الإسلام. ولسوء الحظ لم أتلقى أي إجابة منكم. فهل فقد خطابي؟

لقد قرأت كتاباً لدارس حيث أشار إلى بعض مواضع في القرآن يصعب شرحها أو هي صعبة التصديق وقد استخدم الدارس بالنسبة للأحاديث "ترجمة المعاني لصحيح البخاري" فأرجو منكم التعليق عليها وشكرا.

١- كيف يمكن اعتبار القرآن "أوحي إلى محمد" وفي نفس الوقت نجد أن محمداً هو المتكلم في آيات عديدة (السورة ١ :الآية ٥-٧، ٢ : ١٠٥، ١١٧ : ١٦٣، ٣ : ٢ ، ٤٠ : ٦٥ ، ٤٣ : ٨٨، ٨٩.. الخ)؟

٢- السورة (١٠ : ٣) ذكر بها أن خلق السماوات والأرض تم في ستة أيام. السورة (٤١ : ٩ إلى ١٢) ذكر بها أن خلق الأرض تم في يومين وخلق الله الأنهار والغابات ..الخ في الأرض (بعد خلقها) في أربعة أيام، وأن خلق السماوات في يومين (السورة ١٠ تتناقض مع السورة ٤١ (٢ + ٤ + ٢ = ٨ أيام)).

٣- هل اليوم الواحد يساوي ألف سنة أو خمسين ألف سنة عند الله (السورة ٣٢ :الآية ٥ مناقضة للسورة ٧٠:الآية ٤) ؟

٤- السورة ٢١ :الآية ٧٦ ذكر بها أن نوح وأهل بيته قد نجوا من

الفيضان، ولكن السورة ١١ :الآيات ٣٢ إلى ٤٨ ذكر بها أن أحد أولاد نوح قد غرق؟

٥- هناك أخطاء نحوية في القرآن. فيوجد به جمل غير متكاملة ولا تفهم تماما بدون إدخال بعض الكلمات الأخرى عليها (٢: ٥، ٧: ١٦٠-١٦١ ..الخ). إن ترتيب السور بالقرآن غير متصل تاريخياً أو منطقياً فلا تشعر بوقت أو مكان. هناك شك في موضوعية تكامل القرآن لأننا نجد أن أناس، وأماكن غير محددة وأحداث وضعت معاً في رؤية واحدة وكأنهم جميعا كانوا يعيشون معاً في نفس الزمان. وهذا يسبب مشاكل عديدة واختلاط الأمر لكل من يحاول فهم القرآن كقطعة أدبية. لإعادة بناء حياة وتعاليم محمد بوسيلة مرتبة فلا بد للفرد أن يقفز من سورة إلى أخرى في القرآن كله. ويترك الفرد بإحساس عدم التكامل وعدم الرضا لأنه لم يحصل على القصة الكاملة. وهذا مضاد تماما للإنجيل الذي كتب فيما يزيد عن عدة آلاف السنين بما يزيد عن ٤٠ مؤلف مختلف.

٦- هناك وجهات نظر متضاربة في ادعاء محمد النبوة. فالسورة (٥٣: ٦-١٥) ذكر بها أن الله نفسه أوحى إلى محمد. والسورة (١٦ : ١٠٢، ٢٦: ١٩٢ -١٩٤) ذكر بها أن "روح القدس" نزلت إلى محمد. والسورة (١٥ : ٨) ذكر بها أن الملائكة (وهم أكثر من واحد) نزلوا إلى محمد. السورة (٢ : ٩٧) ذكر بها أن الملاك جبريل (واحد فقط) لم يذكر في القرآن ولا في الأناجيل ما يقول أن "روح القدس" هو جبريل.

٧- هناك آراء متضاربة في كيفية خلق الإنسان. فالسورة (٢٥ : ٥٤-٥٥) يذكر بها أن الإنسان خلق من ماء (٣٦: ٧٧-٧٨) ذكر بها أنه خلق من نطفة و (٣٧: ٧١-٧٢) ذكر بها أنه خلق من طين رغم أن سجلات الحفريات لا تساند نظرية التطور.

٨- الحديث أكد أن الخليفة عثمان راجع القرآن وجمعه بعد وفاة محمد (جزء ١ : نمرة ٦٣، جزء ٤: نمرة ٧٠٩، جزء ٦: نمرة ٥٠٧ -٥١٠) بعد

ذلك حاول عثمان أن يدمر كل نصوص القرآن المختلفة مع ما جمع (جزء ٦ :نمرة ٥١٠). كثير من الناس (تحت تهديد الموت) كانوا يرفضون نصوص عثمان ويتمسكوا بالنصوص التي يحفظونها. فكيف يختلف الناس على القرآن إذا لم يكن هناك إلا نص واحد وهو نص (محمد)؟

بعض الفقرات التي لا تتماشى مع العلم والحياة:

٩- وأما قول المعترض على السنة في الحديث جزء ٥ :نمرة ٥٤٣ نجد أن (الله خلق آدم وجعله ٦٠ ذراعا). هذا يجعل طول آدم ٩٠ قدماً. هذا يجعل سلالة آدم (وسلالاتهم من بعدهم) نفس الطول وهذا يناقض تاريخ البشرية. وعن الذبابة يقول محمد أن في أحد جناحيها الداء وفي الآخر الدواء (الجزء ٤ :نمرة ٥٣٧)؟ وعن المرضى بالحمى فهي الحرارة من جهنم (جزء ٤ :نمرة ٤٨٣-٤٨٦)؟ وأن الشيطان يعيش في أنفك (جزء ٤ :نمرة ٥١٦)؟

١٠- يقول محمد أن جبريل كشف له عن سر تشابه الطفل لأبيه أو لأمه. (فبالنسبة لتشابه الطفل لوالديه: إذا حدثت علاقة جنسية بين الرجل وزوجته فإذا أفرز الرجل أولاً كان الطفل مشابهاً لأبيه وإذا أفرزت المرأة أولاً كان الطفل مشابها لها) (جزء ٤ :نمرة ٥٤٦). فمن من المسلمين في هذا العصر مستعد لإثبات أن أسبقية الإفراز هي السبب الأساسي للصفات الجسمانية لأطفالنا؟

أنا لم أتحقق من كل مواده، فاعذروني إذا كان هناك خطأ.

المخلص

توني بولدروجوفاك

كِتَابُ

الإلْحَادِ

أَسْبَابُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ وَطُرُقُ عِلَاجِهَا

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله الأمين، وكل رسل الله أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده وأن محمداً عبده ورسوله.. وبعد

فإن شبيبتنا الإسلامية باتت نهباً لدعوات الكفر والإلحاد والزندقة، وتحولنا من أمة غازية إلى أمة مقهورة مغزوة مغلوبة على أمرها فبعد أن كنا نغزو العالم برسالة الله مخرجين الناس من الظلمات إلى النور، ومن الظلم إلى العدل، ومن الشرك إلى التوحيد ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام إذا بنا نصبح أمة يتوطن الظلم والجهل في ربوعها، ويتفلت أبناؤها من دينهم وتراثهم، ويلعنون ما مضى من أسلافهم وينتقلون إلى عقائد الكفر والإلحاد والوثنية، وقد رأيت من واجبي حمل نصيبي من إبلاغ الدين الذي حملني الله إياه، ونشر العلم القليل الذي هيأني الله لقبوله وحمله ولله الحمد والمنة أولاً وأخيراً ولا شك أن مشكلة الإلحاد من أعظم المشاكل التي يعاني منها شباب أمتنا وهأنذا أقدم بفضل الله تصويراً محملاً لهذه المشكلة وكيفية علاجها لعل في هذا هداية للشاردين وتبصرة لإخواتنا المؤمنين في كيفية علاج هذه الظاهرة، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت ٧ من جمادي الأول سنة ١٤٠٣هـ

الموافق ١٩ فبراير سنة ١٩٨٣م

أولاً: مدخل وتعريف

مدخل:

يعاني العالم المعاصر من مشكلات كثيرة فبالرغم من التقدم المادي الهائل الذي نعيش فيه والخيرات العظيمة التي وفرها العلم لحياة الإنسان ورفاهيته، إلا أننا نعيش في ظل مشكلات رهيبة يتولد بعضها عن بعض، ويؤثر بعضها في وجود بعض، ومن هذه المشكلات القلق النفسي والاضطراب، وانتشار الجريمة، وانعدام الأخلاق والفردية والأنانية، والظلم بكل معانيه وصوره، والانحلال والفساد، فالفضائح السياسية والمالية نسمع عنها كل يوم تقريباً، ولا يكاد يخلو بلد من بلدان العالم من هذه المشكلات، ولم يستطع تقدم الإنسان المادي أن يقضي أن يخفف من هذه المشكلات بل على العكس من ذلك كلما ارتقت حياة الإنسان المادية كلما ظهرت وانتشرت هذه المشكلات.

وبالرغم من كثرة هذه المشكلات وتعددها فإن أعظم هذه المشكلات وأكبرها أثراً في ظهور الفساد والاضطراب والقلق هي مشكلة الإلحاد. فهذه المشكلة في الحقيقة هي أم المشكلات وسببها جميعاً. فماذا نعني بمشكلة الإلحاد؟ وما سبب هذه المشكلة التي أصبحت إحدى مظاهر العصر؟ وكيف يعالج الإسلام هذه المشكلة؟ هذا ما سنناقشه في الصفحات التالية بحول الله.

ماذا نعني بكلمة الإلحاد:

نعني بالإلحاد الكفر بالله والميل عن طريق أهل الإيمان والرشد. وظهور التكذيب بالبعث والجنة والنار وتكريس الحياة كلها للدنيا فقط والإلحاد اليوم

ظاهرة عالمية فالعالم الغربي في أوروبا وأمريكا وإن كان وارثاً في الظاهر للعقيدة النصرانية التي تؤمن بالبعث والجنة والنار إلا أنه ترك هذه العقيدة الآن وأصبح إيمان الناس هناك بالحياة الدنيا فقط وأصبحت الكنيسة مجرد تراث وأثر من آثار الماضي، ولا تشكل في حياة الناس وعقولهم إلا شيئاً تافهاً جداً وقد أصبح (الإلحاد) هو الدين الرسمي المنصوص عليه في كل دساتير البلدان الأوربية والأمريكية ويعبر عن ذلك (بالعلمانية) تارة، و (اللادينية) تارة أخرى وكل ذلك يعني الإلحاد والكفر بالله.

وفي الشرق تقوم أكبر دولة على الإلحاد وهي الدولة الروسية التي تحمل العقيدة الشيوعية التي من بنودها رفض الغيب كله والقول بأن الحياة مادة فقط وأن صراع الإنسان في هذه الحياة إنما هو من أجل العيش والبقاء فقط، وأما الدول الأخرى فبالرغم من أنه كان ينتشر فيها أديان تقوم على بعض العقائد الغيبية كالهندوكية والبوذية والكونفشيوسية إلا أن هذه الأديان اختفت الآن تقريباً أمام مد الإلحاد الغربي والحياة العصرية.

وبالرغم من أن العالم الإسلامي ما زال يتمسك نوعاً ما بالإسلام ويقر بالتوحيد ويؤمن بالبعث والجنة والنار إلا أن موجة الإلحاد العارمة تطغى عليه من كل جانب، وتشكك أبناءه في دينهم وعقيدتهم ويحسن بنا ونحن نجابه هذه المشكلة أن نبحث بحثاً موضوعياً علمياً في أسباب هذه المشكلة وكيفية علاجها.

ثانياً: أسباب مشكلة الإلحاد

منذ مائتي عام فقط لم تكن مشكلة الإلحاد بهذه الحدة والانتشار ولكن في القرنين الآخيرين ظهرت عوامل كثيرة جعلت من الإلحاد والكفر بالله ديناً عاماً منتشراً، ونستطيع أن نجمل أهم الأسباب في انتشار الإلحاد فيما يلي:

١- الكنيسة الأوروبية:

لقد كانت الكنيسة الأوروبية سبباً غير مباشر أحياناً وسبباً مباشراً أحياناً

أخرى في نشر الإلحاد والزندقة والكفر الكامل بوجود الله وذلك لأن القائمين على هذه الكنيسة من الرهبان والقساوسة أدخلوا في دينهم كثيراً من الخرافات والخزعبلات، وجعلوها عقائد دينية، كرفعهم عيسى عليه السلام من مرتبة البشرية إلى الألوهية وظهور فكرة الخطيئة والصلب والخلاص وأضافوا إلى ذلك كثيراً من الخرافات الدارجة عن الأرض والكون والحياة، وعندما بدأ عصر النهضة الأوروبية واكتشف بعض العلماء حقائق جديدة عن الأرض والكون والحياة هب الرهبان والقساوسة ينكرون ذلك، ويتهمون من يعتقد بالحقائق الجديدة ويصدق بها بالكفر والزندقة ويوعزون إلى السلطات الحاكمة بقتلهم وحرقهم بالنار، ولقد لقي كثير من العلماء هذا المصير المؤلم جزاء مخالفتهم لآراء الكنيسة.. ولكن حركة العلم لم تتوقف واستطاع العلماء أن يقدموا كل يوم براهين جديدة على نظرياتهم العلمية وابتدأت آراء الكنيسة ومعتقداتها تهزم كل يوم هزيمة جديدة وكانت الجولة في النهاية لعلماء المادة على رجال الكهنوت فاندفع الناس نحو الإيمان بالعلم المادي كإله جديد سيحمل الرخاء والقوة والرفاهية للناس، وفتش الناس أسرار الكنيسة فهالهم ما رأوه من فساد أخلاقي بين الرهبان والراهبات وأرادوا التخلص إلى غير رجعة من السلطان الكهنوتي والقهر الزمني الذي مارسته الكنيسة ضدهم ومن الإتاوات والضرائب التي فرضتها الكنيسة على رقابهم فكان الرفض الكامل لكل المعتقدات الدينية والكراهية العامة لكل عقيدة تنادي بالإيمان بالغيب واتهام الرسل جميعاً بالكذب والتدليس وهكذا برزت الموجة الأولى من موجات الإلحاد العالمي.

٢- مظالم العالم الرأسمالي:

ما كادت أوروبا تتخلص جزئياً من سلطان الكنيسة ويكتشف الناس قوة البخار والآلة حتى تحول الناس من الزراعة إلى الصناعة، وهرع أهل الإقطاع إلى التصنيع فامتلكوا المصانع الكبيرة وحازوا الثروات الضخمة واستغلوا العمال استغلالاً فاحشاً وانتشرت المظالم الهائلة وظهرت الطبقات المتفاوتة

من رأسماليين جشعين إلى عمال فقراء مظلومين، وكان رؤية هذا الظلم الجديد، ومساندة رجال الدين أو سكوتهم عنه سبباً جديداً في انتشار الإلحاد والشك في وجود الله، واتهام الدين بمساندة الظلم أو عجزة عن تقديم حل ناجح لمشكلات الإنسان على الأرض وابتدأت العقائد الدينية تنحسر انحساراً جديداً عن حياة الناس وابتدأ الناس يعملون أفكارهم في خلق عقائد تستطيع أن تحل مشكلاتهم على الأرض، وتقنع عقولهم وعجزت الكنيسة الأوروبية أيضاً عن تقديم هذا العلاج للناس.

٣- ظهور المذاهب الاقتصادية الالحادية:

كان العامل الثالث الذي ساعد على انتشار موجة الإلحاد هو ظهور المذاهب الاقتصادية الإلحادية وخاصة الشيوعية التي بشر بها كارل ماركس (اليهودي الألماني الذي تنصر والده) فبالرغم من أن هذا المذهب ينطلق من منطلق اقتصادي ويستهدف حسب إعلان المبشرين به معالجة المظالم الرأسمالية الفردية والسيطرة على مجتمع اشتراكي يعمل فيه كل إنسان حسب طاقته ويأخذ حسب حاجته فقط، إلا أن القائمين على هذا المذهب الاقتصادي صبغوه بالصبغة العقائدية وأعطوه أبعاداً أخرى غير اقتصادية فزعموا أن الحياة التي يعيشها الناس حياة مادية فقط وأنه لا يوجد روح ولا بعث ولا إله، ولا حياة أخرى وأن الناس منذ وجدوا لا هم لهم إلا المصالح المادية وزعموا أن ظهور الأديان إنما كان من فعل الأغنياء ليلبسوا على الفقراء ويستغلوهم وأن الأخلاق كالأمانة والعفة والصدق ما هي إلا نتاج خبيث للفكر الديني الذي يريد أن يخدم المصالح الرأسمالية، واعتقد الشيوعيون لذلك أن الأنبياء ما كانوا إلا دجالين أرادوا بنشر أديانهم تخدير الشعوب لتستنيم للظلم والقهر وبهذا أصبح هذا المذهب الاقتصادي بفلسفته التي أطلقها على الأديان موجة جديدة من موجات الإلحاد والزندقة. ولعل هذه الموجة الجديدة التي جاءت بها الشيوعية كانت أعتى موجات الإلحاد جميعاً وذلك أن الشيوعية تبنت الدفاع عن المظلومين والفقراء وهذه قضية عادلة وإنسانية في ذاتها ولذلك تبنى

هؤلاء الفقراء والمظلومون وهم أغلبية الناس دائماً هذه العقيدة الجديدة والدين الجديد لأنه يدافع عن مصالحهم ويتبنى قضاياهم وبالطبع أخذوا هذا الدين بفلسفته العقائدية وليس بفكره الاقتصادي فقط.

وهكذا انتشر الإلحاد سريعاً مع هذا المذهب الاقتصادي الجديد وكان النجاح الهائل الذي لاقته الدعوة الشيوعية بتفجير الثورة البلشفية في روسيا والاستيلاء على الحكم عاملاً كاسحاً في هدم الأديان ونشر الإلحاد وانتقاله ليصبح عقيدة عالمية.

ولما كانت الدعوة الشيوعية ترى أن نهاية العالم الحتمية إلى الشيوعية وتدعو لذلك بل تنتهج الثورة والعنف الدموي سبيلاً إلى نشر الشيوعية فإنه سرعان ما تأجج العالم من أقصاه إلى أقصاه بالثورات التي أججتها هذه العقيدة وابتدأت التحولات القسرية لشعوب بأجمعها نحو الإلحاد كما حدث في الجمهوريات الإسلامية في روسيا وكذلك في الصين وغيرها وما زال المد الإلحادي الذي تؤججه العقيدة الماركسية يمتد عبر بلدان العالم جميعها. وها هي البلدان العربية التي كانت معقلاً للإسلام تغزوها العقيدة الماركسية الإلحادية في عقر دارها.

٤- اقتران الإلحادية بالقوة المادية:

السبب الرابع الذي شجع الناس على الكفر بالله والانطلاق نحو الإلحاد الكامل هو اقتران القوة المادية بالإلحاد، وذلك أن الناس رأوا أن أوروبا لم تتقدم وتمتك القوى المادية وتكتشف أسرار الحياة إلا بعد أن تركت أفكار الكنيسة وعقائدها. وأن دولة كروسيا لم تصبح دولة عظمى إلا بعد أن أعلنت أنها دولة إلحادية، ورأوا مع ذلك أن الدول التي ما زالت تتمسك بالدين دولاً متخلفة في القوة والصناعات فظن الناس لذلك أن الإلحاد سبب للقوة والعلم، وأن الدين يعني التخلف والجهل، ولما كان للعلم المادي آثاره الظاهرة والباهرة من تيسير حياة الإنسان على ظهر الأرض ونشر الرفاهية والرخاء فإن الناس انصرفوا عن العقائد الدينية وآمنوا بالعلم المادي كإله جديد قادر على

أن يذلل لهم كل الصعاب على هذه الأرض، بل أطمعهم هذا الإله المادي أيضاً في الوصول إلى الكواكب الأخرى وتسخيرها في خدمة الإنسان وهكذا ساعد اقتران العلم المادي والكشوف الجديدة بالإلحاد على ظن الناس أن العلم ثمرة ونتيجة للإلحاد، وكان هذا خطأً عظيماً عمت بسببه موجة الإلحاد.

٥- هزيمة العالم الإسلامي أمام الهجمة الأوروبية:

ما كاد الأوروبيون يمتلكون القوة المادية، ويستخدمون الآلة، ويبنون المصانع حتى اتجهوا إلى دول العالم بحثاً وراء الأسواق لمنتجاتهم الصناعية، وجلباً للمواد الخام اللازمة للصناعة. ولما كانت هذه الدول تطمع في الحصول على ما تريد بأبخس الأثمان أو بلا ثمن أصلاً فإنها استخدمت قوتها العسكرية النامية للحصول على ما تريد. ولما كان العالم الإسلامي في غاية التخلف والفقر والضعف العسكري والسياسي، فإنه لم يصمد طويلاً أمام الهجمة الأوروبية الاستعمارية، وكان للهزيمة العسكرية التي مني بها المسلمون أمام الغزو الأوروبي أثرها البعيد في زلزلة العقائد الإسلامية، وانحسارها أمام المد الإلحادي الذي حمله المستعمرون الأوروبيون، وطفقت الشعوب الإسلامية، تقلد المستعمر الأوروبي وتتشبه بأخلاقه وعاداته، وتدخل في عقيدته الإلحادية ظناً منها أن الأوروبيين لم يصلوا إلى القوة إلا برفضهم للدين، وكانت هذه خطيئة جديدة وسبباً آخر أسهم في الظاهرة الإلحادية العالمية.

٦- الحياة الجديدة ومباهج الحضارة:

فتح العلم المادي للناس أبواباً عظيمة من أبواب الرفاهية والترف ومغريات الحياة، فالمراكب الفخمة من سيارات وطائرات، وقطارات، ووسائل الاتصال ووسائل الراحة والتسلية، والمطاعم والمشارب الفاخرة، والألبسة الأنيقة، والتفنن العجيب في التلذذ بالحياة، والجري وراء الشهوات والمغريات كل هذا فتح على الناس ألواناً لم يعهدوها من الاستمتاع بالحياة، والانغماس في الشهوات والملذات.

ولما كان الدين بوجه عام ينهى عن الإسراف ويأمر بالقصد والاعتدال، ويحرم الاستمتاع بالحرام كالخمر والزنا والتعري فإن الناس الذين يجهلون سر أمر الدين بذلك ظنوا أن هذه قيوداً على حريتهم، وحجراً لملذاتهم وشهواتهم فازدادوا لذلك بعداً عن الدين، وكراهية لمن يذكرهم بالآخرة ومن يحذرهم من نار أو يطمعهم في جنة. وبذلك أيضاً ازدادت غربة العقائد الدينية وانتشرت عقائد الإلحاد والزندقة.

٧- دوامة الحياة:

كان لانطلاق الناس الصارخ نحو العَبِّ من الحياة والاستمتاع بكل ما أفرزته الحضارة الغربية من ملهيات ومغريات، واقتناء كل مستطاع من وسائلها الحديثة أثره البالغ في انشغال الناس عن كل شيء حتى عن أنفسهم، فضاعف الناس ساعات عملهم طمعاً في المزيد من الأجور ولتحصيل المزيد من وسائل الراحة كالغسالات والثلاجات والسيارات، ونحوها، وفي سبيل ذلك أيضاً انطلقت المرأة من المنزل لتشارك الرجل أعباء الحياة وتكاليفها الجديدة، وللحصول على مزيد من الرفاهية والراحة، وابتدأ السعار المجنون والرغبة الجامحة نحو اقتناء مغريات الحياة فتطلب ذلك زيادة في الجد والنشاط وانشغالاً بالليل والنهار، وهكذا بدأت دوامة الحياة تطحن الإنسان المعاصر وتشغله في ليله ونهاره ولا تترك له فرصة للتفكير في نفسه أو في مصيره فهو يعمل في متجره أو مصنعه ويعود لملهياته وشهواته ثم يعود إلى عمله وهكذا دون أن تترك له الحياة المعاصرة وقتاً للفراغ يستطيع فيه أن يفكر في حقائق الدين، وأن يجيب عن الأسئلة الخالدة التي تتردد داخل كل نفس: من خلق هذا الكون؟ ومن خلقنا؟ ولماذا خلقنا؟ وإلى أين نسير؟ وهل لهذا العالم نهاية؟ وهل له من بداية؟ ولماذا يعيش الناس متفاوتين فهذا غني وهذا فقير، وهذا ظالم، وذاك مظلوم، وهذا قاتل، وذاك مقتول؟ وفيم كل هذا؟ بل بقيت هذه الأسئلة حائرة في أكثر النفوس وبلا جواب وذلك أن الإنسان المعاصر المستهلك الذي تطحنه دوامة الحياة لا يجد وقتاً للتفكير في كل هذه الأسئلة.

هذه هي الأسباب البارزة لوجود ظاهرة الإلحاد وانتشارها على هذا النحو الذريع والآن كيف أثرت هذه الظاهرة في حياتنا المعاصرة وما آثارها على التحديد؟

ثالثاً: آثار الإلحاد في حياة الإنسان

ترك الإلحاد المعاصر آثاره الواضحة في سلوك الإنسان وفي أخلاق الأمم ونظام الاجتماع، ونستطيع أن نجمل هذه الآثار فيما يلي:

١- القلق والصراع النفسي:

إن أول الآثار التي يخلفها الإلحاد في نفوس الأفراد هو القلق والحيرة والاضطراب والصراع النفسي. وذلك أن داخل كل إنسان منا فطرة تلح عليه، وأسئلة تتلجلج في صدره: لماذا خلقنا؟ ومن خلقنا؟ وإلى أين نسير؟ وإذا كانت زحمة الحياة، وشغلها الشاغل يصرف الإنسان أحياناً عن الإمعان في جواب هذه الأسئلة، والبحث عن سر الحياة والكون فإن الإنسان يصطدم كثيراً بمواقف وهزات تحمله حملاً على التفكير في هذا السؤال، فالأمراض والكوارث، وفقد بعض الأهل والأحبة، والمصائب التي تصيب الإنسان ولا بد تفرض على الإنسان أن يفكر في مصيره ومستقبله، ولما كان الإلحاد عقيدة جهلانية لأنه يقوم على افتراض عدم وجود إله - فإنه لا يقدم شيئاً يخرج هذا الإنسان من الحيرة والقلق والالتباس ويبقى لغز الحياة محيراً للإنسان ويبقى رؤية الظلم والمصاعب التي يلاقيها البشر في حياتهم كابوساً يخيم على النفس ويظل الإلحاد عاجزاً عن فهم غاية الحياة والكون، ولا يقدم للإنسان إلا مجموعة من الظنون والافتراضات لا تقنع عقلاً ولا تشفي غليلاً. ومع إلحاح نداء الفطرة الداخلي وتردد تلك الأسئلة الخالدة في النفس يظل الإنسان قلقاً معذباً.

وقد كان للإنسان قديماً فسحة من الوقت ليخلو بنفسه ويطالع السماء بنجومها، والبحر بروعته وسحره، والجبال بشموخها والصحراء بسعتها

وامتدادها وروعتها. والزهر والنبات وبهجته، وكان ذلك يفيده كثيراً في الاستدلال على الرب والاعتراف بالصانع العظيم والخالق الكريم. ولكن الإنسان المعاصر أصبحت تحاصره المدينة بعمارتها الشامخة وطرقها الحديثة وأضوائها وضوضائها وملهيات الحياة ومغرياتها فتشل فكره عن التفكير في الخالق والاستدلال على الله. فيزيد هذا في حيرته وارتباكه.

وقد كان المجتمع القديم أيضاً مجتمعاً ساذجاً فطرياً يعرف الناس فيه بعضهم بعضاً ويتعاونون في الملمات ويفزع بعضهم البعض في المصائب. ولكن المجتمع الحديث مجتمع المدينة الصاخب باعد الناس بعضهم عن بعض وأصبح لكل فرد منهم همومه ومشكلاته، وأصبح الإنسان المعاصر لا يجد من يشكو إليه قلقه ومشكلاته ولا يتصور أن يجد من يمد له يد العون لو زلت قدمه وأصابته مشكلة أو فاقة وبذلك تعاظم الخوف من المستقبل والحذر من الأيام، واهتم الناس بأنفسهم وأصبحوا حريصين ماديين يجمعون ويدخرون ولا ينفقون. ومع الخوف من المستقبل والحذر من الأيام زاد القلق والاضطراب والتوجس والتوجع. ولو كان ثمة إيماناً بالله وتصديقاً بالغيب ومعرفة بالقضاء والقدر لحلت هذه المعضلة ولكن الإلحاد الذي يفترض ويزعم أن الإنسان يقوم وحده في هذا الكون وأنه لا يوجد إله يقيمه ويرزقه كرس قلق الإنسان وخوفه من المستقبل واتجاهه للأنانية والفردية.

٢- الأنانية والفردية:

كانت النتيجة الحتمية للقلق النفسي والخوف من الأيام هي اتجاه الإنسان نحو الفردية والأنانية ونعني بالأنانية اتجاه الإنسان لخدمة مصالحه الخاصة وعدم التفكير في الآخرين - فالدين الذي يحث الإنسان على بذل المعروف للغير والإحسان للناس ابتغاء مرضاة الله بانحساره عن حياة الإنسان حل مكانه التفكير في النفس فقط وبذلك بدأ الناس في عصور الإلحاد المظلمة هذه لا يأبهون بغيرهم من بني البشر وشيئاً فشيئاً قلت العناية بالفقراء والمحتاجين ثم بالأهل والأقربين ثم بالوالدين وأيضاً بالزوجة والأولاد والمطلع على أحوال

المجتمع الإلحادي في الغرب والشرق يرى إلى أي حد أصبح الناس ماديين أنانيين لا يهتم الفرد إلا في نفسه، ولا يهتم بالآخرين إلا بقدر ما يعود هذا على نفسه من منافع. وقد ضاعف هذه الأنانية والمادية اتجاه الناس نحو العبّ من الملذات والشهوات التي يسرتها الحضارة الحديثة وأباحتها قوانين الإلحاد التي تكفر بالآخرة وتجعل حياة الإنسان الخاصة ملكاً له. فانطلق الناس لذلك نحو شهوات أنفسهم يستزيدون منها بقدر طاقتهم وجهودهم وأهملوا في سبيل ذلك العطف والإحسان والعناية بالآخرين. وبذلك نشأ الإنسان المادي النفعي المعاصر الذي أصبح علماً ورمزاً للحضارة الأوروبية الإلحادية التي تغزو العالم الآن.

٣- فقد الوازع والنزوع إلى الإجرام:

لأن الإلحاد لا يربي الضمير، ولا يخوف الإنسان من إله قوي قادر يراقب تصرفاته وأعماله في هذه الأرض فإن الملحد ينشأ غليظ القلب عديم الإحساس قد فقد الوازع الذي يردعه عن الظلم ويأمره بالإحسان والرحمة. بل على العكس من ذلك فإن الإلحاد يعلم أتباعه أنهم وجدوا هكذا صدفة ولم يخلقهم خالق أو أنهم خلقوا أنفسهم وأنهم حيوانات أرضية كسائر الحيوانات التي تدب على الأرض وبذلك يغلظ إحساسهم ويتنامى شعورهم بالحيوانية والانحطاط ويتجهون إلى إثبات ذواتهم بالإغراق في الشهوات والملذات، وإذا منعتهم ظروفهم المعاشية أو القوانين الوضعية البشرية عن بلوغ غاياتهم وأهدافهم الحيوانية فإنهم يقومون بالتغلب على تلك الظروف وذلك إما بالحيلة والمكر وإما بالقوة والغلبة وفي كلا الأمرين لا يجد الإنسان الملحد رادعاً داخلياً يردعه لأنه لا يخاف رباً ولا يرجو حساباً. ولا يبقى أمام الملحد من وازع إلا القانون البشري أو ظروفه الواقعية وهذه أمور يمكن التغلب عليها بصور كثيرة وخاصة في المجتمع المعاصر الذي تفنن الإنسان فيه في طرق الإجرام والتهرب من القوانين. وقد يبقى في بعض الأنفس التي تدين بالإلحاد شيء من نداء الفطرة ومحاسبة الضمير ولكن هذا النداء الداخلي المسمى

بالضمير سرعان ما يزول ويتلاشى في زحمة الحياة الراكضة وأمام مغرياتها الكثيرة.

وهذا الأثر من أعظم آثار الإلحاد في حياة الإنسان فعالمنا المعاصر هو عالم الجريمة والخوف. فكل يوم تطالعنا وسائل الاتصال من صحف وكتب وإذاعة وغيرها بأخبار الجرائم البشعة التي بلغت من الحدة والعنف والشذوذ والتلذذ بتعذيب الآخرين وشرب دمائهم. والتمتع برؤية صراخهم واستغاثاتهم - هذا إلى حوادث السرقة والسطو والاغتصاب والقتل التي تتزايد يوماً بعد يوم- ولعل حادثة انقطاع النور المشهورة عام ١٩٧٧م عن مدينة نيويورك حيث اكتشف الناس في الصباح أن آلاف المحلات التجارية والمخازن والبيوت قد نهبت عن آخرها وأنه اشترك في هذه السرقة الجماعية معظم الناس على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم وأعمارهم حتى رجال الشرطة أنفسهم المكلفون بالحراسة شاركوا هذا المهرجان الشائن في السرقة والسطو.

ويقدر الخبراء أنه لو استمر انقطاع النور هكذا أسبوعاً واحداً ولم تتدخل فرق من الجيش لخربت المدينة عن آخرها. فكيف إذا تراخى الأمن في ظل الأزمات أو الحروب لا شك أن هذا المجتمع سيأكل بعضه بعضاً. ولا شك أيضاً أن هذه ثمرات حتمية من ثمار الإلحاد.

٤- هدم النظام الأسري:

كان للإلحاد آثار مدمرة في الحياة الاجتماعية للإنسان فالبعد عن الله سبحانه وتعالى لم يكن من آثار تدميره النفسية البشرية فقط وإنما كان من لوازم ذلك تدمير المجتمع الإنساني وتفكيكه وذلك أن نظام الاجتماع البشري لا يكون صالحاً سليماً إلا إذا كانت اللبنات التي تشكل هذا النظام صالحة سليمة، وإذا فسدت هذه اللبنات فسد تبعاً لذلك النظام الاجتماعي بأسره ولذلك كان من نتائج الإلحاد أيضا هدم النظام الأسري.

ومعلوم أن الأسرة هي الخلية الأولى في النظام الاجتماعي. وعندما

فسدت البشرية فسدت الروابط الأسرية فالزوج الفاسد المنحل لا بد وأن يمتد فساده إلى زوجته وأولاده، والزوجة الفاسدة التي لا تراقب الله سبحانه وتعالى ولا تخافه لا بد وأن ينعكس هذه على أسرتها كلها: زوجها وأولادها، وكذلك الابن الفاسد الذي لا يراعي حرمة لوالد أو والدة، ولا حقاً لله سبحانه وتعالى وكذلك البنت الفاسدة وهكذا ابتدأنا نسمع في ظل الإلحاد المعاصر عن انهيار عقد الزواج الشرعي الشريف الذي يقصر المرأة على رجل واحد وتقيم علاقات متوازنة بين الأزواج ويوزع المسئولية في الأسرة توزيعاً عادلاً موافقاً للفطرة البشرية التي خلق الله عليها كلاً من الذكر والأنثى، وبانهيار عقد الزواج الشرعي أصبحت علاقات الأزواج علاقة متعة ومنفعة مجردة وبذلك قلت التضحيات التي لا بد منها فالزوج المخلص الوفي لا بد وأن يضحي بشيء من شهواته في سبيل أسرته، والزوجة الوفية كذلك التي قد تضطرها ظروفها أن تعيش مع زوج فقير أو مريض وأن تكافح لخدمة غيرها وتربية أولادها. ولكن في ظل العقيدة الإلحادية التي لا تؤمن بالآخرة ولا بالجزاء، فإنه لم يبق ما يحمل الزوج أو الزوجة على التضحية والفداء. وكذلك الحال بالنسبة للأبناء أيضاً الذين يتعلمون في ظل التوحيد أن يعبدوا الله بالإحسان إلى آبائهم، وأن يجاهدوا في سبيل مرضاتهم وكفالتهم في أحوال العجز والكبر ولكن العقيدة الإلحادية التي تقوم على النفعية المادية تنظر إلى خدمة الآخرين على أنه سخافة وغباء ما دام أنه لا يحقق نفعاً قريباً. وبهذا ماتت المشاعر الجميلة والروابط الطبيعية التي كانت تمسك بزمام الأسرة وتؤلف بين قلوب أفرادها.

ولم تقتصر الآثار السيئة للإلحاد على هذا الفساد في الأسرة، بل تعدى ذلك إلى أنواع عجيبة من الفساد ففي ظل الانهيار الخلفي والرغبة المجنونة في جني الملذات والركض وراء الشهوات الجنسية أصبح التمسك بعقد الزواج الشرعي نوعاً من الغباء وبذلك أيقن الرجال في كثير من الأحيان أن أبناءهم الذين ولدوا على فراشهم ليسوا من ظهورهم بالضرورة وأيقن الأخوة كذلك أنهم لا ينتمون إلى أب واحد وبذلك انهدمت مشاعر القربى والرحم التي لا

يمكن أن تنشأ إلا في مجتمع نظيف طاهر. وبانهيار مشاعر القربى والرحم كالأخوة والأبوة والعمومة ونحوها انهدمت متعة عظيمة من المتع الروحية والنفسية التي لا غنى عنها للإنسان وحل مكان ذلك المتع الجسدية المادية، المادية البليدة وبهذا تحول الإنسان شيئاً فشيئاً نحو الحيوانية والمادية وتفككت بذلك أيضاً عروة الأرحام والقرابة بعد أن تفككت الأسرة وقيمها الجميلة. وبهذا أضحى الطلاق وهجران البيوت وخيانة الزوجية شيئاً عادياً يومياً، وأصبح الرجل يرى أصدقاء ابنته ولا يأبه لذلك بل يدفعها لهذا، وكذلك يرى صديقات ابنه ولا يأبه لذلك لأن الناس آمنوا في ظل الإلحاد أن على كل إنسان أن يسلك السبيل الذي يريد، وأن كل إنسان مسئول عن نفسه فقط.

وبهذا انهدمت الخلية الأولى من خلايا المجتمع الإنساني.

٥- تخريب المجتمعات:

الأسرة هي الخلية الأولى من البناء الاجتماعي وبفسادها لا شك يفسد النظام كله. لأن الأسرة هي المحضن الأول للإنسان وإذا فسد الإنسان فسدت اللبنات التي تكون هذا البناء ولا بد. ولما كانت الأسرة تقذف إلى المجتمع كل يوم بلبنات فاسدة وتأتي هذه اللبنات الفاسدة وتأخذ مكانها في الهرم الاجتماعي الكبير فالفرد يكون مسئولاً في دائرة أو حاكماً أو طبيباً أو مهندساً أو مدرساً أو عاملاً.. وكل فرد من أفراد المجتمع يتعامل مع المحيطين به بالأخلاق والسلوك الذي كسبه في حياته وخاصة في مراحل نشأته الأولى في أسرته وهكذا تطفح الأنانية والفردية وغياب مراقبة الله سبحانه وتعالى في جميع المعاملات وأنماط السلوك التي يمارسها الفرد، وهكذا تصبح العلاقات التي تحكم تصرفات الفرد في شكل هذا المجتمع علاقات المنافع المادية والمصالح الشخصية، وتختفي التضحية والفدائية والصبر والرغبة في إسعاد الآخرين ونفع الناس وهكذا تتحول الدوائر الحكومية والمؤسسات الخاصة وجميع أجهزة الدولة إلى أن تصبح مطايا للمآرب الشخصية، وهكذا لا يزال الناس يكتشفون في كل يوم الفساد الإداري والوظيفي واستغلال النفوذ، وأخذ

الرشوة والتحايل على القوانين والتلاعب بأموال الدولة وكذلك الظلم والقهر.

إن المجتمع الحديث في ظل الإلحاد أصبح شبيهاً بمجتمع الغابة الذي يحاول كل حيوان فيه أن يفترس الآخر وبهذا يلجأ الضعيف إلى التخفي والخداع ويلجأ القوي إلى البطش والقسوة والعنف.

والذين يطالعون أحوال المجتمع الغربي الآن يرون إلى أي حد أصبحت الجريمة عملاً يومياً، وسلوكاً منظماً متطوراً فبالرغم من توفر الزنا والرذيلة ينتشر الاغتصاب للنساء بصورة مذهلة، وبالرغم من توفر الفرص للعمل والإنتاج نجد السطو والسرقات المسلحة التي يمارسها الناس على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم وأسنانهم ولا يكاد يمر يوم واحد حتى تقع في كل مدينة عشرات بل مئات من حوادث القتل والإجرام.

وهكذا في ظل الإلحاد وعدم مراقبة الله سبحانه وتعالى وتذكر الآخرة تتحول المجتمعات إلى مستنقع آسن للرذيلة والفجور، وتصبح الجريمة عملاً يومياً ويصبح التحايل على القانون واستغلال النفوذ وظلم القادر للضعيف ونفاق الضعيف أمام القوي خلقاً وديناً ومنهجاً جديداً تسير عليه المجتمعات المنحلة البعيدة عن الله سبحانه وتعالى.

٦- الإجرام السياسي:

لعل أعظم آثار الإلحاد هو آثاره في السياسة العالمية، ونظام العلاقات بين الدول. وذلك أن الأخلاق المادية الإلحادية التي جعلت قلب الإنسان يمتلئ بالقسوة والأنانية دفعت الإنسان إلى تطبيق هذه القسوة والأنانية في مجال العلاقات السياسية العالمية أيضاً. ولذلك رأينا الدولة الاستعمارية الكبرى تلجأ إلى وسائل خسيسة جداً في استعباد الشعوب الضعيفة والحصول على خيراتها ونهب ثرواتها وبلادنا الإسلامية بوجه عام والعربية بوجه خاص هي أشقى البلاد الضعيفة بهذه السياسات المادية الإلحادية فهي تقع دائماً تحت التهديد بالقهر والتدخل العسكري كلما حاولت دولنا الإسلامية أن تحصل على

شيء من حقوقها الضائعة أو أموالها المنهوبة. بل كلما فكرت دولنا في تطبيق الإسلام والرجوع إلى أحكامه وتشريعاته النظيفة الطاهرة، نرى الدول الاستعمارية الكبرى تتنادى لقتل عودتنا نحو الإسلام متهمة هذا الدين بأنه رجعية تارة وأنه وحشية تارة أخرى وأنه يضطهد الأديان الأخرى والأقليات تارة ثالثة ولعل في قضية البترول وسعي الدول الإسلامية للحصول على أثمان معقولة له والاستفادة بهذه الأثمان خير دليل على السلوك الاستعماري الإرهابي الأناني ضد هذه الدول الإسلامية فقد اتهمتنا الدول الاستعمارية أننا نريد تدمير الاقتصاد العالمي، واستعباد البشرية وتدمير الحضارة وذلك لمجرد المطالبة بشيء من حقوقنا وهددت تلك الدول الاستعمارية عشرات المرات أنها ستحتل آبار النفط وتأخذه بالقوة إن عمدت دولنا إلى منعه عن أعدائنا أو زيادة أسعاره.

وهكذا يصطلي العالم الآن بنار المادية الأنانية العالمية التي تمارسها الدول الاستعمارية الكبرى التي تقوم الآن على استعباد الشعوب ونهب خيراتها وإيقاعها فرائس للقلق والخوف والفوضى والاختلاف حتى يسهل عليهم استلاب خيراتها وسرقة ثرواتها.

ولو كان الإيمان والتوحيد وخوف الله هو المسيطر على أخلاق الذين يملكون سياسة الدول لعمت الرحمة والإحسان بين الشعوب وكانت نصرة الضعفاء وإعانة المساكين ورفع الظلم عن المظلومين هو الدين والمنهج الذي تسير عليه السياسات العالمية.

والخوف كل الخوف بعد ذلك أن يتسبب الإلحاد في تدمير العالم أجمع وذلك بعد وضع العلم الحديث في يد الإنسان أسلحة تستطيع تدمير العالم أجمع.

ومن يشاهد الآن ما تلجأ إليه الدول الكبرى لتدمير الشعوب الصغيرة يجد عجباً فهذه الدول تستخدم أسلحة رهيبة جداً لذلك كالمخدرات، والدعاية السوداء والحرب النفسية والنساء وتربية العملاء وكذلك القتل والتشريد لكل

العناصر الطيبة المخلصة لأوطانها وأمتها.

وهكذا استطاع الإلحاد والبعد عن الله سبحانه وتعالى أن يحول المجتمع الإنساني كله إلى مجتمع بغيض جداً يقوم على الظلم والقهر والنهب والخوف الدائم من الدمار والخراب وهذا بدوره يؤدي إلى تدمير نفس الإنسان المعاصر وهروبه الدائم من واقعه ولذلك انتشرت المخدرات والمهدئات والإغراق الجنسي، وكذلك دفعت هذه السياسات العالمية الفرد إلى مزيد من الأنانية وحب الذات والحرص على المال بكل سبيل وطلب النجاة لنفسه فحسب، والعيش ليومه فقط وهكذا خلق الإلحاد الدوامة المعاصرة التي تلف الإنسان في عصره الراهن عصر القلق والأنانية والإجرام والفوضى.

رابعاً: كيف نعالج ظاهرة الإلحاد

بعد أن عرفنا ظاهرة الإلحاد، وعرفنا أسبابها، وشرحنا آثارها المدمرة في نفس الإنسان، ومجتمعه، وفي العلاقات السياسية العالمية أيضاً نأتي الآن إلى كيفية علاج هذه الظاهرة وهنا نقول أن الإسلام دين جاء لخير الإنسان على هذه الأرض وإسعاده فيها، وتهيئته لسكنى الجنة دار السعادة الأبدية قد كفل العلاج الناجح المستأصل لهذه الظاهرة الخطيرة وإليك خطوطاً عريضة لكيفية علاج الإسلام لهذه الظاهرة:

١- الدعوة إلى توحيد الله سبحانه:

جعل الإسلام دعوته تبدأ من توحيد الله سبحانه وتعالى والإيمان به والإقرار أنه إله الكون وخالق الوجود وجعل الهدف الأول بل والأخير لرسالات السماوية جميعاً هو إقرار هذه القضية العظيمة من قضايا الدين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦) وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] وجعل الله سبحانه وتعالى الهدف الأول من وجود الإنسان على هذه الأرض هو أن يعبد الله سبحانه

وتعالى قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٦] وبهذا جعل الدين الإسلامي هدف الإنسان على الأرض أن يعرف ربه سبحانه وتعالى ويوحده، ويعبده وحده لا شريك له. وقد أبان الله هذه القضية وأظهرها ودلل عليها بكل دليل حتى لا يترك فيها شكاً ولا ريباً لأحد فأقام سبحانه وتعالى من آياته العظيمة في خلق السموات والأرض والناس ما يرشد العباد إلى خالقهم العظيم، ويدلهم على ربهم القدير سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه وأمرهم أن يتفكروا في خلق السموات والأرض، وفي خلق أنفسهم، وتعهد سبحانه أن يرى العباد من آياته في الآفاق ما يحملهم حملاً على هذه القضية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصّلَت: الآية ٥٣].

والأدلة الكونية المشاهدة ليست هي الأدلة الوحيدة التي نصبها الله للدلالة عليه، بل إن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ومؤيدين من قبله سبحانه وتعالى بالأدلة والبراهين العظيمة على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وأنه خالق الكون، رب العالمين المستحق وحده للعباد. ولقد أتى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بوصف تفصيلي بليغ لأسماء الله صفاته حتى يعظم الرب سبحانه أكمل تعظيم ويعبد على الوجه الأمثل. وهكذا أصبحت الأدلة السمعية التي جاءت بها الرسل مكملة ومتممة للأدلة البصرية العقلية التي نصبها الله سبحانه في هذا الكون الفسيح وليس هذا فقط بل جعل الله سبحانه وتعالى شريعة الإسلام وعباداته جميعاً دالة على الله داعية للتوحيد حتى يصبح المسلم في كل عمل من أعماله موحدّاً ذاكراً لهذه الحقيقة العظيمة والصلاة والصيام والزكاة والحج شرعت جميعها لتعرف الله وتدل عليه وتشعر المؤمن بقربه سبحانه وتعالى من عباده واطلاعه عليهم ولذلك اشترط فيها جميعاً إخلاص النية لله سبحانه وتعلق القلب أثناء فعلها بالله، وشغل اللسان وقت فعلها بذكر الله والدلالة عليه فإذا عرفنا أن المسلم يمارس الصلاة خمس مرات في كل يوم وليلة وجوباً علمنا تبعاً لذلك أن المسلم لا بد وأن يظل ليله

ونهاره ذاكراً لربه منيباً إليه داعياً له، وهذا كله ليظل بعيد تماماً عن الإلحاد بالله والكفر به.

وهكذا أصبح الإسلام منهجاً وطريقاً للتوحيد والصلة الدائمة بالله سبحانه وتعالى والبعد الدائم عن الإلحاد بل عن كل ما يقطع صلة العبد بربه سبحانه وتعالى.

٢- العناية بالتربية الخلقية: -

جعل الإسلام الهدف الدنيوي الأرضي لرسالته هو إقامة العدل في الأرض وإسعاد الإنسان عليها، ولذلك وجه الإسلام وجوه الداخلين فيه إلى العمل لخير الناس ولذلك أوجب على المسلمين جميعاً الدعوة إليه كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٤] أي لتكونوا جميعاً أمة داعية إلى الخير، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] وفي سبيل دعوة الناس إلى الخير والهداية أمر الله المؤمنين بالصبر في ذلك وتحمل الأذى حتى لا ينفر الناس من هذا الدين واتخاذ الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى سبيلاً ومنهجاً، وهكذا امتلأت قلوب المسلمين بمحبة الخير للناس ورغبة هدايتهم وإنقاذهم ظلمات الشرك والكفر والإلحاد إلى نور الهداية والإسلام.

وأمر الإسلام أتباعه أيضاً بالعدل والإحسان مع كل الناس حتى مع المشركين والكافرين، والصبر على أذاهم إن كان في هذا خيراً ومصلحة، ورد إساءتهم والانتصار منهم عن العدوان فقط كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البَقَرَة: ١٩٠) وأمر سبحانه بالعدل مع الكافرين حتى مع ظلمهم وكراهيتنا لهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهكذا فالإسلام رسالة هداية ورحمة للناس جميعاً كما

قال سبحانه وتعالى لنبي الإسلام نبي الرحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧].

وجاء الإسلام بعد ذلك بالبر والإحسان والرحمة بالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وكل محتاج، وجعل للجار حقوقاً على جاره، وللصديق حقاً على صديقه وكذا للصاحب والزميل، بل لكل مسلم على مسلم حقوقاً كرد السلام، وإجابة الدعوة وتشميت العاطس وعيادة المريض، واتباع الجنائز، ونهى عن ظلم المسلم واحتقاره، وخذلانه، وهجرانه فوق ثلاث والبيع على بيعه، والخطبة على خطبته، والتجسس عليه وحسده، وبغضه، وغيبته، وسبه وجعل هذا من الفسوق والإثم الذي يعاقب فاعله بأشد العقوبات. وهكذا أصبح الإسلام رسالة إنسانية كاملة يأمر أتباعه بزرع الخير أنى وجدوا، وفي أي مكان يكونون فيه، ومع كل إنسان ولو كان كافراً إلا أن يكون محارباً خارجاً بالسيف على المسلمين، وأما إن كان مسالماً مستأمناً أو معاهداً فقد أمرنا الله بالإحسان إليه وبره مع كفره أو فسقه وخروجه عن الإيمان.

وبهذه الروح الطيبة التي يخلقها الإسلام في نفوس أتباعه ويغرسها فيهم ينشأ المسلم الطيب القلب العلي الهمة نقي السريرة، فإذا توجه المسلم في كل ذلك نحو ربه مراقباً لله عاملاً لمرضاته، مريداً وجهه كان أبعد الناس عن الإلحاد والكفر والزندقة، أقرب الناس إلى ربه وخالقه ومولاه لأن أعماله وأقواله جميعاً ستكون عبادة خالصة، وسيكون قلبه دائماً وأبداً متصلاً بربه ذاكراً له شاكراً لأنعمه كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وهذا الإنسان الذي يتربى على الإسلام على هذا النحو لا يوجد في الأرض أطهر منه ولا أنظف ولا أطيب فهو خير ما يدب عليها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (البيّنة: ٧).

ومثل هذا الإنسان الذي يراقب ربه عند كل نظره، وخاطرة، وفي كل

عمل، ويتوجه بكليته في جميع أموره نحو ربه وخالقه لا شك أنه سيكون بعد ذلك لبنة صالحة في بناء صالح وبهذا تنشأ المجتمعات النظيفة التي تتخلص من الأثرة وحب النفس، والتنافس البغيض والإغراق في الشهوات والملذات والأنانية والفردية.

وهكذا نجد أن هدفي الرسالة الإسلامية هما:

إخلاص الدين وتوحيده وعبادته وكذلك العمل لخير الإنسانية الطيبة الطاهرة التي هي بحق البديل الصالح للنفسية الإلحادية الخبيثة المدمرة التي تعيش القلق والأنانية والإجرام على ظهر هذه الأرض.

٣- التصدي لشبهات الملاحدة: -

الكفر كلمة تملأ الفم فقط وتجري على اللسان دون أن يكون لها نصيب من الواقع فإنكار الله سبحانه وتعالى وإنكار البعث والجنة والنار وإنكار الرسالات كل ذلك ليس إلا كلاماً وقذفاً يملأ أفواه قائليه ويجري على ألسنتهم دون أن يكون له من الواقع نصيب، ولا يملك أهل هذا الكلام الباطل لإثباته إلا الجهل والجهل ليس دليلاً.. فهم يقولون لم نر ولم نسمع ولا نعقل أن يكون للكون إله مدبر، وأن يكون قد خلق الخلق لحكمة وغاية، وأن يكون هناك بعث بعد الموت، وأن تكون جنة ونار، والحق أنهم يكابرون ولا يريدون أن يصدقوا لعلل أخرى ولا يدخل فيها أنهم لم يعرفوا الحق ولم يروا الدليل، بل لظنهم أن الحق يحول بينهم وبين ما يشتهون، أو أنه يحرمهم من بعض ما يحبون ويفرض عليهم كثيراً مما يكرهون وهذه العلة هي علة السابقين في الكفر ومن سار على دربهم إلى يوم الدين كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية ٢٣] فالكافر لا يملك يقيناً في نفي وجود الله ووحدانيته، وفي نفي رسالاته ولا يملك إلا الظن وإلا فمن يملك دليلاً واحداً على أن محمداً وحاشاه ﷺ كاذب، وأنه عاش طيلة عمره يأمر الناس بالباطل ويوهمهم أن هناك جنة وليس الأمر كذلك، ويوهمهم أن هناك ناراً وليس هذا بصحيح وأنه جاهد وعانى وتحمل

ما تحمل في سبيل قضية باطلة لا يؤمن بها.

الحق أن من كذب به قديماً وحديثاً لا يملك كما أسلفنا إلا الظن والظن ليس دليلاً ولا يتبع إلا ما تهواه نفسه وبئس الهوى أن يكون قائداً ومرشداً وإلهاً..

ولكن مع هذا لا يكفي الحق أن يكون حقاً ليعتنقه الناس ويذعنوا له، بل لا بد للحق من حجة تدافع عنه وسلطان يقوم به، إلا فإن الباطل مهما كان زيفه وخزعبلاته فإنه ينتصر بالقوة أحياناً وزخرفة القول أحياناً أخرى ولا يكون ذلك بالطبع إلا في غيبة الحق، أو بجهل أهل الحق بطرق الجدال والإقناع ودحض الباطل والرد على شبهات الملحدين، تماماً كما تكون صاحب قضية عادلة أحياناً كأن يكون لك بيت ورثته كابراً عن كابر ثم يأتي آخر دخيل لا حق له بتاتاً فيدعي ملكه لهذا البيت فإذا كان أقوى منك لساناً، وأعظم حيلة ومكراً فإنه يقلب حقك إلى باطل وباطله إلى حق يغري بباطله من يملك بصراً وفؤاد فإن الناس تحكم دائماً حسب ما تسمع وهذا ما يحدث دائماً في عرض قضية الإسلام والتوحيد في مقابل قضايا الشرك والإلحاد كثيراً ما نجد وخاصة في أيامنا هذه أهل الباطل ألحن بحجتهم وأكثر زخرفة لباطلهم بل وأكثر نشاطاً وحماساً ورغبة في نشره من أهل الحق لحقهم، وهكذا وجد الإلحاد طريقه إلى النفوس والعقول، فالباطل لا يقنع العقل، ولا يملأ الروح ولكن هالة الكلمات التي يتزخرف بها، وروعة الإخراج التي يخطر بها يجعل الناس يرتمون في أحضانه ويتهافتون عليه.. هذا والإلحاد إلى ذلك يهتك أستار المحرمات كلها فلا يبقى حراماً إلا ما لا تستطيع أن تصل إليه، وإذا كان التوحيد يعد أهله بجنة بعد الموت فإن أهل الإلحاد ودعاته يعدون من يتبعونهم في باطلهم بجنة على الأرض والنفوس الضعيفة تؤثر دائماً العاجل على الآجل. هذا إلى فشل دعاة الإسلام كثيراً في بيان أن ما يحققه الإسلام على الأرض من سلام واستقرار وسعادة هي الجنة الحقيقية المستطاعة على هذه الأرض، وأن ما يدعو إليه الإلحاد من جنة الشهوات والأهواء ما هو إلا

الجحيم العاجل قبل الجحيم الآجل. ولكن كما قلنا آنفاً انحسرت عقيدة التوحيد أمام ظلام الإلحاد لأن دعاة الحق لم يكونوا على مستوى الأحداث فيقابلون كل شبهة للإلحاد بدليل من أدلة الحق..

ليس الدليل في كل وقت كلاماً:

ولا أعني بتاتاً أن يكون دليل الحق دائماً كلاماً بل الدليل قد يكون كلاماً فعلاً فالإسلام والتوحيد نظام عملي وعبادي واعتقادي وإثبات الحق في الإسلام لا يكون بمجرد الكلام فمن قال مثلاً أن الإسلام يعني التخلف ويحارب العلم المادي كان الرد الطبيعي أن يمتلك المسلمون القوة وأن يتعلموا هذا العلم المادي، وبذلك تبطل الشبهة، ومن قال أن الإسلام لا يصلح لحياة الناس كان الرد الصحيح هو إقامة الإسلام العلمي الواقعي. وهكذا يصبح الحق حقاً والباطل باطلاً.

باختصار يستحيل أن نعالج ظاهرة الإلحاد المعاصرة إلا إذا أقمنا دليلاً للرد على كل شبهة وجعلنا العالم الواقعي هو الميدان لجهادنا وإثبات حقنا وأما إذا أصبحت الكتب فقط والأوراق هي الميدان الذي نحارب من خلاله فإننا ولا شك نخسر المعركة.

وهكذا يكون الرد على شبهات الإلحاد كلاماً في مقابل الكلام وعملاً في مقابل الأعمال، فإذا أفرز الإلحاد انحرافاً ونجاسة وانحلالاً فيجب على التوحيد أن يخلق طهراً وعفافاً واستقامة. وإذا كان الإلحاد يعني الظلم فإن التوحيد يعني العدل ولن نفهم العدل إلا إذا كان واقعاً كما أننا لا نحس بالظلم إلا إذا كان واقعاً. وإذا كان الإسلام كما نعتقد وهو كذلك هو الفلاح الحقيقي في الدنيا ولا أقول صالحاً لحياة الناس فقط هذا الإسلام يجب أن يكون واقعاً مطبقاً وليس قضية كلامية نصرخ بها هنا وهناك.

.. وهكذا إذا استطاع المسلمون أن يملكوا لكل شبهة جواباً وأن يكون الجواب كما يرى الناس لا كما يسمعون فقط استطعنا حقاً أن نقضي على ظاهرة الإلحاد..

كِتَابُ

حَقِيقَةِ الاحْتِفَالِ بِالمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد المبعوث رحمة للعالمين، وسراجاً منيراً للناس أجمعين، وحرزاً ونجاة للأميين.

وعلى آله وأصحابه الأخيار الأبرار الذين آمنوا به وعزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وأحبوه وعظموه كما لم يحب اتباع متبوعهم قط في العالمين.

وعلى كل من سلك سبيلهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فهذه رسالة قصيرة كتبتها في بيان حقيقة الاحتفال بمولد الرسول ﷺ مبيناً أن هذا الاحتفال بدعة منكرة اخترعها العبيديون الإسماعيلية الزنادقة الذين تسمّوا بالفاطميين وسرت منذ ذلك الوقت في أوساط المسلمين ولبسوا في كثير مما اخترعوه من البدع المنكرة.

ليبدلوا دين الرسول ﷺ بدينهم الباطل وليكون ما يفعلونه استدراكاً على الله وعلى رسوله في التشريع وزيادة على ما تعبد به الصحابة الأولون، وليدخلوا أنفسهم ومن يحتفل بموالدهم فيعظمونهم كما يعظم الرسول ﷺ، ثم لتكون هذه الأعياد وقد كانت - مجالاً واسعاً للفساد والإفساد.

والله أسأل أن يكتب لهذه الرسالة القبول، وأن يهدي أمتنا إلى طريق الحقّ والصواب واتباع سيد المرسلين ﷺ إنه هو السميع العليم.

وكتبه،

عبدالرحمن بن عبدالخالق

حقيقة الاحتفال بالمولد النبوي

- الاختلاف حول الاحتفال بالمولد النبوي ليس اختلافاً بين من يحب الرسول ويعظمه وبين من يبغضه ويهمل شأنه بل الأمر على العكس من ذلك تماماً.

- الفاطميون الإسماعيليون هم أول من ابتدع بدعة الاحتفال بالمولد النبوي .

- (الحقيقة المُحمَّديَّة) في الفكر الصوفي تختلف تماماً عما نؤمن به نحو النبي محمد ﷺ.

مقدمة

اطلعت على بعض المقالات التي يروج أصحابها لفكرة الاحتفال بمولد الرسول ﷺ، واتخاذ يوم ولادته عيداً ليكون ملتقى روحياً للمسلمين - على حد تعبيرهم - ومحاسبة النفس على مدى الاتباع والتمسك بالدين الإسلامي كما يزعمون..

وبالرغم من أن هذا الموضوع قديم، وقد كتب فيه المؤيدون والمعارضون، ولن يزال الخلاف فيه -الا ما شاء الله- إلا أنني رأيت من واجبي تجلية بعض الحقائق التي تغيب عن جمهور الناس عند نقاش هذه القضية.. وهذا الجمهور هو الذي يهمني الآن أن أضع مجموعة من الحقائق بين يديه ليعلم حقيقة الدعوة إلى الاحتفال بمولده ﷺ.. ولماذا تُرفض هذه الدعوى من أهل التوحيد والدين الخالص والإسلام الصحيح.

ماذا يريد الدعاة إلى الاحتفال بالمولد النبوي على التحديد؟

يصور دعاة الاحتفال والاحتفاء بيوم مولد الرسول ﷺ على أنه هو مقتضى المحبة والتعظيم لرسول الله ﷺ، وأن يوم مولده يوم مبارك ففيه أشرقت شمس الهداية، وعم النور هذا الكون، وأن الرسول ﷺ كان يصوم يوم الاثنين، ولما سئل عن ذلك قال: [هذا يوم ولدت فيه وترفع الأعمال إلى الله فيه، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم]، وأنه إذا كان العظماء يحتفل بمولدهم ومناسباتهم فالرسول ﷺ أولى لأنه أعظم العظماء وأشرف القادة..

ويعرض دعاة الاحتفال بالمولد هذه القضية على أنها خصومة بين أحباب الرسول ﷺ وبين أعدائه وخلاف بين من يعظمون الرسول ﷺ ويقدرونه وينتصرون له، وبين من يهملونه، ولا يحبونه ولا يضعونه في الموضع اللائق به.

ولا شك أن عرض القضية على هذا النحو هو من أعظم التلبيس وأكبر الغش لجمهور الناس، وعامة المسلمين، فالقضية ليست على هذا النحو بتاتاً فالذين لا يرون جواز الاحتفال بمولد الرسول ﷺ خوفاً من الإبتداع في الدين هم أسعد الناس حظاً بمحبة النبي ﷺ وطاعته، فهم أكثر الناس تمسكاً بسنته، واقتفاءاً لآثاره، وتتبعاً لحركاته وسكناته، وإقتداء به في كل أعماله ﷺ، وهم كذلك أعلم الناس بسنته وهديه ودينه الذي أرسل به، وأحفظ الناس لحديثه، وأعرف الناس بما صح عنه وما افتراه الكذابون عليه، ومن أجل ذلك هم الذابون عن سنته، والمدافعون في كل عصر عن دينه وملته وشريعته بل إن رفضهم للإحتفال بيوم مولده وجعله عيداً إنما ينبع من محبتهم وطاعتهم له فهم لا يريدون مخالفة أمره، ولا الإفتئات عليه، ولا الإستدراك على شريعته لأنهم

يعلمون جازمين أن إضافة أي شيء إلى الدين إنما هو استدراك على الرسول ﷺ لأن معنى ذلك أنه لم يكمل الدين، ولم يبلغ النبي ﷺ كل ما أنزل الله إليه أو أنه استحيا أن يبلغ الناس بمكانته ومنزلته، وما ينبغي له، وهذا أيضا نقص فيه، لأن وضع الرسول ﷺ في مكانته من الدين الذي أمر الرسول ﷺ بتبليغه وقد فعل ﷺ، فقد بين ما يجب على الأمة نحوه أتم البيان فقال مثلا [لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين] (أخرجه البخاري ومسلم)

* **وقال عمر بن الخطاب**: والله يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال : [لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك] فقال - أي عمر - : فأنت الآن أحب إليّ من نفسي، فقال: [الآن يا عمر] (أخرجه البخاري)..

والشاهد أن الرسول ﷺ لا يستحي من بيان الحق، ولا يجوز له كتمانه، ولا شك أن من أعظم الحق أن يشرح للناس واجبهم نحوه، وحقه عليهم، ولو كان من هذا الحث الذي له أن يحتفلوا بيوم مولده لبينه وأرشد الأمة إليه.

وأما كونه كان يصوم يوم الاثنين وأنه علل ذلك أنه يوم ولد فيه، ويوم ترفع الأعمال إلى الله فيه، فإن أحباب الرسول ﷺ على الحقيقة يصومون هذا اليوم من كل أسبوع اقتداء بالنبي ﷺ في ذلك.

وأما أولئك الملبسون فإنهم يجعلون الثاني عشر من ربيع الأول يوم عيد ولو كان خميساً أو ثلاثاءً أو جمعةً.

وهذا لم يقله ولم يفعله رسول الله ﷺ، فلم يثبت أنه صام الثاني عشر من ربيع الأول، ولا أمر بصيامه.

فاستنادهم إلى إحياء ذكرى المولد، وجعل الثاني عشر من ربيع الأول عيداً لأن الرسول ﷺ صام يوم الاثنين تلبيس على عامة الناس وتضليل لهم.

والخلاصة:

أن الذين يُتهمون بأنهم أعداء الرسول ﷺ ومنكرو فضله، وجاحدوا

نعمته، كما يدّعي الكذابون هم أسعد الناس حظاً بإتباع الرسول ﷺ، ومحبته، وهم الذين علموا دينه وسنته على الحقيقة.

وأما أولئك الدعاة إلى الاحتفال بالمولد فدعوتهم هذه نفسها هي أول الحرب لرسول الله ﷺ، وأول الكذب عليه، والاستهانة بحقه.

لأنها مزاحمةٌ له في التشريع واتهام له إنه ما بيّن الدين كما ينبغي، وترك منه ما يستحسن، وأهمل ما كان ينبغي ألا يغفل عنه من شعائر محبته وتعظيمه وتوقيره، وهذا أبلغ الأذى لرسول الله ﷺ.

وهذه نقطة الفصل في هذه القضية، وبداية الطريق لمعرفة من اهتدى ومن ضل فيها.

فدعاة المولد - بدعوتهم إليه - مخالفون لأمره ﷺ، مفتئتون عليه، مستدركون على شريعته، ونفاة المولد متبعون للرسول ﷺ، متابعون لسنته، محبون له، معظمون لأمره غاية التعظيم متهيبون أن يستدركوا عليه ما لم يأمر به، لأنه هو نفسه ﷺ حذرهم من ذلك فقال : [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد] (أخرجه البخاري ومسلم) و [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] (أخرجه البخاري ومسلم)

مَنْ هَؤُلاَءِ؟ ومَنْ هَؤُلاَءِ؟

وهنا يأتي السؤال من الداعون إلى المولد ومن الرافضون له؟ والجواب أن الرافضين للمولد هم أصحاب النبي ﷺ الكرام، ونقول الرافضين -تجوزاً- فالمولد هذا ما كان في عصرهم قط، ولم يعرفوه أبداً، ولا خطر ببالهم أصلاً، وعلى هذا كان التابعون وتابعوهم وأئمة السلف جميعاً ومنهم الأئمة الأربعة أعلام المذاهب الفقهية المشهورة.

وعلماء الحديث قاطبةً إلا من شذ منهم في عصور متأخرة عن القرون الثلاثة الأولى قرون الخير، وكل من سار على دربهم ومنوالهم إلى يومنا هذا.

وهؤلاء هم السلف والأمة المهتدية الذين أمرنا الله باتباعهم والترضي عنهم، وفيهم الخلفاء الراشدون المهديون الذين أمرنا الرسول ﷺ باتباع سنتهم فقال : [عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة] (أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة) والترمذي وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية وصححه الألباني)

فهل كان هؤلاء من جعل يوم مولده عيداً، ومن خصه بشيء من العبادات أو العادات أو التذكير أو الخطب، أو المواعظ.

وإذا كانت الأمة الصالحة هي ما ذكرنا وهي التي لم تحتفل بيوم مولده، وتركت ذلك تعظيماً للرسول ﷺ لا إهانةً له، ومعرفةً بحقه لا جحوداً لحقه، فمن إذن الذين ابتدعوا الاحتفال بمولده، وأرادوا - في زعمهم - أن يعظموا الرسول ﷺ بما يعظمه به سلف الأمة الصالح، وأرادوا أن يحيُّوُهُ ﷺ بما لم يُحَيِّه به الله؟

والجواب: أن أول من ابتدع ذلك هم ملوك الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجري ومن تسمى منهم باسم (المعز لدين الله) ومعلوم أنه وقومه جميعاً إسماعيليون زنادقة، متفلسفون. أدعياء للنسب النبوي الشريف، فهم من ذرية عبد الله بن ميمون القداح اليهودي الباطني وقد ادعوا المهدية وحكموا المسلمين بالتضليل والغواية، وحولوا الدين الى كفر وزندقة وإلحاد، فهذا الذي تسمى (بالحاكم بأمر الله)، هو الذي ادعى الألوهية وأسس جملة من المذاهب الباطنية الدرزية أحدها، وأرغم المصريين على سب أبي بكر وعمر وعائشة وعلق ذلك في مساجد المسلمين ومنع المصريين من صلاة التراويح، ومن العمل نهاراً إلى العمل ليلاً ونشر الرعب والقتل واستحل الأموال وأفسد في الأرض، مما تعجز المجلدات عن الإحاطة به. وفي عهد هؤلاء الفاطميين أيضا وبإفسادهم في الأرض أكل المصريون القطط والكلاب وأكلوا الموتى، بل وأكلوا أطفالهم.

وفي عهد هؤلاء الذين ابتدعوا بدعة المولد تمكن الفاطميون والقرامطة من قتل الحجاج وتخريب الحج، وخلع الحجر الأسود.

والخلاصة: أن بدعة المولد نشأت من هنا، وهل يقول عاقل أن هؤلاء الزنادقة الملحدون قد اهتدوا إلى شيء من الحق لم يعرفه الصديق والفاروق وعثمان وعلي والصحابة والسلف الأئمة وأهل الحديث؟ هل يكون كل هؤلاء على باطل وأولئك الكفرة الملاعين على الحق؟ وإذا كان قد اغتر بدعوتهم بعض من أهل الصلاح والتقوى وظن - جهلاً منه - أن المولد تعظيم للرسول ﷺ ومحبة له هل يكون الجاهلون المغفلون حجة في دين الله؟!

ماذا في المولد؟ وما الذي يصنع فيه؟

ونأتي الآن إلى سؤال هام: وماذا في المولد؟ وما الذي يصنع فيه؟

والجواب: أن الذين يحتفلون بالمولد هم في أحسن أحوالهم مبتدعون، مفتئتون على رسول الله ﷺ مستدركون عليه. مجهلون لسلف الأمة وأئمتها. هذا في أحسن الأحوال إذا صنعوا معروفاً في الأصل كتذكر لنعمة الله بإرسال الرسول ﷺ، وقراءة في سيرته وصلاةٍ وسلامٍ عليه، وإظهارٍ للفرح والسرور بمبعثه، ونحو ذلك مما هو من الدين في الجملة ولكنه لم يشرع في هذه المناسبة. ولكن الحق أن أهل الاحتفال بمولده ﷺ هم في العموم ليسوا على شيء من هذا أصلاً.

فالمولد عندهم بدعة أنشأت بدعاً منكرة، بل شركاً وزندقة، فالاحتفال بالمولد عند أهله المبتدعين نظام وتقليد معين، واحتفال مخصوص بشعائر مخصوصة وأشعار تقرأ على نحو خاص، وهذه الأشعار تتضمن الشرك الصريح، والكذب الواضح، وعند مقاطع مخصوصة من هذا الشعر يقوم القوم قياماً على أرجلهم زاعمين أن الرسول ﷺ يدخل عليهم في هذه اللحظة ويمدون أيديهم للسلام عليه، وبعضهم يُطفئ الأنوار، ويضعون كذلك كأساً للرسول ﷺ ليشرب منه، فهم يضيفونه في هذه الليلة!! ويضعون مكاناً خاصاً

له ليجلس فيه بزعمهم - إما وسط الحلقة، وإما بجانب كبيرهم.. الذي يدَّعي بدوره أنه من نسله...

ثم يقوم (الذِكر) فيهم على نظام مخصوص بهز الرأس والجسم يميناً وشمالاً وقوفاً على أرجلهم، وفي أماكن كثيرة يدخل حلقات (الذِكر) هذه الرجال والنساء جميعاً.

وتذكر المرأة هزاً على ذلك النحو حتى تقع في وسط الجميع، ويختلط الحابل بالنابل حتى أن شعوباً كثيرة ممن ابتليت بهذه البدعة المنكرة اذا أرادت أن تصف أمراً بالفوضى وعدم النظام يقولون (مولد) يعنون أن هذا الأمر في الفوضى وعدم النظام يشبه الموالد.

والعجيب أن هذه الزندقة التي ابتلي به العالم الإسلامي منذ الفاطميين وإلى يومنا هذا -وإن كان قد خف شرها كثيراً- والتي ابتدعها القوم تعظيماً للرسول ﷺ في زعمهم لم يقصروها على رسول الله ﷺ بل جعلوا لكل أفاكٍ منهم مولداً، ولكل زنديق مدع للولاية مولداً، وبعض هؤلاء يعظم مولد هؤلاء ما لا يعظمون مولد الرسول ﷺ.

فهذا مولد من يسمى (بالسيد البدوي) الذي لا يعرف له اسم ولا نسب والذي لم يثبت قط أنه صلى جمعة أو جماعة والذي لا يعرف أيضاً أكان ذكراً أم أنثى حيث أنه لم يكشف وجهه قط!! وكان ملثماً أبداً!! هذا (السيد البدوي) والذي أنكر أهل مكة أن يكون منهم أو يعرفوه - يُحتفل بمولده أعظم من الاحتفال بمولد رسول الله ﷺ. فإلى اليوم يجتمع بمولده في أسبوع واحد أكثر من سبعة ملايين شخص وهو عدد أعظم من العدد الذي يجتمع في الحج.

فإذا كان أمثال هؤلاء تُعظم موالدهم واحتفالاتهم على نحو ذلك، فهل يكون هذا أيضاً من تعظيم الرسول؟!

وهل من تعظيم رسول الله ﷺ أن يجعل (المعز الفاطمي) وهو الذي ابتدع بدعة المولد النبوي. لنفسه مولداً كمولد رسول الله ﷺ؟ فهل أراد تعظيم رسول

الله ﷺ ومحبته حقاً؟! وإذا كانوا قد نافسوه في هذه العظمة بل احتفلوا بغيره أعظم من احتفالهم به ﷺ فهل هذا دليل محبتهم وتوقيرهم لرسول الله ﷺ؟!

فليتهم اذا ابتدعوا بدعة المولد أن يكونوا قد حرَّموهَا على غير رسول الله ﷺ وقصروها عليه لمنزلته ومكانته، ولكنهم للأسف جعلوها للرسول تمويها وادعاء، ثم حولوها إلى من هم على شاكلتهم وملتهم وتركوا - مثلاً أبي بكر وعمر وعثمان أليس هؤلاء - على الأقل - أولى من الشاذلي والدسوقي، والبدوي، والتيجاني، ومن هم على شاكلتهم. . .

والخلاصة: أن مبتدعي المولد لم يبتدعوه تعظيماً للرسول ﷺ كما يدعون ونشراً لسيرته وسنته ولكنهم ابتدعوه قنطرة يقفزون عليها لتعظيم أنفسهم واتباع أهوائهم، وجعل هذا مناسبة لترويج مذاهب بعينها وعقائد مخصوصة يعرفها من قرأ شيئاً عن الفكر الصوفي والفكر الباطني ..

عقيدة الأمة في الرسول غير عقيدة هؤلاء!

والحق أن عقيدة الأمة الإسلامية المهتدية في الرسول ﷺ غير عقيدة هؤلاء المبتدعين. .

فرسول الله ﷺ عند المسلم الحقيقي هو النبي والرسول الذي تجب طاعته قبل كل أحد وبعد كل أحد، ولا تجوز معصيته، والذي يجب محبته فوق كل أحد والذي لا دخول للجنة إلا بمحبته وطاعته واقتفاء أثره، وأنه النبي الخاتم الذي جاء بالتوحيد والإيمان والدين الصحيح الذي يُعبد به الله وحده لا شريك له..

وأما أولئك فإن الرسول ﷺ عندهم غير ذلك تماماً فالرسول ﷺ عند هؤلاء هو أول من خلق الله من الهباء - في زعمهم - وهو المستوي على عرش الله، والذي من نوره هُوَ خلق العرش والكرسي والسموات والأرض، والملائكة والجن والإنس وسائر المخلوقات وهذه عقيدة ابن عربي (صاحب الفصوص والفتوحات المكية)، واقرأ في ذلك (الذهب الإبريز لعبد العزيز بن

مبارك السجلماسي) وانظر كتابنا (الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة) باب: (الحقيقة المُحمَّديَّة) (ص ١٥١) وانظر فيه ما قاله محمد عبده البرهامي في كتابه (تبرئة الذمة في نصح الأمة)!!

والذي يدعي فيه أن الرسول ﷺ قال لجبريل من يأتيك بالوحي يا جبريل؟ فقال جبريل تمتد يد من خلف الحجاب فتعطني الآيات فآتيك بها.. فكشف الرسول ﷺ في زعمهم - عن يده وقال مثل هذه يا جبريل؟! فقال جبريل متعجباً : (منك وإليك يا محمد!!) فانظر هذه هي عقيدتهم في الرسول ﷺ أنه الذي أنزل الوحي من السماء وتلقاه في الأرض.

وقد فصَّل هذه العقيدة عبد الكريم الجيلي الصوفي الزنديق في كتابه (الإنسان الكامل).. فانظره إن شئت.

فالرسول ﷺ عندهم ليس هو الرسول عندنا بل هو عند أساطينهم ومحققيهم هو الله المستوي على العرش، وعند جهلائهم وأغبيائهم هو المخلوق من نور العرش، أو من نور الله وهؤلاء ربما يعتقدون أن الله موجود قبل الرسول ﷺ، وأن العرش مخلوق قبل الرسول ﷺ.. ولكن أولئك (المحققين في زعمهم) يعتقدون أن وجود الرسول ﷺ سابق على وجود العرش بل وجود كل مخلوق لأنه أول (التعينات) أي أول من أصبح عيناً أي شيئاً معيناً ومن نوره تخلقت كل الخلائق بعد ذلك.

وأما المغفلون منهم فيقول يا أول خلق الله ظانين أنه مخلوق قبل كل البشر فهو عندهم مخلوق قبل آدم نفسه وأولئك يقولون يا أول خلق الله على الأرض قبل العرش والكرسي والسموات والأرض والجنة والنار بل كل هذه في زعمهم خلقت من نور الرسول ﷺ.

ولا شك أن هذا كفر وهذا كفر، فالرسول ﷺ قد خُلِق بشَراً كما يُخلق سائر البشر وكان خلقه في وقت تكونه نطفة فعلقة فمضغة.. ووليداً ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠)

ولا يخفى أيضاً أن هؤلاء المبتدعين لم يخطئوا فقط في حقيقة النبي ﷺ

بل كذلك أخطئوا في إعطاء كل ما يجب لله أعطوه للرسول ﷺ، من دعاء له واستغاثة به، وعبادة بكل معاني العبادة.

وهذه أمور لا يتسع المقام لذكرها.

والخلاصة: أننا يجب أن نفهم هذا الأمر الذي يبدو صغيراً في أوله ولكنه عظيم جداً في نهايته فالاحتفال بالمولد: أوله بدعة وآخره كفر وزندقة.

والاختلاف فيه ليس كما يصوره الداعون إلى المولد أنهم ورَّاث الرسول ﷺ وأحبابه يدافعون عن شرف النبي ﷺ ويخاصمون من يتركون فضله ومنزلته، بل الأمر على العكس تماماً: إن المنكرين للمولد منكرون للبدعة، محبون لرسول الله ﷺ لا يريدون مخالفة أمره، والاستدراك عليه، متبعون سنة رسول الله ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين، والأئمة المهديين وأما أولئك فهم على سنة الزنادقة الإسماعيلية سائرون وببدعتهم وكفرهم معتقدون، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون.

هذا والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة في العالمين إلى يوم الدين.

كِتَابُ

الحَقِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً للناس أجمعين، سيِّد ولد آدم يوم الدين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

وبعد فهذه الرسالة قد احتوت على أصول الفكر الصوفي الذي بدأ تحت مسمى (الفقراء)، ثم دخلت إليه عقائد الحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، مما نتج عنه جعل أولياء الشيطان أولياء للرحمن، وإدخال الزنادقة والملحدين ليكونوا أئمة في الدين، والتحول عن عبادة الله الواحد القهار إلى عبادة الطواغيت ممن يدعون إلى عبادة أنفسهم من الشيوخ والزنادقة الملحدين، وتعظيم شعائر الشرك من عبادة القبور، والمشاهد والمزارات، والتعبُّد بالدفوف والطبول والسماعات .

وقد كان للحلَّاج، وابن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين، وعبد الكريم الجيلي، وعبد العزيز المبارك السلجماسي صاحب كتاب الإبريز، وأحمد التيجاني، وأبي الهدى الصيادي الرفاعي، وغيرهم ممن على شاكلتهم اليد الطولى في صياغة هذا الفكر ونشره، والذي تولى كبر هذا الأمر كله هو ابن عربي الذي يعتبر كتابه الفتوحات المكيَّة هو بحر الظلمات، وأعظم مستنقع اغترف منه من جاء بعده.

فهو أعظم شارح وناشر للقول بوحدة الوجود، وهو القائل بأن محمداً ﷺ هو أول المخلوقات، ومنه خلقت جميع الخلائق وهو المستوي على عرش الله، وهذا ما أصبح بعد ذلك عقيدة للمتصوِّفين الذين جاءوا والذين سموا هذا **(بالحقيقة المُحمَّديَّة)**.

وقد اشتملت هذه النسخة الجديدة على الرسالة السابقة والتي طبعت مراراً باسم: **(فضائح الصوفيَّة)**، وعلى رسالة أخرى بعنوان: **(ابن عربي إمام من أئمة الكفر والضلال)** رددنا على مَنْ زعم أنَّه إمام من أئمة الدين، وجبلٌ من جبال العلم، وقد أضفنا لها كذلك فصلاً جديداً للتعريف بما سمي **(بالحقيقة المُحمَّديَّة)** ومقالاً في الرد على من قادوا حملة لترويج هذا الفكر تحت تسمية الرسول ﷺ **(بحب الأكوان)**، ومن: أطلق على الرسول ﷺ مُسمَّى: **(سيد الوجود)**.

والله نسأل أن ينفع بهذه الرسالة عباده، ويجنبهم الوقوع في مهاوي الضلال إنِّه هو السميع العليم.

وكتبه

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت: الاربعاء ١٤ من جمادى الآخرة سنة ١٤٢٥هـ

الموافق ٤ من يوليو سنة ٢٠٠٤م

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي بعث محمداً ﷺ بالحق بين يدي الساعة مفرقاً بين الهدى والضلال، وبين التوحيد والشرك، وبين الجاهلية والإسلام، والصلاة والسلام على النبي الهادي الذي أتم رسالة ربه غاية الإتمام، وترك أُمَّته على المحجَّة الواضحة البيِّنة التي لا يزيغ عنها إلَّا من صرف الله قلبه عن الإيمان والإسلام، وبعد:

فإنِّي رأيت بعد طول دراسة وتدبر أنَّ الفكر الصوفي هو أشد الأخطار جميعاً على أمَّة الإسلام وأنَّه الذي حوّل عِزَّ هذه الأمَّة ذُلاً ومهانةً، ولا يزال هذا دأبه على الدوام، وأنَّه السُوس الذي ظلّ ينخر ويهدم في جسم شجرتنا الباسقة حتى أناخها مع الأيام، وأنَّه لا خلاص للأمَّة إلَّا بالتخلص من هذا السوس أولاً قبل أي خطر آخر، وقد كتبت بحمد الله في هذا الكتاب **(الفكر الصوفي)**، ولمَّا كان هذا الكتاب ذا حجم كبير قد لا يُسعف القارئ المشغول أن يُلِمَّ بأطرافه، أفردت هذه الرسالة الصغيرة لتشرح أهم المخاطر التي تهدد العالم الإسلامي من وراء الفكر الصوفي، لعل في هذه الرسالة باعثاً ومنبهاً لقادة الأمَّة الإسلاميَّة وموجهيها أن يُحذِّروا من هذه الآفة الخفية الماحقة ويعملوا على استئصالها من جسم الأمَّة الإسلاميَّة.

ثم أتبعت بيان المخاطر بنموذج مختصر لكيفية الجدال مع الصوفي وذلك حتى يتدرب طلاب العلم على كيفية النقاش معهم ويتعلموا كيف يستطيعون إقامة الحجة عليهم أو لإقامتهم على الطريق المستقيم.

والله أسأل أن ينفع بهذه الرسالة أمَّة الإسلام وطُلَّاب العلم الشرعي، وأحمد الله وأصلّي على عبده ورسوله في البدء والختام.

كتبه

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت: السبت ١٤ من ذي القعدة سنة ١٤٠٤هـ

الموافق: ١١ من أغسطس سنة ١٩٨٤م

الباب الأول
مخاطر الفكر الصوفي

هذه هي أهم مخاطر الفكر الصوفي:

١ . صرف الناس عن القرآن والحديث:

عمد المتصوفة قديماً وحديثاً إلى صرف الناس عن القرآن والحديث بأسباب شتى وطرق ملتوية جداً، ومن هذه الطرق ما يلي:

أ . **الزعم أنّ التدبر في القرآن يصرف النظر عن الله،** فقد جعلوا الفناء في الله في زعمهم هو غاية الصوفي، وزعموا أيضاً أن تدَبُّر القرآن يصرف عن هذه الغاية، وفاتهم أنَّ تَدبُّر القرآن هو ذكر الله عز وجل لأنَّ القرآن إمَّا مدح الله بأسمائه وصفاته، أو ذكر لما فعله سبحانه بأوليائه وبأعدائه، وكل ذلك مدح له وعلم بصفاته أو تدبر لحُكْمِه وشرعه، وفي هذا التدبر تظهر حكمته ورحمته بخلقه عز وجل، ولكن لأن الصوفيَّة يريد كل منهم أن يكون إلهاً ويتَّصف -في زعمه بصفات الله- فإنَّهم كرهوا تدَبُّر القرآن لذلك.

وها هو الشعراني يقول في كتابه (الكبريت الأحمر): يقول الله عز وجل في بعض الهواتف الإلهيَّة: **(يا عبادي: الليل لي لا للقرآن يتلى، إنَّ لك في النهار سبحاً طويلاً فاجعل الليل كله لي، وما طلبتك إذا تلوت القرآن بالليل لتقف على معانيه، فإنَّ معانيه تفرقك عن المشاهدة، فآية تذهب بك إلى جنتي وما أعددت فيها لأوليائي، فأين أنا إذا كنت في جنتك مع الحور متكئاً على فرش بطائنها من إستبرق؟ وآية تذهب بك إلى جهنم فتعاين ما فيها من أنواع العذاب، فأين أنا إذا كنت مشغولاً بما فيها؟ وآية تذهب بك إلى قصة آدم أو نوح أو هود**

أو صالح أو موسى أو عيسى عليهم الصلاة والسلام وهكذا، وما أمرتك بالتدبر إلا لتجتمع بقلبك علي، وأمّا استنباط الأحكام فلها وقت آخر وثم مقام رفيع وأرفع). أ.هـ [الكبريت الأحمر على هامش اليواقيت والجواهر ص٢١].

وهذه زندقةٌ عظيمة، إذ أين قال الله هذا الذي يفتريه الشعراني؟ ثم كيف يقول الله ما يخالف القرآن الحق المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ حيث يقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمَّد: الآية ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥]. وكان النبي ﷺ يقوم الليل بالقرآن كُلّما مرّ على آية فيها ذكرٌ للجنَّة وقف عندها ودعا الله عز وجل، وكُلَّما مَرَّ على آية أخرى فيها تهديد ووعيد، وقف عندها ودعا الله سبحانه واستعاذ من النار كما صَحَّ ذلك من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهؤلاء زعموا أنّ قراءة القرآن بالليل والقيام به مشغلة وانصراف عن الله!!

والحال أنّ القيام بالليل هو أعظم فريضة فرضها الله على رسوله ليَبْلُغ بذلك المنزلة العظمى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٧٩]، ومعنى: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ [الإسرَاء: الآية ٧٩] أي بالقرآن، فجعل الله المقام المحمود للرسول ثمرة لقيام الليل بالقرآن وهذا أيضا أول أمر أُمِر به الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤].

والمهم هنا أن هؤلاء الكذَّابين صرفوا الناس عن القرآن بزعمهم أنَّه مشغلة عن عبادة الله فأي تلبيس أكبر من هذا.

ب ـ **الزعم بأنَّ أجر أذكارهم المبتدعة أفضل من القرآن**، كما قال أحمد التيجاني وغيره: إنَّ صلاة الفاتح تعدل كلَّ ذِكر تُلِيَ في الأرض ستة آلاف مرة..! - اقرأ الفصل الخاص بالطريقة التيجانية في الفكر الصوفي)، وهذا في

المُحصِّلة يؤدي بالناس إلى هجر القرآن إلى الأذكار المبتدعة.

ج ـ **زعمهم أن من قرأ القرآن وفسره عاقبه الله** لأن للقرآن أسراراً ورموزاً، وظهراً وبطناً ولا يفهمها إلا الشيوخ الكبار ولو تعرض شيء من تفسيره أو فهمه عاقبه الله عز وجل.

د ـ **جعل القرآن والحديث هو الشريعة والعلم الظاهر** وأمَّا العلوم اللدنُيَّة الأخرى في زعمهم، فهي أكمل وأعلى من القرآن كما قال أبو يزيد البسطامي: (**خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله**)، وقال ابن سبعين: (**لقد حجر ابن آمنة واسعاً إذ قال لا نبي بعدي**)، وهذا القول من هذا الزنديق في غاية الشناعة والباطل واتهام الرسول ﷺ!! **فلعنة الله على من قال ذلك أو صدَّقه وتابعه في هذا القول.**

وباختصار: فللمتصوِّفة - أعني الزنادقة منهم - أساليب عظيمة في الكيد والمكر بالإسلام، ومن أعظم ذلك صرف الناس عن القرآن بهذه الأكاذيب والافتراءات.

٢ - فتح باب التأويل الباطني لنصوص القرآن والحديث:

ومن أعظم مخاطر الفكر الصوفي كذلك فتحهم باب للتفسير الباطني لنصوص القرآن والسنَّة، والحق أنَّه لا يكاد يوجد آية أو حديث إلَّا وللمتصوفة الزنادقة تأويلات باطنيَّة خبيثة لها، ويقول ابن الجوزي في وصف ذلك: (وقد جمع أبو عبد الرحمن السُلمي في تفسير القرآن من كلامهم الذي أكثره هذيان لا يحل، نحو مجلدين سماها: (حقائق التفسير) قال في فاتحة الكتاب عنهم أنهم قالوا إنَّما سُمِّيت فاتحة الكتاب لأنَّها أوائل ما فاتحناك به من خطابنا فإن تأدبت بذلك وإلا حُرِمت لطائف ما بعد.!!

قال المصنف رحمه الله: وهذا قبيح لأنَّه لا يختلف المفسرون أنَّ الفاتحة ليست من أول ما نزل، وقال في قول الإنسان (آمين) أي قاصدون نحوك.

قال المصنف رحمه الله: وهذا قبيح لأنه ليس من (أمّ) لأنَّه لو كان كذلك

لكانت الميم مُشددة، وفي قوله: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٥]، قال: قال أبو عثمان: غرقي في الذنوب، وقال الواسطي: غرقى في رؤية أفعالهم، وقال الجنيد: أسارى في أسباب الدنيا تفدوهم إلى قطع العلائق.

قلت: وإنّما الآية على وجه الإنكار ومعناها إذا أسرتموهم فديتموهم، وإذا حاربتموهم قتلتموهم، وهؤلاء قد فسروها على ما يوجب المدح، وقال مُحمَّد بن علي: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] من توبتهم، وقال النوري: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٥] أي يقبض بإياه ويبسط لإياه وقال في قوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] أي من هواجس نفسه ومن وساوس الشيطان.

وهذا غاية في القبح لأنَّ لفظ الآية لفظ الخبر ومعناه الأمر وتقديرها من دخل الحرم فأمّنوه، وهؤلاء فسَّروها على الخبر، ثم لا يصح لهم لأنَّه كم من داخل إلى الحرم ما أَمِنَ من الهواجس ولا الوساوس، وذكر في قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النِّساء: الآية ٣١] قال أبو تراب: هي الدعاوي الفاسدة، ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النِّساء: الآية ٣٦]، قال سهل: هو القلب، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النِّساء: الآية ٣٦] النفس، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النساء: الآية ٣٦] الجوارح، وقال في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤]، قال أبو بكر الورّاق: الهمان لها ويوسف ما همَّ بها.

قلت: هذا خلافٌ لصريح القرآن.

وقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يُوسُف: الآية ٣١]، قال مُحمَّد بن علي: ما هذا بأهل أن يدعى المباشرة، وقال الزنجاني: الرعد صعقات الملائكة والبرق زفرات أفئدتهم والمطر بكاؤهم، وقال في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ﴾ [الرّعد: الآية ٤٢]، قال الحسين: لا مكر أبيْنَ فيه من مكر الحق بعباده حيث أوفاهم أن لهم سبيلاً إليه بحال، أو للحدث اقتران مع القدم.

قال المصنف رحمه الله: ومن تأمل معنى هذا عَلِمَ أنّه كُفْرٌ محض لأنّه يشير إلى أنّه كالهزء واللعب، ولكن الحسين هذا هو الحلاج وهذا يليق بذاك،

وقال في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحِجر: الآية ٧٢] أي بعمارتِكَ سرَّك بمشاهدتنا.

قلت: وجميع الكتاب من هذا الجنس، ولقد هممت أن أثبت من ها هنا كثيراً فرأيت أنَّ الزمان يضيع بين الكفر والخطأ والهذيان، وهو من جنس ما حكينا عن الباطنيَّة فمن أراد أن يعرف جنس ما في الكتاب فهذا أنموذجه، ومن أراد الزيادة فلينظر في الكتاب. [تلبيس إبليس ص٣٣٢، ٣٣٣].

وهذا الذي ذكره الإمام ابن الجوزي إنَّما هو نموذج فقط للتأويل الصوفي لرواده الأوائل، ولو رحنا نتتبع ما سطرته أيدي المتصوفة من التأويل الباطني الخبيث للقرآن والحديث لجمعنا عشرات المجلدات كلها من أمثال هذا الهذيان والافتراء، والتقول على الله بلا علم والزعم أنَّ هذه هي معاني القرآن الحقيقيَّة .

وللأسف فإنَّ المنهج الباطني لتأويل القرآن والحديث قد درج عليه من سار على هديهم لليوم، ولقد أصبح منهاجاً وأسلوباً لمن ابتُلي بالتصديق بهذه الخرافات الصوفيَّة، وإطلاعك مثلاً على كتاب: [**القرآن محاولة لتفسير عصري**] لمؤلفه مصطفى محمود، أو الكتب التي ألفها محمود مُحمَّد طه السوداني صاحب ما يسمى بالحزب الجمهوري السوداني يطلعك على هذه النماذج العجيبة التي تأثرت بالفكر الصوفي وخرجت على المسلمين بتأويلات باطنية للقرآن والحديث، وإليك بعض النماذج في ذلك:

المحاولة العصريَّة لتفسير القرآن التي كتبها الدكتور مصطفى محمود على صفحات صباح الخير المصريَّة، ثمَّ جمعها في رسالة بعنوان: **(القرآن محاولة لفهم عصري للقرآن) كانت محاولة صوفيَّة حديثة لتفسير القرآن**، وهي محاولة فجّة في إطار الفكر الصوفي كما سمَّاها بذلك محمود مُحمَّد طه الأستاذ الذي نقل عنه الدكتور في كتابه فقد قال مادحاً له ناقلاً عنه: (وأعجبني في كتاب للمفكر الإسلامي محمود طه بعنوان "رسالة الصلاة" تعبير جميل يقول فيه: إن الله استل آدم استلالاً من الماء والطين، "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" إنه الانبثاق من الطينة درجة درجة، وخطوة خطوة، من الأميبا إلى

الإسفنج إلى الحيوانات الرخوية إلى الحيوانات القشريَّة إلى الفقريات إلى الأسماك إلى الزواحف إلى الطيور إلى الثدييات إلى أعلى رتبة آدمية بفضل الله وهديه وإرشاده) [ص٥٣ المحاولة].

وهذا المفكر الإسلامي على حد تعبير الدكتور مصطفى محمود، مهندس زراعي سوداني درس التصوف **ووصل إلى القول بسقوط التكاليف عنه لأنه وصل إلى مرحلة اليقين**، وله كتاب الصلاة الذي نقل عنه الدكتور مصطفى محمود وكتب أخرى، وله كتاب في الرد على المحاولة العصرية لتفسير القرآن.

ومما أعجب الدكتور في كتاب الصلاة لمحمود مُحمَّد طه ما نقلناه بنصه آنفاً، وهو إقحام عجيب لخلق آدم عليه السلام في نظرية دارون التي انحسر الإيمان بها إلَّا من عقول أولئك الذين يجمعون من كل فكر غث يفسرون به كلام الله عز وجل زاعمين أنهم وصلوا إلى هذا بالكشف والمجاهدة، وما هو إلَّا نقل لثقافات الكفرة والملحدين ثم حمل آيات الكتاب الكريم عليها.

وأمَّا الدليل على أنَّ المحاولة العصريَّة لتفسير القرآن وتأويله ينطلق من إطار الفكر الصوفي فهي هذه النقول من كتاب الدكتور مصطفى محمود عن القرآن:

أ - كتب الدكتور مصطفى محمود فصلاً كاملاً بعنوان (أسماء الله)، جعل المعرفة الصحيحة السليمة لمعاني الرب والإله هي التي توصل إليها المتصوفة قال: (**والمتصوفة يقولون إنَّه يبعد عن إدراكنا لفرط قربه ويخفى علينا لفرط ظهوره**) [ص٩٩].

ثم يسترسل في مدح الفكر الصوفي: (**وهم يطلبون القرب من الله حباً، وليس خوفاً من النار، أو طلباً لجنة، ويقولون إنَّه في هجرة دائمة إلى الله من الأكوان إلى المكون**) [ص١٠١].

ثم يقول: (**والمتصوفة أهل أطوار وأحوال ولهم آراء طريفة لها عمقها ودلالتها، فهم يقولون إنَّ المعصية تكون أفضل أحياناً من الطاعة، فرُبَّ معصية تؤدي إلى الرهبة من الله وإلى الذل والانكسار، وطاعة تؤدي إلى الخيلاء**

والاغترار، وهكذا يصبح العاصي أكثر قرباً وأدباً مع الله من المطيع) [ص١٠١].

ثم يقول: **(والمتصوف واليوجي والراهب كلهم على درب واحد، وأصحاب منطق واحد وأسلوب واحد في الحياة هو الزهد)** [ص١٠١].

ثم يقول أيضاً: **[واليوجي والراهب والصوفي المسلم يطلبون القرب والوصل بنفس الأسلوب، بالتسابيح فيدعون الله بأسمائه "ولله الأسماء الحسنى يدعوه بها" وهناك يوجا خاصة بالتسابيح اسمها (المانترايوجا) من كلمة (منترام) الهندية أي تسبيحة، ومن التسابيح السنسكريتية أن يتلو اليوجي في خشوع كلمة (رهيم، رهام) آلاف المرات وهي كلمات تقابل (رحيم، رحمن) عندنا وهي من أسماء الله بالسنسكريتية ويضع اليوجي في عنقه مسابح طويلة من ألف حبة).!!**

ثم يسترسل الدكتور مصطفى محمود في الإشادة بمنهج التصوف وفهم المتصوفة للإسلام فيقول: (والتصوف إدراك عن طريق المدارك العالية، والمتصوف عارف) [ص١٠٣].

ثم يجري خلف المتصوفة في تطويع الآيات القرآنية إلى تفسيرهم الباطني فيقول: (وفي بعض أخبار داود أنَّه قال: يا رب أين أجدك؟ فقال: اترك نفسك وتعال، غب عني تجدني، وفي هذا يفسر بعض المتصوفة كلام الله لموسى في القرآن: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: الآية ١٢]، أنَّ المقصود بالنعلين هي النفس والجسد، أو النفس وملذات الجسد، فلا لقاء بالله إلا بعد أن يخلع الإنسان النعلين: نفسه وجسده بالموت أو بالزهد) [ص١٠٤].

ثم يسترسل الدكتور فيقول: **(والمتصوف لا يسأل، وهو يمرض فلا يسأل الله الشفاء ويقول في أدب، كيف أجعل لنفسي إرادة إلى جانب إرادة الله فأسأله ما لم يفعل)** [ص١٠٥].

ثم يفسر قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، إنَّ معناها ما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفون.

ثم يقول في ختام هذا الفصل الصوفي: (هؤلاء هم أهل السر القرب والشهود الأولياء الصالحون حقاً) [ص١٠٩].

فما أثر هذا المنهج الصوفي الذي اختطَّه الدكتور لنفسه، وكيف كان نتاج هذا الفكر عند الدكتور؟

لقد تصدى الدكتور مصطفى محمود لتأويل القرآن وتفسيره فبماذا طلع على الناس؟ وما الفهم العصري لكتاب رب العالمين عز وجل؟!

وإليك نماذج مما وصل إليه فهم الدكتور المفسر:

أ ـ اجتهد الدكتور على حد تعبيره في معرفة الشجرة التي أكل منها آدم فعصى الله تبارك وتعالى وأوصله (اجتهاده) إلى ما يأتي بالنص:

(كان التلاقح الجنسي والشجرة المحرمة التي أكلت منها الحياة فهوت إلى العدم)... (وكان الشيطان يعلم أن شجرة النسل هي إيذان ببدء الموت والطرد من جنة الخالدين فكذب على آدم فسول له أنَّها شجرة الخلود بعينها، وأغراه بأن يخالط زوجه بالجسد) [ص٦٢].

ثم لا يكتفي الدكتور بذلك بل يجزم أنَّ حواء أيضاً حملت في أثناء هذا اللقاء حيث يقول: (ثم نرى القرآن يخاطبها بعد تذوق الشجرة على أنهما جمع فيقول (اهبطوا بعضكم لبعض عدو)، بينما كان الخطاب في نفس الآيات قبل الخطيئة إلى مثنى، ومعنى هذا أن الأكل من الشجرة أدى إلى التكاثر) [ص٦٢].

ثم يقول الدكتور بعد كل هذا الهذيان: (ولا يمكننا القطع في هذه المسائل، ويجب أنَّ نقول أنَّ الشجرة ما زالت لغزاً، وأنّ قصة الخلق ما زالت من أمر الغيب لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد، والله أعلم بكتابه وهو وحده الذي يعلم تأويل ما فيه).

قلت: كيف وقد قَطَعت وفَسَّرت بما يحلو لك آنفاً وتقوَّلت على الله وعلى كتابه بغير علم ولا هدى، وزعمت كل الذي زعمت في معاني القرآن بما يوافق هواك ورأيك...!

والعجيب حقاً أنَّ مصطفى محمود نفسه يهاجم البهائيَّة الذين يعمدون إلى التأويل الباطني للقرآن فيقول: (وهو أمر يكشف خطورة التفسير الباطني للقرآن، وخطورة إغفال ظاهر الحروف، ومقتضى الكلمات والعبارات، وكيف يمكن أن يؤدي أمثال هذه التفاسير إلى اقتلاع الدين من أساسه، وهو ما كانت تلجأ إليه بالفعل فرق الخوارج والإثنا عشريَّة والباطنيَّة والبابيَّة لتطويع القرآن لأغراضها في هدم بعضها البعض).

ثم يستطرد قائلاً: (وهذا ينتهي بنا إلى موقف في التفسير لا بد من التزامه، وهو الارتباط بحرفيَّة العبارة، ومدلول الكلمات الظاهر، لا تنتقل إلى تأويل باطني إلا بإشارة وإلهام من الكلمات القرآنيَّة ذاتها فنفسر القرآن بالقرآن ظاهراً وباطناً على أن لا يتعارض تفسيرنا الباطن مع مدلول الظاهر أو يكون نافياً له). أ.هـ (محاولة تفسير عصري ص١٢٢ - ١٢٣).

والعجيب حقاً أن مصطفى محمود بالرغم من كل ما قاله عن خطورة التأويل الباطني قد فتح لنفسه هو المجال ليقول حسب هواه، فقد جعل الجنَّة والنار كليهما عذاباً ونعيماً معنوياً وليس شيئاً حقيقياً حسياً وقال أنا أكره العسل، ومنذ سمعت أن في الجنَّة أنهار عسل تقززت نفسي!!. وجعل يأجوج ومأجوج هم شعب الصين، وجعل الدجال المذكور في الحديث هو العلم العصري لأنَّه ينظر بعين واحدة إلى الدنيا فقط، وجعل لباس البحر للنساء لباساً أوجدته الضرورة والتفكر في خلق الله. وهذه فقط بعض تأويلاته.!

وأمَّا أستاذه الذي نقل عنه وهو محمود مُحمَّد طه السوداني، فهذا الذي وصلت به التأويلات إلى إسقاط الشريعة عن نفسه فهو لا يُصلِّي لأنَّه وصل منزلة الله!! وقد وجد بتأويلاته أنَّ الاشتراكيَّة في القرآن بأنَّ الله يقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٩]، والعفو هي الزيادة في زعمه عن الحاجة الضروريَّة، وهذا يعني عنده أنَّه لا يجوز الإدخار ويجب إنفاق كل الكسب الزائد، وبالرغم من كل هذه الخزعبلات والخرافات فقد وجد مثل هذا الفكر رواجاً.

وقد ناقشت بنفسي أعداداً كبيرة من هذا الذي يسمونه بالحزب الجمهوري في السودان، ويعجب القارئ إذا علم أنَّ مثل هذا الفكر الباطني قد انتحله أساتذة جامعات ومحامون ومدرسون وطلاب، وأنهم يدافعون عن هذا الفكر باستماتة عجيبة، فأي خطورة أعظم من مثل هذا؟!

٣ . إتلاف العقيدة الإسلامية:

أوَّل ما يستهدف الفكر الصوفي إتلافه وتبديله هو العقيدة الإسلاميَّة النقيَّة عقيدة الكتاب والسنَّة، وذلك أنّ الفكر الصوفي خليط كامل لكل الفلسفات والخزعبلات والخرافات التي انتشرت في العالم قديماً وحديثاً.

فليس هناك من كفر وزندقة وإلحاد إلا دخل إلى الفكر الصوفي وتلبس بالعقيدة الصوفيَّة، **فمن القول** بوحدة الوجود وأن كل موجود هو الله، **إلى القول** بحلول ذات الله أو صفاته في المخلوقين، **إلى القول** بالعصمة، **إلى الزعم** بالتلقي من الغيب، **إلى القول** بأنَّ مُحمَّداً ﷺ هو قُبَّة العالم وهو المستوي على عرش الله، **إلى القول** بأن الأولياء يديرون العالم ويتحكمون في الكون.

وأستطيع أن أقول أنَّه لا توجد عقيدة شركيَّة في الأرض إلا وقد نُقِلت إلى الفكر الصوفي، وأُلبست الآيات والأحاديث.

بل أنني أتحدى أي صوفي يعلم ما هو التصوف أن يثبت لي حسب عقيدته، أنَّ إبليس كافر وأنَّه من أهل النار.! وأنَّ فرعون كافر وأنَّه من أهل النَّار.! وأنَّ الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل أخطئوا.! وأنَّ الذين يعبدون البقر الآن كفار.!! **أتحدى أي صوفي يعلم حقيقة التصوف أن يثبت ذلك.**

وقد يقول قائل: كيف لا يثبت ذلك وهو ثابت في القرآن والسنَّة وكل مؤمن يشهد بذلك ومن شكّ في ذلك فهو كافر أصلاً؟

والجواب: إنَّه إن أثبت ذلك طعن في عقيدة التصوف، وشكك في أعلامه ورجاله، بل وكفَّر قادته وأساطينه وبالتالي خرج عن التصوف، فشيخ الصوفيَّة

الأكبر هو ابن عربي الزنديق الذي زعم أنَّ فرعون أعلم بالله من موسى، وأنّ مَنْ عبدوا العجل ما عبدوا إلا الله لأنَّ العجل في عقيدته الخبيثة مظهر من مظاهر الإله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -.

بل وعبدة الأصنام عنده ما عبدوا إلَّا الله، لأن الله عنده هو كل هذه المظاهر المتفرقة، فهو الشمس، والقمر، والإنس، والجن، والملائكة، والشياطين، بل والجنة والنار، والحيوان والنبات والجماد، فما عُبِدَ في الأرض إلا الله، وما إبليس عند ابن عربي إلا جزء من الإله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - .

وقد جعل الصوفيَّة هذه العقيدة اللعينة التي لم تشاهد الأرض أقبح منها ولا أفظع ولا أنتن ولا أفجر، جعلوها سر الأسرار، وغاية الغايات، ومنتهى الإرادات، ودرجة الواصلين الكاملين، ومنتهى أمل العارفين، وهي عقيدة الزنادقة الملحدين من البراهمة والهنادك وفلاسفة اليونان الأقدمين، ولا شك أنَّ كل شر دخل التصوف بعد ذلك كان تحت ظلام هذه العقيدة اللعينة، وهذا شيء لا يستطيع أي متصوف في الأرض اليوم يعلم ما هو التصوف أن ينكره بل ولا يستقبحه، وغاية ما يقول: هؤلاء لا يفهم علمهم إلا أصحاب الأذواق، وأهل العرفان.

والحال أن هذا الكلام مشروح بلسان عربي واضح وقد كتبوه في مجلدات ضخمة وشرحوه نثراً وشعراً وقصصاً وأمثالاً، وربما اعتذر بعض المتصوفة عن هذا أنَّه من الشطح وغلبة الوجد، ولا شكَّ أيضاً أنَّ الشطح خبل وجنون، وهم يقولون إنَّ أحوالهم هذه أكمل الأحوال فكيف يكون الجنون والخبال كمالاً، ثم كيف يكون شطحاً ما يُكتب ويُدوَّن في عشرات المجلدات، ويُدعى إليه على أنه غاية التصوف ونهاية الآمال.

وربَّما قالوا بل هو مدسوس عليهم، وهذه أيضاً من جملة كذبهم وتدليسهم، وأتحدى أي صوفي أن يذكر عبارة بعينها ويقول إنَّها مدسوسة أو عقيدة خاصة يعنيها ويقول إنها قد دُسَّت على الكاتب الفلاني، كيف وهي

كُتُبٌ كاملة، وعقائد مصنَّفة منمَّقة، وقصائد مُدبَّجة موزونة، أتحدى أي صوفي أن يقول هذه القصيدة مدسوسة، أو هذا القول المعين مدسوس، لأنه لو قال ذلك لأصبح التصوف كله مدسوساً مكذوباً وهذا حق.

فهؤلاء زعماء التصوف كالحلاج البسطامي والجيلي، وابن سبعين، وابن عربي، والنابلسي والتيجاني وغيرهم مدسوسون على هذه الأمَّة، كاذبون على الله ورسوله، قائلون في دين الله بالباطل، كل منهم زعم أنَّه الله المتصرف في الكون، وكل منهم زعم أنَّ الله قد وكَّله بجزء من هذا العالم، وكل منهم زعم أنَّه الوليّ الكامل الذي يأتيه الوحي صبحاً ومساءً، بل المُطَّلع على الغيب، القارئ في اللوح المحفوظ، الذي ختم الله به الأولياء، والذي جعله قِبلَة للعالمين ومُعجزةً ومناراً للخلق أجمعين، وأنَّه بعد النبي ﷺ رأساً، والنبي عندهم هو المستولي والمستوي على عرش الله الرحماني، فليس على العرش غير ذات مُحمَّد ﷺ، ومُحمَّد ﷺ عندهم هو أول الذوات وجوداً، وهو أول التعينات وهو الذي استوى على عرش الله، وهو الذي يوحي الوحي إلى كل الأنبياء، وينزل الإلهام إلى كل الأولياء، بل هو الذي أوحى لنفسه من نفسه، فهو الذي سلم إلى جبريل الوحي في السماء، وتلقاه منه في الأرض.!!

هل سمعتم يا مسلمون عقيدة تحمل كل هذه الوقاحة والخسَّة والنذالة والكفر والمروق، هذه هي عقيدة الصوفيَّة، وهذا هو تراثها ودينها.

ولقد شرحنا هذا بالتفصيل بحمد الله في كتابنا (**الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة**)، وذلك في طبعته الثانية ونقلنا النقول المستفيضة لكل ذلك من كتب هؤلاء الزنادقة، الذين ما فتئوا يخرجون على العالم أنَّهم أولياء الله وأحبابه، وأنَّهم يملكون مفاتيح القلوب، ومنهاج التربية الأمثل لإخراج المسلمين من الظلمات إلى النور.

والحال أنَّ هذه هي عقيدتهم وهذا هو منهجهم في إفساد دين المسلمين، وصرف الناس عن رسالة رب العالمين.

٤ . الدعوة إلى الفسق والفجور والإباحية:

ويخطئ من يظن أنَّ الصوفيَّة في أول أمرها كانت مؤسسة على التقوى، فهذا ابن الجوزي - رحمه الله - يروي عنهم هذه الحكاية فيقول: وبإسناد عن أبي القاسم بن علي بن المحسن التنوخي عن أبيه قال: (أخبرني جماعة من أهل العلم أنَّ بشيراز رجل يعرف بابن خفيف البغدادي شيخ الصوفيَّة هنا يجتمعون إليه ويتكلم عن الخطرات والوساوس، ويحضر حلقته ألوف من الناس وأنه فارهٌ فهمٌ حاذق، فاستغوى الضعفاء من الناس إلى هذا المذهب.

قال: فمات رجل منهم من أصحابه وخلف زوجة صوفيَّة فاجتمع النساء الصوفيات وهن خلق كثير ولم يختلط بمأتمهن غيرهن، فلما فرغوا من دفنه دخل ابن خفيف وخواص أصحابه وهم عدد كبير إلى الدار، وأخذ يعزي المرأة بكلام الصوفيَّة إلى أن قال: قد تعزيت، فقال لها: ها هنا غير.؟ فقالت: لا غير، قال: فما معنى إلزام النفس آفات الهموم، وتعذيبها بعذاب الهموم، ولأي معنى نترك الامتزاج لتلتقي الأنوار، وتصفو الأرواح ويقع الاختلافات وتنز البركات.!

قال: فقلن النساء أن شئت، قال: فاختلط جماعة الرجال بجماعة النساء طول ليلتهم فلما كان سحر خرجوا، قال المحسن قوله (ها هنا غير؟) أي هنا غير موافق المذهب. فقالت (لا غير.!) أي لا يوجد مخالف، وقوله: نترك الامتزاج كناية عن الممازجة قي الوطء، وقال لتلتقي الأنوار، عندهم أنَّ في كل جسم نوراً إلهياً، وقوله الاختلافات أي يكون لكن خلف ممن مات أو غاب من أزواجكن، قال المحسن: وهذا عندي عظيم ولولا أن جماعة يخبروني يبعدون عن الكذب ما حكيته لعظمته عندي واستبعاد مثله أن يجري في دار الإسلام،، قال: وبلغني أن هذا ومثله شاع حتى بلغ عضد الدولة فقبض على جماعة منهم وضربهم بالسياط وشرد جموعهم فكفوا) أهـ منه بلفظه [تلبيس إبليس ص٣٧٠، ٣٧١].

وهكذا تتيقن أن هذه الطائفة لم تكن في كل عصورها إلَّا مجموعات من

الزنادقة الملحدين المنحلين تظاهروا بظاهر الشريعة النظيف، وأخفوا عن الأعين كفرهم وفسقهم وزندقتهم، ولذلك جزم ابن عقيل كما نقل عنه ابن الجوزي أنَّهم زنادقة ملحدون منحلّون حيث يقول: (فالله الله في الإصغاء إلى هؤلاء الفرّغ الخالين من الإثبات، وإنَّما هم زنادقة جمعوا بين مدارع العمال مرقعات وصوف، وبين أعمال الخلعاء الملحدة أكل وشرب ورقص وسماع وإهمال لأحكام الشرع، ولم تتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فجاءوا بوضع أهل الخلاعة). أهـ [تلبيس إبليس ص٣٧٤].

وقد وردت هذه العبارة البليغة من ابن عقيل -رحمه الله- بعد وصف أحوال الصوفيَّة في زمانه حيث يقول: (ابن عقيل يصف فضائح الصوفيَّة: وأنا أذم الصوفيَّة لوجوه يوجب الشرع ذم فعلها منها: أنَّهم اتخذوا مناخ البطالة وهي الأربطة فانقطعوا إليها عن الجماعات في المساجد فلا هي مساجد ولا بيوت ولا خانات، وصمدوا فيها للبطالة عن أعمال المعاش وبدنوا أنفسهم بدن البهائم للأكل والشرب والرقص والغناء، وعوَّلوا على الترقيع المعتمد به التحسين تلميعاً والمشاوذ بألوان مخصوصة أوقع في نفوس العوام والنسوة من تلميع السقلاطون بألوان الحرير، واستمالوا النسوة والمردان - الأمرد الشاب الذي لم ينبت شعر وجهه - بتصنع الصور واللباس، فما دخلوا بيتاً فيه نسوة فخرجوا إلا عن فساد قلوب النسوة على أزواجهن، ثم يَقبَلون الطعام والنفقات من الظلمة والفجار وغاصبي الأموال كالعداد والأجناد وأرباب المُكوس، ويستصحبون المردان في السماعات يجلبونهم في الجموع مع ضوء الشموع، ويخالطون النسوة الأجانب ينصبون لذلك حجة إلباسهن الخرقة، ويستحلون بل يوجبون اقتسام ثياب من طرب فسقط ثوبه، ويسمون الطرب وَجْداً، والدعوة وقتاً، واقتسام ثياب الناس حكماً، ولا يخرجون من بيت إلا دعوا إليه إلا إلزام دعوة أخرى يقولون أنها وجبت، واعتقاد ذلك كفر وفعله فسوق.

ويعتقدون أن الغناء بالقضبان قربة وقد سمعنا عنهم أن الدعاء عند حدو الحادي وعند حضور المخذة مجاب اعتقاداً منهم أنّه قُرْبَة، وهذا كفر أيضاً

لأنَّ من اعتقد المكروه والحرام قُرْبةً كان بهذا الاعتقاد كافراً، والناس بين تحريمه وكراهيته.

ويُسلمون أنفسهم إلى شيوخهم فإن عوَّلوا إلى مرتبة شيخه قيل الشيخ لا يعترض عليه، فحد من حل رسن ذلك الشيخ وانحطاطه في سلك الأقوال المتضمنة للكفر والضلال المسمى شطحاً، وفي الأفعال المعلومة كونها في الشريعة فسقاً، فإن قبل أمرداً قيل رحمة، وإنْ خلا بأجنبية قيل بنته وقد لبست الخرقة، وإن قسّم ثوباً على غير أربابه من غير رضا ماله قيل حكم الخرقة.

قال ابن عقيل: وليس لنا شيخ نسلم إليه حاله، إذ ليس لنا شيخ غير داخل في التكليف وأنَّ المجانين والصبيان يُضرب على أيديهم وكذلك البهائم، والضرب بدل من الخطاب، ولو كان لنا شيخ يسلم إليه حاله لكان ذلك الشيخ أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وقد قال: إن اعوججت فقوموني ولم يقل فسلموا إلي، ثم أنظر إلى الرسول صلوات الله عليه كيف اعترضوا عليه، فهذا عمر يقول: ما بالنا نقصر وقد أمِنّا، وآخر يقول: تنهانا عن الوصال وتواصل؟ وآخر يقول: أمرتنا بالفسخ ولم تفسخ! ثم إن الله تعالى تقول له الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]، ويقول موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٥]؛ وإنَّما هذه الكلمة - يعني: قول الصوفيَّة: الشيخ لا يعترض عليه - جعلها الصوفيَّة ترفيها لقلوب المتقدمين، وسلطنة سلوكها على الإتباع والمريدين كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ [الزّخرُف: الآية ٥٤]، ولعل هذه الكلمة من القائلين منهم بأن العبد إذا عرف لم يضره ما فعل.

وهذه نهاية الزندقة لأن الفقهاء أجمعوا على أنَّه لا حالةً ينتهي إليها العارف إلا ويضيق عليه التكليف كأحوال الأنبياء يضايقون في الصغائر، فالله الله في الإصغاء إلى هؤلاء الفراغ الخالين من الإثبات، وإنَّما هم زنادقة جمعوا بين مرقعات وصوف، وبين أعمال الخلعاء الملحدة أكل وشرب ورقص وسماع وإهمال لأحكام الشرع، ولم تتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فجاءوا بوضع أهل الخلاعة) أهـ [تلبيس إبليس ص٣٧٣ - ٣٧٤].

٥ - الصوفيَّة واستحلال الحشيش:

ثم يستطرد ابن عقيل - رحمه الله - واصفاً زندقتهم وكفرهم وكيف أنَّه فرقوا في زعمهم بين الشريعة والحقيقة، واستحلوا الحشيش المخدر بل هم أول من اكتشفه وروَّجه في أوساط المسلمين، واستحلوا الغناء والاختلاط واستحلوا التظاهر بالكفر والزندقة زاعمين أنها أحوال وشطح، وأنه يجب عدم الإنكار عليهم لأنَّهم مجاذيب أو مشاهدين لحضرة الرب - في زعمهم -.

يقول ابن عقيل: فأول ما وضعوا أسماء وقالوا حقيقة وشريعة، وهذا قبيح لأنَّ الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق، فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين، وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع، وإن سمعوا أحداً يروي حديثاً قالوا مساكين أخذوا حديثهم ميت عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، فمن قال حدثني أبي عن جدي قلت: حدثني قلبي عن ربي، فهلكوا وأهلكوا بهذه الخرافات قلوب الأغمار، وأنفقت عليهم لأجلها الأموال، لأن الفقهاء كالأطباء والنفقة في ثمن الدواء صعبة والنفقة على هؤلاء كالنفقة على المغنيات.

وبغضهم الفقهاء أكبر الزندقة لأن الفقهاء يحظرونهم بفتاويهم عن ضلالهم وفسقهم، والحق يثقل كما تثقل الزكاة، وما أخف البذل على المغنيات وإعطاء الشعراء على المدائح.

وكذلك بغضهم لأصحاب الحديث وقد أبدلوا إزالة العقل بالخمر بشيء سموه الحشيش والمعجون، والغناء المحرم سموه السماع والوجد والتعرض بالوجد المزيل للعقل.

كفى الله الشريعة شر هذه الطائفة الجامعة بين دهمثة الليونة والسهولة - يعني يلبسون فاخر الثياب ولينها - في اللبس، وطيبة في العيش وخداع بألفاظ معسولة ليس تحتها سوى إهمال التكاليف وهجران الشرع ولذلك خفَّوا على القلوب، ولا دلالة على أنَّهم أرباب باطل أوضح من محبَّة طباع الدنيا لهم كمحبتهم أرباب اللهو والمغنيات.

ثم استطرد ابن عقيل قائلاً: فإن قال قائل هم أهل نظافة وحسن سمت وأخلاق، قال فقلت لهم لو لم يصنعوا طريقة يجتذبون بها قلوب أمثالهم لم يدم لهم عيش والذي وصفتهم به رهبانيَّة النصرانية.

ولو رأيت نظافة أهل التطفيل على الموائد ومخانيث بغداد ودماثة المغنيات، لعلمت أنَّ طريقتهم طريقة الفكاهة والخداع، وهل يخدع الناس إلا بطريقة أو لسان فإذا لم يكن للقوم قدم في العلم ولا طريقة فبماذا يجتذبون به قلوب أرباب الأموال.

واعلم أنَّ حمل التكاليف صعب، ولا أسهل على أهل الخلاعة من مفارقة الجماعة، ولا أصعب عليهم من حَجْرٍ ومَنْعِ صَدْرٍ عن أوامر الشرع ونواهيه، وما على الشريعة أضر من المتكلمين والمتصوفين، فهؤلاء يفسدون عقائد الناس بتوهيمات شبهات العقول، وهؤلاء يفسدون الأعمال ويهدمون قوانين الأديان، يحبون البطالات وسماع الأصوات وما كان السلف كذلك، بل كانوا في باب العقائد عبيد تسليم وفي الباب الآخر أرباب جد.

قال: ونصيحتي إلى إخواني أن لا يقرع أفكار قلوبهم كلام المتكلمين، ولا تصغي مسامعهم إلى خرافات المتصوفين، بل الشغل بالمعاش أولى من بطالة الصوفيَّة، والوقوف على الظواهر أحسن من توغل المنتحلة وقد خبرت طريقة الفريقين فغاية هؤلاء الشك وغاية هؤلاء الشطح. أهـ بلفظه [تلبيس إبليس ص٣٧٤، ٣٧٥].

ولقد استمر هذا الحال السيء المزري الذي حكاه ابن عقيل ونقله عنه ابن الجوزي -رحمهما الله-، بل لقد كانت القرون التي تلت ذلك قرون ظلام وجهل حيث عاث المتصوفة في الأرض الإسلاميَّة فساداً وملئوها فسقاً وفجوراً باسم الدين والإسلام، ولم يكتفوا فقط بإفساد العقول والعقائد ولكنهم أفسدوا أيضاً الأخلاق والآداب.

فهذا هو عبد الوهاب الشعراني يجمع في كتابه الطبقات الكبرى كل فسق الصوفيَّة وخرافاتها وزندقتها، فيجعل كل المجانين والمجاذيب واللوطيَّة

والشاذين جنسياً، والذين يأتون البهائم عياناً وجهاراً في الطرقات، يجعل كل أولئك أولياء وينظمهم في سلك العارفين وأرباب الكرامات، وينسب إليهم الفضل والمقامات، ولا يستحي أن يبدأهم بأبي بكر الصديق ثم الخلفاء الراشدين، ثم ينظم في سلك هؤلاء من كان (يأتي الحمارة) جهاراً نهاراً أمام الناس، ومن كان لا يغتسل طيلة عمره، ومن كان يعيش طيلة عمره عرياناً من الثياب ويخطب الجمعة وهو عريان، ومن ومن... من كل مجنون وأفاك وكذاب ممن لم تشهد البشرية كلها أخس منهم طويَّة، ولا أشدَّ منهم مسلكاً، ولا أقبح منهم أخلاقاً، ولا أقذر منهم عملاً، ينظم كل أولئك في سلك واحد مع أشرف الناس وأكرمهم من أمثال الخلفاء الراشدين والصحابة الأكرمين وآل بيت النبي الطاهرين، فيخلط بذلك الطهر مع النجاسة والشرك بالتوحيد، والهدى بالضلال، والإيمان بالزندقة، ويلبس على الناس دينهم ويشوه عقيدتهم.

واقرأ الآن بعض ما سطره هذا الأثيم عمن سماهم بالأولياء العارفين: قال في ترجمة من سماه بسيده علي وحيش:

(وكان إذا رأى شيخ بلد، أو غيره ينزله من على الحمار ويقول: امسك رأسها حتى أفعل فيها، فإن أبى شيخ البلد تسمر في الأرض ولا يستطيع أن يمشي خطوة، وإن سمع حصل له خجل عظيم والناس يمرون عليه.!) [الطبقات الكبرى ج٢ ص١٣٥].

فانظر كيف كان سيده علي وحيش يفعل هذا أمام الناس!! فهل يتصور عاقل بعد هذا أنَّ هذا التصوف النجس من دين المسلمين ومما بعث به رسول رب العالمين، مُحمَّد ﷺ الهادي الأمين؟!

وهل ينظم أمثال عليٍ وحيش ومن على شاكلته في سلك أصحاب الرسول ويجعل هؤلاء جميعاً أصحاب صراط واحدٍ إلا زنديق أفاك أراد هدم الإسلام وتخريب عقائد المسلمين؟!

وحتى لا تستفيق العقول من رقادها، فإن الشعراني هذا زعم لهم أنَّ الأولياء لهم شريعتهم الخاصة التي يعبدون الله بها ويتقربون إلى الله بها وإن

كان منها إتيان الحمير!! وكلما حاولت نفس أن تستيقظ، وتفكر لتفرق بين الهدى والضلال، والطهر والنجاسة، ألقى هؤلاء عليها التلبيس والتزوير.

وهذا هو الشعراني يذكر أنَّ رجلاً أنكر الفسق والفجور الذي يكون في مولد (السيد) البدوي حيث وما زال يجتمع الناس بمئات الآلاف في مدينة طنطا، ويكون هناك الاختلاط المشين بين الرجال والنساء بل تصنع الفاحشة في المساجد والطرقات، وحيث كانت تفتح دور البغاء وحيث يمارس الصوفيون والصوفيات الرقص الجماعي في قلب المسجد، وحيث يستحل كل الحرمات أقول يروي الشعراني في كتابه الطبقات أن رجلاً أنكر ذلك فسلبه الله الإيمان!! - انظر - ثم يقول: (فلم يكن شعرة فيه تحن إلى دين الإسلام، فاستغاث بسيدي أحمد رضي الله عنه؛ فقال: بشرط ألا تعود فقال: نعم، فرد عليه ثوب إيمانه، ثم قال له: وماذا تنكر علينا؟ قال: اختلاط الرجال بالنساء، فقال له سيدي أحمد رضي الله عنه: ذلك واقع في الطواف ولم يمنع حرمته، ثم قال: وعزة ربي ما عصى أحد في مولدي إلا وتاب وحسنت توبته، وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك في البحار وأحميهم بعضهم بعضاً، أفيعجزني الله عز وجل من حماية من حضر مولدي!!) [الطبقات الكبرى ج١ ص١٦٢].

ولا عجب أن يروي الشعراني كل ما يروي في كتابه من الزندقة والكفر والجهالة والضلالة فهذا هو يفتري عن نفسه أنَّ السيد البدوي الذي هلك قبله بنحو من أربعة قرون كان يخرج له يده من القبر ليُسلِّم عليه، وأنَّه أعدَّ له في زاوية من زوايا مسجده غرفة ليدخل فيها على زوجته!! وأنَّه كان إذا تأخر عن مولد السيد البدوي كان البدوي هذا يخرج من قبره ويزيح الستر الموضوع فوق القبر ويقول: أبطأ عبد الوهاب ما جاء!!

وهذه نصوص عبارته في ذلك يقول: (إنَّ سبب حضوري مولد أحمد البدوي كل سنة أنَّ شيخي العارف بالله تعالى مُحمَّد الشناوي رضي الله عنه أحد أعيان بيته رحمه الله قد كان أخذ علي العهد في القبة تجاه وجه

سيدي أحمد رضي الله عنه، وسلمني إليه بيده، فخرَجَت اليد الشريفة من الضريح، وَقَبَضَت على يدي وقال: يا سيدي يكون خاطرك عليه، واجعله تحت نظرك!!

فسمعت (سيدي) أحمد من القبر يقول: نعم، ثم يسترسل عبد الوهاب الشعراني قائلاً: لمَّا دخلت بزوجتي أم عبد الرحمن وهي بكر مكثت خمسة شهور لم أقرب منها، فجاءني وأخذني وهي معي وفرش لي فراشاً فوق ركن القبة التي على اليسار الداخل وطبخ لي الحلوى، ودعا الأحياء والأموات إليه وقال: أزل بكارتها هنا، فكان الأمر تلك الليلة.

ثم يقول: وتخلفت عن ميعاد حضوري للمولد سنة ٩٤٨ ثمان وأربعين وتسعمائة وكان هناك بعض الأولياء، فأخبرني أنَّ سيدي أحمد رضي الله عنه كان ذلك اليوم يكشف الستر من الضريح ويقول: أبطأ عبد الوهاب ما جاء. [الطبقات الكبرى ج١ ص١٦١، ١٦٢].

وبعد، فهذه هي النماذج السيئة التي يُراد لأبناء المسلمين أن يحتذوها، وهذا هو الوجه الحقيقي للتصوف، وهذه هي صور من رموزه ورجالاته، ولو ذهبنا نعدد هذه الصور لخرجنا عن القصد في هذه الرسالة الموجزة وقد بسطنا هذا بحمد الله وتوفيقه في كتابنا الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة فليرجع إليه.

هذا وبالله التوفيق وعليه التكلان وهو المستعان سبحانه أن يطهر مجتمع الإسلام من هذا السرطان الخبيث الذي أفسد عقائد المسلمين وأعمالهم ومجتمعهم، والصلاة والسلام في الختام على النبي الكامل الطاهر الداعي إلى صراط الله العزيز الحميد.

الباب الثاني

كيف تجادل صوفياً؟

بعد أن ذكرنا في الباب السابق مخاطر الفكر الصوفي، كان لزاماً على كل مَنْ عَلِمَ ذلك أن يعمل لإجتثاث هذه الشجرة الخبيثة من المجتمع الإسلامي، ولن يأتي ذلك إلَّا بالدعوة الحقَّة إلى الله عز وجل، وفضح هذا التصوف البغيض المتستر بالهدى والطهر، والمضمر لكل أنواع الكفر والزندقة.

ولذلك فإنه يجب على كل مَنْ عَلِمَ الحقَّ أن يعمل على نشره وإذاعته، وكذلك يجب على كل مَنْ عَلِمَ هذا الشرَّ أن يعمل على اجتثاث شجرته.

ولما كان جمهور عظيم من طُلَّاب العلم لا يعلمون حقيقة التصوف، ولا يحيطون علماً بكفرياته وأكاذيبه وترهاته وخزعبلاته، فإنهم عند مناقشتهم للصوفيين لا يُحسنون الردَّ عليهم، ولا إقناعهم بالحق، ولا إقامة الحُجَّة عليهم لأنَّ الصوفي إذا رأى من يُعظِّم الكتاب والسنَّة والدليل، سرعان ما يقول له: إن الجنيد - وهو شيخ الطائفة - قال: طريقتنا هذه مقيَّدة بالكتاب والسنَّة!! ومن لم يتفقه في الكتاب والسنَّة لم يعرف طريق القوم، وفلان قال، وفلان قال أيضاً: تمكث النكتة في قلبي من نكت القوم فلا أذيعها إلا إذا وجدت لها شاهدين من الكتاب والسنَّة.

فيظن طالب العلم الذي لا يعرف دروب التصوف أن هؤلاء من الحذق في الدين، والورع والإخلاص حيث لا يتكلمون بأمر إلا إذا وافق الكتاب والسنَّة، وأنَّهم مُتَّبعون لهما في أقوالهما وأفعالهما، فيسقط في يده ولا يستطيع أن يجد جواباً، وقد يقول إذن ما بال هؤلاء الذين يرقصون في موالدهم

وحفلاتهم، وما بال هؤلاء المجاذيب الذين نشاهدهم يفعلون كذا وكذا من الحركات والصرخات، فيقول له الصوفي المجادل: لا.! هؤلاء عوام مُغفَّلون وليسوا من الصوفيَّة الحقيقيَّة، والصوفيَّة غير ذلك!! وهذا كذب بالطبع ولكن مثل هذا الجواب قد ينطلي على طالب العلم فيسكت وبالتالي يظل التصوف يعمل عمله في جسم الأمَّة ولا يتفطن له.

ولمَّا كان كثيرٌ من طلاب العلم لا يجدون الوقت للنظر في كتب التصوف ومعرفة ما فيها، وقد يكون إذا نظر في بعضها خَفِي عليه الحق من الباطل وذلك للتبليس والخلط الذي يكون فيهما حيث يرى قولاً صحيحاً بجوار قول مريض، وقول يتضمن كفراً بعبارة غامضة، وقولاً رابعاً قد تلوح منه حكمة فتغبش، وتعمى أمامه الرؤيا ولا يعرف في أي الدروب يسير.!!

من أجل ذلك نكتب هذه الخلاصة الموجزة للتعريف بالقضايا الكليَّة الأساسية في التصوف ولكيفية المجادلة مع أساطين التصوف، ولو كان من يجادلهم أو يناقشهم طالب علم مبتدئ فإنه يَحُجُّه ويُسْكِتُه وقد يرشده إلى الطريق المستقيم، وإليك هذه القواعد:

التصوف بحر من القاذورات:

اعلم أولاً أن التصوف بحرٌ من القاذورات، فقد جمع المتصوفة كل أنواع الكفر والزندقة التي توجد في فلسفات الهند وإيران واليونان، وكل مكر القرامطة والفرق الباطنيَّة، وكل خرافات المخرفين، وكل دجل المدجلين وكل وحي الشياطين، ووضعوا كل ذلك في إطار التصوف وعلومه ومبادئه وكشوفه.

فلا يُتصور عقلك عقيدة كفريَّة في الأرض إلَّا تجدها في التصوف بدءاً بنسبة الألوهيَّة إلى المخلوقات وانتهاء بجعل كل موجود هو عين الله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -.

وحتى تتضح صورة التصوف في ذهنك نضع أمامك، أخي المسلم، خلاصة موجزة جداً لمعتقدهم والفوارق الأساسيَّة بين دينهم الصوفي وبين دين الإسلام.

أولاً - الفارق الأساسي بين الإسلام والتصوف:

يفترق منهج الإسلام وصراطه عن منهج التصوف في شيء أساسي جداً وهو (التلقي) أي مصادر المعرفة الدينيَّة في العقائد والتشريع، فبينما يحصر الإسلام مصدر التلقي في العقائد في وحي الأنبياء والرسل فقط والذي هو لنا الكتاب والسنَّة فقط، فإنَّ الدين الصوفي يجعل مصدره هو الوحي المزعوم للأولياء والكشف المزعوم لهم، والمنامات واللقاء بالأموات السابقين وبالخضر عليه السلام، بل وبالنظر في اللوح المحفوظ، والأخذ عن الجن الذين يسمونهم بالروحانيين.

وأمَّا مصدر التلقي في التشريع عند أهل الإسلام فهو الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وأمَّا عند المتصوفة فإن تشريعاتهم تقوم على المنامات والخضر والجن والأموات والشيوخ كل هؤلاء مشرعون، ولذلك تعددت طرق التصوف وتشريعاته بل قالوا: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق فلكل شيخ طريقة ومنهج للتربية وذِكْرٌ مخصوص وشعائر مخصوصة وعبارات مخصوصة، ولذلك فالتصوف آلاف الأديان والعقائد والشرائع، بل مئات الآلاف وما لا يحصى، وكلها تحت مسمى التصوف.

وهذا هو الفارق الأساسي بين الإسلام والتصوف فالإسلام دين محدد العقائد، محدد العبارات، محدد الشرائع، والتصوف دين لا حدود ولا تعاريف له في عقائد أو شرائع، وهذا هو أعظم فارق بين الإسلام والتصوف.

ثانياً - الخطوط العريضة للعقيدة الصوفيَّة:

(١) في الله:

يعتقد المتصوِّفة في الله عقائد شتى، **منها الحلول** كما هو مذهب الحلاج، **ومنها وحدة الوجود** حيث لا انفصال بين الخالق والمخلوق، وهذه هي العقيدة الأخيرة التي انتشرت منذ القرن الثالث وإلى يومنا هذا أطبق عليها أخيراً كل

رجال التصوف وأعلام هذه العقيدة هم ابن عربي وابن سبعين، والتلمساني وعبد الكريم الجيلي، وعبد الغني النابلسي وعامة رجال الطرق الصوفيَّة المحدثين.

(٢) في الرسول ﷺ:

يعتقد الصوفيَّة في الرسول ﷺ أيضاً عقائد شتى فمنهم من يزعم أن الرسول ﷺ لم يَصِل إلى مرتبتهم وحالهم، وأنَّه جاهلاً بعلوم رجال التصوف كما قال البسطامي: **(خُضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله)**، ومنهم من يعتقد أنَّ الرسول مُحمَّد ﷺ هو قبة الكون، وهو الله المستوي على العرش، وأنَّ السموات والأرض والعرش والكرسي وكل الكائنات خُلِقَتْ من نوره، وأنَّه أول موجود، وهو المستوي على عرش الله وهذه عقيدة ابن عربي ومن جاء بعده.

(٣) في الأولياء:

يعتقد الصوفيَّة في الأولياء أيضاً عقائد شتى، فمنهم من يُفضل الولي على النبي، وعامَّتهم يجعل الولي مساوياً لله عز وجل في كل صفاته، فهو يخلق ويرزق ويحي ويميت ويتصرف في الكون، ولهم تقسيمات للولاية فهناك الغوث المتحكم في كل شيء في العالم، والأقطاب الأربعة الذين يمسكون الأركان الأربعة في العالم بأمر الغوث، والأبدال السبعة الذين يتحكم كل واحد منهم في قارة من القارات السبع بأمر الغوث، ومنهم النُجَباء وهم المتحكِّمون في المدن كل نجيب في مدينة!! وهكذا فشبكة الأولياء العالميَّة هذه تتحكم في الخلق ولهم ديوان يجتمعون في غار حراء كل ليلة ينظرون في المقادير، وباختصار عالم الأولياء عالم خرافي كامل.

وهذا بالطبع خلاف الولاية في الإسلام التي تقوم على الدين والتقوى وعمل الصالحات والعبوديَّة الكاملة لله عز وجل والفقر إليه، وأنَّ الولي لا يملك من أمر نفس شيئاً فضلاً أنَّه يملك لغيره، قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجنّ: الآية ٢١].

(٤) في الجنَّة والنَّار:

وأما الجنَّة فإنَّ الصوفيَّة جميعاً يعتقدون أنَّ طلبها مَنْقَصة عظيمة، وأنَّه لا يجوز للولي أن يسعى إليها ولا أن يطلبها ومن طلبها فهو ناقص، وإنَّما الطلب عندهم والرغبة في الفناء المزعوم في الله، والإطلاع على الغيب والتصرف في الكون، هذه جنة الصوفي المزعومة.

وأمَّا النَّار فإنَّ الصوفيَّة يعتقدون أيضاً أنَّ الفرار منها لا يليق بالصوفي الكامل لأنَّ الخوف منها طبع العبيد وليس الأحرار، ومنهم مَن تبجَّح أنَّه لو بصق على النار لأطفأها كما نسب إلى أبي يزيد البسطامي، ومن يعتقد بوحدة الوجود منهم يعتقد أن النَّار بالنسبة لمن يدخلها تكون عذوبة ونعيماً لا يقل عن نعيم الجنَّة بل يزيد، وهذا هو مذهب ابن عربي وعقيدته.

(٥) إبليس وفرعون:

وأمَّا إبليس فيعتقد عامَّة الصوفيَّة أنه أكمل العباد وأفضل الخلق توحيداً لأنَّه لم يسجد إلّا لله بزعمهم، وأنَّ الله قد غفر له ذنوبه وأدخله الجنَّة، وكذلك فرعون عندهم أفضل الموحدين لأنه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: الآية ٢٤]، فعرف الحقيقة لأنَّ كل موجود هو الله، ثم هو قد آمن في زعمهم ودخل الجنَّة.

الشريعة الصوفيَّة:

(٦) العبادات:

يعتقد الصوفيَّة أن الصلاة والصوم والحج والزكاة هي عبادات العوام، وأمّا هم فيسمون أنفسهم الخاصَّة، أو خاصَّة الخاصَّة ولذلك فلهم عبادات مخصوصة.

وقد شرع كل قوم منهم شرائع خاصَّة بهم كالذكر المخصوص بهيئات مخصوصة، والخلوة والأطعمة المخصوصة، والملابس المخصوصة والحفلات.

وإذا كانت العبادات في الإسلام لتزكية النفس وتطهير المجتمع فإن العبادات في التصوف هدفها ربط القلب بالله للتلقي عنه مباشرة، والفناء فيه واستمداد الغيب من الرسول والتخلق بأخلاق الله **حتى يقول الصوفي للشيء كن فيكون ويطلع على أسرار الخلق، وينظر في كل الملكوت.**

ولا يهم في التصوف أن يخالف الشريعة الصوفيَّة ظاهر الشريعة المُحمَّديَّة الإسلاميَّة، فالحشيش والخمر واختلاط النساء بالرجال في الموالد وحلقات الذكر ذلك لا يهم لأن للولي شريعته التي تلقَّاها من الله مباشرة، فلا يهم أن يوافق ما شرعه الرسول مُحمَّد ﷺ لأنَّ لكل واحد شريعته، وشريعة مُحمَّد ﷺ للعوام وشريعة الشيخ الصوفي للخواص.

(٧) الحلال والحرام:

وكذلك الشأن في الحلال والحرام فأهل وحدة الوجود في الصوفيَّة لا شيء يحرم عندها لأن كل عين واحدة، ولذلك كان منهم الزنادقة واللوطيَّة، ومن يأتون الحمير جهاراً نهاراً.

ومنهم من اعتقد أن الله عز وجل قد أسقط عنه التكاليف وأحلَّ له كل ما حرم على غيره.

(٨) الحكم والسلطان والسياسة:

وأمَّا في الحكم والسلطان والسياسة فإن المنهج الصوفي هو عدم جواز مقاومة الشر ومغالبة السلاطين، لأنَّ الله في زعمهم أقام العباد فيما أراد.

(٩) التربية:

ولعلَّ أخطر ما في الشريعة الصوفيَّة هو منهجهم في التربيَّة حيث يستحوذون على عقول الناس، ويلغونها وذلك بإدخالهم في طريق متدرج يبدأ بالتأنيس، ثم بالتهويل والتعظيم لشأن التصوف ورجاله، ثم بالتلبيس على الشخص، ثم بالرزق لعلوم التصوف شيئاً فشيئاً، ثم بالربط بالطريقة وسدّ

جميع الطرق بعد ذلك للخروج.

ثالثاً - نقطة البدء في جدال الصوفي:

كثير من الأخوة المسلمين الغيورين على الدين والكارهين للتصوف وترهاته يبدءون في جدال الصوفي بداية خاطئة وذلك في الأمور الهامشية الفرعيَّة كبدعهم في الأذكار، وتسميتهم بالصوفيَّة، وإقامتهم للحفلات والموالد، أو حملهم للمسابح، أو لبسهم للمرقعات أو نحو ذلك من المظاهر الشاذَّة التي يظهرون بها، والبدء بالنقاش حول هذه الأمور بداية خاطئة تماماً، وبالرغم من أن هذه الأمور جميعها هي بدع تخالف الشريعة ومفتريات في الدين، إلا أنها تخفي ما هو أمرّ وأعظم، أعني أنَّ هذه فرعيات لا يجوز البدء بنقاشها وترك الأصوليات.

حقّاً إنّها جرائم ومخالفات ولكنَّها قليلة جداً إذا قيست بالعظائم والمفتريات والكفريات الشنيعة، والأهداف الخسيسة التي سار فيها الفكر الصوفي، ولذلك يجب على من يجادل الصوفي أن يبدأ بالأصول والأمهات لا بالفرعيات والشكليات.

ولعلك بقراءتك أصل الخلاف الجوهري بين الإسلام والتصوف قد عرفت ما ينبغي عليك أن تبدأ به في النقاش إنَّه منهج التلقي وإثبات الدين، أعني ما يتضمنه الإجابة على هذا السؤال: كيف نتلقى الدين؟ وتثبت العقيدة والعبادة، وما هي مصادرنا لهذا التلقي؟ الإسلام يحصر مصدر التلقي في الكتاب والسنَّة فقط ولا يجوز إثبات عقيدة إلا بنص من القرآن وقول الرسول ﷺ، ولا إثبات شريعة إلا بكتاب وسنَّة واجتهاد موافق لهما، والاجتهاد يصيب ويخطئ ولا معصوم إلا كتاب الله وسنَّة رسوله فقط، وأمَّا في التصوف فإنَّ الدين عندهم بزعم شيوخهم أنَّه يتلقونه عن الله رأساً وبلا واسطة، وعن الرسول الذي يزعمون أنه يحضر مجالسهم دائماً وأماكن ذكرهم، وعن الملائكة وعن الجن الذين يسمونهم بالروحانيين، وبالكشف الذي يزعمون أنَّ قلب الولي ينكشف

له الغيوب فيرى ما في السموات والأرض، وما سبق وما يأتي من الحوادث، فالولي عندهم لا يعزب عن علمه ذرة في السموات ولا في الأرض.

ولذلك فليكن أول ما تسأل الصوفي عنه: كيف تثبتون الدين؟ ومن أين تتلقون عقيدتكم؟ فإذا قال لك الصوفي: من الكتاب والسنَّة. فقل له: الكتاب والسنَّة يشهدان أنَّ إبليس كافر وأنَّه وأتباعه في النار كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

والشيطان هنا هو إبليس بإجماع المفسرين من السلف، ومعنى ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢]: ما أنتم بمستطيعين تخليصي وإنجائي، ومعنى ذلك أنَّه معهم في النار، فهل تعتقدون أنتم أيها الصوفيَّة ذلك؟

فإن قال لك الصوفي نعم نعتقد أنَّ إبليس وأتباعه في النار، فقد كذب عليك، وإن قال لك لا نعتقد أنه في النار ونعتقد أنَّه تائب مما كان منه، أو أنَّه موحِّد مؤمن كما قال أستاذهم الحلاج، فقل له قد كفرتم لأنَّكم خالفتم كتاب الله عز وجل وأحاديث الرسول ﷺ وإجماع الأمَّة أنَّ إبليس كافر من أهل النار.

وقل له: قد حكم شيخكم الأكبر وابن عربي أن إبليس في الجنة وفرعون في الجنة - كما في الفصوص - وقد حكم أستاذكم الأعظم الحلاج أنَّ إبليس هو قدوته، وشيخه هو فرعون كما جاء في الطواسين [ص٥٢]، فما قولك في ذلك؟ فإن أنكره فهو مكابر جاحد، أو جاهل لا يدري، وإن أقرَّ بذلك وتابع الحلاج وابن عربي فقد كفر كما كفروا، وكان من إخوان إبليس وفرعون فحَسْبُهُ بذلك صُحْبَةً في النار.

وإن أراد التلبيس عليك وقال: إنَّ كلامهم هذا شطح قالوه في غلبة حال وسكر، فقل له: كذبت، فهذا الكلام في كُتُبٍ مؤلفة، وقد صدَّر ابن عربي كتابه الفصوص بقوله: (إني رأيت رسول الله في مبشرة - رؤيا - في محروسة

دمشق وأعطاني هذا الكتاب وقال لي: أخرج به على الناس).

وهذا الكتاب هو الذي ذكر فيه أن إبليس وفرعون هم من العارفين الناجين، وأن فرعون كان أعلم من موسى بالله، وأن كل من عبد شيئاً فما عبد إلَّا الله، والحلَّاج كذلك كتب كل كفرياته في كتاب ولم يكن شطحاً أو غَلَبَة حال كما يقولون .

فإن قال لك الصوفي: لقد تكلم هؤلاء بلُغَةٍ لا نعلمها، فقل له: لقد كتبوا كلامهم بالعربية وشرحه تلاميذهم وقد نصوا على ذلك؛ فإن قال: إنَّ هذه لغة خاصَّة بأهل التصوف لا يعرفها غيرهم، فقل له: إن لغتهم هذه هي العربيَّة وهم قد نشروها في الناس ولم يجعلوها خاصَّةً بهم.

وقد حَكَمَ علماء المسلمين على الحلاج بكفره وصُلِبَ على جسر بغداد عام ٣٠٩هـ بسبب مقالاته، وكذلك علماء المسلمين بكفر ابن عربي وزندقته، فإن قال لك الصوفي: لا أعترف بحكم علماء الشريعة لأنَّهم علماء ظاهر لا يعرفون الحقيقة.

فقل له: هذا الظاهر هو الكتاب والسنَّة وكل حقيقة تخالف هذا الظاهر فهي باطلة، وما الحقيقة الصوفيَّة التي تدَّعونها؟.

فإن قال لك: هي شيء من الأسرار لا ننشره ولا نذيعه.

فقل: فقد نشرتموه وأذعتموه وهو أنَّ كل شيء موجود في زعمكم هو الله، وأن الجنَّة والنَّار شيء واحد، وأنَّ إبليس ومُحمَّد شيء واحد، وأن الله هو المخلوق والمخلوق هو الله كما قال إمامكم وشيخكم الأكبر:

العبدُ حقٌّ والربُّ حقٌّ ... يا ليت شعري مَن المُكلَّف؟
إنْ قُلْت عبدٌ فذاك مَيِّت ... وإن قلت ربٌّ أَنَّى يكلف؟

فإن أقرّ بذلك وتابع هؤلاء الزنادقة فهو كافر مثلهم، وإن قال: لا أدري ما هذا الكلام ولا أعلمه ولكني أعتقد إيمان قائليه ونزاهتهم وولايتهم، فقل له: إن هذا كلام عربي واضح لا غموض فيه، وهو يُنبِئ عن عقيدة معروفة هي

وحدة الوجود، وهي عقيدة الهنادك والزنادقة نقلتموها إلى الإسلام وألبستموها بالآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة.

فإن قال لك: لا تتعرض للأولياء حتى يؤذوك فإن الرسول ﷺ يقول: قال الله تعالى: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة).

قلت له: ليسوا هؤلاء بأولياء وإنَّما هم زنادقة مستترين بالإسلام، وأنا كافر بكم وبآلهتكم فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون، إنِّي توكلت على الله ربي وربكم ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها إن ربي عل صراطٍ مستقيم.

فإن قال لك: يجب علينا أن نُسلِّم للصوفيَّة حالهم، فإنَّهم عاينوا الحقائق وعرفوا باطن الدين!! فقل له: كذبت، لا يجوز أن نسكت لأحد عن قول يخالف فيه الكتاب والسنَّة، وينشر الكفر والزندقة بين المسلمين لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]، فلذلك لا يجوز السكوت على باطلكم وترهاتكم وزندقتكم لأنكم أفسدتم العالم الإسلامي قديماً وحديثاً، وما زال هذا شأنكم إلى اليوم تُخرجون الناس من عبادة الله إلى عبادة المشايخ، ومن التوحيد إلى الشرك وعبادة القبور، ومن السنَّة إلى البدعة، ومن العلم بالكتاب والسنَّة إلى تلقّي البدع والخرافات ممن يدعون رؤية الله والملائكة والرسول والجنة.

لقد كنتم طيلة عمركم عوناً للفرق الباطنيَّة، وخَدَماً للاستعمار، ولذلك فلا يجوز بتاتاً السكوت عن ضلالتكم وشرككم، وصرفكم للناس عن القرآن الكريم والحديث إلى أذكاركم المبتدعة وعبادتكم التي لا يعدو كونها مكاءً وتصديةً كعبادة المشركين.

فعند ذلك لا بد وأن يسقط في يده، ويعلم أنَّه أمام مَنْ أحاط علماً بباطله، فإمَّا أن يهديه الله للإسلام الصحيح، وإما أن يُخفي أمره ويستر عقيدته حتى يفضحه الله أو يموت على زندقته وكفره أو بدعته ومخالفته للحق.

هذا وقد فصلنا كل ذلك تفصيلاً من كتبهم وأقوالهم فارجع إلى كتاب الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنَّة تجد ذلك مُفصَّلاً بحمد الله وتوفيقه والحمد لله أولاً وأخيراً والعزَّة لكتاب الله وسُنَّة رسوله، ومن اتبعهما وتمسَّك بصراط الله المستقيم وكان من المؤمنين والحمد لله رب العالمين...

الباب الثالث

ابن عربي وكتابه (فصوص الحكم)

ابن عربي والذي يسمونه الشيخ الأكبر ويلقبونه بمُحيي الدين المتوفى سنة ٦٣٨هـ هو صاحب كتاب **(فصوص الحكم)** والذي فصل فيه عقيدته المُسمَّاة بوحدة الوجود، والذي ادعى في هذا الكتاب أنَّ النبي ﷺ قد كتبه له بنصِّه، وسلَّمه إياه يداً بيد، وقال اخرج به على الناس.

قال: (فإنِّي رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة - رؤيا - أُريتها في العشر الآخر من محرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده ﷺ كتاب، فقال لي: هذا كتاب فصوص الحكم خُذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منّا كما أُمرنا؛ فحققت الأمنيَّة وأخلصتُ النيَّة وجرَّدت القصد والهمَّة إلى إبراز هذا الكتاب كما حدَّه لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان).

وقد جمع ابن عربي في كتابه هذا أعظم كفر عرفته البشرية في كل عصورها، دونه كفر اليهود والنصارى وسائر المشركين، فقد فصَّل ابن عربي في كتابه هذا عقيدته الخبيثة فيما سمي بوحدة الوجود، وأنَّ كل هذه الموجودات القائمة من السماء والأرض والجن والإنس والملائكة والحيوان والنبات ما هي إلا الله، وأنَّ هذه الموجودات هي عين وجوده، وأنَّه لا يوجد خالق ومخلوق ولا رب ولا عبد، بل الخالقِ هو عين المخلوق، والعبد هو عين الرب، والرب هو عين العبد، وأن الملكَ والشيطان، والجنَّة والنَّار، والطُهر والنَّجاسة وكل المتناقضات والمتضادات ما هي إلا عين واحدة تتصف بكل صفات

الموجودات، وهي عين الله الواحد الذي ليس معه غيره، تعالى الله عما يقول هذا المجرم وأمثاله علواً كبيراً.

وفضَّل هذا الخبيث نفسه على سائر البشر والأنبياء والمرسلين زاعماً أنَّه خاتم الأولياء كما كان النبي مُحمَّد ﷺ هو خاتم الأنبياء، والولي عنده أفضل من النبي لأنه زعم أن الولي يأخذ ويتعلم من معين الحق، والنبي يأخذ بواسطة المَلَك ومَنْ يأخذ بلا واسطة خيرٌ مما يأخذ بواسطة، وإن كان الجميع عنده في النهاية عيناً واحدة، ولكنهم يتفاوتون في المراتب والمنازل.

ألوان من كفر ابن عربي وتفصيله لعقيدته وحدة الوجود:

وقال هذا الأفَّاك فيما قال: إنَّ الله لا يُنزَّه عن شيء لأنَّ كل شيء هو عينه وذاته، وأن من نزهه عن الموجودات قد جهل الله ولم يعرفه، أي جهل ذاته ونفسه، قال: (**اعلم أنَّ التنزيه عن أهل الحقائق في الجانب الإلهي عين التحديد والتقييد، فالمنزه إما جاهل وإما صاحب سوء أدب**) **[الفصوص / ٨٦]**.

وقال في وصف نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ [نوح: ٢٢]، لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو، فأجابوه مكراً كما دعاهم فقالوا في مكرهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣]: فإنهم لو تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء، فإن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]: أي حَكَم، فالعالم يعلم من عَبَد وفي أي صورة ظهر حتى عُبد، وإنَّ التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة والقوى المعنويَّة في الصورة الروحانيَّة، فما عُبِدَ غير الله في كل معبود). [الفصوص / ٧٢].

ولمَّا جعل هذا الخبيث قوم نوح عليه السلام الذين عبدوا الأصنام لم يعبدوا إلا الله، وأنَّهم بذلك موحدون حقاً، فلذلك كافأهم الله الذي هم نفسه وذاته، بأن أغرقهم في بحار العلم في الله، قال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ [نوح: الآية

٢٥]، فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله، ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: الآية ٢٥] في عين الماء ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: الآية ٦]، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد). [الفصوص / ٧٣].

وقال أيضاً: (ومن أسمائه العلي، على من، وما ثَمَّ إلا هو، فهو العلي لذاته أو عن ماذا؟ وما هو إلا هو، فَعُلوّه لنفسه، ومن حيث الوجود فهو عين الموجودات فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها وليس إلا هو) [الفصوص / ٧٦].

وقال: ومن عرف ما قررناه في الأعداد، وأن نفيها عين إثباتها، علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه، وإن كان قد تميز الخلق من الخالق، فالأمر الخالق المخلوق، والأمر المخلوق الخالق كل ذلك من عين واحدة، لا، بل هو العين الواحدة وهو العيون الكثيرة، فانظر ماذا ترى؟ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢-١١٢]: والولد عين أبيه، فما رأى يذبح سوى نفسه، وفداه بذبح عظيم، فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان، وظهر بصورة ولد: لا، بل بحكم ولد من هو عين الوالد، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النِّساء: الآية ١]: فما نكح سوى نفْسِهِ. أهـ [الفصوص / ٧٨].

وقال أيضاً: (فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستغرق به جميع الأمور الوجوديَّة والنسب العدميَّة بحيث لا يمكن أن يفوته نعت منها، وسواء كانت محمودة عُرفاً وعقلاً وشَرعاً أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله تعالى خاصة) [الفصوص / ٧٩].

وهذا الخبيث لا يُكذِّب الرسل فقط في إخبارهم عن الله والغيب، بل يُكذِّب ويُكابر في المحسوس فإنَّه بما زعم في وحدة الوجود وأنه ليس إلَّا الله، مدعياً أنه هو عين المخلوقات، وبذلك لا يكون هناك فارق بين الملَك والشيطان، والمؤمن والكافر، والحلال والحرام، ومَنْ عبد الشمس والقمر، ومَنْ كَفَر بعبادة الشمس والقمر، بل ادعى كذلك أنَّ الجنَّة والنَّار كليهما

للنعيم، وأنَّ أهل النَّار منعمون كما أهل الجنة، قال: وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مباين نعيم جنان الخلد، فالأمر واحد وبينهما عند التجلي تباين يسمى عذاباً من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر والقشر صاين.

وهذه صورة من الصور الشيطانية الإبليسية في الإفصاح عن هذه العقيدة الخبيثة فيما سماه بفص حكمة أحدية في كلمة هودية: (اعلم أن العلوم الإلهية الذوقية الحاصلة لأهل الله مختلفة باختلاف القوى الحاصلة منها مع كونها ترجع إلى عين واحدة، فإن الله تعالى يقول: (كنت سَمْعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يسعى بها)، فذكر أن هويته هي عين الجوارح التي هي عين العبد، فالهويَّة واحدة والجوارح مختلفة، ولكل جارحة علم من علوم الأذواق يخصها من عين واحدة تختلف باختلاف الجوارح، كالماء حقيقة واحدة في الطعم باختلاف البقاع، فمنه عذْبٌ فرات ومنه ملحٌ أُجاج، وهو ماء في جميع الأحوال لا يتغير عن حقيقته وإن اختلفت طعومه.

وهذه الحكمة من علم الأرجل وهو قوله تعالى في الأكل لمن أقام كتبه: ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المَائدة: الآية ٦٦]: فإن الطريق الذي هو الصراط هو السلوك عليه والمشي فيه، والسعي لا يكون إلا بالأرجل، فلا ينتج هذا الشهود في أخذ النواصي بيد من هو على صراط مستقيم إلا هذا الفن الخاص من علوم الأذواق، ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [مريَم: الآية ٨٦]: وهم الذين استحقوا المقام الذي ساقهم إليه بريح الدبور التي أهلكهم عن نفوسهم بها، فهو يأخذ بنواصيهم والريح تسوقهم وهو عين الهواء التي كانوا عليها إلى جهنم، وهي البعد الذي كانوا يتوهمونه.

فلمَّا ساقهم إلى ذلك الموطن حصلوا في عين القرب فزال البُعد فزال مسمى جهنَّم في حقهم، ففازوا بنعيم القرب من جهة الاستحقاق لأنهم مجرمون، فما أعطاهم هذا المقام الذوقي اللذيذ من جهة المنَّة، وإنما أخذوه بما استحقته حقائقهم من أعمالهم التي كانوا عليها، وكانوا في

السعي في أعمالهم على صراط الربِّ المستقيم لأن نواصيهم كانت بيد من له هذه الصفة، فما مشوا بنفوسهم وإنما مشوا بحكم الجبر إلى أن وصلوا إلى عين القرب.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] وإنما هو يبصر فإنه مكشوف الغطا ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وما خص ميتاً من ميت، أي ما خص بعيداً من شقي ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وما خص إنساناً من إنسان، فالقرب الإلهي من العبد لا خفاء به في الإخبار الإلهي، فلا قُرب أقرب من أن تكون هويته عين أعضاء العبد وقواه، وليس العبد سوى هذه الأعضاء والقوى فهو حقٌّ مشهود في خلق متوهم، فالخلق معقول والحق محسوس مشهود عند المؤمنين وأهل الكشف والوجود، وما عدا هذين الصنفين فالحق عندهم معقول الخلق مشهود؛ فهم بمنزلة الماء المالح الأجاج، والطائفة الأولى بمنزلة الماء العذب الفرات السائغ لشاربه.

فالناس على قسمين: من الناس من يمشي على طريق يعرفها ويعرف غايتها، فهي في حقه صراط مستقيم. ومن الناس من يمشي في طريق يجهلها ولا يعرف غايتها وهي عين الطريق التي عرفها الصنف الآخر، فالعارف يدعو إلى الله على بصيرة، وغير العارف يدعو إلى الله على التقليد والجهالة، فهذا علمٌ خاص يأتي من أسفل سافلين، لأن الأرجل هي السفل من الشخص، وأسفل منها ما تحتها وليس إلّا الطريق.

فمن عرف أن الحق عين الطريق، عرف الأمر على ما هو عليه، فإن فيه جلَّ وعلا تسلك وتسافر إذ لا معلوم إلا هو، وهو عين الوجود والسالك المسافر، فلا عالم إلا هو فمن أنت؟ فاعرف حقيقتك وطريقتك، فقد بان لك الأمر على لسان الترجمان إن فهمت، وهو لسان حق فلا يفهمه إلا من فهمُهُ حق: فإن للحق نسباً كثيرة ووجوهاً مختلفة: ألا ترى عاداً قومَ هود كيف قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤]، فظنوا خيراً بالله تعالى وهو عند ظن عبده به، فأضرَبَ لهم الحق عن هذا القول فأخبرهم بما هو أتم وأعلى

في القرب، فإنه إذا أمطرهم فذلك حظ الأرض وسقي الحبة فما يصلون إلى نتيجة ذلك المطر إلا عن بُعد فقال لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤]: فجعل الريح إشارة إلى ما فيها من الراحة فإن بهذه الريح أراحهم من هذه الهياكل المظلمة والمسالك الوعرة و(السيد) ف المدلهمة، وفي هذه الريح عذاب، أي أمر يستعذبونه إذا ذاقوه، إلا أنه يوجعهم لفرقة المألوف، فباشرهم العذاب فكان الأمر إليهم أقرب مما تخيلوه فدمرت كل شيء بأمر ربها، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٥]: وهي جثثهم التي عمرتها أرواحهم الحقية، فزالت حقية هذه النسبة الخاصة وبقيت على هياكلهم الحياة الخاصة بهم من الحق التي تنطق بها الجلود والأيدي والأرجل وعذبات الأسواط والأفخاذ.

وقد ورد النص الإلهي بهذا كله، إلا أنه تعالى وصف نفسه بالغيرة، ومن غيرته ﴿حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٣]: وليس الفحش إلا ما ظهر. وأما فحش ما بطن فهو لمن ظهر له، فلما حرم الفواحش أي منع أن تعرف حقيقة ما ذكرناه، وهي عين الأشياء فسترها بالغيرة وهو أنت من الغير، فالغير يقول السمع سمع زيد، والعارف يقول السمع سمع الحق، وهكذا ما بقي من القوى والأعضاء، فما كل أحد عرف الحق فتفاضل الناس وتميزت المراتب فبان الفاضل والمفضول.

واعلم أنَّه لما أطلعني الحق وأشهدني أعيان رسله عليهم السلام وأنبيائه كلهم البشريين من آدم إلى مُحمَّد صلى الله عليهم أجمعين، في مشهد أقمتُ فيه بقرطبة سنة ست وثمانين وخمسمائة، ما كلمني أحدٌ من تلك الطائفة إلا هود عليه السلام فإنَّه أخبرني بسبب جمعيتهم، ورأيته رجلاً ضخماً في الرجال حسن الصورة، لطيف المحاورة، عارفاً بالأمور كاشفاً لها، ودليلي على كشفه لها قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]: وأيُّ بشارة للخلق أعظم من هذه؟ ثم من امتنان الله علينا أن أوصل إلينا هذه المقالة عنه في القرآن، ثم تممها الجامع للكل مُحمَّد ﷺ بما أخبره عن

الحق بأنه عين السمع والبصر واليد والرجل واللسان: أي هو عين الحواس، والقوى الروحانية أقرب من الحواس، فاكتفى بالأبعد المحدود عن الأقرب المجهول الحد، فترجم الحق لنا عن نبيه هود مقالته لقومه بشرى لنا، وترجم رسول الله ﷺ عن الله مقالته بشرى: فكمل العلم في صدور الذين أوتوا العلم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]: فإنهم يسترونها وإن عرفوها حسداً منهم ونفاسة وظلماً، وما رأينا قط من عند الله في حقه تعالى في آية أنزلها أو أخبر عنه أوصله إلينا فيما يرجع إليه إلا بالتحديد تنزيهاً كان أو غير تنزيه) أهـ [الفصوص / ١٠٧-١١٠].

ولا يخجل هذا الأفّاك من وصف الربّ الإله سبحانه وتعالى بكل صفات الذم تصريحاً لا إجمالاً وتلميحاً وفحوى، فهو يصف الجِماع بل الوقاع نَفْسَه أنه دليل هذه الوحدة، فالله عنده هو الطيب والخبيث -تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً- فيقول: (والعالم على صورة الحق، والإنسان على الصورتين) [الفصوص / ٢٢٢].

وقال: (ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة أي غاية الوصلة التي تكون في المحبَّة، فلم يكن في صورة النشأة العنصريَّة أعظم وصلة من النكاح، ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها، ولذلك أُمِرَ بالاغتسال منه، فعمت الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصول الشهوة، فإنَّ الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يتلذذ بغيره، فطهره بالغسل ليرجع بالنظر إليه فيمن فني فيه، إذ لا يكون إلا ذلك، فإذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهوداً في منفعل، وإذا شاهده في نفسه -من حيث ظهور المرأة عنه- شاهد في فاعل، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكوَّن عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة، فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل، لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة، فلهذا أحب ﷺ النساء لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا يشاهد الحق مجرداً عن المواد أبداً، فإن الله بالذات غني عن العالمين، وإذا كان الأمر من هذا الوجه ممتنعاً، ولم

تكن الشهادة إلا في مادة، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله) [الفصوص/ ٢١٧].

وحدة الوجود أعظم عقيدة في الفكر:

وهذه العقيدة التي لم تعرف الأرض أكفر، ولا أفجر منها والتي فصلها هذا الخبيث في كتابه الفصوص، قد نثرها وفرقها في موسوعته الكبيرة الفتوحات المكية والتي تقع في أربع مجلدات كبار.

بدأها في مقدمته بقوله: (ولما حيرتني هذه الحقيقة أنشدت على حكم الطريقة للحقيقة:

الربُّ حقٌّ والعبد حقٌّ ... يا ليت شعري مَن المُكلَّف؟
إن قلت عبدٌ فذاك ميِّت ... وإن قلت ربٌّ أنَّى يُكلَّف

فهو يطيع نفسه إذا شاء بخلقه..) إلخ.

ثم فرَّق هذه العقيدة الكفريَّة في كتابه هذا قائلاً: (وأما عقيدة خلاصة الخاصة في الله تعالى، جعلناه مبدداً في هذا الكتاب لكون أكثر العقول المحجوبة تقصر..) [الفتوحات/ ٤٧].

أسلوب ابن عربي في كتاباته:

وبنى ابن عربي كتاباته كلها على الثعلبية والمكر والخداع وذلك بتحريف الكلم عن مواضعه تحريفاً معنوياً للقرآن الكريم والحديث الشريف، والكذب وادعاء العلم الإلهي، والرؤى، والإطلاع على ما لم يطلع عليه أحدٌ من الخلق سواه، مع ادعائه بالعلم والدين والتقوى والصدق، وقد لا يوجد على البسيطة كلها من هو أكذب منه؛ **والله إني عندما أقرأ كتابه وأقارن بين ما قاله إبليس في أول أمره عندما امتنع عن السجود لآدم، واستكبر وأبى فلعنه الله إلى يوم القيامة** ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]، **وبين هذا الكذّاب الأفّاك الذي قال عن الله وفي الله ما لم تقله اليهود والنصارى ولا مشركو العرب**

والعجم، فأرى أن إبليس في وقت لعن الله له، كان أخف ذنباً وجُرماً، وإن كان قد أصبح بعد ذلك هو محرك الشرك كله وباعثه، وابن عربي وأمثاله وإن كانوا غرساً من غراس إبليس اللعين، فإنهم قد فاقوا بكفرهم وعنادهم وعتوهم وقولهم العظيم على الله ما لم يقله إبليس، فإن إبليس كان يفرق بين الخالق والمخلوق، وبين الرب الإله القوي القاهر، وبين المخلوق الضعيف الفقير المحتاج إلى إلهه ومولاه، وأما ابن عربي هذا ومن على شاكلته فقد جعلوا إبليس وجبريل والأنبياء والكفار والأشقياء، وكل هذه المخلوقات هي عين الخالق وأنه ليس في الوجود غيره، يخلق بنفسه لنفسه، وأنه ليس معه غيره، وأن الكفر والإيمان، والحلال والحرام، والأخت والأجنبية، وإتيان النساء، وإتيان الذكور شيء واحد، وكل هذا عين الرب وحقيقته وأفعاله -فتعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً- ونستغفره سبحانه وتعالى من ذكر أقوالهم ونقل كفرهم، ولكننا نفعل ذلك لأن هؤلاء المجرمين هم عند كثير من الحمقى المغفلين، والزنادقة المخادعين هم عندهم أولياء الله الصالحين.

وقد قام علماء المسلمين الصادقين في كل وقت يردون إفك هؤلاء المجرمين.

ابن تيمية - رحمه الله - يرد على إفك ابن عربي وعقيدته وحدة الوجود:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فيهم: (حتى يبلغ الأمر بأحدهم إلى أن يهوى المردان، ويزعم أن الرب تعالى تجلى في أحدهم، ويقولون: هو الراهب في الصومعة؛ وهذه مظاهر الجمال؛ ويُقَبِّل أحدهم الأمْرَد، ويقول: أنت الله.

ويُذكر عن بعضهم أنه كان يأتي ابنه، ويدَّعي أنه الله رب العالمين، أو أنه خلق السموات والأرض، ويقول أحدهم لجليسه: أنت خلقت هذا، وأنت هو، وأمثال ذلك.

فقبَّح الله طائفة يكون إلهها الذي تعبده هو موطوؤها الذي تفترشه؛ وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً.

ومن قال: إن لقول هؤلاء سراً خفياً وباطن حق، وأنه من الحقائق التي لا يطلع عليها إلا خواص خواص الخلق: فهو أحد رجلين - إما أن يكون من كبار الزنادقة أهل الإلحاد والمحال، وإما أن يكون من كبار أهل الجهل والضلال، فالزنديق يجب قتله، والجاهل يعرف حقيقة الأمر، فإن أصر على هذا الاعتقاد الباطل بعد قيام الحُجَّة عليه وجب قتله.

ولكن لقولهم سر خفي وحقيقة باطنة لا يعرفها إلا خواص الخلق، وهذا السر هو أشد كفراً وإلحاداً من ظاهره؛ فإن مذهبهم فيه دقة وغموض وخفاء قد لا يفهمه كثير من الناس). [الفتاوى ٢/ ٣٧٨-٣٧٩].

ويقول أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

(وأقوال هؤلاء شر من أقوال اليهود والنصارى، فيها من التناقض من جنس ما في أقوال النصارى ولهذا يقولون بالحلول تارة، وبالاتحاد أخرى، وبالوحدة تارة، فهو مذهب متناقض في نفسه، ولهذا يُلَبِّسون على من لم يفهمه، فهذا كله كفر باطناً وظاهراً بإجماع كل مسلم، ومَنْ شَكَّ في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر، كمن يَشُكُّ في كفر اليهود والنصارى) [الفتاوى ٢/ ٣٦٨].

وقال أيضاً: (ولا يُتصوَّر أن يُثْنِي على هؤلاء إلَّا كافر ملحد، أو جاهل ضال) [الفتاوى٢/ ٣٦٧].

ولمَّا سُئل شيخ الإسلام -رحمه الله- عن كتاب فصوص الحِكَم قال: (ما تضمنه كتاب [فصوص الحكم] وما شاكله من الكلام: فإنه كفر باطناً وظاهراً؛ وباطنه أقبح من ظاهره وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة، وأهل الحلول، وأهل الاتحاد، وهم يُسمّون أنفسهم المحققين، وهؤلاء نوعان: نوع يقول بذلك مطلقاً، كما هو مذهب صاحب الفصوص ابن عربي وأمثاله: مثل ابن سبعين،

وابن الفارض، والقونوي والششتري والتلمساني وأمثالهم ممن يقول: إن الوجود واحد، ويقولون: إن وجود المخلوق هو وجود الخالق، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر، بل يقولون: الخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق، ويقولون: إن وجود الأصنام هو وجود الله، وإن عُبّاد الأصنام ما عبدوا شيئا إلا الله.

ويقولون: إن الحق يوصف بجميع ما يوصف به المخلوق من صفات النقص والذم.

ويقولون: إن عُبّاد العجل ما عبدوا إلا الله، وإن موسى أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل، وإن موسى كان بزعمهم من العارفين الذين يرون الحق في كل شيء، بل يرونه عين كل شيء، وأن فرعون كان صادقاً في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]

بل هو عين الحق، ونحو ذلك مما يقوله صاحب الفصوص.

ويقول أعظم محققيهم: إن القرآن كله شرك، لأنه فرق بين الرب والعبد؛ وليس التوحيد إلا في كلامنا.

فقيل له: فإذا كان الوجود واحداً، فلم كانت الزوجة حلالاً والأم حراماً؟ فقال: الكل عندنا واحد، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام. فقلنا: حرام عليكم) [الفتاوى ٢/ ٣٦٤ - ٣٦٥].

وقال ابن تيمية - رحمه الله - أيضاً (وقد صرَّح ابن عربي وغيره من شيوخهم بأنَّه هو الذي يجوع ويعطش، ويمرض ويبول ويَنكح ويُنكح، وأنَّه موصوف بكل عيب ونقص لأن ذلك هو الكمال عندهم، كما قال في الفصوص، فالعلي بنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستقصي به جميع الأمور الوجوديَّة، والنسب العدميَّة: سواء كانت ممدوحة عرفاً وعقلاً وشرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً وليس ذلك إلَّا لمسمى الله خاصةً) [الفتاوى ٢/ ٢٦٥].

ويعتذر شيخ الإسلام -رحمه الله- عن الإفاضة في بيان عقيدة هؤلاء القوم والتحذير منهم قائلاً: (ولولا أن أصحاب هذا القول كثروا وظهروا وانتشروا، وهم عند كثير من الناس سادات الأنام، ومشايخ الإسلام، وأهل التوحيد والتحقيق، وأفضل أهل الطريق، حتى فضَّلوهم على الأنبياء والمرسلين، وأكابر مشايخ الدين: لم يكن بنا حاجة إلى بيان فساد هذه الأقوال، وإيضاح هذا الضلال.

ولكن يُعلم أن الضلال لا حد له، وأن العقول إذا فسدت: لم يبق لضلالها حد معقول، فسبحان من فرق بين نوع الإنسان؛ فجعل منه من هو أفضل العالمين، وجعل منه من هو شر من الشياطين، ولكن تشبيه هؤلاء بالأنبياء والأولياء، كتشبيه مسيلمة الكذاب بسيد أولي الألباب، وهو الذي يوجب جهاد هؤلاء الملحدين، الذين يفسدون الدنيا والدين) [الفتاوى ٢/ ٣٥٧-٣٥٨].

وقال -رحمه الله- في وجوب إنكار هذه المقالات الكفريَّة وفضح أهلها: (فهذه المقالات وأمثالها من أعظم الباطل، وقد نبهنا على بعض ما به يعرف معناها وأنه باطل، والواجب إنكارها؛ فإن إنكار هذا المنكر الساري في كثير من المسلمين أولى من إنكار دين اليهود والنصارى، الذي لا يضل به المسلمون، لا سيَّما وأقوال هؤلاء شرٌ من أقوال اليهود والنصارى وفرعون، ومن عرف معناها واعتقدها كان من المنافقين، الذين أمر الله بجهادهم بقوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبَة: الآية ٧٣]: والنفاق إذا عظم كان صاحبه شراً من كفار أهل الكتاب، وكان في الدرك الأسفل من النار.

وليس لهذه المقالات وجه سائغ، ولو قدر أن بعضها يحتمل في اللغة معنى صحيحاً فإنَّما يحمل عليها إذا لم يعرف مقصود صاحبها، وهؤلاء قد عُرِفَ مقصودهم، كما عرف دين اليهود والنصارى والرافضة، ولهم في ذلك كتب مصنفة، وأشعار مؤلفة، وكلام يفسر بعضه بعضاً.

وقد عُلِمَ مقصودهم بالضرورة، فلا ينازع في ذلك إلا جاهل ولا يلتفت إليه، ويجب بيان معناها وكشف مغزاها لمن أحسن الظن بها، وخيف عليه أن يحسن الظن بها أو أن يضل، فإن ضررها على المسلمين أعظم من ضرر السموم التي يأكلونها ولا يعرفون أنها سموم، وأعظم من ضرر السُرّاق والخونة، الذين لا يعرفون أنهم سُرّاق وخونة.

فإن هؤلاء: غاية ضررهم موت الإنسان أو ذهاب ماله، وهذه مصيبة في دنياه قد تكون سبباً لرحمته في الآخرة، وأمَّا هؤلاء: فيسقون الناس شراب الكفر والإلحاد في آنية أنبياء الله وأوليائه، ويلبسون ثياب المجاهدين في سبيل الله، وهم في الباطن من المحاربين لله ورسوله، ويظهرون كلام الكفار والمنافقين، في قوالب ألفاظ أولياء الله المحققين، فيدخل الرجل معهم على أن يصير مؤمناً وليّاً لله، فيصير منافقاً عدّواً لله) [الفتاوى ٢/٣٥٩].

الباب الرابع
الحقيقة المُحمَّديَّة في الفكر الصوفي

يستحيل علينا أن نفهم ما يريده المتصوفة بقولهم (**الحقيقة المُحمَّديَّة**) إلا بمعرفة عقيدتهم في الله، فالنظرية الصوفيَّة الفلسفية قد وصلت في نهاية القرن الثالث إلى القول بأن الله هو هذا الوجود القائم المتجدد المتغير فهو السماوات والأرض، والعرش والكرسي والملائكة والإنسان والحيوان والنبات هو الأزل والأبد - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -.

وإن كانت عباراتهم تختلف أحياناً، فمرةً يقولون: (هو الروح الساري في الموجودات، ويشبهون هذا السريان بأنه كرائحة الورد في الورد، ووجود الروح في الجسم الحي).

وتارةً يقولون: (نفس وجود الموجودات هو وجود الله فليس هناك اثنان في الوجود خالق ومخلوق، بل المخلوق عين الخالق، والخالق هو نفس المخلوق)، اعتقد بذلك ونشره في الناس كبار الصوفيَّة من أهل الزندقة والإلحاد كابن عربي، والحلاج، والجيلي، وابن سبعين، ومن على شاكلتهم.

وهؤلاء الصوفيَّة أنكروا في كتبهم على من يشهد بأن الله سبحانه وتعالى هو الإله القائم بنفسه المستوي على عرشه البائن من خلقه والذي هو معتقد المسلمين في ربهم سبحانه وتعالى، وقد كان هذا المعتقد أيضاً هو معتقد بعض من نُسبَ إلى التصوّف، ولذلك شدَّدَ ابن عربي عليهم النكير أيضاً وخطّأهم ونسبهم إلى القصور وعدم الفهم (اقرأ كتاب ابن عربي [التجليات] الذي يزعم فيه أنه التقى برجال التصوف السابقين في البرزخ وناقشهم في

عقائدهم هذه في التوحيد وبيَّن لهم خطأهم، وعرَّفهم في النهاية أن لا موجود إلا الله، وأن الله والعبد شيء واحد، وأنهم أقروا جميعاً بذلك، وكل ذلك في كتاب [التجليات]).

والمهم أن هؤلاء المتصوفة الذين نقلوا عقيدة وحدة الوجود عن الفلسفة الأفلاطونية واعتقدوها وجعلوها هي الحقيقة الصوفيَّة وسر الأسرار، وهي معتقد أهل الإسلام في زعمهم، نقلوا ما قاله هؤلاء الفلاسفة في نظرياتهم في بدء الخلق، فقد قال الفلاسفة الأقدمون: (إن أوَّل شيء بدأ في الخلق هو الهباء -أي الذرات-، وإن أول موجود وجد هو العقل الأول وسموه: (العقل الفعّال)، وأنه عن هذا العقل الأول نشأ العالم العلوي السماوات والكواكب ثم العالم السفلي... إلخ).

هذه النظرية الفلسفية القديمة جاء ابن عربي ونقلها هي نفسها إلى الفكر الصوفي، ولكنه استبدل بدلاً من العقل الفعال عند الفلاسفة ما أسماه هو: **(الحقيقة المُحمَّديَّة)** فزعم أن أول الخلق كان هباءً - كلام الفلاسفة نفسه - وأن أول موجود هو (الحقيقة المُحمَّديَّة) التي زعم ابن عربي أنها أول الموجودات وعلى حد تعبيره أول التعينات - أي أول عين تشكلت وتصورت من الذرات - يتطاول ابن عربي ويقول إن هذه (الحقيقة المُحمَّديَّة) هي التي استوت على العرش الإلهي، فيجعل ما حدثنا الله سبحانه وتعالى به عن نفسه من أنه خالق الخلق، وأنه المستوي على العرش، يلوي ابن عربي كل ذلك ويلبس على المسلمين وينقل لهم كلام الفلاسفة الملحدين في أسلوب جديد بغطاء إسلامي وآيات قرآنية فيقول: إن ذات محمد ﷺ هي أول ذات تكوَّنت من الهباء، وهي التي استوت على العرش الإلهي، ومن نور هذه الذات خلق الله الخلق جميعاً بعد ذلك، فالملائكة والسموات والأرض كل ذلك قد خُلِقَ من نور الذات الأولى وهي الذات المُحمَّديَّة عند ابن عربي، والعقل الفَعّال في الفكر الفلسفي.

وهكذا استطاع ابن عربي أن ينقل ترهات الفلاسفة وتخيلاتهم المريضة

إلى دنيا المسلمين وعقائدهم، بل جعل هذه العقيدة الإلحادية هي العقيدة الأساسية التي قام الفكر الصوفي كُلُّه بعد ذلك عليها، فإذا علمنا ماذا يعنيه المتصوفة المتفلسفون بوحدة الوجود، وأن الله عندهم ليس ذاتاً يراها المؤمنون في الآخرة وتستوي على العرش، وإنما هو نفس الوجود بكل درجاته وتناقضاته، فالله عندهم هو عين وجود المَلَك والشيطان والإنس والجان، والحيوان والنبات، أقول إذا علمنا بعد ذلك ماذا يريد المتصوفة من قولهم **بالحقيقة المُحمَّديَّة** المستوية على العرش وجعل النبي محمداً ﷺ هو المخلوق الأول قبل الأكوان جميعاً وهو الذي استوى على العرش، ومن نور النبي ﷺ خلق الله جميع الأكوان بعد ذلك السماوات والأرض والملائكة والإنس والجن وسائر المخلوقات.

فأصبحت **الحقيقة المُحمَّديَّة** - في زعمه - الصورة الكاملة المتجسدة للذات الإلهية التي لا ترى بذاتها، ولا تنفصل عن هذا الوجود، فالنبي محمد ﷺ عند ابن عربي ومشايخ التصوف الذين جاؤوا من بعده هو الله المتجلي على العرش، أو - قل - هو صورة الله المصغَّرة، وهو الذي منه استمدت كل الموجودات وجوداتها، وانفلقت عنه كل الأنوار وكل الأكوان وكل الموجودات، وهذا يعني أن محمداً ﷺ هو البذرة الأولى لكل موجود، فكأنه بذرة لشجرة كان منها بعد ذلك الساق والفروع والأوراق والثمار والأشواك، فهكذا بدأ الوجود بمحمدٍ ﷺ، ثم خلق من نوره العرش والكرسي والسماوات والأرض وآدم وذريته، وتفرَّع الخلق وتدرَّج بعد ذلك من المخلوقات التي خلقت من نور النبي محمد ﷺ، فالموجودات كلها في عقيدة التصوف شيء واحد متفرع عن أصل واحد أو قل شجرة متفرعة عن بذرة واحدة.

وإليك الآن نصوص عبارات هؤلاء الملاحدة الكافرين في هذه العقيدة الكفرَّية الزندقيَّة:

قال القاشاني شارح فصوص الحكم لابن عربي: (إن محمداً ﷺ أول التعينات التي عين به الذات الأحديَّة قبل كل تعين، فظهر به ما لا نهاية من

التعينات، فهو يشمل جميع التعينات، فهو واحد فرد في الوجود لا نظير له إذ لا يتعين من يساويه في المرتبة، وليس فوقه إلا الذات الأحديَّة المطلقة المنزهة عن كل تعين وصفة واسم ورسم وحد ونعت، فله الفردية المطلقة، ومن هذا يعلم أن الاسم الأعظم لا يكون إلا له دون غيره من الأنبياء، ومن فرديته يعلم سر قوله: (كنت نبياً وآدم بين الماء والطين) كونه خاتم النبيين وأول الأولين وآخر الآخرين، ومن أوليته وجمعيته سر قوله: (أوتيت جوامع الكلم)، وكونه أفضل الأنبياء فإنهم في التصاعد وسعة الاستعداد والمرتبة ينتهون إلى التعين الأول ولا يبلغونه، والتعين الأول هو محمد ﷺ الذي يرجع إليه جميع التعينات فهو البرزخ بين الذات الأحدية وبين سائر الموجودات) [شرح القاشاني على الفصوص ص٢٦٦، ٢٦٧].

ومعنى أول التعينات أي أول موجود معين له ذات وجسم، وقبله لم يكن هناك أي ذات لا عرش ولا كرسي ولا سماوات ولا أرض.

وقول القاشاني شارح الفصوص: (وليس فوقه إلا الذات الأحدية المطلقة المنزهة عن كل تعين وصفة واسم ورسم وحد ونعت.. إلخ) يعني أنه ليس فوق مرتبة الرسول شيء إلا الذات الإلهية التي لا توصف بأي صفة بتاتاً، لأن ذات الله عنده مطلقة عن كل قيد - في زعمه - منزهةً عن أن تكون ذاتاً معينة محدودة، مثلاً كأن يقول: لله وجه أو يد أو ساق، أو استوى على العرش، أو يأتي يوم القيامة لأن الذات الإلهية في العقيدة الصوفيَّة هي المطلقة عن كل هذه القيود لأنها كل الموجودات.

ويشرح ابن عربي نفسه عقيدته هذه بقوله: (بدء الخلق الهباء، وأول موجود فيه **الحقيقة المُحمَّديَّة** الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني وهو العرش الإلهي) [الفتوحات المكية ج١ ص١٥٢].

فالخلق في زعمه بدأ بالهباء أي الذرات وأول موجود وجد بذات قائمة محدودة هي ذات الرسول ﷺ التي سماها **الحقيقة المُحمَّديَّة** الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني وهو العرش الإلهي.

وجاء بعد ابن عربي من شرح هذه العقيدة واستفاض فيها، قال أحمد بن مبارك السلجماسي في كتابه الإبريز فيما يرويه عن شيخه عبد العزيز الدباغ: (- وسمعته - رضي الله عنه يقول في قوله: "وانفلقت الأنوار" أن أول ما خلق الله تعالى نور سيدنا محمد ﷺ، ثم خُلق منه القلم والحجب السبعين وملائكتها، ثم خلق اللوح، ثم قبل كماله وانعقاده خلق العرش والأرواح والجنة والبرزخ، أما العرش فإنه خلقه تعالى من نور، وخلق ذلك النور من النور المكرم نور نبينا ومولانا محمد ﷺ وخلقه - أي العرش - ياقوتة عظيمة لا يقاس قدرها وعظمها، وخلق في وسط هذه الياقوتة جوهرة فصارة مجموع الياقوتة والجوهرة كبيضة بياضها هو الياقوتة وصفارها هو الجوهرة، ثم إن الله تعالى أمد تلك الجوهرة وسقاها بنوره ﷺ فجعل يخرق الياقوتة ويسقي الجوهرة فسقاها مرة ثم مرة ثم مرة إلى أن انتهى إلى سبع مرات فسالت الجوهرة بإذن الله تعالى فرجعت ماء ونزلت إلى أسفل الياقوتة التي هي العرش، ثم إن النور المكرم الذي خلق العرش إلى الجوهرة التي سالت ماء لم يرجع، فخلق الله منه ملائكة ثمانية وهُم حملة العرش فخلقهم من صفائه، وخلق من ثقله الريح وله قوة وجهد عظيم فأمرها تعالى أن تنزل تحت الماء فسكنت تحته فحملته، ثم جعلت تخدم وجعل البرد يقوى في الماء فأراد الماء أن يرجع إلى أصله ويجمد فلم تدعه الرياح، بل جعلت تكسر شقوقه التي تجمد وجعلت تلك الشقوق تتعفن ويدخلها الثقل والنتونة وشقوق تزيد على شقوق، ثم جعلت تكبر وتتسع وذهبت إلى جهات سبع وأماكن سبع فخلق الله منه الأرضين السبع، ودخل الماء بينها والبحور وجعل الضباب يتصاعد من الماء لقوة جهد الريح، ثم جعل يتراكم فخلق الله منه السماوات السبع، ثم جعلت الريح تخدم خدمة عظيمة على عادتها أولاً وآخراً، فجعلت النار تزيد في الهواء من قوة حرق الريح للماء والهواء، وكلما زندت نار أخذتها الملائكة وذهبت بها إلى محل جهنم اليوم، فذلك أصل جهنم، فالشقوق التي تكونت منها الأرضون تركوها على حالها، والضباب التي تكونت منه السماوات تركوه على حاله، والنار التي زندت في الهواء أخذوها ونقلوها إلى محل آخر لأنهم

لو تركوها لأكلت الشقوق التي منها الأرضون السبع والضباب الذي منه السموات السبع، بل وتأكل الماء وتشربه بالكليَّة لقوة جهد الريح ثم إنَّ الله تعالى خلق ملائكة الأرضين من نوره ﷺ وأمرهم أن يعبدوه عليها، وخلق ملائكة السموات من نوره ﷺ وأمرهم أن يعبدوه عليها، وأما الأرواح والجنَّة إلَّا مواضع منها، فإنَّها أيضاً خُلقت من نور، وخلق ذلك النور من نوره ﷺ، وأما البرزخ فنصفه الأعلى من نوره ﷺ، فخرج من هذا أن القلم واللوح ونصف البرزخ والحجب السبعين وجميع ملائكتها وجميع ملائكة السموات والأرضين كلها خلقت من نوره ﷺ بلا وساطة، وأن العرش والماء والجنة والأرواح خُلِقَت من نورٍ خُلِقَ من نوره ﷺ، ثم بعد هذا فلهذه المخلوقات أيضاً سقي من نوره ﷺ، أمَّا القلم فإنَّه سُقي سبع مرات سقياً عظيماً وهو أعظم المخلوقات بحيث إنَّه لو كشف نوره لجرم الأرض لتدكدكت وصارت رميماً، وكذا الماء فإنَّه سُقي سبع مرات ولكن ليس كسقي القلم، وأمَّا الحجب السبعون فإنَّها في سقي دائم، وأما العرش فإنَّه سُقي مرتين مرة في بدء خلقه، ومرة عند تمام خلقه لتستمسك ذاته، وكذا الجنة فإنَّها سُقيت مرتين مرة في بدء خلقها ومرة بعد تمام خلقها لتستمسك ذاتها، وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكذا سائر المؤمنين من الأمم السابقة ومن هذه الأمة فإنهم سقوا ثماني مرات، **الأولى** في عالم الأرواح حين خلق الله نور الأرواح جملة، وسقاه **الثانية** حين جعل يصور منه الأرواح فعند تصور كل روح سقاها بنوه ﷺ. وأما **الثالثة** يوم (ألست بربكم) فإنَّ كل من أجاب الله تعالى من أرواح المؤمنين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام سُقي من نوره ﷺ، لكن منهم من سُقي كثيراً، ومنهم من سقي قليلاً، فمن هنا وقع التفاوت بين المؤمنين حتى كان منهم أولياء وغيرهم، وأما أرواح الكفار فإنَّها كَرِهَت شُرب ذلك النور وامتنعت منه، فلما رأت ما وقع للأرواح التي شربت منه من السعادة الأبدية والارتقاءات السرمدية ندمت وطلبت سقياً فسقيت من الظلام والعياذ بالله، **الرابعة** عند تصويره في بطن أمِّه وتركيب مفاصله وشق بصره، فإن ذاته تُسقى من النور الكريم لتلين مفاصله وتنفتح أسماعها وأبصارها، ولولا ذلك ما

لانت مفاصلها، **الخامسة** عند خروجه من بطن أمِّه فإنَّه يُسقى من النور الكريم ليُلْهَمَ الأكل من فمه، ولولا ذلك ما أكل من فمه أبداً، **السادسة** عند التقامه ثدي أمه في أول وضعه فإنه يُسقى من النور الكريم أيضاً، **السابعة** عند نفخ الروح فيه فإنه لولا سُقي الذات بالنور الكريم ما دخلت فيها الروح أبداً مع ذلك فلا تدخل فيها إلا بكلفة عظيمة وتعب يحصل للملائكة معها، ولولا أمر الله لها ومعرفتها به ما قدر ملك على إدخالها بالذات). انتهى منه بلفظه [الإبريز ص٢٢٤، ٢٢٥].

وهذا الهذيان الكامل، والتخريف الكامل شرح لعقيدة الصوفيَّة فيما يسمونه **بالحقيقة المُحمَّديَّة**، وأنها الذات الأولى التي انطلقت منها بعد ذلك كل الذوات والكائنات والموجودات.

ويستطرد أحمد مبارك شارحاً عقيدة الصوفيَّة فيما يسمونه **بالحقيقة المُحمَّديَّة** فيقول أيضاً:

(- وسمعته - رضي الله عنه يقول مرة أخرى إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن سُقوا من نوره لم يشربوه بتمامه، بل كل واحد يشرب منه ما يناسبه، وكتب له فإن النور المكرَّم ذو ألوان كثيرة وأحوال عديدة وأقسام كثيرة، فكل واحدٍ شرب لوناً خاصاً ونوعاً خاصاً، قال رضي الله عنه: فسيدنا عيسى عليه السلام شرب من النور المكرَّم فحصل له مقام الغُربة، وهو مقام يحمل صاحبه على السياحة، وعدم القرار في موضع واحد، وسيدنا إبراهيم عليه السلام شرب من النور المكرَّم فحصل له مقام الرحمة والتواضع مع المشاهدة الكاملة، فتراه إذا تكلم مع أحد يخاطبه بلين، ويكلمه بتواضع عظيم، فيظن المتكلم أنَّه يتواضع له وهو إنَّما يتواضع لله عز وجل لقوة مشاهدته، وسيدنا موسى عليه السلام شرب من النور المكرَّم فحصل له مقام مشاهدة الحق سبحانه في نعمه وخيراته وعطاياه التي لا يقدر قدرها؛ وهكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكة الكرام والله أعلم) [الإبريز ص٢٢٦].

ويقول كذلك: (وسمعته -أي شيخ عبد العزيز الدباغ- رضي الله عنه يقول إنِّي لم أزل أتعجب من الوالي الذي يقول إنَّه يملأ الكون، وذلك لأنَّ للكون باباً منه يقع الدخول إليه وهو النبي ﷺ، ولا يطيق مخلوق من المخلوقات أي يحمل نوره ﷺ، ومن عجز عن الباب فكيف يطيق غيره اللهم إلا أن يكون دخل من غير باب؛ يعني فيكون فتحه شيطانياً ظلمانياً، وهذا لا يملأ بيته فضلاً عن داره فضلاً عن شيء آخر، قال رضي الله عنه: واعلم أنَّ أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسموات وأرضين وجنات وحجب وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلها، وجدت بعضاً من نور النبي ﷺ، وأنَّ مجموع نوره ﷺ لو وضع على العرش لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع عليه ذلك النور العظيم لتهافتت وتساقطت، وإذا كان هذا شأن نوره ﷺ فكيف يقول من يقول إنه يملأ الكون؟ فأين تكون ذاته إذا بلغت المدينة المنورة، وقربت من القبر الشريف؟! أم كيف تكون إذا تصاعدت نحو البرزخ وقربت من الموضع الذي فيه النور العظيم القائم بالروح الشريفة؟ أفتكون ذاته حاملة له والمخلوقات بجملتها عاجزة عنه؟ أم يتخطى ذلك الموضع فلم يملأ الكون؟ والغرض أن الموضوع المذكور آخذ من القبر الشريف إلى قبة البرزخ تحت العرش، ولعله أراد بالكون ما بين السماء والأرض ما عدا موضع البرزخ الذي فيه نور المعظم، فقلت: ولعله أنه يملؤه من حيث النور أي يملؤه بنوره لا بذاته كالشمس التي سطعت على السموات والأرض، فقال رضي الله عنه: وما مراده إلا أنه يملؤه بنوره ولا يريد أنه يملؤه بذاته، ولكن أين نوره من نور المصطفى ﷺ؟ فإن ذلك النور من النور المكرم بمنزلة الفتيلة في وسط النهار وقت الظهيرة، وهل يصح أن يقال إن تلك الفتيلة كسفت نور الشمس؟ فقلت: ونور الشمس من النور المكرم بمنزلة الفتيلة فما باله ملأ الأكوان؟ فقال رضي الله عنه: لم يملأ الأكوان بمعنى أن النور المكرَّم ذهب بسببه واضمحل فكيف ونور الشمس إنما هو من نور أرواح المؤمنين الذي هو من نوره ﷺ، وإنما سبب ذلك أنَّا حُجِبنا عن مشاهدة النور المكرَّم كما حُجبنا عن مشاهدة أنوار

الأولياء، فلو كشف الحجاب لكانت له أنوار من النور المكرَّم بمنزلة الفتائل وسط النهار ولم يظهر للشمس ولا لغيرها نوراً إلا كما يظهر للفتائل وسط النهار). أ.هـ [الإبريز ص٢٣٠].

ويقول أيضاً في شرح قول الشاذلي: (اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار): (الباب السابع في تفسيره رضي الله عنه لبعض ما أشكل علينا من كلام الأشياخ رضي الله عنهم) فمن ذلك أنه شرح لنا رضي الله عنه بعض الألفاظ من صلاة القطب الكامل الوارث الواصل مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، فسمعته رضي الله عنه يقول في شرح قوله (اللهم صل على من منه انشقت الأسرار) حاكياً عن سيدي مُحمَّد بن عبد الكريم البصراوي رضي الله عنه: أنَّ الله تعالى لمَّا أراد إخراج بركات الأرض وأسرارها مثل ما فيها من العيون والآبار والأنهار والأشجار والثمار والأزهار، أرسل سبعين ألف ملك إلى سبعين ألف ملك إلى سبعين ألف ملك ثلاث سبعينات من الألوف، فنزلوا يطوفون في الأرض، فالسبعون الأولى يذكرون اسم النبي ﷺ، ومرادنا بالاسم، الاسم العالي ما يأتي في شرح وتنزلت علوم آدم، والسبعون الثانية يذكرون قربه ﷺ من ربه عز وجل ومنزلته ﷺ منه، والسبعون الثالثة تصلي عليه ﷺ، ونوره ﷺ مع الطوائف الثلاث، فتكونت الكائنات ببركة ذكر اسمه ﷺ وحضوره بينها ومشاهدتها قربه ﷺ من ربه عز وجل، قال: وذكروه على الأرض فاستقرت، وعلى السماوات فاستقلت، وعلى مفاصل ذات ابن آدم فلانت بإذن الله تعالى، وعلى مواضع عينيه ففتحت بالأنوار التي فيها، فهذا معنى قوله منه انشقت الأسرار، فقلت: فهذا معنى دلائل الخيرات وبالاسم الذي وضعته على الليل فأظلم وعلى النهار فاستتار وعلى السماوات فاستقلت وعلى الأرض فاستقرت وعلى الجبال فرست وعلى البحار ففجرت وعلى العيون فنبعت وعلى السحاب فأمطرت، فقال رضي الله عنه: نعم ذلك الاسم هو اسم نبينا ومولانا محمد ﷺ فببركته تكونت الكائنات والله أعلم؛ قلت: وقد سبق كلام سيدي أحمد بن عبد الله الغوث رضي الله عنه وقوله لمريده: يا ولدي لولا نور سيدنا محمد ﷺ ما ظهر

سر من أسرار الأرض، فلولا هو ما تفجَّرت عين من العيون، ولا جرى نهر من الأنهار، وإن نور ﷺ يا ولدي يفوح في شهر مارس ثلاث مرات على سائر الحبوب، فيقع لها الإثمار ببركته ﷺ، ولولا نوره ﷺ ما أثمرت، ويا ولدي إن أقل الناس إيماناً من يرى إيمانه على ذاته مثل الجبل وأعظم منه فأحرى غيره، وأن الذات تكل أحياناً عن حمل الإيمان فتريد أن ترميه، فيفوح نور النبي ﷺ عليها فيكون معيناً لها على حمل الإيمان فتستحيله وتستطيبه) [الإبريز ص٢٢٢] أ.هـ.

وصلاة ابن مشيش هذه يقول فيها: (اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم بأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا هو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسط) [أذكار الطريقة الشاذلية].

والحق أن هذه العبارات في وصف (**الحقيقة المُحمَّديَّة**) حسب المفهوم الصوفي الفلسفي، قد يختلف بعضها عن بعض قليلاً ولكنها جميعاً مجمعة على شيء واحد وهو أن الرسول ﷺ هو أول موجود، فمنهم من يقول: نور الرسول ﷺ هو أول موجود، ومنهم من يقول: بل وأيضاً ذاته النورانية المستوية على العرش، وأن وجوده البشري في وقته إنَّما كان مجرد تعيين جديد، وتجسُّد جديد لذات الرسول ﷺ، وبعض الصوفيَّة أيضاً يجعل عين الرسول ﷺ وذاته هي عين الله وذاته، وأنه ليس هناك حقيقة إلهيَّة غير **الحقيقة المُحمَّديَّة**، ومن ذهب إلى ذلك عبد الكريم الجيلي وغيره.

وبعضهم يفرق بين الذات الإلهيَّة التي ليس لها تعين ذاتي ووجود منفصل عن الخلائق بل هي كل الموجودات، بل هي في زعمهم الروح الخفي الساري في الموجودات، وأنَّ هذه الذات الإلهيَّة خلقت النبي محمداً ﷺ أولاً قبل المخلوقات جميعاً، ثم خلقت المخلوقات بعد ذلك من نور ذات الرسول ﷺ، وأنَّ ذات الرسول ﷺ هي المستوية على العرش الرحماني كما قال ابن عربي.

ومنهم ولا سيَّما المتأخرون يجعل ذات الرسول ﷺ **والحقيقة المُحمَّديَّة** هي عين الحقيقة الإلهيَّة، ويجعلون الرسول ﷺ بصورته البشريَّة صورة كاملة أو هو أكمل صورة للحقيقة الإلهيَّة، ويجعلون كذلك الصورة البشريَّة المُحمَّديَّة هي إحدى الصور الممكنة للرسول، ويعتقدون أنه يتشكل كثيراً في أي صورة يشاء وهذا نص عبارة عبد الكريم الجيلي في ذلك قال في الإنسان الكامل في الباب الستين: (اعلم حفظك الله أنَّ الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوَّله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له تنوع في ملابس ويظهر في كنائس، فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخر أسام، وله في كل زمان اسم ما يليق بلباسه في ذلك الزمان، فقد اجتمعت به ﷺ وهو في صورة شيخي الشيخ شرف الدين إسماعيل الجبرتي، ولست أعلم أنَّه النبي ﷺ، وكنت أعلم أنَّه الشيخ، وهذا من جملة مشاهد شاهدته فيها بزبيد سنة ست وتسعين وسبعمائة، وسر هذا الأمر تُمكنه ﷺ من التصور بكل صورة، فالأديب إذا رآه في الصورة المُحمَّديَّة التي كان عليها في حياته فإنَّه يسميه باسمه، وإذا رآه في صورة ما من الصور وعلم أنه محمد، فلا يسميه تلك الصورة، ثم لا يوقع ذلك الاسم إلا على **الحقيقة المُحمَّديَّة**، ألا تراه ﷺ لما ظهر في صورة الشبلي رضي الله عنه قال **الشبلي لتلميذه**: أشهد أني رسول الله، وكان التلميذ صاحب كشف فعرفه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وهذا أمر منكور، وهو كما يرى النائم فلاناً في صورة فلان وأقل مراتب بالكشف أن يسوغ به في اليقظة ما يسوغ به في النوم، ولكن بين الكشف والنوم فرقاً، وهو أنَّ الصورة التي يرى فيها محمد ﷺ في النوم لا يوقع اسمها في اليقظة على **الحقيقة المُحمَّديَّة**، لأن عالم المثال يقع في التعبير فيه، فيعبر عن **الحقيقة المُحمَّديَّة** إلى حقيقة تلك الصورة في اليقظة، بخلاف الكشف فإنَّه إذا كشف لك عن **الحقيقة المُحمَّديَّة** أنَّها متجلية في صورة من صور الآدميين، فيلزمك إيقاع اسم تلك الصورة على **الحقيقة المُحمَّديَّة**، ويجب عليك أن تتأدب مع

صاحب تلك الصورة تأدبك مع محمد ﷺ، لما أعطاك الكشف أن محمداً ﷺ متصور بتلك الصورة، فلا يجوز لك بعد شهود محمد ﷺ فيها أن تعاملها بما كنت تعاملها به من قبل، ثم إيّاك أن تتوهم شيئاً في قولي من مذهب التناسخ، حاشا الله وحاشا رسول الله ﷺ أن يكون ذلك مرادي، بل إن رسول الله ﷺ له من التمكين في التصور بكل صورة حتى يتجلى في هذه الصورة، وقد جرت سنته ﷺ أنَّه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة أكملهم ليعلي شأنهم ويقيم مَيلانَهُم، فهم خلفاؤه في الظاهر وهو في الباطن حقيقتهم). أ.هـ.

وأظن أنه قد وضح الآن حقيقة المعتقد الصوفي الفلسفي في النبي ﷺ، وحتى تتضح الصورة أمامنا أكثر من ذلك نجمل ما قدمناه فيما يلي، فنقول:
معتقد المتصوفة في النبي محمد ﷺ على ثلاث درجات:

(١) **من يقولون بوحدة الوجود** وأنَّ الله هو ذات الموجودات فيجعلون الرسول ﷺ هو المخلوق الأول ومنه وعنه صدرت الموجودات جميعاً، وهو الإله المستوي على العرش، وهذا هو معتقد ابن عربي ومن على شاكلته.

(٢) **من يقولون بأن نور الرسول هو أوَّل موجود فعلاً** ومنه انشقت الأنوار وخلق الخلق جميعاً لكن لا يقولون بأن ذات الرسول مستوية على العرش.

(٣) **من يقولون بأن نور الرسول أول موجود وهو أكرم الخلق** ومن أجله خلق الله الكون جميعاً دون أن يصرحوا بأن العوالم قد خلقت من نوره، وإنما يقولون خلقت لأجله.

هذا وبالرغم من أنَّ الصوفيَّة على هذه الدرجات الثلاث في الاعتقاد في النبي محمد ﷺ، فإنَّهم متفقون ومجمعون تقريباً - إلا ما شذَّ منهم - أنَّ ذات الرسول ﷺ هي الذات التي منها تفيض كل العلوم وتنزل كل الرسالات، فالرسل لا ينزل عليهم الوحي إلا من الرسول ﷺ، ويُعبِّرون عن ذلك بقولهم إن الرسل جميعاً والأولياء أيضاً لا تفيض ولا تنزل عليهم العلوم الإلهيَّة إلا من ذات الرسول ﷺ في الأزل والأبد، أي قبل أن يوجد الرسول ﷺ بذاته الترابية في الأرض، وبعد أن وجد ثم بعد أن خرجت ما يسمونه بذاته الترابيَّة

من هذه الأرض، وهذا بالطبع هو حاصل اعتقادهم في أن الرسول ﷺ أوَّل موجود وأنَّ العوالم من نوره، أو أن الكون خلق لأجله.

وكذلك مفهوم المتصوِّفة - المعتدلين - منهم يعتقدون أن الرسول ﷺ يعلم الغيب كلَّه، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماوات.

ولا شكَّ أنَّ المتصوِّفة الذين يعتقدون في مثل هذه العقائد في الرسول ﷺ لم يتأثروا فقط بالفلاسفة في نظريتهم في الخلق وقولهم بالهباء، والعقل الأول أو العقل الفعال، بل إنهم تأثروا أيضا بما قاله النصارى في عيسى، ولا شكَّ أن نظرية النصرانية في المسيح متأثرة بقول الفلاسفة أيضاً في العقل الفعال.

ولقد استطاع المتصوفة نقل هذه النظريَّة بالرغم من غموضها الفلسفي، وصعوبة التدليل عليها بدليل منطقي يقبله العقل، وبمجافاة هذه النظريَّة عن عقيدة الإسلام الواضحة السهلة، أقول بالرغم من كل ذلك فإنَّ المتصوِّفة استطاعوا أن يجعلوا هذه العقيدة هي عقيدة العوام والكثرة من المسلمين وذلك بصياغتها لعبارات سهلة، وفي شعر سلس يجري على الألسنة سريعاً كقولهم مثلاً: **(لولاك ما خلقت الأفلاك)**.!!

وكنت مرة أخطب في الحرم النبوي في نحو سنة ١٣٨١هـ الموافقة ١٩٦٠م تقريباً مبيناً العقيدة الواجبة في الرسول ﷺ فقام إلي أحد الحجاج من كبار السن وقال لي: أليس يقول الله تعالى: **(لولاك ما خلقت الأفلاك)** فقلت: له ليست هذه بآية من القرآن، ولا بحديث أيضاً واعتقادها شرك بالله!!

فانظر كيف جرى هذا المعتقد على ألسنة الناس بكلام مسجوع يظنه العامي قرآناً وما هو بقرآن.

فكيف إذا كان شعراً من أمثال شعر البوصيري الذي سارت به الركبان كقوله:

وإن من جودك الدنيا وضرتها　　ومن علومك علم اللوح والقلم

وقوله:

وكـل آي أتى الـرسـل الـكـرام بهـا   فـإنمـا اتـصـلـت مـن نـوره بهـم

وهذا البيت يعبر عن معتقد الصوفيَّة في أنَّ علم الرسل كله من الرسول محمد ﷺ، مأخوذ من ذاته الأولى قبل أن تخلق ذاته الترابية كما يقولون، والبيت الأول يجعل الدنيا والآخرة نفحة من نفحات الرسول، وما سطَّره القلم ووعاه اللوح المحفوظ جزء وبعض من علوم الرسول ﷺ.

وكذلك وصفوا مثل هذه العقيدة في أذكار تُقرأ صباحاً ومساءً -لا أقول عشرات المرات- بل يوجبون قراءتها أحياناً على مريديهم آلاف المرات، نحو قولهم في صلاة ابن مشيش: (اللهمَّ صلِّ على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار وفيه ارتفعت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط، صلاة تليق بك إليه كما هو أهله، اللهمَّ إنَّه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك، اللهم ألحقني بنَسَبه، وحققني بحَسَبه، وعرِّفني إيّاه معرفة أُسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل، واحملني على سبيله إلى حضرتك حملاً محفوفاً بنصرتك، واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزج بي في بحار الأحدية وانشلني من أوحال التوحيد). أ.هـ.

وكذلك قولهم في مناجاة الرسول ﷺ: **(يا أوَّل خلق الله يا نور عرش الله)**، ومثل هذه الكلمات كان وما زال المؤذنون في أماكن شتى من العالم الإسلامي يقولونها في المآذن قبل الآذان وبخاصة آذان الفجر، فالعامي يفهم معنىً عاماً من هذه الكلمات، وأمّا الصوفي المتمرِّس القارئ أو المريد المترقي في سُلَّم التصوف، فإنَّه يظل يأخذ من هذه العقيدة حتى يتشربها أخيراً وتنطبع في نفسه ويظن - حقاً - أن الرسول ﷺ هو أوَّل موجود أو متعين، ومنه انفلقت أنوار الوجود فكان العرش والكرسي والسموات والأرض والملائكة والجن والإنس، وأنَّ الله ما خلق هذا الخلق إلَّا من أجله وحتى

يستوي هو - أي الرسول ﷺ - على عرش الكون ويكون كما قال ابن عربي قبة الكون..!!

ولو أنَّ المسلمين يقرأون القرآن ويفهمونه، ويتعلمون أحاديث الرسول ﷺ، ويدرسون سيرته لما استشرت وانتشرت مثل هذه العقيدة الباطلة في أوساطهم لنجحوا في البعد عن البدع، ولكن الصوفيَّة كانوا قد أحكموا الطوق على المسلمين فزعموا أنَّ القرآن كلَّه أسرار، وأن أسراره في الفاتحة، وأنَّ سرَّ الفاتحة في البسملة، وسر البسملة في الباء وسرُّ الباء في النقطة!!!

ومَنْ هذا الذي يستطيع أنْ يفتح نقطة الباء حتى يعلم أسرار القرآن، وكذلك جعلوا قراءة الحديث تبَرُّكاً فقط دون محاولة فهم، لأنَّ مَنْ حاول الفهم لا بد أن يكون مجتهداً، ولا اجتهاد بعد الأئمة الأربعة.

وجعل المتصوفة قراءة السيَّر لا تعدو أن تكون ترديداً لمنظومات ملؤوها بالكفر والشرك والغلو والتغزل في عيون الرسول الكحلية، وخدوده الورديَّة، وقوامه الممشوق - هكذا والله - وأمَّا سيرته وجهاده وحياته ومعاناته ﷺ فإنهم شغلوا الناس عن كل ذلك بهذه الترهات والخرافات، ولذلك ضاعت حقيقة الرسول ﷺ من أوساط عامَّة المسلمين إلَّا مَنْ رَحِمَ الله، وحلَّ مكانها هذه العقيدة الصوفيَّة الكفريَّة.

المعتقد الواجب في الرسول مُحَمَّد ﷺ وسائر الرسل:

من المعلوم أن الإيمان بالرسل من أركان الإيمان الستة كما جاء في حديث جبريل عليه السلام لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان قال: (**(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى)) [متفق عليه]**.

وقد وصف الله الرسل في القرآن بأنَّهم بَشَرٌ اختارهم لدعوة الناس إليه، وأنهم كانوا يأكلون الطعام وكانوا يعالجون المعاش والسعي في الأرض كبقية البشر، ولم يكن أحد منهم يعلم الغيب، أو يتصرف في الأكوان كما يشاء، أو

يأتيه الطعام من الغيب وقتما يشاء إلا آية واحدة جعلها الله لعبده عيسى بعد تهديد ووعيد من الله بأنَّ من يَكْفُر بعد تَنَزُّل هذه الآية فإنَّه يُعذِّبه عذاباً لا يُعذِّبه أحداً من العالمين، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۞ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة ١١٢-١١٥].

وهكذا لم تكن هذه الآية والكرامة إلَّا علامة على الرسالة وصِدْقِ عيسى عليه السلام فيما دعا قومه إليه وأنَّه عبد الله ورسوله.

لقد كانت سيرة الرسل وعلى رأسهم محمد ﷺ مبينة أنَّهم بشر قاسوا ما قاساه البشر من الآلام والأسقام والأوجاع والفتن والبلايا، وتضرعوا إلى ربهم ودعوه، وخافوه، وأحبّوه كذلك وطلبوا نصرته وعونه سبحانه وتعالى، وكان خاتمهم وخيرهم محمداً ﷺ أكمل الرسل في تحقيق عبوديَّة الله سبحانه وتعالى على نفسه، فقد قام من الليل حتى تفطرت قدماه، وأوذي بالله أشد الأذى، وأخرجه كفّار مكَّة منها، وعاداه المنافقون في المدينة عداءً شديداً فسبوه أقذع السِباب، ورموا زوجته بأشنع فرية، وقال قائلهم: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل..!!

وعاش ﷺ على الكفاف، وقالت عائشة رضي الله عنها: ((كان يأتي الهلال والهلال والهلال ثلاثة أهلَّة في شهرين ولا يوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار..!! قيل لها فما كان طعامكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء)) [رواه البخاري]، ورَبَط رسول الله ﷺ الحَجَر بل الحَجَرين على بطنه، وجاع ﷺ مع أصحابه وصبر معهم، وكان في المرض يتألم ويوعك كما يوعك رجلان من المسلمين، وحياة الرسول ﷺ لا تخفى فأموره أغلبها من المعلوم من الدين ضرورة، وأشهر ذلك أنَّه لم يطلب من أحد أن يُعظِّمه أو يُعطيه حقّاً لله فيسجد

له أو يركع له، أو يقوم على رأسه أو يقوم لمَقْدِمِهِ كما قال أنس رضي الله عنه: ((كان أصحاب النبي ﷺ يُحبّونه وكانوا لا يقومون له لِما يعلمون من شدة كراهته لذلك)).

ومعلومٌ كذلك أنَّ الرسل لا يعلمون الغيب كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: الآية ٦٥] - اقرأ الفصل الخاص بذلك في باب الكشف الصوفي -، وكذلك لم تكن كل دعواتهم تستجاب لهم فقد دعا نوح عليه السلام وشفع في ابنه قائلاً: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: الآية ٤٥]، فقيل له: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، ودعا إبراهيم عليه السلام لأبيه فلم يُستجب له، وجاء في صحيح البخاري أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة وقد سربل بسربال من قطران، وقد عَلَت وجه آزر غبرة وقترة فيقول له إبراهيم: يا أبت ألم أقل لك لا تعصني، فيقول له آزر: يا بني الآن لا أعصيك، فينادي إبراهيم ربه قائلاً: ربي لقد وعدتني ألّا تُخزني يوم يُبعثون، وأي خزي أكبر من أبي الأبعد، فيقال له يا إبراهيم إنّي حرمت الجنة على الكافرين، وانظر تحت قدميك فينظر تحت قدميه فإذا هو بذيخٍ متلطخ بالدماء - والذيخ هو ذكر الضبع - فيؤخذ من قوائمه ويلقى في النار، وكذلك امرأة نوح وامرأة لوط كانتا كافرتين ولم ينفعهما القرب من الأنبياء، وأما النبي محمد ﷺ فقد شفع في أبي طالب فلم يستجب الله له إلا بأن أخرجه من مكانه في النار إلى مكان آخر في ضحضاح من النار يغلي منه رأسه، وقال أيضاً ﷺ: **((استأذنت ربي أن أزور قبر أمي فأذن لي، واستأذنت أن أستغفر لها فلم يأذن لي))**، وقال ﷺ لابنته فاطمة: **((لا أغني عنك من الله شيئاً سليني من مالي ما شئت))**..!!

وقال أيضاً ﷺ: **((لن يُدخل أحدكم الجنة بعمله))** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **((ولا أنا ما لم يتغمدني الله برحمة منه وفضل))**، وكل هذه الأحاديث مما أخرجه أهل الصحيحين وما تضمنته هو من المعلوم في الإسلام

ضرورة، فإنَّ الآيات القرآنية التي وصفت حال الرسل وافتقارهم إلى ربهم، ومعاتبته إياهم على مجرد فعلهم لخلاف الأوْلى كثير، كقوله لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۞ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١١٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: ٢٢-٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧].

وأما الآيات التي يبين الله تعالى فيها فضله على عبده ورسوله محمد ﷺ فكثيرةٌ جداً يَصْعُبُ حصرها وسردها في هذا المقام ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٧]، فكيف يقول تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: الآية ٧] وتقول صوفيَّة وُجِدَ محمد قبل الخلق جميعاً، ومن نوره استمد جميع الأنبياء علومهم!؟ ويقول تعالى أيضاً: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. والمهم أنَّ من قرأ القرآن وعُلِمَ شيئاً من الإسلام ودَرَسَ سيرة الرسول ﷺ حصل العلم الضروري الذي لا يدافع بأن محمداً ﷺ هو عبد الله ورسوله، وأنه وُجِدَ يوم وُجِدَ على الأرض بشراً كالبشر لا علم له بشيء مما كان في الملأ الأعلى كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۞ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۞ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۞ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٦٧ - ٧٢]، فالرسول ﷺ أمَرَهُ الله أن يقول هنا: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: الآية ٦٩]، والملأ الأعلى هم الملائكة، عندما أمرهم الله بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس فكان بينه وبين الرب سبحانه

وتعالى ما كان مما قصَّه على رسوله محمد ﷺ وممّا لم يكن عن الرسول قبل بعثته وقبل نزول هذا الوحي أو في علم منه، بل إنَّ رسول الله ﷺ عندما جاءه جبريل بالوحي ظنه شيطاناً وجاء أهله ترتعد فرائصه، وهو يقول زملوني وقال للسيدة خديجة رضي الله عنها: لقد خشيت على نفسي!!

وظنَّ أنَّ الذي أتاه في غار حراء شيطان من الذين ينزلون على الكهان والسحرة، فلو كان جبريل مخلوقاً من نور الرسول ﷺ كما زعمت المتصوِّفة لقال الرسول لجبريل عندما نزل إليه أهلاً بمن خلقه الله من نوري، ولم يكن شأن الرسول أمام جبريل كما كان حيث يأمره بأن يقرأ ما في يده من آيات ما أنا بقارئ، فيضمه جبريل عليه السلام حتى تكاد أنفاس الرسول تنقطع، ثم يرسله ويقول له مرةً ثانية اقرأ ويفعل ذلك ثلاث مرات، وما كان ذلك لإشعار الرسول ﷺ أنَّ ما يراه وما يسمعه ليس خيالاً ولا رؤيا مناميَّة وإنَّما هو حق.

أقول: لا شكَّ أنَّ مَنْ قرأ سيرة الرسول ﷺ وعلم شيئاً يسيراً من عقيدة الإسلام استحال عليه الإيمان بما آمن به الصوفيَّة في شأن الرسول ﷺ، ولكن هؤلاء لأنَّهم تركوا الكتاب والسنَّة وراءهم ظهرياً وتركوا العقول أيضاً وراءهم وألقوها واتَّبعوا ما كتبه شياطين الإنس من الفلاسفة ممّا توَّهموه بعقولهم في قولهم بالهباء والهيولي والعقل الأول والعلة، وواجب الوجود الذي لا يوصف بصفة ثبوتيَّة وإنمَّا يوصف بالصفة وضدها، كالوجود والعدم، والحياة والموت، والفوق والتحت، وغير ذلك من هذه الأوهام، والخرافات والمتناقضات.

أقول: عندما آمن فلاسفة التصوف بهذه الخرافات الإغريقيَّة وتركوا الإسلام والعقل فإنَّهم خرجوا على الناس بهذه الخرافات، وأدخلوا في الدين الإسلامي هذه الخزعبلات.

والعجيب أنَّهم استطاعوا بفنهم الشيطاني أن يجعلوا عقيدتهم هذه وما سموه (**بالحقيقة المُحمَّديَّة**) عقيدة العامَّة والدهماء من المسلمين الذين أحسنوا الظن برجال التصوف الذين لبسوا لهم مسوح الرهبان وأضمروا لهم عقائد

الشيطان، وخرجوا على الناس بجلود الضأن، وقد أخفوا عنهم قلوب الذئاب.

وقد تذرع المتصوفة لنشر عقيدتهم فيما سموه **(بالحقيقة المُحمَّديَّة)** أيضاً بحديث موضوع وهو: (كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث) وذكره الشوكاني في الأحاديث الموضوعة ص٣٢٦، وحديث آخر: (كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد) ذكرها الحاكم وقال الصنعاني هو موضوع وكذا قال ابن تيمية، وعلى فرض صحَّة هذا الحديث الأخير فإنَّه لا شاهد فيه على عقائد الصوفيَّة وإنَّما يعني أنَّ الرسول ﷺ قد قدر الله كونه نبيّاً عندما خلق آدم.

ولا شك أن الله قد قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة كما جاء في الحديث: **((إن أول شيء خلقه الله تعالى القلم وأمره أن يكتب كل شيء يكون))** [رواه أبو يعلى والبيهقي وصححه الألباني وأخرجه في الصحيحة برقم ١٣٣].

وبهذا يتضح لك أن ما ذكره الصوفيَّة في عقائدهم عن **(الحقيقة المُحمَّديَّة)** ما هو إلا هذيان وأقوال فلاسفة وكهان، وليس هو في شيء من دين الإسلام.

وصلى الله على عبده مُحمَّد إمام أهل الإيمان.

الباب الخامس

ليس رسول الله ﷺ هو حب الأكوان.!

لست أدري لماذا اختارت اللجنة التي أسست بزعم نشر محبة رسول الله ﷺ أن يكون شعارها **(أنت حُبُّ الأكوان)**، فإنَّ هذا الوصف لا يصح أن يوصف به رسول الله ﷺ، بل ولا الله سبحانه وتعالى، ولا أحد من أوليائه وعباده الصالحين، فإنَّ الأكوان وهي ما عدا الله سبحانه وتعالى منها مؤمن وكافر، وفيها أماكن رضوان الله سبحانه وتعالى، وأماكن سخطه وعقابه ولعنته.

فإبليس كونٌ من الأكوان وهو عدو لله ورسوله ملعون مطرود من رحمة الله، وكذلك كل جنوده وأوليائه من الجن والإنس، وهؤلاء جميعاً أعداء الله سبحانه وتعالى وأعداء أوليائه من الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فُصّلَت: الآية ١٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التّغابُن: الآية ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٣١].

والذين يعادون رسول الله ﷺ من أمَّته التي بُعِثَ فيها أضعاف أضعاف مَنْ يؤمنون به ويحبونه ويوالونه من المسلمين والمؤمنين، وقد قال رسول الله ﷺ: **((ما أنتم في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود))**. [متفق عليه].

وهذا أمر مشاهد قائم منذ دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام وإلى يومنا، قد كان الذين عادوه وحاربوه وسبوه أضعاف من آمن به وأحبَّه ونصره، وكل هؤلاء الكفار هم من الأكوان، والسماوات والأرض والجنَّة والنّار من الأكوان، فالجنَّة دار الرضوان، والنّار دار الأشقياء أعداء الله، وفيها كل ما

لعن الله من الإنس والجن، وألوان العذاب التي هي من لعنة الله فيها شجرة الزقوم وأدوات العذاب قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]، وكل هذه أكوان ليست محبوبة عند الله ولا عند أوليائه، ولا توصف بأنها تحب أولياءه؟

وفي الأرض قِطَعٌ ومواضع هي محل محبة الله ورضوانه ومواضع هي مواضع سخطه وعقابه، فأحب البقاع إلى الله مساجدها، وشر البقاع إلى الله أسواقها.

وقال رسول الله ﷺ عن جبل أُحد: ((**هذا جبل يحبنا ونحبه**))، وقال ﷺ عن ديار ثمود: ((**لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا باكين أو متباكين لا يصيبكم ما أصابهم**))، وكان إذا مر رسول الله ﷺ بوادي مُحَسِّر أسرع فيه مع أنه جزء من أرض المسجد الحرام، ولكنه مكان عقوبة فكان الواجب الفرار منه.

حب الأكوان والحقيقة المحمديَّة في الفكر الصوفي:

وهذا الشعار (**أنت حُبُّ الأكوان**) منقول من المعتقد الصوفي فيما سُمِّي (**بالحقيقة المحمديَّة**) وهو الزعم بأن الرسول ﷺ هو أوَّل موجود في الوجود، وأنَّ وجوده قد كان قبل خلق السماوات والأرض واللوح والقلم، والعرش والملائكة، وأنَّ من وجود الرسول ﷺ ومن نوره خلق الله جميع الأكوان بعد ذلك العرش والكرسي، والملائكة والسماوات والأرض والإنس والجن والجنَّة والنار... إلخ.

فالأكوان جميعاً وهي كل ما عدا الله موجودة من نور الرسول ﷺ، والرسول ﷺ سابق في الوجود على كل هذه الأكوان، والذي صاغ هذه العقيدة على هذا النحو هو ابن عربي الزنديق حيث يقول في فتوحاته المكية:

(بدء الخلق الهباء وأول موجود فيه الحقيقة المُحمَّديَّة الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني وهو العرش الإلهي) [الفتوحات ١/ ١٥٢] .

وقال الكاشاني شارح فصوص الحكم لابن عربي: **(إن محمداً أول التعينات التي عين بها الذات الأحمدية، قبل كل تعين... إلخ).**

وفي كتاب (تبرئة الذمَّة في نصح الأمة للبرهاني) قال: **(فضل النبي ﷺ وأسبقية نوره، وبيان أنَّ كل الديانات مستمدة منه)**، قال: (وحديث سيدنا جابر رضي الله عنه يثبت أسبقية نوره ﷺ، فقد روى عن عبد الرازق بسنده في كتابه (جنة الخلد) عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أوَّل شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء قال: **(يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنس ولا إنس، فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسَّم ذلك النور أربعة أجزاء**: فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الجزء الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسَّم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم، وهي المعرفة بالله، ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم نظر إليه فترشح النور عرقاً فتقطرت منه مائة ألف قطرة وعشرين ألفاً وأربعة آلاف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفسهم أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، **فالعرش والكرسي من نوري، والكروبيون من نوري، والرحمانيون من نوري، والجنَّة وما فيها من النعيم من نوري، والشمس والكواكب من نوري، والعقل والعلم والتوفيق من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، والسعداء والصالحون من نتائج نوري**، ثم خلق الله آدم من الأرض، وركَّب فيه النور وهو الجزء الرابع، ثم انتقل منه إلى شيث، وكان ينتقل من طاهر إلى طيب إلى أن وصل إلى صلب عبد الله بن عبد

المطلب، ومنه إلى وجه أمي آمنة، ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين وقائد الغر المحجلين، هكذا بدء خلق نبيك يا جابر).

ويضيف البرهاني قائلاً: (**ويظن البعض أنَّ سيدنا جبريل عليه السلام كان الواسطة بين الله تبارك وتعالى وبين سيدنا محمد ﷺ، ومن ظن هكذا فقد دلل على عدم معرفته، إذ لو صَحَّ أنَّ سيدنا جبريل عليه السلام كان الواسطة بين الله تعالى ورسوله سيدنا محمد ﷺ لتعين وجود خلل في كلمة التوحيد فبدلاً عن لا إله إلا الله محمد رسول الله تكون: لا إله إلا الله محمد رسولُ رسولِ الله**).

وحديث سيدنا جابر رضي الله تعالى عنه يوضح كل ذلك، ولا بد لنا أن نورد هنا ما دار بين النبي ﷺ وبين سيدنا جبريل عليه السلام، عندما كان سيدنا جابر رضي الله عنه يسأل النبي ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى، بالرغم من أننا قد سبق أن أوردنا في باب مراتب الغيب، وهو أن النبي ﷺ عندما رأى استغراب سيدنا جبريل عليه السلام عندما قال ﷺ لسيدنا جابر رضي الله تعالى عنه عن أول شيء خلقه الله تعالى (نور نبيك يا جابر) سأله قائلاً: يا جبريل كم عمرت من السنين؟ فقال جبريل عليه السلام: (يا رسول الله لست أعلم غير أنَّ في الحجاب الرابع نَجماً يطلع في كل سبعين ألف سنة مرة ورأيته سبعين ألف مرة) فقال ﷺ: (**وعزة ربي أنا ذلك الكوكب**) رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه بلفظ أنه ﷺ سأل جبريل عليه السلام قائلاً: (يا جبريل كم عمرت من السنين؟) إلخ الحديث.

ويستطرد البرهاني قائلاً: (ثم سأل الرسول ﷺ جبريل عليه السلام عن المكان الذي يأتي منه بالوحي فقال: (حيثما أكون في أقطار السماوات أسمع صلصلة جرس فأسرع إلى البيت المعمور فأتلقى الوحي فأحمله إلى الرسول أو النبي)، فقال له ﷺ: (اذهب إلى البيت المعمور الآن واتل نسبي) فذهب سيدنا جبريل عليه السلام مسرعاً إلى البيت المعمور وتلا نسب النبي ﷺ قائلاً: (محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب... إلخ) فانفتح البيت المعمور، ولم يسبق أن فُتح له قبل ذلك، فرأى جبريل عليه السلام النبي ﷺ بداخله

فتعجب، فعاد مسرعاً إلى الأرض فوجد الرسول ﷺ في مكانه كما تركه مع سيدنا جابر رضي الله تعالى عنه، فعاد بسرعة خارقة إلى البيت المعمور فوجده ﷺ هناك، ثم عاد مسرعاً إلى الأرض فوجده ﷺ ما زال جالساً مع سيدنا جابر رضي الله تعالى عنه فسأل جبريل عليه السلام سيدنا جابر رضي الله تعالى عنه ﷺ قائلاً: (هل ترك رسول الله ﷺ مجلسه هذا؟) فقال سيدنا جابر رضي الله تعالى عنه: (كلا يا أخا العرب فإننا لم ننته بعد من الحديث الذي تركتنا فيه)، فقال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: (**إذا كان الأمر منك وإليك فلماذا تعبي؟**) فرد عليه ﷺ قائلاً: (**للتشريع يا أخي جبريل**)، وتلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤]. انتهى منه بلفظه.

فهل هذه العقيدة في الرسول ﷺ التي أجمع عليها من ينتسب إلى التصوف في العصور المتأخرة هي التي عناها من وضع هذا الشعار (أنت حب الأكوان) أم أن لهم تفسيراً آخر لذلك؟

وإذا كان لهم تفسيراً آخر فما معنى نشر قصيدة تتضمن هذا المعتقد عنواناً ونصاً، فقد نشروا قصيدة لمن سموه (ابن الدريهم) بهذا العنوان: (ذات القوافي قصيدة في ثلاثين قافية يمدح فيها رسول الله مسمياً إياه ﷺ (**سيد الوجود**)، **فمن قال إن محمداً ﷺ هو سيد الوجود؟!**

إن رسول الله ﷺ هو سيد ولد آدم وليس سيداً للوجود، فإنَّ الوجود يشمل وجود الرب ووجود كل موجود من الملائكة والسماوات والأرض وليس رسول الله سيداً لكل موجود!!.

فما معنى تسمية الرسول ﷺ بسيد الوجود!! وأين جاء تسمية الرسول ﷺ بسيد الوجود في كتاب أو سُنَّة أو قول صاحب أو قول إمام يقتدى به!!

وسيد الوجود هو الله سبحانه وتعالى وحده، فهو السيد لكل ما سواه كما قال ﷺ (**إن الله هو السيد**) قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٢]، وأمَّا من عدا الله فإذا أطلق عليه لفظ السيد فهو

بحسبه، فالنبي ﷺ هو سيد ولد آدم يوم القيامة لأنَّ له الشفاعة العظمى ولأن آدم ومن دونه يستشفعون به إلى الله يوم القيامة لدخول الجنة كما قال ﷺ: ((**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**)) الحديث.

والحسن بن علي رضي الله عنهما سيد، كما قال ﷺ: ((**إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**)).

وقد كان الأمر كما وصف رسول الله ﷺ فإنَّ جميع المسلمين رجعوا إلى رأيه: معاوية بن أبي سفيان ومن معه، وكذلك من كان مع الحسن ورجع الجميع إلى الصلح الذي اقترحه فاجتمعت كلمة المسلمين به، فهو سيد في هذا الزمان ولهذا الفعل العظيم.

وفي البيت الثاني من قصيدة ابن الدريهم:

نبي له فضل على كل مرسل وآياته في الكون تتلى وتشرح

وفي بقية القوافي و (تنشأ، تنسخ، وتؤخذ، وتنشر، إلخ).

وهذا البيت ترجمة لتلك العقيدة أن الرسل جميعاً يأخذون علومهم من الرسول محمد ﷺ وأنَّه هو الذي أوحى إليهم.

والآيات لا تنسب إلى الرسول ﷺ بل تنسب إلى الله سواءً كانت الآيات المتلوة المنزلة من الله إلى رسوله، أو المعجزات الإلهية التي أجراها الله على يديه، أو آياته في الخلق، ولا يقال عن شيء من ذلك (آيات الرسول)!!.

وفي البيت الأول في قصيدة ابن الدريهم هذا يقول:

إذا لم أزر قبر النبي محمد وأسعى على رأسي فإني (أحمق)!!

وفي بقية القوافي: مشوش، منغص، مغفل، مذمم.. إلخ.

وشد الرحال إلى قبر رسول الله ﷺ ليس مشروعاً ولا هو قربة إلى الله كما قال ﷺ: ((**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى**)). وابن الدريهم هذا جاهل من الجُهّال وإذا جعل نفسه أحمق أو مغفل أو أرعن إذا لم يسع على رأسه إلى قبر رسول الله ﷺ

فإنَّه على كل أحواله في الصدق والكذب جاهل أحمق يتعبد بغير المشروع.

والسؤال لمن ادعوا محبة الرسول؟ ما قيمة نشر مثل هذا الشرك والجهالة في الناس!؟ باسم محبة الرسول ﷺ؟

وفي موقعهم على الإنترنت والذي سموه أيضاً باسم **(أنت حب الأكوان)** علقوا مجموعة من الأغاني والسماع الصوفي بالألحان المبتدعة وضرب الدفوف للرجال، وكل هذا من البدع المنكرة، والسماع الصوفي عندما بدأ في أمَّة الإسلام في أواخر القرن الثاني لم يبدأه إلا الزنادقة، يقول الإمام الشافعي رحمة الله عليه **(تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيئاً يسمونه السماع)**.!

وهذه الأغاني إلى جانب أنَّها بدعة منكرة فإنَّها لا تليق بالنبي ﷺ ولا بالرجال.

وللأسف أن تلك الأغاني والأناشيد قد اشتملت على تلك العقائد الفاسدة.

كنا نتمنى أن تنطق هذه الحملة في هذا الوقت العصيب للذب عن رسول الله ﷺ ونصره، ونصر دينه، ونشر نوره في العالمين، وذلك أن حملة الكفر العالميَّة الآن قد جعلت هدفها الأول هو الرسول ﷺ، ففي كل يوم يطلع علينا كبير من كبراء الكفر في الغرب والشرق ليعلن أن رسول الله محمد ﷺ هو أول إرهابي، وأن الإسلام الذي جاء به هو دين الشياطين.

وهذه هي الشبكة العنكبوتية "الإنترنت" فيها عشرات المواقع المتخصصة في سب رسول الله ﷺ ولعنه وشتمه، وقد جعلت منه أسوأ رجل شهده العالم، وحسب من أراد الإطلاع أن يفتح برنامج المحادثة (البالتوك) في المواقع العربية ليرى ما ينال رسول الله ﷺ من الشتم والسب واللعن على مدار الأربع والعشرين ساعة، وليرى عشرات الآلاف من الشبهات والشكوك والمطاعن في القرآن الكريم والرسول ﷺ وشريعة رب العالمين!!

وكنا وما زلنا نود أن تكون هذه اللجنة التي انطلقت بهذه (الفعاليات)

الواسعة وبهذه الإمكانيات من أهل الخير والإحسان أن يكون هدفها نصر رسول الله ﷺ ونشر محامده وشمائله في العالمين، والدعوة إلى نشر دينه.

ومن أجل ذلك نهيب بهم، تغيير هذا الشعار الكاذب **(أنت حب الأكوان)**، ونبذ هذه البدع، والتحذير من هذه العقيدة الضالة في أن رسول الله ﷺ هو أول موجود في الوجود، وأنَّه المستوي على عرش الله، وأنَّه الذي يمد كل الرسل والأنبياء - تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً -.

ولن يفيدكم وضع صورة الانفجار الكبير الذي يفسر به الملاحدة نشأة الكون ليكون ذلك رمزاً لهذه العقيدة الضالة، فإن أهل الإيمان يعتقدون أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه سبحانه كما أخبر عنه رسوله ﷺ: **((كان الله ولا شيء معه وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء))**.

وأما وضعكم في شعاركم الكاذب فتى وفتاة ينظران إلى السماء فلا يعني هذا إلا صرف الناس عن عبادة الله إلى عبادة غيره. وصلى الله على عبده ورسوله محمد الصادق.

* * *

خاتمة

وفي هذا الذي نقلناه بحمد الله كفاية لمعرفة هذه العقيدة الكافرة، والعلم بأعظم من قام بترويجها ونشرها، ولعل في ذلك تحذيراً للمؤمنين المسلمين أن يغترّوا بأقوال هؤلاء الزنادقة والمنافقين

* * *

المحتويات

١ - منهج جديد لدراسة التوحيد (الأسماء والصفات)

٢ - ملامح المنهج المعتدل وأثر وسطيته في حياة المسلمين

٣ - أثر الأحاديث الضعيفة والموضوعة في العقيدة

٤ - الحد الفاصل بين الإيمان والكفر

٥ - الولاء والبراء

٦ - شهادة الإنجيل

٧ - الرد على توني بولدروجوفاك وتشكيكاته حول القرآن الكريم والنبي العظيم

٨ - الإلحاد

٩ - حقيقة الاحتفال بالمولد النبوي

١٠ - الحقيقة الصوفية